مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد الثلاثون

الفقيهِ المُحقّق
الشيخ جعفر السبحاني مُدّظلُّه

دار جواد الأئمة

الفهرس

١٥ : ٢٨٩

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء الثلاثين
يشتمل على تفسير الجزء الثلاثين :تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية
تأليف الفقيه المحقّق جعفر السبحاني
نشر مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ) الحجر:١.
مقدّمة المؤلّف
الحمد لله الذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على نبيّه ورسوله الذي أرسله بالهدى ودين الحق، ثم الصلاة والسلام على آله وأوصيائه الذين أكمل بهم الدين وأتمّ النعمة، صلاة دائمة ما دامت السماوات ذات أبراج، والأرض ذات فجاج. أما بعد، فهذا هو تفسير الجزء الثلاثين من أجزاء القرآن الكريم نقدّمه للقرّاء الكرام، عسى أن يعينهم على تفهّم معانيه وأسراره، ومعرفة مفاهيمه وأحكامه، وإدراك مقاصده وغاياته . ولا يخفى أنّ المكتبة الإسلامية وإن كانت مكتظة بالتفاسير، إلاّ أن الذي دعانا للقيام بهذا العمل هو محاولة تقديم تفسير جامع ميسّر يكون مصدراً لما يحتاج إليه المدرّسون والمبلغون في دروسهم ومحاضراتهم في توضيح الآيات الكريمة، وتقريبها إلى أذهان الناشئة المؤمنة، وقد بذلنا جهدنا في تحقيق هذا الهدف راجين من الله سبحانه أن يصوننا من الخطأ والزلل، وأن يجعل عملنا هذا ذخراً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. والحمد لله ربّ العالمين جعفر السبحاني قم المقدّسة/ مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)
٧٨- سورة النبأ
(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَ بَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَ جَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبَاتاً * وَجَنَّات أَلْفَافاً * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَ فُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً * وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً * إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَ لاَ شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيماً وَ غَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً * وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَ كَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَ كَأْساً دِهَاقاً * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَ لاَ كِذَّاباً * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَاباً * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً).

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت هذه السورة في أكثر المصاحف بسورة «النبأ»، وربّما تُسمّى سورة «المعصرات»، وأُخرى بسورة «التساؤل» والسبب ورود لفظ يناسب هذه الأسماء في صدرها، أعني: النبأ في قوله: (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)، والمعصرات في قوله: (وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً)، والتساؤل في قوله: (يَتَسَاءَلُونَ)، وفي «مجمع البيان» سمّاها سورة «عمّ»، ولا مشاحة في التسمية؛ لأنّها غير توقيفية، فلكلّ إنسان أن يشير إلى السورة المعيّنة بلفظ خاصّ يناسبها، ويكون بين الاسم والمسمّى نوع تداع.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها في عدّ المكّيّ إحدى وأربعون آية، وفي عدّ غيرهم أربعون، والاختلاف في الآية الأخيرة وهي قوله تعالى: (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً)فهي آية في عدّ المكّيّ، ومتّصلة بما بعدها في عدّ غيرهم.

وهي مكّيّة بالاتّفاق، ويشهد على ذلك صياغتها ومضمونها، فإنّ السور المكّيّة امتازت بقرب الفواصل بين آياتها، وبالتركيز على الأُمور العقائدية كالتوحيد والمعاد والرسالة ونحو ذلك .

أغراض السورة

تبدأ السورة بذكر تساؤل وقع بين المشركين حول ما يدّعيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ويسأل بعضهم بعضاً، وليس في هذه الآيات ما يدلّ صريحاً على موضوع المحادثة، ويحتمل الأُمور التالية:

١. محادثتهم في توحيد العبادة حيث إنّهم يعبدون آلهة كثيرة أرضية وسماوية، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)يدعوهم إلى عبادة الإله الواحد الّذي هو خالق تلك الآلهة.

٢. محادثتهم في أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهل هو مرسل من ربّه أو كاهن أو ساحر ؟

٣. محادثتهم في القرآن الكريم، وهل هو كلام الله تعالى أو أنّه (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً). الفرقان: ٥.

٤. محادثتهم في إمكان البعث وحشر الناس بعد ما بليت عظامهم وتبدّلت إلى التراب وأثارتها الريح.

كلّ ذلك محتمل، ولكنّ الظاهر من آيات السورة أنّ الموضوع كان هو الاحتمال الأخير، وذلك لما سيأتي بأنّ الله سبحانه استدلّ على مواضع عظمته بأُمور تسعة، والقادر على هذه الأُمور يتمكّن بوضوح من إحياء الموتى ، وأمّا الأُمور الّتي ذكرها سبحانه فسيوافيك بيانها خلال التفسير.

الآيات ١ ـ ٥ الآيات: الخمسة الأُولى(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * .... كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) .

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) .

المفردات

عمّ: لفظ مركّب من كلمتين هما حرف الجرّ «عن» واسم الاستفهام: «ما» وفي الأصل: «عن ما»، فأُدغمت النون في الميم، لقرب مخرجهما، فصارت «عمّا»، وقد جرى استعمال العرب بحذف الألف في آخر «ما» إذا دخل عليها حرف الجر، فصار اللفظ «عمّ» بمعنى: أي شيء.

وهناك حروف ثمانية إذا دخلت على «ما»الاستفهامية يحذف ألف «ما» وهي:

١. عن، تقول: عمّ.

٢. من، تقول: ممّ.

٣. الباء، تقول: بمَ.

٤. اللام، تقول: لِمَ .

٥. في، تقول: فيمَ.

٦. إلى، تقول: إلامَ.

٧. على، تقول: علامَ.

٨ . حتّى تقول: حتّامَ.[1]

[1] مجمع البيان: ١٠ / ٢٦٩ .١ .

النبأ: الخبر العظيم الشأن، وربّما يفسّر بالخبر مطلقاً.

العظيم: تقول: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتّى يتضمن هذه الأوصاف الثلاثة.

التفسير

بُعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)برسالة اشتملت على أُصول وعقائد أحدثت هزّة في أذهان قريش ومشاعر أهلها، فجعلوا يتناقشون في أنديتهم بذكر ما جاء به النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)وعلى رأس هذه الأُمور مسألة البعث والنشور، حيث إنّ سماعهم هذا الأمر يجعلهم يرتجفون خوفاً من عرض أعمالهم وقبائحهم، وتمتلأ أنفسهم فَرَقاً من انكشاف حقيقة أعمالهم .

١. (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) :

والله سبحانه يحكي في هذه الآيات تساؤلهم عن النبأ العظيم، أي: عن أي شيء عظيم الشأن يتساءلون، ويسأل بعضهم بعضاً، ويتناقشون فيه؟

والاستفهام في (عَمَّ) ليس حقيقياً، بل جيء به لأجل إيجاد الرغبة في تلقّي الخبر، مثل قوله تعالى: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ) الشعراء: ٢٢١ ..

و «يتساءلون» من باب المفعالة، حاك عن سؤال بعضهم بعضاً، وأنّه كان هناك نقاش وحوار.

٢. (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ):

لم يُفصح هنا عن المراد من النبأ العظيم المسؤول عنه، وكيفية الاختلاف فيه، ولكن بملاحظة الآيات التالية نجد أنّ الاختلاف كان في إمكان البعث وعودتهم إلى الحياة من جديد .

٣. (الذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ):

الآية تحكي عن اختلافهم في وصف النبأ العظيم، وليس في الآية شيء يدلّ على كيفية اختلافهم.

٤. (كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ):

ردع وإبطال لما سبق، أي ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون.

٥. (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) :

تأكيد في الإبطال، وزجر مع الوعيد، فصار مضمون الآيات أنّ المشركين كانوا يتساءلون عن نبأ عظيم، وكان الحوار بينهم قائماً على قدم وساق .

ثم إنّه سبحانه أبطل مقالتهم بأنّهم سوف يعلمون واقع الموضوع الّذي يختلفون فيه، وأمّا ما هو الموضوع فيظهر ـ كما مرّ الإيعاز به

ـ من الآيات التالية أنّه هو إمكان البعث والحياة الأُخروية، بدليل أنّه سبحانه عرَض من مظاهر قدرته وبدائع آياته أُموراً تسعة لكي يلفت نظر المشركين ويثير انتباههم إلى أنّ مَن يقدر على هذه الأُمور العظيمة، لا تعجز قدرته عن إحياء الموتى وحشر الخلائق.

نعم ففي خطبة لأمير المؤمنين وهي خطبته المعروفة بـ «الوسيلة»، قال (عليه السلام): «إنّي النبأ العظيم» . الكافي: ٨ / ٣٠، خطبة الوسيلة.

وفي «عيون أخبار عن الرضا (عليه السلام)» عن أبيه، عن آبائه، عن الحسين بن علي(عليهم السلام)قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام علي (عليه السلام): «أنت حجة الله، وأنت باب الله، وأنت الطريق إلى الله، وأنت النبأ العظيم، وأنت الصراط المستقيم، وأنت المثل الأعلى»(عيون أخبار الرضا: ١ / ٩، الحديث ١٣).

أقول: إنّ ولاية علي (عليه السلام)الّتي هي استمرار لولاية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)من الأنباء العظيمة الّتي لها الدور العظيم في حياة المسلمين وفي جمع كلمتهم ولمّ شعثهم، فالروايتان وما في نظائرهما من باب تطبيق الكلّي على مصداق خاص، كما يدلّ عليه تطبيق الصراط المستقيم على صراط عليّ(عليه السلام) وطريقه، إذ لا شكّ أنّ المراد من قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الفاتحة: ٦ . هو الطريق إلى الله، وطريق علي من مظاهر طريقه سبحانه .

وعلى كلّ تقدير فإليك صورة إجمالية عن هذه الأُمور التسعة الّتي سيأتي تفصيلها عند تفسير الآيات:

١. بسط الأرض وجعلها صالحة لمعيشة وسير الناس والحيوانات عليها.
٢. جعل الجبال أوتاداً تثبّت الأرض .
٣. تنوع الآدميين إلى ذكور وإناث.
٤. جعل النوم راحة للإنسان من عناء الأعمال الّتي يزاولها في النهار.
٥. جعل الليل ساتراً .
٦. جعل النهار وقتاً لإدارة شؤون الحياة والمعاش.
٧. بناء سبع سماوات شديدة فوق رؤوس البشر مع إحكام الوضع ودقة الصنع.
٨. وجود الشمس المنيرة المتوهّجة.
٩. نزول المطر وما ينبت بسببه من النبات.

٦ ـ ١٦ الآيات: السادسة إلى السادسة عشرة(أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * ... لِنُخْرِجَ بِهِ حَبَّاً وَ نَبَاتاً * وَجَنَّات أَلْفَافاً).

المفردات

مهاداً: المهد: ما يهيّأ للصبي، قال تعالى: (كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) مريم: ٢٩ .، والمهد والمهاد: المكان الممهّد الموطّأ.

أوتاداً: الوتد: ما يُدق في الأرض، ويكون أسفله أدقّ من أعلاه، لتشدّ به أطناب الخيمة، وكون الخيمة ذات أوتاد كثيرة دليل على اتّساع دائرتها.

سباتاً: السبت في اللغة القطع، ومنه سبتَ السير أي قطعه، وبما أنّ النوم يقطع العمل المستمرّ في النهار، وصف سبحانه النوم بـ «سباتاً»، أي قاطعاً، وبالتالي يكون راحةً، وقد نقل عن ابن قتيبة أنّه قال: السبات: الراحة، وقال الرازي: وليس غرضه منه أنّ السبات اسم للراحة، بل المقصود أنّ النوم يقطع التعب ويزيله وحينئذ تحصل الراحة. تفسير الرازي: ٣١ / ٧ .

شداداً: الشدّ هو العَقد القوي، وربّما يكون كناية عن البناء الرصين.

وهّاجاً: يقال: وهجت النار إذا اضطرمت اضطراماً شديداً، والمراد متلألئاً وقّاداً.

المُعصرات: السُّحب الممطرة، من أعصرت السحابة إذا أمطرت .

ثجّاجاً: أي صبّاباً دفّاعاً في انصبابه .

الحَبّ: الزرع الّذي يُحصد.

ألفافاً: بساتين ملتفة بالشجر.

التفسير

ذكر سبحانه في هذه الآيات أُموراً تسعة تدلّ على مظاهر قدرته التامّة، وهي:

٦ ـ أ . (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً):

والاستفهام تقريري والمقصود اعتراف المخاطب بالمثبت لا بالمنفي، والمعنى: جعلنا الأرض مهاداً، ولذلك عطف سائر الآيات التالية بقضية مثبتة، كما ستلاحظ.

وقد مرّ أن المهاد هو الأرض الموطّأة، ويكون المعنى: جعلنا الأرض فراشاً وقراراً لكي تستقرّون عليها وتتصرّفون فيها، ويدلّ على هذا المعنى سائر الآيات الّتي تصف الأرض، تارة بالفراش، قال سبحانه: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَ السَّمَاءَ بِنَاءً) البقرة: ٢٢ .

وأُخرى بجعل السُّبل فيها: (الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً)(طه: ٥٣ .).

فإنّ جعل السبل فيها قرينة على أنّ المراد من المهد أنّها موطّأة وذات سبل .

وثالثة بالقرار وجعل الأنهار : (جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَ جَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً) النمل: ٦١ ..

وهذه الصفات الثلاث تدلّ على أنّ المراد من كون الأرض مهاداً أي موطّأة مُذلَّلة، قابلة للحياة والتصرّف فيها.

وأمّا ما قيل من أن وصف الأرض بالمهد كناية عن حركتها الهادئة، فالظاهر أنّه غير مراد.

٧ ـ ب . (وَ الْجِبَالَ أَوْتَاداً):

أي أوتاداً للأرض كي لا تميد بأهلها، فيكمل كون الأرض مهاداً، والدليل على ذلك قوله تعالى: (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلاً) النحل: ١٥، ولاحظ : الأنبياء: ٣١ و لقمان: ١٠..

قال الإمام علي (عليه السلام): «وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ» نهج البلاغة: الخطبة: ١ . .

وكأنّ الأرض كالخيمة، فكما أنّ الأوتاد تثبّت الخيمة، وتزيد في قوة تحمّلها للرياح الشديدة، فهكذا الجبال، فلولاها لاضطربت الأرض، إنّما الكلام في تبيين ذلك في المشبّه. ولعلّ المراد أنّ في جوف الأرض من المواد الدائمة الذوبان والجيشان وهي تحاول أن تخرج بضغط كبير ـ أي ضغط الخروج ـ إلى خارج سطح الأرض، ولولا الجبال لهدّمت قِشْراً عظيماً من الأرض.

والجبال، أيضاً تحمي اليابسة من الانقلاب الذي يمكن أن ينتج عن هياج الأمواج في المياه التي تتجاوز مساحتها٧٠٪ من مساحة الأرض، أو أي تقلّبات كونية أُخرى.(الموسوعة العربية العالمية:٨/٢٠٢.)

٨ ـ ج . (وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً):

أي جعلناكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً ليتمّ حفظ النسل والاستئناس، قال سبحانه: (وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً) الروم: ٢١ . .

٩ ـ د. (وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً):

أي وجعلنا نومكم في الليل قاطعاً للمتاعب الّتي تمارسونها في النهار، فبالنوم فيه يحصل قطع المتاعب وبالتالي تحصل الراحة.

والنوم ـ كما هو معروف ـ يعيد الطاقة للجسم، وخصوصاً للدماغ والجهاز العصبي. والشخص الذي يُحرم من نعمة النوم، يفقد طاقته ويصبح سريع الانفعال. وبعد مضيّ يومين بدون نوم، يجد المرء أنّ التركيز فترة طويلة يصبح أمراً صعباً. وأمّا الشخص الذي

يستمر بلا نوم فترة تزيد على ثلاثة أيام، فإنّه يجد صعوبة كبيرة في التفكير، والرؤية، والسماع بوضوح. وقد يعاني من فترات(هَلْوسة) يشاهد أثناءها أشياء لا وجود لها في الواقع، ويخلط أيضاً بين أحلام اليقظة والحياة الحقيقية.(انظر: الموسوعة العربية العالمية:٢٥/٥٩٠.)

١٠ ـ هـ . (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً):

فهو بظلامه يستر كلّ الأجسام ويغطّيها، ويخفي ما لم يظهره النهار ويستر ما يكشفه.

وبما أنّ الآية في مقام بيان النعمة فوجه النعمة أنّ ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد الهرب من عدوه، أو إخفاءً لما لا يحب أن يطّلع عليه غيره.

وقد نُقل عن المانوية أنّهم كانوا يعتقدون أنّ الخير من النهار والشرّ من الليل، فجاء المتنبي يكذّب تلك الفكرة ويقول:

وكم لظلام الليل عندك من يد *** تخبّرك أنّ المانوية تكذبُ

إلى غير ذلك من منافع من كون الليل لباساً ساتراً.

١١ ـ و . (وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً):

أي: جعلنا النهار ضماناً لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم، إذ لولا النهار لما أمكن التقلّب في الحوائج والمكاسب.

١٢ ـ ز. (وَ بَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً):

والشدّ هو العقد القوي، وهنا كناية عن رصانة البناء، والمراد: سبع سماوات شديدة في بنائها محكمة النسج والوضع، لا يتطرّق إليها تصدّع ولا فطور.

ونظير هذه الآية، قوله تعالى:(الّذي خَلَقَ سَبعَ سَموات طِباقاً) الملك:٣. وقوله:(وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوقَكُمْ سَبْعَ طَرائق)(المؤمنون:١٧.)، وقوله:(اللّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَموات وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ)(الطلاق:١٢.)، وقد اختلفت الأقوال حول المراد من ذلك،

وأفضل تلك الأقوال ـ في رأينا ـ هو أنّنا يجب أن نؤمن ـ على سبيل الإجمال ـ بوجود سبع سماوات، وندع التفصيل لعلم الله تعالى التفسير الكاشف:٧/٣٥٨. ومع ذلك يأتي منا بيان حول السماوات السبع في تفسير الآية ١٢ من سورة الطلاق فلاحظ.، إذ لا يزال العلم في مجال الكشف عن أسرار الكون ـ مع تقدّمه ـ كطفل يحبو على شاطئ بحر زخّار.

١٣ ـ ح . (وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً) :

أي: شديد النور وهي الشمس، وكان اللازم أن يقول: فخلقنا سراجاً وهاجاً، وإنّما قال: (جَعَلْنَا)، لأنّ كونه وهاجاً حالة من حالاته وراء ذاته.

١٤ ـ ط . (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً):

أي: أنزلنا من السحب ماء صبّاباً شديداً، وكأنّ السُّحب كالفواكه الّتي تُعصر ويُصَبّ ماؤها. ثم إنّه سبحانه بيّن منافع نزول الماء من المعصرات بالآيات التالية:

١٥ و ١٦ ـ ي و ك. (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَبَاتاً * وَ جَنَّات أَلْفَافاً):

أي: لنخرج به حبوباً يقتات بها الناس كالحنطة والشعير وحدائق ذات أغصان ملتفّة، وقد جمع سبحانه في هذه الآية جميع ما تُنبته الأرض، لأنّ جميع ما يخرج منها إمّا أن يكون ذا ساق أو لا، والأول هو الشجر والآخر هو الحبوب، يقول سبحانه: (فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّات وَ حَبَّ الْحَصِيدِ) ق:٩..

ثم إنّ هذه الأُمور الّتي هي من مظاهر قدرته تنقسم إلى ما يرجع إلى السماء؛ كجعل الليل ساتراً، والنهار معاشاً، والسبع بناء شداداً،

والسراجَ وهاجاً، والمعصرات ثجاجاً.

وإلى ما يرجع إلى الأرض؛ كجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلق الإنسان ذا زوج.

إلى هنا عرفنا شيئاً من مظاهر قدرته سبحانه، بقي الكلام في ما هي الغاية من عرض هذه الأُمور، فهذا هو الّذي يُعلَم من الآيات التالية.

١٧ ـ ٢٠ الآيات: السابعة عشرة إلى العشرين(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً).

المفردات

الفصل: هو إبانة أحد الشيئين عن الآخر حتّى تكون بينهما فرجة، كإبانة التبن عن الحبّة.

ميقاتاً: قال الراغب: الميقات: الوقت المضروب للشيء والوعد الذي جُعل له وقت، وربما يطلق الميقات للمكان الذي يجعل وقتاً للشيء كميقات الحج. والميعاد ناظر إلى المكان.

الصُّور: يشبه بقرن ينفخ فيه، فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لعود الأرواح إلى أجسامها. وأمّا ما حقيقة هذا الصور في يوم القيامة فهو من الأُمور الغيبية.

سراباً: السراب: اللامع في المفازة كالماء، فيستعمل فيما لا حقيقة له، قال تعالى: (كَسَرَاب بِقِيعَة يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً) النور: ٣٩ ..

التفسير

١٧. (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً):

يقع الكلام في وجه الصلة بين ما مرّ من ذكر عظائم النعمة في الحياة الدنيوية من النور والظلمة والحرارة والماء والتراب والنباتات وبين قوله: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً).

فيمكن بيان وجه الصلة بأمرين:

الأوّل: أنّ ما ذكره من عظائم الخلق، كالبرهنة على إمكان المعاد، فالله القادر على خلق هذا النظام السائد، قادر على هدمه وإيجاد نظام آخر.

الثاني: أنّ الغرض من هذا النظام ليس مجرد الأكل والشرب واليقظة والنوم، بل هو مقدّمة لنشأة أُخرى فلا وجه لاختلافهم في إمكانها.

إذا تبيّن ذلك يكون معنى قوله سبحانه: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً)أي اليوم الذي يفصل فيه بين الحق والباطل، أو يفصل فيه الناس حسب سرائرهم، وأعمالهم، هو ميقات لاجتماع الناس، قال تعالى: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) الدخان: ٤٠ . ، وقال سبحانه: (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَ الأَوَّلِينَ)(المرسلات: ٣٨ .)، وهذا اليوم العصيب هو اليوم المحدّد لاجتماع الناس فيه، وهم وإن عاشوا في أزمنة مختلفة ولكن الجميع سيجتمع فيه، وهذا نظير جماعة يتّفقون على الحضور في مكّة المكرّمة في مِنى، فيصلونها بوسائط مختلفة ولكنّهم يتواجدون في زمان واحد.

ولفظ الميقات يؤكّد على معنى الوقت بقرينة قوله: (يَوْمَ الْفَصْلِ) وما يأتي بعده، أعني قوله: (يَوْمَ يُنْفَخُ) .

١٨. (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً):

(يَوْمَ يُنْفَخُ)عطف بيان على (يَوْمَ الْفَصْلِ)والآيات صريحة في وجود نفختين قبل القيامة، النفخة الأُولى يُصعَق بها من في السماوات والأرض، والنفخة الثانية إحياؤهم، والنفخة المذكورة في هذه السورة هي الثانية، بشهادة قوله تعالى: (وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) الزمر: ٦٨ ..

فإذا نفخ في الصور جاء الناس إلى المحشر أفواجاً، وأمّا ما هو الملاك لضمّ كلّ فرد في فوج، فالظاهر من الروايات هو سرائرهم وأعمالهم، وقيل: تأتي كلّ أُمّة مع نبيّها، فلذلك يأتون أفواجاً، أي زُمَراً، إثر زُمَر.

نعم يقع هنا كلام وهو أنّه سبحانه يخبر عن حشر الناس أفواجاً، وفي آية أُخرى يخبر عن حشر الناس فُرادى، قال تعالى:(وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً) مريم: ٩٥ . ، ولكن لا منافاة بينهما إذ للإنسان يوم القيامة مواقف مختلفة، فيُحشَر في موقف فرداً، ويحشر في موقف جمعاً، ويستفاد من بعض الآيات أنّ لكلّ فوج إماماً يَقدُمهم ويعيّن مصيرهم، قال سبحانه:(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ)(الإسراء: ٧١ .).

وقال تعالى في حقّ فرعون: (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)(هود: ٩٨ .).

١٩. (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً):

الظاهر أنّ معنى فتح السماء: شقُّها وانفطارها، وهو مظهر من مظاهر الانقلاب الكوني وانهيار النظام السائد، عند قيام الساعة، ويؤيّد هذا المعنى ما ورد في مواضع عديدة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى:(وَ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذ وَاهِيَةٌ) الحاقة:١٦. ، وقوله تعالى:(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)(الانشقاق:١.)، وسيأتي مزيد توضيح عند تفسير سورة الانشقاق.

٢٠. (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً) :

والتسيير وهو جعل الشيء سائراً أي ماشياً .

وقد مرّ أنّ السراب هو الموهوم من الماء، وبالرجوع إلى سائر الآيات التي وصفت مشهد الجبال عند وقوع أهوال يوم القيامة، مثل قوله تعالى:(يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَ الْجِبَالُ وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً)(المزمل:١٤.)، وقوله تعالى:(وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا* فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) الواقعة:٥ ـ ٦.، يتّضح أنّ هذه الجبال الشاهقة تصير بدكّها وتفرّق أجزائها وزوال شكلها كأن لم تكن جبلاً أو جبالاً. وسيأتي مزيد بيان عند تفسير سورة التكوير.

٢١ ـ ٣٠ الآيات: الحادية والعشرون إلى الثلاثين(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً *.... فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً).

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَ لاَ شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيًما وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَ كُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً).

المفردات

مرصاداً: المكان الّذي يُرصد ويُراقب فيه العدو.

مآباً: المآب: المرجع، يقال: آب إلى مكانه أي رجع.

أحقاباً: الأحقاب جمع واحدها حقب أي زماناً طويلاً.

قال الراغب: هو جمع الحُقُب أي الدهر وقيل الحُقبة: ثمانون عاماً وجمعها حِقَب، والصحيح أنّ الحقبة مدة من الزمان مبهمة، وتدلّ عليه الآية التالية: قال سبحانه حاكياً عن موسى (عليه السلام)، قال: (لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً) الكهف: ٦٠ . .

وجه الدلالة: أنّ موسى لم يكن عالماً بزمان درك المطلوب، فلذلك استخدم كلمة الحقب أي الزمان المبهم، فإذاً لا وجه لتفسيره بالثمانين عاماً.

حميماً: الحميم، وهو الماء الحارّ الشديد الحرارة.

غسّاقاً: صديد أهل النار، وهو القيح، قال تعالى: (وَ يُسْقَى مِنْ مَاء صَدِيد)(إبراهيم: ١٦ .).

وفاقاً: الوَفْق: المطابقة بين الشيئين .

كِذّاباً: مصدر كذّب، وإنّما جاء على (فعّال) للمبالغة .

أحصيناه: الإحصاء هو التحصيل بالعدد، قال تعالى: (وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْء عَدَداً)(الجن: ٢٨)، وربما يراد به هنا الحفظ، قال تعالى: (وَ كُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَام مُبِين)(يس: ١٢).

التفسير

ما بقي من آيات السورة إلى آخرها على مقاطع ثلاثة :

الأوّل: ما يصف مصير الطاغين وتعذيبهم ولبثهم في جهنم أحقاباً. ويتمّ هذا المقطع في الآية الثلاثين.

الثاني: ما يصف مصير المتّقين وجزاءهم وعطاء الله لهم، ويتم هذا المقطع في الآية السادسة والثلاثين.

الثالث: ما يرجع إلى بيان أهوال القيامة، وقيام الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلاّ باذن الله تعالى.

وإليك تفسير آيات المقطع الأوّل.

يصف سبحانه مصير الطاغين بالآيات التالية ويقول:

١. (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً).

٢. (لِلطَّاغِينَ مَآباً).

٣. (لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً).

٤. (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَ لاَ شَرَاباً).

وبذلك يتّضح مصير الطغاة الذين كانوا ينكرون البعث والمعاد، فلنرجع إلى تفسير الآيات.

٢١. (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً) :

المرصاد هو المكان الّذي يُختفى فيه للمراقبة، وحسب تعبير الراغب: المكان الّذي اختصّ بالرصد، وكأنّ جهنم بمجموعها مرصاد ـ من باب المبالغة ـ والذين يراقبون هم ملائكة الله تعالى، فعندما يعبر أحد الطاغين من جانب جهنم أو من فوقها ـ الّذي يعبَّر عنه بالصراط ـ والّذي يدل عليه قوله سبحانه: (وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا) مريم: ٧١ ، يخرج من بالمرصاد ويأخذ الطاغي ويزجّ به في جهنم.

وإن شئت قلت: إنّ ظاهر الآية أنّ جهنم هي المرصاد فهي تميّز الطغاة عن الطائعين، فتأخذهم إليها.

٢٢. (لِلطَّاغِينَ مَآباً) :

المآب: هو محلّ الرجوع، والمعنى المنزل والمقرّ، وقد وصف سبحانه جهنم بالمآب، لنكتة خاصّة، وهي أن القبائح والجرائم الّتي اقترفها الطغاة لها صورة دنيوية وصورة أُخروية فهم كانوا في جهنم وإن لم يشعروا بها، فإذا ماتوا وحُشروا وأُخذوا بالمرصاد، وزجّوا في جهنم، فقد آبوا إلى مآبهم ومقرّهم الأوّل.

٢٣. (لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً) :

قد مرّ أن الأحقاب هو الزمان الطويل، فلو قلنا بظهورها بزمن طويل محدّد، فالآية تختص ببعض المذنبين من أهل جهنم ممّن لهم نجاة يوم القيامة، فيعاقبون فيها فإذا تطهروا يخرجون منها.

وفي بعض الروايات ما يؤيد ذلك:

روى العيّاشي باسناده عن حُمران قال: سألت أبا جعفر[الباقر] (عليه السلام)عن هذه الآية، فقال: هذه في الذين يخرجون من النار تفسير العياشي: ٢ / ١٦٠ برقم ٦٨ ؛ تفسير نور الثقلين: ٥ / ٤٩٥، برقم ٢٦ . .

وأمّا لو قلنا بأن الحقبة هي مدّة من الزمان مبهمة، فعندئذ يصلح أن ينطبق على الخلود، ويكون كناية عن الدوام فيها والتأبيد، ويشهد على ذلك التعبير بالجمع، فكأنّه يقول: لابثين في جهنم حقباً بعد حقب بلا تحديد ولا نهاية، ويؤيد ذلك رواية حمران بن أعين قال: سألت أبا عبدالله[الصادق] (عليه السلام)عن قول الله: (لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً...) قال: «هذه في الذين لا يخرجون من النار»

نور الثقلين: ٥ / ٤٩٤ برقم ٢٣ ..

أمّا الجمع بين الروايتين، فإنْ قلنا بسقوط لفظة «لا» عن الرواية الأُولى، فالآية ناظرة إلى الكفّار الخالدين في النار، لقوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)(البيّنة:٦.) وإن قلنا بزيادة «لا» في الرواية الثانية، فالآية محمولة على فسّاق المسلمين.

٢٤. (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً) :

والبرد ضد الحرّ وهو تنفيس لمن أصابه الحرّ، ويكون المراد منه النسيم البارد، والهواء المعتدل، بقرينة قوله: (وَلاَ شَرَاباً) أي ما يُشرب لإزالة العطش .

٢٥. (إِلاَّ حَمِيمًا وَ غَسَّاقاً):

ثم إنّه سبحانه استثنى من الشراب، أمرين:

١. الحميم: وهو الماء الشديد الحرارة.

٢. الغسّاق: وهو صديد أهل جهنم .

٢٦. (جَزَاءً وِفَاقاً):

وكأنّ هناك مَن يسأل: لماذا يعذّب الطغاة هذه الأحقاب الطويلة؟ فوافاهم الجواب: أنّ ذلك (جَزَاءاً وِفَاقاً). أي جزاهم جزاءً موافقاً لعملهم في السوء والشناعة، مجانساً له.

وربما يُعلّل أنّهم ارتكبوا الذنب الأعظم وهو الشرك، فيُجزَون بعذاب أعظم وهو النار.

ويمكن أن يقال: إنّ ما يُجزَون به ليس إلاّ نفس أعمالهم الإجرامية الّتي ظهرت بوجود أُخروي، فخلودهم في النار أحقاباً ليس إلاّ صورة أُخروية لإنكارهم وأعمالهم وظلمهم وركوبهم رقاب الناس.

وبعبارة أُخرى: لو كانت العقوبة أمراً جعلياً كالعقوبات الدنيوية، كان للسائل أن يسأل عن وجه الوفاق، ويظن أنّ العقوبة أعظم ممّا يستحقّه على الذنب. وأمّا لو قلنا بأنّ عامّة العقوبات أو أكثرها أُمور أوجدها الطغاة بأنفسهم في الحياة الدنيوية وقد عادت بنفسها إلى القيامة وظهرت بثوبها الأُخروي، فلا موضوع للسؤال، وربما يدلّ على ذلك (كون الجزاء يوم القيامة نفس العمل الدنيوي المجسّم بوجود أُخروي) قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) التحريم: ٧ ..

وبعدما أعلن القرآن عن طبيعة جزائهم، يكشف عن سبب نيلهم ذلك الجزاء، واستحقاقهم ذلك العذاب المهول، فيذكر أمرين:

٢٧ ـ أ. (إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً):

أي: أنّهم كانوا يقترفون المعاصي ويرتكبون جرائم الأعمال دون أن يفكّروا أنّ يوماً باسم يوم الحساب ينتظرهم، ولم يكونوا يتوقعونه.

ومن المعلوم أنّ الاعتقاد بيوم الجزاء له تأثير في ردع النفس عن الوقوع في المعاصي، كما أنّ إنكاره له تأثير في إغراء النفس لأن تقع في هواها ومشتهياتها.

٢٨ ـ ب . (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً):

ويحتمل أن يراد بالآيات ما دلّ من الدلائل الفطرية والعقلية على التوحيد، والمعاد، ونبوة الأنبياء، كما أنّه يحتمل أن يكون المراد بها الآيات القرآنية.

وحصيلة الكلام: أنّهم اقترفوا المنكرات من دون أن يفكّروا في الحساب، وأنكروا بقلوبهم دلائل الحق، ولذلك جوزوا بأعمالهم .

٢٩. (وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً):

هو تتميم لما مرّ من الآيتين من أنّهم ما كانوا يرجون يوم الحساب وكذبوا بالآيات مع أنّا أحصينا كلّ ما صدر منهم من الجرائم والمعاصي في كتاب خاص، والظاهر أنّ المراد من الإحصاء هو الاحتفاظ.

وإنّما قال: (كِتَاباً) ولم يقل إحصاءً؛ لأنّ الإحصاء بالكتابة أقوى الإحصاء، وقد ورد عنهم(عليهم السلام)قولهم: «القلب يتكّل بالكتابة».

وأمّا ما هو المراد من هذا الكتاب؟ وهل هو صحيفة أعمالهم أو غيرها؟ فالظاهر هو الأوّل .

٣٠. (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً):

وفي هذه الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب، حيث كانت الآيات المتقدّمة ناظرة إلى الطغاة بصيغة الغيبة، ولكنّه هنا خصّهم بالخطاب وقال: (فَذُوقُوا) و (فَلَنْ نَزِيدَكُمْ)، ولعلّ المراد من زيادة العذاب استمراره؛ قال الطبرسي: لأنّ كلّ عذاب يأتي بعد الوقت الأوّل فهو زائد عليه. مجمع البيان: ١٠ / ٤٧٦ .

والآية لا تخلو من ظهور في الخلود، وتكون قرينة على أنّ المراد من قوله: (لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً)هو الخلود، وقد روي عن عبدالله بن عمرو أنّه قال: لم ينزل على أهل النار آية أشدّ من هذه الآية . تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٩٥

ولعلّ وجهه أنّ فيه تأييساً لهم من الخروج من النار.

إلى هنا تمت آيات المقطع الأوّل الّتي تضمنت بيان حال الطغاة يوم القيامة، وحان الآن بيان حال المتّقين يومذاك، وقد ذكره سبحانه في ضمن ست آيات.

٣١ ـ ٣٦ الآيات: الحادية والثلاثون إلى السادسة والثلاثين(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً .... جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً) .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَ أَعْنَاباً * وَ كَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَ كَأْساً دِهَاقاً * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَ لاَ كِذَّاباً * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً) .

المفردات

مفازاً: محلّ الفوز والظفر، والمفاز مصدر ميمي بمعنى الفوز، أو اسم مكان من الفوز.

حدائق: الحديقة الجنّة المحوّطة، والجمع حدائق، ومنه: أحدق القوم بفلان إذا أحاطوا به.

كواعب: جمع كاعب وهي الجارية الّتي نهد ثدياها.

أتراباً: الأتراب جمع تِربْ، وهي المماثلة لغيرها.

دهاقاً: ملأى مُفعَمة، يقال: أدهقتُ الكأس فدهق.

لغواً: لغو الكلام.

التفسير

هذا هو المقطع الثاني المتضمّن لما يفوز به المتّقون من الجنات والنعيم، فيذكر أنّ ما يفوزون به عطاء من الله.

٣١. (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً):

المراد من المتّقين من يقي نفسه من المحارم، فالتقوى أمر وجودي وليس أمراً عدمياً، فكلّ إنسان يقي نفسه من ارتكاب المعاصي

والمحرّمات فقد اتّقى، فكأنّ التقوى جُنّة في مقابل المحرّمات، فلهؤلاء فوز يوم القيامة ـ أعني: الثواب العظيم في جنات النعيم ـ ثم بيّن واقع الفوز أو مكانه (بناءً على أنّ المفاز مصدر ميمي)، وقال:

٣٢. (حَدَائِقَ وَ أَعْنَاباً):

أي بساتين من مختلف الأشجار والأعناب، وخصّ الأعناب بالذكر لأنّها ممّا تشتهيه النفوس.

ثم وصف ما في هذه الحدائق من الجواري وقال:

٣٣. (وَ كَوَاعِبَ أَتْرَاباً):

أي حوراً تكعّبت ثُديهنّ واستدارت مع ارتفاع يسير .

وقوله: (أَتْرَاباً) أي متساويات في السنّ والحُسن، فلا تكون النفس إلى إحداهن أميل منها إلى الأُخرى.

٣٤. (وَكَأْساً دِهَاقاً):

فكما يتمتّعون بأنواع النعم، يشربون كأساً مترعة بخمر الجنّة.

نعم ثمّة فرق بين خمر الدنيا وخمر الجنة ، فالأُولى تفسد العقل وتوجد البغضاء، وأمّا خمر الآخرة ففيها لذة الخمر، ولكنّها خالية من أذاها وسوءاتها، لذا يصفها سبحانه بقوله: (بَيْضَاءَ لَذَّة لِلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَ لاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ) الصافات: ٤٦ ـ ٤٧ ..

«لا» فيها (غَوْلٌ): أي أنّها لا تغتال عقولهم فتذهب بها، ولا يصيبهم منها صداع ولا أذى في الرأس (وَ لاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ): أي يسكرون.

وأمّا ما هي حقيقة هذه الخمر فهي مجهولة لنا، ولا نقف عليها إلاّ بعد كشف حجب الغيب يوم القيامة، والوفود على الجنة إن شاء الله تعالى.

٣٥. (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَ لاَ كِذَّاباً):

أي كناية عن أنّهم حين يشربون لا يصدر منهم كلام لغو ولا يكذّب بعضهم بعضاً، خلافاً لخمر الدنيا فشاربها يتكلّم باللغو والهذيان وبما يكذّب بعضهم بعضاً.

وما ذلك إلاّ لأنّ الجنة منزل الأصفياء والأتقياء من الناس، وهؤلاء يستحيل عليهم الاشتغال بالكلام الفارغ، أو بالجدل الذي يصاحبه التكذيب، والذي يكدّر عليهم صفو هنائهم وسعادتهم، لأنّ من في الجنة يرى الحقائق على ما هي عليها، ومن ثمّ لا وجه لتكذيب أحدهم الآخر.

٣٦. (جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً) :

هذا هو في مقابل ما ورد في حق الطغاة، حيث قال في حقّهم: (جَزَاءً وِفَاقاً)، وقال في المقام: إنّه سبحانه يجازيهم بفضله وإحسانه: (عَطَاءً حِسَاباً)أي بحسب أعمالهم، فكلّ إنسان يُجزى على قدر عمله، من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ثم سائر أخيار المؤمنين. التبيان في تفسير القرآن:١٠/٢٤٨.

وقوله (عَطَاءً)يدلّ على أنّ الثواب من باب التفضّل لا الاستحقاق .

هذا هو المقطع الثاني وبقي المقطع الثالث، وهو ما تتناوله الآيات التالية.

٣٧ ـ ٤٠ الآيات: الأربعة الأخيرة من السورة (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا... يَا لَيْتَني كُنْتُ تُرَاباً).
المفردات
خطاباً: الخطاب: الكلام الموجّه لحاضر.

صفّاً: الصف أن تجعل الشيء على خط مستو، ويحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الصافّين.

التفسير

٣٧. (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً) :

بعد أن مرَّ في الآية السابقة قوله تعالى: (رَبِّكَ) وفيه تخصيص الربّ بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، عاد في هذه الآية إلى بيان أنّ (رَبِّكَ) هو رب عالم الوجود الإمكاني وهو خالقهم وصاحبهم وليس في عالم الوجود إلاّ ربٌّ واحد، ثم وصفه بوصفين:

١. (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا)، فهو ربّ كلّ ما في الكون .

٢. (الرَّحْمَنِ): عمّت رحمته كلّ شيء؛ المؤمن والكافر.

هذا على قراءة (رب) و(الرَّحْمَنِ) بالكسر، وأمّا على قراءة الرفع، فقوله: (رَبِّ السَّمَاوَاتِ)خبر لمبتدأ محذوف أي: هو (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ)ويكون (الرَّحْمَنِ) خبراً بعد خبر.

وفي وصف الربّ بالرحمن إشارة إلى سعة رحمته، وأنّ الطاغين إنّما حُرموا من رحمته لأنّهم خرجوا عن ثوب العبودية، فهم (لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)، أي لا يملكون خطاباً يخاطبوه به فيما فعل أو يفعل في حقّ المتّقين والطاغين، ولا خطاباً يطلبون به شيئاً من شفاعة وغفران أو مزيداً أو نقصاناً.

وقد دلّت غير واحدة من الآيات على أنّ الشفاعة لا تتحقّق إلاّ بإذنه، قال سبحانه: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) البقرة: ٢٥٥ . ، وقال سبحانه: (يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)(هود: ١٠٥ .).

٣٨. (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَاباً):

أي إنّه يوم يقوم الناس من أجداثهم، ويقوم الأشهاد لشهادتهم، ويقوم الروح والملائكة صفّاً، ففي هذا الموقف الرهيب لا يتكلّم أفضل الخلائق أو أكثرهم طاعة وهم الروح والملائكة، فما ظنك بمن عداهم من أهل السماوات والأرض؟!

ولعلّ المراد من قوله: (وَ قَالَ صَوَاباً) أي يتكلّم بما يُرضي الله، وإسناد الإذن إلى الرحمن لأجل أنّ المقام إشارة إلى رحمته لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار .

ويؤيد ذلك قوله سبحانه: (وَ لاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) الأنبياء: ٢٨ . أي لمن علموا ارتضاء قبول الشفاعة فيه.

روى معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله (عليه السلام)أنّه سئل عن هذه الآية، فقال: «نحن والله المأذون لهم يوم القيامة، والقائلون».

قال: جُعلت فداك: ما تقولون؟ قال: «نمجّد ربنا ونصلّي على نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم)ونشفع لشيعتنا فلا يردّنا ربُّنا»(مجمع البيان: ١٠ / ٢٨٠ .).

واختلفت الأقوال في الروح، والأقوى أحد القولين:

١. أنّ الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، وهو زعيمهم وآمرهم وناهيهم، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفّاً وقامت الملائكة كلهم صفّاً واحداً.

٢. أنّ المراد به هو جبرئيل الأمين، قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤ . ، وقال تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ)(النحل: ١٠٢ .)، وقال تعالى: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)(مريم: ١٧ .).

والّذي يؤيد الاحتمال الأوّل هو أنّ الروح إذا أُطلق وأُريد به جبرئيل قُيّد بقيود كالأمين والقُدس، أو بالإضافة إلى ضمير المتكلّم، ولكن الروح جاء في هذه الآية مجرّداً عن كلّ قيد، فهو غير جبرئيل، والله العالم.

٣٩. (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً):

قوله: (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ)إشارة إلى يوم القيامة، وكونه حقّاً بمعنى أنّه أمر لا طريق للرّيب فيه، ويحتمل أن يكون المراد هو اليوم الذي يتجسّد فيه الحق ويتميّز عن الباطل، ويُعطى كلّ ذي حقّ حقّه. فإذا كان كذلك وعلم مصير الجنة والنار فليستعدّ من يستعدّ إلى ربه، كما قال: (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً)أي: فليختر من شاء مَقرّاً مناسباً للقاء ربّه، فالطريق واضح والمقصد معلوم، فانتخاب أحد المقصدين بيد العبد نفسه.

٤٠. (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً):

أي ما يرجع إلينا هو توضيح الطريق وقطع العذر، وأنّه سوف يحيق بكم العذاب القريب، ووصفه بالقرب؛ لأنّه بعيد في أنظارنا وقريب عند الله، قال سبحانه: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَ نَرَاهُ قَرِيباً) المعارج: ٦ ـ ٧.، وقد شاع: أنّ كلّ آت قريب.

قوله تعالى: (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ): أي يرى ما قدّمته يداه، من الجرائم والمعاصي، صورتها أو حقائقها، وكأنّه إشارة إلى قوله: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْر مُحْضَراً وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوء) آل عمران: ٣٠.، والمراد بالمرء هنا مطلق الإنسان.

فعندئذ، فالإنسان المتّقي الّذي سلك مسلك الطاعة يُسرّ بما قدّمت يداه من خير، أمّا حال الكافر فهو ما يتضح من قوله تعالى: (وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً) أي أكون موجوداً فاقداً للشعور والإرادة، أو أكون تراباً ولم أرجع إلى الله تعالى وأُحشر في هذا اليوم، يوم القيامة.

تمّ تفسير سورة النبأ

٧٩-سورة النازعات

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَ الأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى * أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَ الأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «النازعات» بحذف الواو ، وبما أنّ لفظ (النازعات) لم يذكر في القرآن إلاّ في هذه السورة، فكأنّه صار عَلَماً لها.

وربّما سمّيت سورة «والنازعات» حكاية عمّا ورد في أوّل السورة.

وربّما سمّيت بـ «الساهرة» أو «الطامة» لوقوع هذين اللفظين في آياتها.

وبما أنّ التسمية ليست توقيفية، فلا مانع من تسميتها بما يناسب مضمونها.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آيات السورة خمس وأربعون عند الجمهور، وست وأربعون في عدّ الكوفي، وهي مكيّة يشهد على ذلك مضمونها وصياغتها، وقرب الفواصل بين آياتها.

أغراض السورة

تُعنى السورة بموضوع المبدأ والمعاد والدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، وتشكّل هذه السورة وما يأتي بعدها من سُوَر: التكوير والانفطار والانشقاق، سبيكةً واحدة، حيث تركّز على البعث، ودحْض ما يثار حوله من شبهات الفكر الباطل، ثم تنتقل السورة إلى بيان طرف من قصة النبي موسى (عليه السلام)مع الطاغية فرعون، والتي انتهت بهزيمته وهلاكه بسبب تعاليه .

ثم تنتقل السورة إلى بيان النعم الّتي أنعم الله بها على الإنسان، وهو بين عارف بالله ومطيع لأمره، فمآواه الجنة، وبين عاص فمآواه الجحيم، فالمجموع من حيث المجموع يدعو الإنسان إلى الإيمان بالآخرة وأنّ الحياة الدنيوية كالمقدّمة للحياة الأُخروية.

١ـ ٥ الآيات: الخمس الأُولى(وَ النَّازِعَاتِ غَرْقاً * و.... فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً).

المفردات

النازعات: نزع الشيء: جذب الشيء من مقرّه بشدّة.

غرقاً: الغرق اسم أُقيم مقام المصدر أي (الإغراق)، وهو المبالغة، يقال في المثل: «أغرق في النَّزْع» إذا استوفى في مدّ القوس وبالغ فيه.

الناشطات: تارة تفسّر بالنزع، ويقال: ومنه حديث أُمّ سلمة، فجاء عمّار وكان أخاها من الرضاعة، ونشط زينب من حجرها أي نزعها. وربما تطلق ويراد بها النشاط وهو الخفّة والحركة في العمل .

والسابحات: السبْح: المَرّ السريع في الماء، يقال: سبح سبحاً وسباحة، وربّما يستعار لمَرّ النجوم، نحو قوله: (وَ كُلٌّ فِي فَلَك يَسْبَحُونَ) يس: ٤٠ .. والجامع بينهما هو الحركة السريعة.

السابقات: السَّبْق: التقدّم في السير، والاستباق: التسابق، قال سبحانه: (إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) يوسف: ١٧ ..

المدبّرات: من التدبير، أي المدبّرات للأُمور.

التفسير

أقسم سبحانه وتعالى في هذه الآيات بأُمور خمسة، عطف الثاني والثالث على الأوّل بواو العطف، وعطف الرابع على الخامس، بفائه.

ويقع الكلام هنا في موضعين:

الأوّل: تبيين الموصوف بهذه الصفات، وقد اختلفت كلمات المفسّرين في تعيين موصوفات هذه الأوصاف.

الثاني: ما هو السبب لعطف الثاني والثالث بالواو، والرابع والخامس بالفاء؟

أمّا الأوّل: فربما ترك تبيين الموصوف ليذهب ذهن السامع إلى أي مذهب، ومع ذلك يلزم أن يكون تعيين الموصوف بدلالة قرآنية أو رواية معتبرة، ولا يصحّ تبيينه باحتمال محض، فنقول:

ذكر المفسّرون وجوهاً أفضلها القول بأنّ الموصوفين هم الملائكة، وإليك البيان:

١. (وَ النَّازِعَاتِ غَرْقاً):

وهم الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفّار من أبدانهم بشدة وقوّة، بقرينة قوله: (غَرْقاً)، وقد قلنا بأنّه بمعنى المبالغة في الشدّة.

٢. (وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطاً):

وهم الملائكة الموكَّلون بنزع أرواح المؤمنين برفق وسهولة وخفّة في الحركة.

٣. (وَ السَّابِحَاتِ سَبْحاً):

وهم الملائكة النازلين من السماء بسرعة، وقد مرّ أنّ السبح: الإسراع في الحركة، كما يقال للفرس: سابح إذا أسرع في جريه .

٤. (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً):

وهم الملائكة تتسابق في تنفيذ الأوامر الإلهية، ويمكن أن يكون متعلّق السبق أمراً آخر أيضاً.

٥. (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً):

أي الملائكة المدبّرة للأُمور، فكأنّ أمر التدبير منقسم بين الملائكة لكلّ منهم وظيفة خاصّة، فجبريل يدبِّر أمر الرياح والجنود والوحي، وميكائيل يدبّر أمر القطر والنبات، وعزرائيل موكَّل بقبض الأرواح، وإسرافيل يتنزّل بالأمر وهو صاحب الصور.

وربما يثار سؤال في تفسير هذه العناوين بالملائكة بأنّهم ليسوا مؤنّثين، (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى) النجم: ٢٧ . .

ثم قال: إنّ الملائكة ليسوا إناثاً ولا ذكوراً ولا يؤتى بضمير التأنيث إلاّ للأُنثى، ويؤتى بضمير التذكير لغيرها ذكراً، أم لا ذكراً ولا أُنثى ، ولم يأت القرآن للملائكة بضمير التأنيث بتاتاً.(تفسير الفرقان: ٣٠ / ٦٦ .)

يلاحظ عليه: أنّ المشركين يصفون الملائكة بالأُنوثة الواقعية وأنّهم بنات الله، قال سبحانه: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثاً) الإسراء: ٤٠ .، وأمّا إطلاق التأنيث على الملائكة فهو تأنيث لفظي لا واقعي، ويشهد على ذلك وجود التاء في آخر الملائكة .

إلى هنا تبيَّن مَن هو الموصوف بهذه الصفات، وأنّه هم الملائكة، ومن ذلك يعلم أنّ ما قيل: إنّ المتعاطفات بالواو صفات مستقلة لموصوفات مختلفة نوعاً أو صنفاً، صحيح، إذ من المحتمل أن يكون الملك النازع غير الملك الناشط وكلاهما غير السابح.

ثم إنّه يقع الكلام في الأمر الثاني، أعني: ما هو السبب لعطف الثاني والثالث بواو العطف، والرابع والخامس بفائه؟

ويمكن أن يقال: إنّه لا ترتّب بين العمليات الثلاث، أعني: قبض روح الكافر بشدّة، وقبض روح المؤمن برفق، والنزول من السماء بسرعة، بخلاف الأمرين السابقين، فإنّ السبق ـ المفهومة من قوله: (فَالسَّابِقَاتِ) ـ يترتّب على الحركة السريعة المفهومة من (السَّابِحَاتِ)، كما أنّ التدبير المفهوم من قوله (فَالْمُدَبِّرَاتِ)فرع الحركة السريعة.

وحاصل الكلام: أنّهم إذا نزلوا إلى أمر التدبير فيسرعون (السابحات) ثم يسبقون (السابقات) ثم يقومون بأمر التدبير (فالمدبّرات) .

وأمّا ما هو المراد من الإسراع ثم السبق ثم التدبير فهي من الأُمور الغيبية.

ثم إنّ الدليل الواضح على هذا التفسير وبُعد الوجوه الأُخرى أنّ الإقسام بهذه الأُمور الخمسة الّتي فُسّرت بالملائكة نظير ما في سورة الصافات والمرسلات، أمّا الصافات ففيها: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً) الصافات:١ـ٣ . .

وأمّا سورة المرسلات فجاء فيها: (وَ الْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَ النَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً)(المرسلات: ١ـ ٥ .).

فقد أُريد من الجميع الملائكة بصفاتهم المختلفة.

وبذلك يعلم أنّ سائر الوجوه في التفسير غير ناهضة، ومن أراد استقصاءها فليرجع إلى ماذكره الرازي في تفسيره . تفسير الرازي:٣١/٢٩ ـ٣١. وتجنّباً للإطالة أعرضنا عن ذكر هذه الوجوه. وسيوافيك أحد الأقوال عند ذكر نظرية الشيخ محمد عبده، فانتظر .

ولذلك لمّا ذكر الرازي هذه الوجوه عقب ذلك بقوله:

واعلم أنّ الوجوه المنقولة عن المفسّرين غير منقولة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)نصّاً، حتّى لا يمكن الزيادة عليها، بل إنّما ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها.(تفسير الرازي:٣١/٣٢.)

ويظهر ممّا نقله صاحب تفسير نور الثقلين أنّ المعنى الأوّل برمّته نقل عن علي (عليه السلام)لأنّه يذكر في كلّ آية قوله: ورّوي ذلك عن علي (عليه السلام).(تفسير نور الثقلين:٥/٤٩٧.)

نقل السيوطي: أنّه أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي (عليه السلام)في قوله: (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً)قال: هي الملائكة تنزع أرواح الكفّار. (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)هي الملائكة تنشط أرواح الكفّار ما بين الأظفار والجلد حتّى تخرجها. (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً)هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض. (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً) قال: هي الملائكة تدبّر أمر العباد من السنة إلى السنة . الدر المنثور: ٨ / ٤٠٣، ومجمع البيان: ١٠ / ٢٨٤ (وفيه: النشط: الجذب، يقال: نشطت الدلو نشطاً: نزعته).

ومنه يظهر النظر فيما ذكره الشيخ محمد جواد مغنية (رحمه الله) فإنّه بعد ما نقل عن الشيخ محمد عبده، بأنّ المراد: الكواكب، قال : ونحن لا نجزم بقوله ولا بقول من قال: إنّ النازعات هي الملائكة أو غيرها وغير الكواكب، ونحن لا نجزم بشيء من هذه الأقوال لأنّها لا تستند إلى دليل، والراسخون في العلم يعترفون بالجهل والعجز عن معرفة الغيب، ولا يقولون ما لا يعلمون . التفسير الكاشف: ٧ / ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

يلاحظ عليه: أنّك قد عرفت أنّ ما جاء في سورة الصافات والمرسلات يفسّر هذه الأقسام الخمسة، والقرآن يفسّر بعضه بعضاً.

وقد مرّ نقله أيضاً عن علي (عليه السلام)، مضافاً إلى أنّه أي فائدة للإقسام بأُمور خمسة لا تُعلم مصاديقها وموصوفاتها؟ وما ورد من أنّ الراسخين في العلم يعترفون بالجهل ناظر إلى التعمّق في واقع الموصوفات وهوياتها، لا التعرّف عليها بالأسماء والصفات كالملائكة.

بقي الكلام في أُمور:

الأوّل: ما هو جواب الإقسام بهذه الأُمور الخمسة؟ والظاهر أنّ الجواب محذوف، تقديره: «لتبعثنّ»، وقد قام مقامه قوله: (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) .

الثاني: ما هي الصلة بين المقسم به والمقسم عليه؟

إنّ الملائكة القائمين بهذه الأُمور العظيمة لابدّ أن تكون لأعمالهم غاية، إذ لا يمكن أن تكون أعمالهم عبثاً وبلا هدف، وقد أُشير في الآيات إلى عملية النزع والنشط والسبح والسبق وتدبير الأُمور، فالغاية من القيام بهذه الأُمور العظيمة من نزع الأرواح وغيره، كأنّه مقدّمة لبعث الإنسان يوم القيامة، وإلاّ كانت أعمالهم بلا غاية.

الثالث: الإيمان بالغيب أساس الدين

إنّ الإيمان بالغيب مقابل الشهادة أساس الدين، وإلاّ فالإيمان بالشهود أمر مشترك بين المؤمن والكافر، فالسماء والأرض والشمس والأقمار، بل المجرّات كلّها شهود لا يشكّ فيها ذو مسكة، والإيمان بها أمر لا يختلف فيه اثنان إلاّ إذا كان أحدهما مريضاً كالسوفسطائيين.

والّذي يميّز المؤمن عن الكافر ويُعدّ أساس الدين هو الإيمان بالغيب، أعني: الإيمان بالله وصفاته وملائكته والحياة الدنيوية والأُخروية وما فيها من مقامات، ولذلك صار الإيمان بما ذكرنا هو المصداق الواضح للإيمان بالغيب الّذي يصفه سبحانه بأنّه سمة المتقين: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) البقرة: ٣ ..

وعلى هذا فتفسير هذه الأقسام الخمسة بالملائكة على الوجه الّذي عرفت، أمر سهل على المؤمن، لكنّ شيخ الأزهر محمد

عبده (رحمه الله) لمّا رأى أن المسلمين واجهوا هجوماً عنيفاً من الغرب على الإيمان بالغيبيات كالملائكة والجن وغيرها، قام لأجل تهدئة الوضع وإقناع الشباب، بتفسير أكثر ما يعود إلى الغيب في القرآن الكريم بالأُمور الطبيعية المادّية، وما هذا إلاّ لإسكات المخالفين وإفحامهم، وإلاّ فشيخ الأزهر أعلى وأنبل من أن يكون ممّن لا يؤمن بالغيب، ولذلك نرى أنّه يفسّر الآيات الخمس بالنحو التالي:

يقول: والمراد بالنازعات الكواكب لأنّها ترمي بالشهب، يقال: نزع عن القوس أي رمى عنها، وأيضاً يقال: أغرق في الرمي إذا بالغ فيه (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً)تقول العرب: نشط فلان نشطاً من المكان إذا خرج من بلد إلى بلد، وعليه يكون المعنى أنّ الكواكب تتقلّب من برج إلى برج (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً): أي أنّ الكواكب تتحرّك في الفضاء (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً)تتمّم دورتها بسرعة حول ما تدور عليه، ومعلوم أنّ سرعة كلّ شيء بحسبه من حيث الضخامة وعدمها (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا): أي أنّ الكواكب يظهر أثرها إلى الخارج بما ينفع الناس كمعرفة الأوقات والأقطار، واختلاف الفصول، وما إلى ذلك من أسباب الحياة . لاحظ : التفسير الكاشف: ٧ / ٥٠٦، نقلاً عن تفسير الشيخ محمد عبده، جزء عمّ.

الرابع: جواز الحلف بغير الله

تضافر الحلف بغير الله سبحانه في الكتاب العزيز والسنّة النبوية، أمّا الكتاب، فقد مرّ في هذه السورة الإقسام بأُمور خمسة، وسيوافيك في السور التالية الإقسام بغيرها أيضاً .

وأمّا السنّة فقد حلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)في غير مورد بغير اسم الله .

١. فقد أخرج مسلم في صحيحه: أنّه جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: «أما ـ و أبيك ـ لتُنبَّأنّه، أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء». صحيح مسلم: ٤٦٨، كتاب الزكاة، باب بيان أنّ أفضل الصدقة...، رقم ٢٢٧٢ / ١٠٣٢، تحقيق صدقي جميل العطار.

٢. أخرج مسلم أيضاً: جاء رجل إلى رسول الله ـ من أهل نجد ـ يسأل عن الإسلام؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «خمس صلوات في اليوم والليل».

فقال: هل عليَّ غيرهنّ؟

قال: «لا...إلاّ أن تطوّع، وصيام شهر رمضان».

فقال: هلّ عليَّ غيره؟

قال: «لا... إلاّ أن تطوّع»، وذكر له رسول الله الزكاة.

فقال الرجل: هل عليّ غيرها؟

قال: «لا... إلاّ أن تطوّع».

فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أفلح ، وأبيه ، إن صدق».

أو قال: «دخل الجنة ، وأبيه ، إن صدق». صحيح مسلم: ٣٤ ، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، رقم ١٠ / ١١ .

وقد حلف غير واحد من الصحابة بغيره سبحانه، فهذا أبو بكر بن أبي قحافة على ما يرويه مالك في موطّئه: أنّ رجلاً من أهل اليمن أقطع اليد والرجل، قدم فنزل على أبي بكر فشكا إليه أنّ عامل اليمن قد ظلمه، فكان يصلّي من الليل، فيقول أبو بكر: «وأبيك ما ليلك بليل سارق». شرح الزرقاني على موطأ مالك: ١٥٩/٤ برقم ٥٨٠.

وهذا علي بن أبي طالب (عليه السلام) قد حلف بغيره سبحانه في غير واحدة من خطبه:

١. «وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ، وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَان وَلاَإِيهَان». نهج البلاغة: الخطبة ٢٣.

٢. «ولَعَمْري ما تقادمتْ بكُم ولا بهم العهُود». نهج البلاغة: الخطبة ٨٥.

إلى غير ذلك من الأقسام الواردة في كلامه (عليه السلام) وسائر أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

نعم ثمّة أحاديث استدلّ بها على المنع عن الحلف بغير الله، غير أنّها ترمي إلى معنى آخر كما سيوافيك.

الحديث الأوّل

إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)سمع عمر، وهو يقول:وأبي، فقال: «إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت». سنن ابن ماجة: ١/٢٧٧؛ سنن الترمذي: ٤/١٠٩.والجواب: أنّ النهي عن الحلف بالآباء قد ورد لأنّهم كانوا ـ في الغالب ـ مشركين وعبدة للأوثان، فلم تكن لهم حرمة ولا كرامة حتى يحلف أحد بهم، ولأجل ذلك نرى أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جعل آباءَهم قرناء مع الطواغيت مرّة، وبالأنداد ـ أي الأصنام ـ ثانية، وقال: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت». سنن النسائي: ٧/٧؛ سنن ابن ماجة: ١/٢٧٨.

وقال أيضاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأُمّهاتكم ولا بالأنداد». سنن النسائي:٧/٩.

وهذان الحديثان يؤكّدان على أنّ المنهيّ عنه هو الحلف بالآباء الكافرين الذين كانوا يعبدون الأنداد والطواغيت، فأين هو من حلف المسلم بالكعبة والقرآن والأنبياء والأولياء في غير القضاء والخصومات؟

الحديث الثاني

جاء ابنَ عمر رجلٌ فقال: أحلف بالكعبة؟ قال له: لا، ولكن احلف بربِّ الكعبة، فإنّ عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله له: «لا تحلف بأبيك، فإنّ من حلف بغير الله فقد أشرك». سنن النسائي: ٧/٨ .

إنّ الحديث يتألّف من أمرين:

أ: قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «من حلف بغير الله فقد أشرك».

ب: اجتهاد عبد الله بن عمر، حيث عدّ الحلف بالكعبة من مصاديق حديث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) .

أمّا الحديث فنحن نذعن بصحّته، والقدر المتيقّن من كلامه ما إذا كان المحلوف به شيئاً يعدّ الحلف به شركاً كالحلف بالأنداد والطواغيت والآباء الكافرين. فهذا هو الذي قصده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ولا يعمّ الحلف بالمقدّسات كالقرآن وغيره.

وأمّا اجتهاد ابن عمر حيث عدّ الحلف بالكعبة من مصاديق الحديث، فهو اجتهاد منه وحجّة عليه دون غيره.

وأمّا أنّ الرسول عدّ حلف عمر بأبيه من أقسام الشرك فلأجل أنّ أباه كان مشركاً، وقد قلنا:إنّ الرواية ناظرة إلى هذا النوع من الحلف.

ومجمل القول: إنّ الكتاب العزيز هو الأُسوة للمسلمين عبر القرون، فإذا ورد فيه الحلف من الله سبحانه بغير ذاته سبحانه من الجماد والنبات والإنسان، فهذا يكشف عن أنّ الحلف بغير الله أمر سائغ لا يمتّ إلى الشرك بصلة، وتصوّر جوازه لله سبحانه دون غيره أمر غير معقول، فإنّه لو كانت حقيقة الحلف بغير الله شركاً فالخالق والمخلوق أمامه سواء.

نعم الحلف بغير الله لا يصحّ في القضاء وفضّ الخصومات، بل لابدّ من الحلف بالله جلّ جلاله أو بإحدى صفاته التي هي رمز ذاته، وقد ثبت هذا بالدليل ولا علاقة له بالبحث.

وأمّا المذاهب الفقهية فغير مجمعين على أمر واحد.

أمّا الحنفية، فقالوا: بأنّ الحلف بالأب والحياة، كقول الرجل: وأبيك، أو: وحياتك وما شابه، مكروه.

وأمّا الشافعية، فقالوا: بأنّ الحلف بغير الله ـ لو لم يكن باعتقاد الشرك ـ فهو مكروه.

وأمّا المالكية، فقالوا: إنّ في القسم بالعظماء والمقدّسات ـ كالنبي و الكعبة ـ فيه قولان: الحرمة والكراهة، والمشهور بينهم: الحرمة.

وأمّا الحنابلة، فقالوا: بأنّ الحلف بغير الله وبصفاته سبحانه حرام، حتى لو كان حلفاً بالنبي أو بأحد أولياء الله تعالى.

هذه فتاوى أئمّة المذاهب الأربعة انظر: الفقه على المذاهب الأربعة:٢/٧٥، كتاب اليمين، مبحث الحلف بغير الله تعالى.. ولسنا الآن بصدد مناقشتهم.

وكان الحريّ بفقهاء المذاهب الأربعة ولا سيّما في العصر الراهن فتح باب الاجتهاد والرجوع إلى المسألة والنظر إليها بمنظار جديد إذ كم ترك السلف للخلف.

على أنّ نسبة الحرمة إلى الحنابلة غير ثابتة أيضاً، لأنّ ابن قدامة يصرّح في كتاب «المغني» ـ الذي كتبه على غرار فقه الحنابلة ـ : أنّ أحمد بن حنبل أفتى بجواز الحلف بالنبي، وأنّه ينعقد لأنّه أحد ركني الشهادة.

وقال أحمد: لو حلف بالنبي انعقد يمينه، فإن حنث لزمته الكفّارة. المغني: ١١/٢٠٩.

ثم لمّا وقف بعض الوهابيين على هذه الأقسام الكثيرة في القرآن الكريم، عادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه فيقولون المراد: الإقسام بربّ هذه الموجودات. مثلاً فإذا قال سبحانه: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ): أي يقسم بربّ التين وربّ الزيتون!!

يلاحظ عليه: أن معنى ذلك إرجاع الأقسام المختلفة الّتي تناهز الأربعين قسماً إلى قسم واحد وهو الربّ، مع أنّه سبحانه تارة يقسم بنفسه ويقول: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ) مريم: ٦٨ ، وأُخرى يقسم بالموجودات العلوية والسفلية، فلو كان الهدف القسم بالربّ فما فائدة هذا النوع من الأقسام، حيث يضيف نفسه إلى واحد من مخلوقاته، فإنّ العظمة لله لا للمضاف إليه، ولو كانت له عظمة فإنّما هي مقتبسة من الربّ، بخلاف ما لو أقسم بهذه الأشياء فإنّ لها في حدّ نفسها عظمة أودعها الله فيها وقداسة اكتسبتها منه عزّ وجلّ.

الخامس: التدبير من الله أو من الملائكة؟

إنّ الذكر الحكيم يصف الله سبحانه بأنّه المدبِّر للكون فله الخلق والتدبير، كما قال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَ الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ) يونس: ٣ . .

وقال سبحانه: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)(يونس: ٣١).

وقال سبحانه: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) الرعد: ٢ ..

وقال سبحانه: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ) السجدة: ٥ ..

ومع ذلك فإنّه عرّف الملائكة بصفة التدبير وقال: (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)وقد مرّ أنّ المراد بالنازعات والناشطات هي الملائكة، فالجمع بين الطائفتين واضح جداً لمن له إلمام بموقف القرآن في أمر التدبير، فكونه سبحانه مدبّراً لأنّه مبدأ الوجود ومنشأ الخلق، فالملائكة وقدراتهم كلّها مخلوقة لله تبارك وتعالى قائمة بوجوده، وأمّا كون الملائكة مدبِّرات للأمر فبأمره سبحانه فهي وسائط في التدبير، فهؤلاء يدبّرون الأُمور بإرادته ومشيئته، ويظهر ذلك بدراسة الآيات الّتي تنسب الفعل الواحد إلى الله سبحانه، وفي الوقت نفسه تنسبه إلى غيره سبحانه.

قال سبحانه: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ التي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الأُخْرى إِلَى أَجَل

مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ) الزمر: ٤٢..

وفي الوقت نفسه يقول سبحانه: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) النحل: ٢٨ ..

ويقول أيضاً: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ) النحل: ٣٢..

وكم لهذا النحو من النسبتين المختلفتين، نظائر في القرآن الكريم، فالملائكة كما هم وسائط في عالم التكوين، كذلك هم وسائط في عالم التشريع، فالوحي ينزل بواسطتهم على الأنبياء، يقول سبحانه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤ ..

وحصيلة الكلام: إنّ الله سبحانه يجري سننه ومشيئته بأيديهم فيقبض الأرواح بواسطتهم، وينزل الوحي بتوسيطهم، وليس لواحد منهم في عمله أي استقلال واستبداد، وفي الحقيقة، كلّهم جنوده سبحانه، قال تعالى: (لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ). الأنبياء:٢٧ .

٦ ـ ١٤ الآيات: السادسة إلى الرابعة عشرة(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ..... فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ).

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ).

المفردات

الراجفة: الرجفة: الزلزلة العظيمة، والراجفة الأرض الّتي ترجف، يقال: بحر رجّاف.

الرادفة: كلّ شيء تبع شيئاً فقد ردفه.

الواجفة: الوجيف: شدّة الاضطراب، يقال: قلب واجف، أي: مضطرب.

الخاشعة: الخشوع: الخضوع والتذلّل، وإذا وصفت به الأبصار فيراد به الخفض في النظر.

الحافرة: يقال: رجع فلان في حافرته: أي في طريقه الّتي جاء فيها فحفرها، أي أثّر فيها بمشيه فيها.

نخرة: أي عظاماً بالية.

كرّة: أي الرجعة بعد الذهاب.

الخسران: يقابل الربح.

الساهرة: قال الراغب: قيل: وجه الأرض، وقيل: هي أرض القيامة. المفردات للراغب: ٢٤٥، مادة «سهر».

التفسير

إنّ جواب الأقسام الخمسة شيء مقدّر نظير «لتبعثن» فصار ذلك سبباً لبيان أوصاف يوم البعث، فعرّفه بما يلي:

٦. (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) :

المراد من الراجفة الأرض المضطربة، أي تحدث الزلزلة العظيمة المهولة في الأرض، وأمّا ما هو السبب فغير مذكور في الآية، وإنّما ذكر في آية أُخرى وهو النفخة الأُولى، كما سيوافيك.

٧. (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) :

أي تتبعها رجفة أُخرى، والسبب فيها هو السبب في الأُولى، وقد أُشير إلى أنّ سبب الرجفتين هما النفخة والصيحة، قال سبحانه: (وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)(الزمر: ٦٨ .).

ففي الرجفة الأُولى يموت كلّ مَن في الكون، ثم يحيا في النفخة الثانية كلّ من مات.

فللأرض ومن عليها نفختان وصيحتان ورجعتان، وكلّ رجفة أثر نفخة وصيحة، ونتاجها الحضور في أرض الجزاء والحساب.

٨ و ٩. (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ):

يصف سبحانه قلوباً بأنّها واجفة وأبصاراً بأنّها خاشعة، فتنكير (قُلُوبٌ)للتنويع، أي نوع من الناس يملأ الاضطراب قلوبهم، والذلّ أبصارهم، وليس هؤلاء إلاّ الكافرون المنكرون للبعث والنشور.

ثم إنّ نسبة الرجفة إلى القلوب والخشوع إلى الأبصار لمكان أنّ هذه الصفات تظهر باديء الأمر فيهما، فإذا استقبل الإنسان حادثة أليمة شديدة، يأخذ قلبه بالخفقان، ويظهر التذلّل في الأبصار، لأنّ القلب إذا ضرع خشعت الجوارح.

ثم إنّ إضافة الأبصار إلى القلوب لأدنى مناسبة، لأنّ الأبصار لأصحاب القلوب، إلاّ أنّ القلب لمّا كان عضواً رئيسياً للإنسان فكأنّ الأبصار له، قال سبحانه: (وَ اللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل: ٧٨..

فذكر من الأعضاء السمع والبصر وختمهما بالأفئدة، وكأنّه إشارة إلى أنّ السمع والبصر ينتهي أمرهما إلى الأفئدة.

إلى هنا تمّ بيان هذا المشهد، وهو مشهد الحشر وعلم الإنسان بأنّ الحياة الأُخروية تتحقّق عقب أمرين: إماتة الكلّ بالنفخة الأُولى، وإحياء الكلّ بالنفخة الثانية، ثم إنّ قسماً من الناس تضطرب قلوبهم وتتذلّل أبصارهم لما يرون من مصير أليم.

١٠. (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ):

بيان استئنافي لمنطق منكري المعاد، وقد اعتمدوا في إنكار المعاد على أمرين: كأنّ أحدهما استبعادي، والآخر استحساني.

أمّا الأوّل: فإذا قيل لهم إنّ وراء الدنيا حياة أُخرى، وأنّكم تُحيَون بعدما تموتون (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)، أي أئنّا لراجعون إلى الحالة الأُولى ومبعوثون من قبورنا؟! وكأنّ الكلام كناية عن الحياة الجديدة، يقول الزمخشري: يقال: رجع فلان إلى حافرته أي في طريقه الّتي جاء فيها فحفرها أي أثّر فيها بمشيه فيها، جعل أثر قدميه حفراً. تفسير الكشّاف: ٣ / ٣٠٩. فقوله: (أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ): أي أئنا راجعون إلى الحالة الأُولى.

وهنا سؤال وهو: ما هي الصلة بين وصف يوم القيامة وأهوالها، والانتقال إلى منطق المنكرين للبعث في الحياة الدنيا، حيث بدأ بنقل قولهم: (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ).

والجواب هو كأنّه تبارك وتعالى يحكي قولهم في الدنيا استبعاداً منهم لوقوع البعث والجزاء، ويشير إلى أنّ هؤلاء الذين قلوبهم واجفة وأبصارهم خاشعة هم الذين كانوا ينكرون البعث وهم في الدنيا كانوا يقولون كذا وكذا.

١١. (أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً):

أي عظاماً بالية، فهذا النوع من الاستبعاد كان هو المنطق الرائج بين المشركين، وقد ذُكر في القرآن الكريم غير مرّة، قال سبحانه حكاية عنهم: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ) يس: ٧٨..

١٢. (قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ):

وأمّا الثاني ـ أعني: ما هو أشبه بالاستحسان ـ: وهو قوله تعالى: (تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ): أي رجعة ذات خسران؛ وذلك لأنّه لو كانت الحياة الّتي نعيشها طيّبة فلماذا لا نخلّد؟ وإن كانت سيئة فلماذا نعود؟

ومع ذلك يمكن أن يكون قولهم صدر استهزاءً وسخرية، دون الإشارة إلى هذا المنطق.

ثم إنّه سبحانه يجيب عن كلا الأمرين بأنّ مرجع ذلك عدم معرفتهم بقدرة الخالق، ولذلك يستبعدون الحياة الجديدة أو يستحيلونها، ولكن يكفي في قدرته قوله تعالى:

١٣. (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ):

أي أنّ إحياء الموتى على الله سهل يسير، فإنّ زجرة واحدة ـ أعني:

النفخة الثانية ـ تكفي في إحيائهم، كما يقول: (إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) يس: ٥٣..

١٤. (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ) :

الفاء للمفاجأة، أي فما تنطلق الصيحة حتّى يحشر الله الخلق على أرض بيضاء، وأطلق على أرض القيامة بالساهرة لذهاب النوم عن العيون لما سيقابلونه من أهوال مرعبة.

وربما قيل: الساهرة الأرض المستوية البيضاء الّتي لا نبات فيها.

١٥ ـ ٢٦ الآيات: الخامسة عشرة إلى السادسة والعشرين(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى).

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَ أَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَ عَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَ الأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى).

المفردات

الوادِ: المكان المنخفض بين الجبال.

طوى: اسم واد.

طغى: أفرط في التكبّر.

فرعون: لقب لملك مصر، الذي ادّعى، في عصر موسى(عليه السلام)، الإلوهية والربوبية.

حشر: جمع الناس.

نكال: إيقاع أذى شديد على شخص ليكون عبرة للغير.

التفسير

عاد البيان القرآني في المقام إلى ذكر حديث موسى (عليه السلام)مع فرعون، وما جرى بينهما فهو حديث معترض بين الفقرتين اللتين تركّزان على الدعوة إلى الإيمان بالبعث ـ أعني قوله سبحانه: (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ) وبين قوله فيما يأتي: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا)ـ فالموضوع الرئيسي في السورة هو الدعوة إلى الإيمان بالبعث والحشر، فإدماج حديث موسى مع طاغية عصره، أمر معترض ورد لغايات:

١. ترغيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)في كفاح الطاغين، واستقامته فيه .

٢. تسلية لقلوب المؤمنين وتثبيتاً لأفئدتهم.

٣. تذكيراً لمشركي قريش وطغاتهم حتّى يعلموا أنّ مصير الطاغين هو مصير فرعون، حيث أخذه الله بعذابين: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

وبعد هذا التمهيد، نشرع في تفسير الآيات.

١٥. (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى):

الاستفهام ليس استفهاماً حقيقياً، بل هو استفهام لغاية إيجاد الشوق للسامع لاستماع القصة ذات العبر.

١٦. (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى):

والظاهر أنّ «إذ» ظرف لقوله: (حَدِيثُ مُوسَى)ويمكن على وجه بعيد أن يكون متعلّقاً بفعل محذوف، أي اذكر (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ)مثل قوله تعالى: (اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) آل عمران: ١٠٣ ، فناداه ربّه وهو (بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ) الذي سمّي (طُوًى). ولأجل قداسة ذلك الوادي أمر سبحانه موسى بخلع نعليه عندما كان في هذا الوادي، فقال تعالى: (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً)(طه: ٢٤.) وكون الوادي مقدّساً ومطهراً لأجل أنّه سبحانه كلّمه فيه بلا واسطة ملك، ويمكن أن يكون الوجه كونه مبعث عدد غفير من الأنبياء.

١٧. (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) :

أمره سبحانه بالذهاب إلى طاغية مصر ودعوته. وفي آية أُخرى قال تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) طه: ١٢، وفي آية ثالثة قال تعالى: (وَ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ) الشعراء: ١٠ ـ ١١ ، ويستفاد من هذه الآيات على أنّ دعوة موسى لفرعون إلى الإيمان بالله وحده ربّاً للعالمين كانت دعوة حقيقية لا دعوة صورية لإتمام الحجّة، اعتماداً على وجود فطرة التوحيد في عامّة الناس ولا يشذّ منهم فرعون ولا قومه .

ويظهر ممّا روي عن أبي ذر أنّه وافاه الخطاب بالذهاب إلى فرعون في ليلة مظلمة شديدة البرد، وأخذ أمرأته الطلق، وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيته فأصابه المطر، فبقي لا يدري أين يتوجّه، فبينما هو كذلك (آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) القصص: ٢٩ ـ ٣٠ .. مجمع البيان:٧/٤٥٨.

فعلى المصلحين الاستمرار في مقارعة الطغيان وقلع جذور الظلم والدفاع عن حريّة الإنسان وكرامته، بلا كسل ولا سأم ولا هوادة، وليعلموا أنّ العراك بين الحق والباطل سيظلّ قائماً إلى يوم القيامة.

ومنه يُعلم مكانة موسى (عليه السلام)من التسليم، فقد أُمر بالذهاب إلى فرعون في وقت عصيب حيث أخذ امرأته الطلق وضلّ الطريق وتفرّقت ماشيته وأصابه المطر، ولو كان المخاطب غير موسى أو من هو مثله ربما توقّف عن الذهاب واعتذر بأنّه في ظروف صعبة، لكن الأنبياء والأولياء لا تعجزهم

المصاعب، مهما اشتدّت وادلهمّت، عن الاستجابة لأمر الله تعالى، يقول سبحانه: (فَلاَ وَ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) النساء: ٦٥ .. نعم ربّما يترك بعض مَن يدّعي الإيمان والإسلام بعض الفرائض معتذراً بوجود مشاكل، وهي لا تعدّ مشاكل في منطق الدين .

١٨. (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى):

أي هل لك رغبة إلى تزكية النفس وتطهيرها من الشرك؟ وأي كلمة ألين من هذه الكلمة أمام طاغية عصره، حيث لا يحتِّم عليه التزكية وإنّما يطرح عليه التزكّي بصيغة السؤال، وذلك بأن يقول له: هل لك رغبة أو لا؟ وهذا هو أُسلوب الأنبياء مع طواغيت عصورهم في لقائهم الأوّل معهم ودعوتهم لاتّباع دينهم .

والآية ـ كما مرّ ـ دليل على أنّ الدعوة بالنسبة إلى فرعون كانت دعوة حقيقية لا لمجرد إتمام الحجة؛ وذلك لأنّ لفظة التزكية تدلّ على وجود الطهارة في الإنسان بما هو هو، غير أنّه ربّما تعلوه شوائب الشرك والطغيان، فبرفع هذه الحجب تظهر طهارة النفس.

١٩. (وَ أَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى):

قدّم التزكية على الهداية، ثمّ رتّب على الثانية الخشية، ووجه تقديمها على الهداية، هو أنّ المراد من التزكية: طهارة النفس من العقيدة الباطلة الضالّة، فلو لم يكن القلب منزّهاً عن تلك العقيدة، يمتنع نفوذ نور الهداية الإلهية إليه.

وأمّا وجه ترتّب الخشية على الهداية، فلأنّ الخشية فرع معرفة الله التي لا تحصل إلاّ بهداية منه، ولذلك يقول سبحانه: (إِنَّمَا يَخْشَى

اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر: ٢٨ ..

ومن هنا ينبغي على المصلحين في العالم، الذين يهدفون إلى نشر الفضائل والقيم بين الناس أن يلجوا هذا الباب، وإلاّ فالأخلاق السامية إذا لم تنطلق ممّا جاء في الآيتين، فليس لها قرار، وسيطرأ عليها الزوال مع تغيّر الأحوال.

ثم إنّ في قوله: (إِلَى رَبِّكَ)مكان قوله: «إلى ربي» نوع استعطاف واسترحام له حتّى يتّعظ بموعظة موسى (عليه السلام).

إلى هنا تمّ بيان الدعوة الإرشادية في ثوب العطف والحنان، فإن أثّرت في المخاطب فهو، وإلاّ فيجب إردافها ببيان منطقي آخر، وظاهر الآيات أنّ المخاطب لم يتأثر بهذه الدعوة الإرشادية، فلجأ موسى إلى دعوته ببرهان عقلي ومنطقي، وهو ما أشارت إليه الآية التالية:

٢٠. (فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرى):

والمراد بها: عصاه الّتي إذا ألقاها تصبح حيّة تسعى، ويحتمل أن يكون المراد بها يده البيضاء، فقد قام موسى بما عليه من الدعوة بكلا الأُسلوبين، لكن لمّا كان فرعون متمادياً في جبروته وطغيانه ولم تبق في قلبه نقطة بيضاء، فإنّ كلا الأُسلوبين، لم يؤثّرا فيه، بل اتّخذ، في مواجهته لدعوة موسى (عليه السلام)المقرونة بالحجّة والبرهان، مواقف متعنّتة، وإليك بيان هذه المواقف:

٢١ ـ أ . (فَكَذَّبَ وَ عَصَى):

أي كذّب رسالة موسى وخالف ما دعاه إليه(عليه السلام) من التوحيد والإيمان بالله.

٢٢ ـ ب . (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى):

أي ترك ذلك المجلس الّذي كان فيه موسى، وقد أراه آيته الكبرى، تركه إعلاناً لغضبه على موسى وأخذ (يَسْعَى)أي يشتدّ بالمشي، أي يمشي مشية الغاضب، ليطلب ما يدحض به معجزة موسى(عليه السلام).

٢٣ ـ ج . (فَحَشَرَ فَنَادَى) :

أي جمَع الناس، أو جمع السحرة، فنادى فيهم بقوله:

٢٤ ـ د (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى):

أي أنّه رب الأرباب، وهذا يدلّ على وجود أرباب للمصريين يعبدونها وجعل نفسه أعلى الأرباب وأسماها.

وفي آية أُخرى يصف نفسه بالأُلوهية، قال تعالى حاكياً عنه: (قَالَ ـ مخاطباً لموسى ـ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) الشعراء: ٢٩ .، فالظاهر أنّه تدرّج في دعوته فوصف نفسه بالرب الأعلى والأصنام أرباباً، ثم تهوّر أكثر وبالغ في ادّعائه فوصف نفسه بالإله ولذلك خاطب وزيره هامان بقوله: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) غافر: ٣٦ ـ ٣٧ .، فأراد بذلك أن ينكر وجود إله غيره.

فإن دلّ الجمع بين الادّعائين فإنّما يدلّ على أنّه ادّعى الربوبية أوّلاً، والإلوهية ثانياً، ولذلك ورد في بعض الروايات عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)أنّه قال: «كان بين الكلمتين أربعون سنة» مجمع البيان: ١٠ / ٢٠٩ ..

وهذا يدلّ على أنّ الإله ليس بمعنى المعبود؛ لأنّ المعبودية لا تنفك عن الربوبية، فادّعاء الإلوهية يدلّ على أنّه مقام آخر.

ثم إنّه سبحانه اقتصر في المقام على ذكر ما جرى بين موسى وفرعون، مستغنياً عن ذلك بما ورد في سورة طه والقصص وغيرهما، وذكر ما أصاب فرعون لأجل تكذيبه وعصيانه، في الآية التالية.

٢٥. (فَأَخَذَهُ اللّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَ الأُولَى):

أي أخذه سبحانه بقوة بعذابين: عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

أمّا الدنيا فهو الغرق، وأمّا الآخرة فهو عذاب جهنم.

٢٦. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى):

والعبرة، هي عن انتقال الذهن من معرفة شيء إلى معرفة أمثاله، فمصير فرعون وطغيانه وهلاكه عبرة لكلّ من يكذّب الأنبياء ويعصيهم، ولذلك يقول سبحانه: (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) البقرة: ٦٦ ..

وفي قصص الأنبياء ومصير أقوامهم عبرة لمعاصريهم ومن يأتي بعدهم، وفي الوقت نفسه عظة وتثبيت لقلوب المؤمنين.

٢٧ ـ ٣٣ الآيات: السابعة والعشرون إلى الثالثة والثلاثين(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ.... لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ).

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ).

المفردات

السَّمَك: هو السقف، يقول الفرزدق:

إن الّذي سَمَكَ السماء بنى لنا *** بيتا دعائمه أعزُّ وأطولُ

فسوّاها: التسوية: ترتيب أجزاء الشيء كُلٌّ في موضعه الّذي تقتضيه الحكمة، كما في قوله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) الحجر: ٢٩ . .

ثم إنّ التسوية تستعمل على وجهين: تارة تكون وصفاً للشيء بما هو هو ـ كما في الآية ـ ، وأُخرى تكون وصفاً للشيء بالقياس إلى غيره، كما في قولك: سوّيت هذا بهذا أي جعلتهما متساويين، كما في قوله تعالى: (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الشعراء: ٩٨ ..

وبذلك يُعلم أنّ تفسير التسوية ـ كما في المجمع ـ بقوله: جعل أحد الشيئين على مقدار الآخر في نفسه أو في حكمه، مجمع البيان: ١٠ / ٢٩٢ .ناظر إلى المعنى الثاني، ولكن المناسب لقوله: (فَسَوَّاهَا)هو المعنى الأوّل، والتسوية بالمعنى الأوّل تتعدّى إلى مفعول واحد بنفسه، وبالمعنى الثاني تتعدّى إلى مفعولين، ثانيهما بحرف الجر.

أغطش: الغطش: الظلمة، وأغطشه الله أي أظلمه، وفلاة غطشاء: لا يُهتدى فيها.

الدحو: البسط والمدّ.

أرساها: أي أثبتها في الأرض، يقال: رست السفينة إذا شُدّت إلى الشاطئ. وإثبات الجبال هو رسوخ صخورها وعروقها في باطن الأرض .

التفسير

انتقل البيان القرآني بعد ذكر قصّة موسى (عليه السلام)مع فرعون إلى ما ابتدأ به وهو الدعوة إلى الإيمان بالبعث والحشر والاستدلال على إمكانه، فيشرح قدرة الله تعالى في العالم الإمكاني حتّى يستدلّ به على إمكان عودة الإنسان إلى الحياة، فأين خلق الإنسان من جديد، من رفع السماء ودحو الأرض؟ فالقادر على هذه الأُمور الكونية العظمى قادر على إعادة الإنسان بعد مماته، ولذلك ابتدأ بطرح استفهام توبيخي، وقال :

٢٧. (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا):

وليس البناء إلاّ ضمّ الأجزاء المتفرّقة بعضها إلى بعض حتّى يتكوّن بناء واحد، وهذا هو المراد من قوله: (أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا) .

٢٨. (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا):

أي وضع كلّ كوكب في مكان على نسبة من الكوكب الآخر، وبذلك تحقّقت التسوية، إذ لو تغيّرت النسبة لاختلّ النظام وتصادمت الكواكب، فوضعُ الكواكب فوق الأرض (كما تبدو للناظر)، هو رفع سَمْك السماء، ووضعُ كلّ كوكب في مداره ومحلّه، هو تسوية

السماء.

٢٩. (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا):

روى عطية العَوفي عن ابن عباس: (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا)، قال: أظلم ليلَها. تفسير القرآن الكريم(تفسير عطية العوفي):٣/١٣٤، رقم ١٠٢٣.إن الفعل (أَغْطَشَ) قد يجيء لازماً، يقال: أغطش الليل، أي صار مظلماً، وقد يجيء متعدّياً ـ كما في المقام ـ أي أغطش الله الليل فصار مظلماً، وبما أنّ الليل مظلم فأُريد من الليل نفس الزمان الّذي يوصف بالظلمة، والضمير يرجع إلى السماء، وبطبع الحال أُريد السماء الدنيا الّتي تكون مظلمة بغروب الشمس ومضيئة بطلوعها، قال سبحانه: (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا).

والمراد من الضحى هو النهار بشهادة قوله: (لَيْلَهَا). ثم إنّه وصف النهار بالإخراج وكأنّ النهار مغطى بالليل فمضيّ الليل جزءاً فجزءاً عبارة عن إخراج النهار منه، ويشهد على ذلك قوله سبحانه: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) الحج: ٦١ ..

ثم إنّه سبحانه في الآية التالية يعود إلى بيان مشهد آخر وهو: خلق الأرض ودحوها.

٣٠. (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا):

خلق الأرض وبسطها بعد خلق السماوات .

وهناك سؤال يثار في هذا المقام وفي سورة فصّلت، وهو أنّ ظاهر الآية التالية هو أن الله سبحانه خلق الأرض قبل السماء، حيث قال: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكِ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَات فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ). فصلت: ٩ ـ ١٢.

فقوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)بمعنى أنّه استوى إلى السماء بعد خلق الأرض في يومين، فيكون خلق الأرض مقدّماً على استوائه إلى السماء. هذا ما في سورة فصلت.

وأمّا المقام فربما يستظهر خلافه، حيث قال: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ... إلى أن قال: وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا).

فمقتضى لفظة «بعد» كون الدحو بعد بناء السماء.

وأُجيب بوجوه:

الأوّل: أنّ قوله سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ): أي توجّه إليها وقصدها بالخلق لإفادة التراخي بحسب الخبر، لا بحسب الوجود والتحقّق، ثم استشهد على ذلك بما في هذه السورة حيث يقول: (وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)فإنّه يفيد تأخّر الأرض عن السماء خلقاً . الميزان في تفسير القرآن: ١٧ / ٣٦٥ .

يلاحظ عليه: أنّه جعل وجه الإشكال جواباً له، فبينما يقول المستشكل بوجود تعارض بين ما جاء في الآيتين أحدهما يحكي عن تقدّم خلق الأرض عن السماء والآخر على العكس، فأجاب بأنّ ما ورد في سورة فصلت، وما ورد في هذه السورة (الآية الثانية) قرينة على أنّ «ثم» لإرادة التراخي في الخبر لا بحسب الوجود والتحقّق، إذ لقائل أن يقول: إنّ هذا أوّل الكلام .

الثاني: ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ الآية ناظرة إلى دحو الأرض لا إلى خلقها، قال ابن عباس: وكانت ربوة مجتمعة تحت الكعبة فبسطها، فخلقها قبل خلق السماوات كما في سورة فصلت، ودحوها بعد خلق السماوات.

ثم إنّ السيد الطباطبائي (رحمه الله) اعترض على هذا الجواب قائلاً: بأنّ الأرض كروية فليس دحوها وبسطها غير تسويتها كرة وهو خلقها، على أنّه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض إلى إخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها، وهذه بعينها جعل الرواسي من فوقها

والمباركة فيها وتقدير أقواتها الّتي ذكرها في الآيات الّتي نحن فيها مع خلق الأرض، وعطف عليها خلق السماء الميزان في تفسير القرآن: ١٧ / ٣٦٥ ..

يلاحظ عليه: بأنّ التفكيك بين خلق الأرض ودحوها واضح، وذلك لأنّه يكفي في خلق الأرض بصورة كرة غير قابلة للعيش والزراعة وما تتوقّف عليه الحياة، وأمّا الدحو فعبارة عن تهيئة الأرض لتحقّق الحياة فيها، بتسطيحها وإخراج مائها ومرعاها.

الثالث: أن يفرَّق بين بناء السماء وبين السماوات السبع، فخلق السماء بما هي هي حيث كانت دخاناً وغازات مقدَّم على خلق الأرض كما هو المستفاد من سورة فصلت، وأمّا خلق السماوات السبع فهو متأخّر عن خلق الأرض وتعميرها بمرحلة وخلق أنجماً بما فيها الشمس.

والظاهر من هذه الأجوبة هو الجواب الثاني.

ويدلّ على صحّة الجواب الثاني ما روي عن علي (عليه السلام)حين سأله الشامي عن مكة المكرمة لِمَ سمّيت مكّة؟ قال: لأنّ الله مكّ الأرض من تحتها أي دحاها. بحار الأنوار:٥٤/٦٤، ح٣٧. ولعلّ المراد: إنّ الآية ناظرة إلى دحو الأرض لا إلى خلقها، قال ابن عباس: وكانت ربوة مجتمعة تحت الكعبة فبسطها.

ويفترض العلماء أنّ الأرض بدأت كتلة صخرية عديمة الماء محاطة بسحابة من الغاز وتدريجياً أنتجت المواد المشعّة في الصخر والضغط المتزايد في باطن الأرض حرارة كافية يصهر باطن الأرض، وغصبت المواد الثقيلة كالحديد، أمّا المواد الخفيفة كالسليكا (صخور مركّبة من السليكون والأوكسجين) فقد ارتفعت إلى سطح الأرض مكونة القشرة المبكرة للأرض. وقد نتج عن تسخين باطن الأرض أيضاً ارتفاع بعض المواد الكيميائية داخل الأرض إلى السطح، وبعض هذه المواد الكيميائية كوّنت الماء، وبعضها الآخر كوّن غازات الغلاف الجوّي. ثمّ تجمّع الماء ببطء على مدى ملايين السنين في الأماكن المنخفضة من القشرة مكوّناً المحيطات. الموسوعة العربية العالمية:١/٥٢١ـ ٥٢٢.

وهنا جواب رابع وهو أن يقال: إنّ المراد من قوله: (بَعْدَ ذَلِكَ)هو البَعدية مجازاً، بمعنى أن بعد هي بمعنى «مع»، كما في قوله تعالى: (عُتُلّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم) القلم: ١٣..

٣١. (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا):

والله أخرج من الأرض الماء الذي به قوام الحياة، الذي يتفجّر من العيون والينابيع، وما يجري من الأنهار، فكأنّ قوله: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا) بيان لقوله: (دَحَاهَا)، ثم أخرج أيضاً من الأرض، المرعى وهو كناية عن كلّ الحبوب والثمار الّتي تخرج من الأرض .

٣٢. (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا):

أي أرسخها إلى باطن الأرض، لكي لا تميد الأرض ولاتضطرب بمن فيها، ويفسر الآية قوله سبحانه: (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) النحل: ١٥ ، والراسيات هي الّتي تمنع السفينة عن الحركة والاضطراب.

٣٣. (مَتَاعاً لَكُمْ وَ لأَنْعَامِكُمْ):

ثم إنّ البيان القرآني انتقل إلى بيان الغاية من خلق الأرض ودحوها وتثبيتها، وتفجير المياه فيها وإخراج النبات منها، كلّ ذلك لأجل أن ينتفع بها الإنسان والأنعام(البقر، والإبل، والغنم) التي سخّرها سبحانه للإنسان.

وعند ذلك يستنتج هذين الأمرين:

١. هل الخالق الّذي أوجد وأنشأ هذه المشاهد عاجز عن بعث الإنسان وإعادته؟

٢. هل الخالق الحكيم أوجد هذا النظام بلا غاية؟ فعلى هذا فلم يبق لمنكر المعاد أي دليل على إنكاره وأي استبعاد على رفضه،

فخالق هذه المشاهد قادر على إعادة الإنسان، ولأجل صيانة فعل الحكيم عن اللغو لابد أن يكون للإنسان معاد وحياة أُخرى لكي تتحقّق الغاية، ويُصان عن العبث واللغوية.

٣٤ـ ٣٦ الآيات: الرابعة والثلاثون إلى السادسة والثلاثين(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ.... وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى).

(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى).

المفردات

الطامّة: الطمّ في اللغة هو الملء والدفن، ويكنّى به عن الحوادث المرّة والصعاب الكبار.

التفسير

٣٤. (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى):

والظاهر أنّه إعادة لقوله: (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ)إذ ليست الزجرة الواحدة إلاّ الطامّة الكبرى، وإنّما كرّر ذلك ليرتِّب عليه قوله:

٣٥. (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى):

فهو قائم مقام جواب الشرط أي يُجزى كلُّ إنسان بما عمل حيث يقف على أعماله، وظاهر الآية أنّ الإنسان بنفسه يتذكر ما عمل حال حياته، لا عن طريق النظر في صحيفة عمله، ولا مانع من أن يكون للإنسان سببان للتذكّر، وما استظهرناه ليس ببعيد فإنّ الإنسان ربّما ينسى شيئاً وكلّما يسعى لأن يذكره فلا يصل إليه، لكن ربما يدور في خَلَده ما نسيَه وذلك دليل على أنّ ما علمه الإنسان فهو مخزون في ذهنه وروحه، ونسيانه ليس دليلاً على محوه من الذاكرة، بل هي محفظة للمعلومات، غاية الأمر ربّما تختفي مؤقتاً.

٣٦. (وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى):

ثم إنّ تذكّر الإنسان بما سعى ربّما يكون تذكيراً بأعمال إجرامية ليس لها جزاء إلاّ الصَّلْي بالجحيم، ولذلك يقول سبحانه: (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ): أي ظهرت أتمّ الظهور، وأمّا مَن هو المُبرز؟ فهو الله سبحانه، ولكنّه لم يُذكر لوضوح الأمر.

٣٧ـ ٤١ الآيات: السابعة والثلاثون إلى الحادية والأربعين (فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَ آثَرَ.... فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

المفردات

الهوى: ما تهواه النفس، وفي الحقيقة مهوى النفس، وما ترغب إليه قوى النفس الشهوية والغضبية.

المأوى: اسم مكان من أوى إذا رجع، لأن الإنسان يرجع إلى بيته ومسكنه بعد الفراغ من أعماله اليومية.

التفسير

وصل البيان القرآني إلى بيان ما هو الملاك لنجاح الإنسان يوم القيامة وخسرانه فيه، فقدّم الثاني؛ لأنّه محور الدراسة في الآيات المتقدّمة وقال:

٣٧ـ ٣٩. (فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى):

فذكر لكون مصير الإنسان هو الجحيم الأمرين التاليين:

١. الطغيان أي الخروج عن زي الرّقيّة وعبودية الربّ: (طَغَى) .

٢. إيثار الحياة الدنيا أي ينتخب الحياة السفلى في مقابل الحياة العليا، وليست الآية بصدد ذمّ حياتنا في الدنيا، وإلاّ لقال: «آثر حياة الدنيا» بل قال: (آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا): أي آثر حياة حيوانية وهي الّتي تتمتع بأمرين: الشهوة والغضب، فمَن كان كذلك فالجحيم مأواه.

وأمّا ملاك النجاح فهو رهن أمرين:

الأوّل: الخوف من مقام الربّ، كما أشار إليه بقوله:

٤٠ و ٤١. (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى):

لم يقل: مَنْ خَافَ رَبِّهِ، وإنّما قال: (مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)، ولعلّ المراد من «مقام الربّ» هو الخوف من عدله سبحانه؛ ولذلك ورد في الأدعية، القول: «إلهنا عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك» وورد في الدعاء المأثور بعد زيارة الإمام الثامن (عليه السلام) قوله: «فكم من سيئة أخفاها حلمك حتّى دخلت، وحسنة ضاعفها فضلك حتّى عظمت عليها مجازاتك. جللت أن يخاف منك إلاّ العدل، وإن يُرجى منك إلاّ الإحسان» بحار الأنوار:٩٩/٥٦ .

وفي دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام): «فيامن لا يُرجى إلاّ فضله، ولا يُخشى إلاّ عدله» الصحيفة السجادية(تحقيق الأبطحي):٣٠٦، الدعاء ١٤٣(في وداع شهر رمضان)..

ويمكن أن يراد من المقام هو علمه سبحانه بأعمال العباد جليلها ودقيقها، ظاهرها وباطنها، يقول الإمام علي (عليه السلام): «يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلاَفَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ» نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨ ..

الثاني: الامتناع عن اتّباع الهوى، كما أشار إليه بقوله: (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) فالسعيد هو من يخرج عن عبودية النفس إلى عبودية الله تعالى، والشقيّ هو من يتخذ هوى النفس إلهاً، كما قال سبحانه: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)(الفرقان: ٤٣ .) . قال الإمام علي (عليه السلام): «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأمَلِ فَيُنْسِي الأخِرَةَ» نهج البلاغة: الخطبة ٤٢ ..

فاتّباع الشهوة والغضب يصيران حجاباً أمام عقل الإنسان، يمنع من رؤية الحقائق على ما هي عليه.

بقي الكلام في بيان كيفية مقابلة هاتين الفقرتين مع الفقرتين المتقدّمتين .

أمّا قوله: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)فهو في مقابل قوله: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى)، فإنّ الخائف من مقام ربّه لا يخرج من زيّ العبودية فتكون أعماله محدودة بحدود عقلية وشرعية، بخلاف الطاغي فإنّه يكون عبداً للهوى فلا يرى لنفسه حدّاً ولا مانعاً، وبالتالي فالمؤمن آخذ بزمام نفسه، وأمّا الطاغي فمُرخيها لتذهب أينما تريد.

ثم إن قوله: (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) في مقابل قوله: (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)؛ وذلك لأنّ الهوى يقود إلى إيثار الحياة السفلى، ونهي النفس عنها عبارة عن رفضها وعدم إيثارها على الحياة العليا.

ثم إنّ الخوف من مقام الربّ لا ينافي أن تكون طاعته وعبادته نابعة من العلم بعظمة الربّ وجلاله وكماله، كما هو الحال في حق الأولياء، ففي رواية عن علي (عليه السلام)أنّه قال: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأحْرَارِ» نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ٢٣٧ .. وأمّا قوله تعالى: (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) فهو في مقابل قوله: (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى)لأنّ كلّ شيء يعرّف بضدّه.

٤٢ ـ ٤٦ الآيات: الخمس الأخيرة (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ....ز مْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا).

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا).

المفردات

السّاعة: مشتق من سوَع بمعنى ضاع وزال، ويطلق على الزمان لأنّه لا يدوم ويزول، وقد جاء علَماً للقيامة في القرآن الكريم.

أيّان: اسم يستفهم به عن الزمان.

مرساها: من الرسو: أي الثبات والرسوخ، والمَرسى: هو المكان الذي ترسو فيه السفينة وهو مستقرّها حيث تنتهي إليه .

التفسير

٤٢. (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) :

يظهر من غير واحدة من الآيات أنّ المشركين لمّا سمعوا أسماء القيامة من أنّها قارعة، صاخّة، طامّة، سألوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن وقتها إمّا استهزاءً كما هو الظاهر، أو على سبيل التعلّم، ويشهد على ذلك قسم من الآيات، قال سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) الأعراف: ١٨٧ ، وقال سبحانه: (عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) لقمان: ٣٤..

ولا يخفى أنّ السؤال عن وقت القيامة، سؤال تافه، إذ أنّه لا تنفعهم الإجابة عن تحديد موعدها، حتّى لو قيل: إن الساعة بعد مئة ألف عام أو كذا عام؛ لأنّ المفيد هو الطاعة والاستعداد لذلك اليوم ولذلك يقول سبحانه مخاطباً النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

٤٣. (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا) :

أي في أي شيء أنت من علمها وذكراها، أي لا تعلمها.

٤٤. (إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا):

أي إلى ربّك منتهى أمرها وإقامتها، فلا يقدر عليه إلاّ هو كما لا يعلمها إلاّ هو.

٤٥. (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) :

أي أنّ الّذي يفيد الناس هو الخوف من يوم القيامة، لا العلم بوقتها. وليس عليك إلاّ الإنذار بيوم القيامة وأهوالها.

ومع أنّه سبحانه أخفى وقت القيامة وآثر علمها لنفسه حدّدها بقوله تمثيلاً أو تشبيهاً:

٤٦. (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) :

أي عندما تقوم القيامة يزعم الإنسان أنّه ما لبث في الدنيا إلاّ قدر آخر نهار (عَشِيَّةً)أو أوّله (ضُحَاهَا)، فقد حدّد يوم القيامة بنوع من التمثيل والتشبيه، وقد أشار إليه في آيات أُخرى وقال: (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَار) الأحقاف: ٣٥..

وقال ـ أيضاً ـ : (يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَة) الروم: ٥٥.

ولعلّ التشبيه لبيان قرب الساعة من حياتهم الدنيا، بحيث ليس بينهم وبين الساعة إلاّ هذا القدر الضئيل من الزمان.

ويحتمل أن تكون الآية لأجل أنّ المجرمين في البرزخ نوّام ورقّاد، فلا يحسّون طول البرزخ، والله العالم.

تمّ تفسير سورة النازعات

٨٠- سورة عبس

(عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُف مُكَرَّمَة * مَرْفُوعَة مُطَهَّرَة * بِأَيْدِي سَفَرَة * كِرَام بَرَرَة * قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْء خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَة خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعاً لَكُمْ

وَلأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَ صَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِى مِنْهُمْ يَوْمَئِذ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة في المصاحف بسورة «عبس» وفي «مجمع البيان» تُسمّى بسورة «السَّفَرة»، وربّما سُمّيت بأسماء أُخرى نظير: سورة ابن أُمّ مكتوم، أو سورة الأعمى، إلى غير ذلك من الأسماء الّتي تشير إلى موضوع واحد.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها اثنتان وأربعون آية عند عدّ أهل المدينة ومكّة والكوفة، وإحدى وأربعون آية عند عدّ أهل البصرة، وأربعون آية عند عدّ أهل الشام.

والسورة مكيّة حسب شأن النزول، وحسب صياغتها ومضامينها، فإنّ فواصل الآيات قليلة.

أغراض السورة

في صدر السورة يعاتب الله تعالى مَنْ تعامل مع ابن أُمّ مكتوم الأعمى، ويحتجّ بأنّ القرآن ذكراً وموعظة لمن عقل وتدبّر من غير فرق بين فرد دون فرد، ثم يذكر دلائل وحدانيته سبحانه، بخلق الإنسان والنظر في طعامه وشرابه، ثم يعود إلى بيان أحوال القيامة وانقسام الناس إلى سعداء وأشقياء .

١ ـ ١٠ الآيات: العشرة الأُولى (عَبَسَ وَ تَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى .... فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى).

(عَبَسَ وَ تَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَ مَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَ هُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى).

المفردات

عَبَس: من العُبوس ـ بضم العين ـ تقطيب الوجه وإظهار الغضب، وبفتحها: صفة مشبّهة، يقال: رجل عَبوس: أي مقطّب وعابس، قال تعالى: (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) الإنسان: ١٠ . .

ووصف اليوم بالعَبوس مجاز على طريقة أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء، نظير قولك: نهارك صائم. والقمطرير: الشديد العبوس الّذي يجمع ما بين عينيه .

تصدّى: التصدّي التعرّض للشيء ويقابله في السورة التلهّي عن الشيء.

التفسير

افتتح سبحانه هذه السورة بفعلين هما (عَبَسَ) وَ (تَوَلَّى) دون أن يذكر مرجع الضمير فيهما، فلم يُعلم من العابس ومن المولّي، ولذلك صار هذا سبباً للاختلاف في بيان مرجع الضميرين، فالمشهور بين مفسّري السنّة أنّ الضمير يرجع إلى النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بشهادة قوله بعد هذه الآيات: (وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَ هُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى).

وأيّدوه بما ورد في شأن النزول، فقد رووا أنّ عبد الله ابن أُمّ مكتوم الأعمى أتى رسول الله وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأُبيّاً وأُميّة ابني خلف، يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم؛ فقال عبد الله: اقرئني وعلّمني ممّا علّمك الله، فجعل ينادي ويكرّر النداء ولا يدري أنّه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله لقطعه

كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنّما أتباعه العميان والسَّفَلة والعبيد، فعبس (صلى الله عليه وآله وسلم) وأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلّمهم، فنزلت الآيات، وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي. أسباب النزول للواحدي: ٢٥٢. ويقول: هل لك من حاجة، واستخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين. مجمع البيان: ١٠/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ وغيره من التفاسير.

لكن هذه الرواية معارضة بما روي عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام)فقد روي عنهم :

١. إن الآية نزلت في رجل من بني أُميّة كان عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وجاء ابن أُمّ مكتوم، فلمّا رآه تقذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه . مجمع البيان: ١٠ / ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ؛ البرهان: ٤ / ٤٢٨ .

٢. روي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)قوله: «وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)إذا رأى عبدالله ابن أُمّ مكتوم قال: « مرحباً ومرحباً، لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من اللطف حتّى كان يكّف عن النبي ممّا يفعل». مجمع البيان: ١٠ / ٣٠١ ؛ البرهان: ٤ / ٤٢٨. والرواية ذات وجهين، فلاحظ .

٣. نقل عنهم(عليهم السلام)أنّها نزلت في عثمان وابن أُم مكتوم، وكان ابن أُم مكتوم مؤذّناً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان أعمى فجاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدّمه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عثمان، فعبس عثمان في وجهه وتولّى عنه. البرهان: ٤ / ٤٢٧ .

وعلى هذا فالروايات الواردة عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام)تردّ شأن النزول المعروف .

دراسة الموضوع على ضوء سائر الآيات

إنّ مَن يدرس أخلاق النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)يقف على أنّ ما اشتهر من شأن النزول غير صحيح جدّاً، وذلك للوجوه التالية:

الأوّل: أنّه سبحانه وصف العابس بأنّه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء، وهذا الوصف لا ينطبق على أخلاق النبي السمحة وقلبه الواسع وتحنّنه على قومه وتعطّفه عليهم، كيف؟ وقد قال سبحانه: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) التوبة: ١٢٨..

الثاني: أنّه سبحانه وصف نبيّه في سورة القلم، وهي ثانية السور التي نزلت في مكة (وأُولاها سورة العلق) بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(القلم: ٤.)، ومع هذا كيف يصفه بعد زمن قليل بخلافه؟ فأين هذا الخلق العظيم ممّا ورد في هذه السورة من العبوس والتولّـي؟ وهذه السورة حسب ترتيب النزول ـ وإن كانت متأخّرة في المصاحف عن سورة القلم ـ لكنّها متقاربة معها حسب النزول، ولم تكن هناك فاصلة زمنية طويلة الأمد. تاريخ القرآن للعلاّمة الزنجاني: ٣٦ ـ ٣٧، وقد نقل ترتيب نزول القرآن في مكة والمدينة معتمداً على رواية محمد بن نعمان بن بشير التي نقلها ابن النديم في فهرسته ص ٧، طبع مصر .

الثالث: أنّه سبحانه يأمر نبيّه بقوله: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٥.، كما يأمره أيضاً بقوله:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) الحجر: ٨٨.، وقوله: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) الحجر: ٩٤..

إنّ سورتي «الشعراء» و «الحجر»، وإن نزلتا بعد سورة «عبس» ، لكن تضافرت الروايات على أنّ الآيات المذكورة في السورتين نزلت في بدء الدعوة، أي العام الثالث من البعثة عندما أمره سبحانه بالجهر بالدعوة والإصحار بالحقيقة، وعلى ذلك فهي متقدّمة حسب النزول على سورة «عبس» أوَيصحّ بعد هذه الخطابات، أن يخالف النبي هذه الخطابات بالتولّـي عن المؤمن؟! كلاّ ثم كلاّ .

الرابع: إنّ الرواية تشتمل على ما خطر في نفس النبي عند ورود ابن أُمّ مكتوم، من أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)قال في نفسه: «يقول

هؤلاء الصناديد: إنّما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فأعرض عنه وأقبل على القوم» وعندئذ يُسأل عن كيفية وقوف الراوي على ما خطر في نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهل أخبر به النبي؟ أو أنّه وقف عليه من طريق آخر ؟!

والأوّل بعيد جداً، والثاني مجهول.

الخامس: أنّ الرواية تدلّ على أنّ النبي كان يناجي جماعة من المشركين، وعند ذلك أتى عبد الله ابن أُمّ مكتوم وقال: يا رسول الله أقرئني، فهل كان إسكات ابن أُم مكتوم متوقّفاً على العبوس والتولّـي عنه، أو كان يكفي الاستمهال منه حتى يتمّ كلامه مع القوم، وهو ليس أمراً شاقّاً على النبي، فلماذا ترك هذا الطريق السهل؟!

السادس: أنّ مناط العتاب هو إعراض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)عن ابن أُمّ مكتوم والعبوس بوجهه والتولّي عنه والتصدّي لدعوة المشرك والإقبال عليه، ومن المعلوم أنّ هذا العمل لم يكن عملاً مستحقّاً للعتاب لأنّه إذا دار الأمر بين إرشاد مؤمن إلى تعاليم الإسلام ليزداد تزكية، وبين إرشاد كافرين رجاء أن يسلموا، فيُسلم بإسلامهم جمع كبير من المجتمع المكّي، فمن الواضح أنّ الثاني أهم من الأوّل، إذ فيه فتح كبير للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ودخول الإسلام إلى أكثر بيوت مكّة.

وهذه الوجوه الستة وإن أمكن الاعتذار عن بعضها بأنّ العبوس والتولّـي مرّة واحدة لا ينافي ما وصف به النبي في القرآن من الخلق العظيم وغيره، لكن محصل هذه الوجوه يورث الشك في صحّة الرواية ويسلب الاعتماد عليها. راجع: التبيان: ١٠ / ٢٦٨ ؛ مجمع البيان: ١٠ / ٢٦٦ ؛ الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٢٠٣ .

ولمّا كان هذا النقل عن سبب التولّي غير خال عن الإشكال، عاد ابن عاشور إلى تفسير وجه العتاب الّذي يعطيه لحن الآية ومن قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لابن أُمّ مكتوم: «مرحباً بمن عاتبني ربي لأجله» إنّما هو عتاب على العبوس والتولّي لا على المبادرة على دعوة قوم وتأخير إرشاد، لأنّ ما سلكه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)في هذه الحادثة على سبيل الإرشاد لا يستدعي عتاباً . التحرير والتنوير: ٣٠ / ٩٩ .

يلاحظ عليه: بأنّه ـ أيضاً ـ غير صحيح ؛ لأنّ المخاطب كان أعمى، ولا يرى عبوس العابس وتولّيه عنه، فكيف يكون العمل الصادر عن الشخص في حق أحد ـ دون أن يراه ـ سبباً للعتاب؟!

هذا كلّه حول الرواية الّتي تنسب قوله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى)إلى النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

وأمّا الرواية الأُخرى، فهي لا تنطبق على ظاهر الآيات، لأنّ محصلها أنّ رجلاً من بني أُميّة كان عند النبي فجاء ابن أُمّ مكتوم، فلمّا رآه ذلك الرجل تقذّر منه وجمع نفسه، وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

ولكن هذا المقدار المنقول في سبب النزول لا يكفي في توضيح الآيات، ولا يرفع إبهامها، لأنّ الظاهر أنّ العابس والمتولّـي، هو المخاطب بقوله سبحانه: (وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى)إلى قوله: (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) ، فلو كان المتعبّس والمتولّي، هو الرجل الأموي، فيجب أن يكون هو المخاطب بالخطابات الستة لا غيره، مع أنّ الرواية لا تدلّ على ذلك، بل غاية ما تدلّ عليه أنّ فرداً من الأمويين عبس وتولّـى عندما جاءه الأعمى فقط، ولا تلقي الضوء على الخطابات الآتية بعد الآيتين الأُوليين وإنّـها إلى مَن تهدف، فهل تقصد ذاك الرجل الأموي وهو بعيد، أو النبي الأكرم ؟

هذا هو القضاء بين السببين المرويين للنزول، وقد عرفت الأسئلة الموجهة إليهما.

وعلى فرض صحّة الرواية الأُولى لابدّ أن يقال:

إنّ الرواية إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان موضع عنايته سبحانه ورعايته، فلم يكن مسؤولاً عن أفعاله وحركاته وسكناته فقط، بل كان مسؤولاً حتى عن نظراته وانقباض ملامح وجهه، وانبساطها، فكانت المسؤولية الملقاة

على عاتقه من أشد المسؤوليات، وأثقلها، وصدق الله العلي العظيم حيث يقول: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) المزمل: ٥..

كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)يناجي صناديد قومه ورؤساءهم لينجيهم من الوثنية ويهديهم إلى عبادة التوحيد ـ وكان لإسلامهم يوم ذاك تأثير عميق في إيمان غيرهم، إذ الناس على دين ملوكهم وقادتهم ـ إذ جاءه ابن أُم مكتوم غافلاً عمّا عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأمر المهم، فلم يلتفت إليه النبي، واستمرّ على ما كان عليه من الحوار مع أكابر قومه.

وما سلكه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن أمراً مذموماً عند العقلاء، ولا خروجاً على طاعة الله، ولكن الإسلام دعاه وأرشده إلى خلق مثالي أعلى ممّا سلكه، وهو أنّ التصدّي لهداية قوم يتصوّرون أنفسهم أغنياء عن الهداية، يجب أن لا يكون سبباً للتولّي عمّن يسعى ويخشى، فهداية الرجل الساعي في طريق الحق، الخائف من عذاب الله، أَولى من التصدّي لقوم يتظاهرون بالاستغناء عن الهداية وعمّا أنزل إليك من الوحي، وما عليك شيء إذا لم يزكّوا أنفسهم، لأنّ القرآن تذكرة قال تعالى: (كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ) المدثر: ٥٤ ـ ٥٥ .وقال تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) الغاشية: ٢١ ـ ٢٢..

فعظم المسؤولية اقتضى أن يعاتب الله سبحانه نبيّه لترك ما هو الأَولى بحاله حتى يرشده إلى ما يعد من أفاضل ومحاسن الأخلاق، وينبهه على عظم حال المؤمن المسترشد، وأنّ مداراة المؤمن ليقيم على إيمانه، أولى من مداراة المشرك طمعاً في إيمانه، ومن هذا حاله لا يعدّ عاصياً لأمر الله ومخالفاً لطاعته.

وللشيخ محمد جواد مغنية (رحمه الله) كلام حول تفسير الآيات حاول فيه الجمع بين كون العابس هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ بشهادة توجّه الخطاب إليه بعين قوله تعالى: (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) ـ ونفي وجود العتاب وتوجهه إليه، فقال ما هذا نصّه:

لا لوم ولا عتاب على النبي ولا على الأعمى في هذه الآيات، وإنّما هي في واقعها تحقير وتوبيخ للمشركين الذين أقبل عليهم النبي بقصد أن يستميلهم ويرغّبهم في الإسلام، لأنّ الله يقول لنبيّه في هذه الآيات: لماذا تتعجّل النصر لدين الله، وتسلك إليه كلّ سبيل حتّى بلغ الأمر أن ترجو الخير وتأمل هداية أشقى الخلق وأكثرهم فساداً وضلالاً.. دعهم في طغيانهم، وأغلظ لهم، فإنّهم أحقر من أن ينتصر الله بهم لدينه، وأضعف من أن يقفوا في طريق الإسلام وتقدّمه، فإنّ الله سيذلّ أعداءه مهما بلغوا من الجاه والمال، ويُظهر دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون..

فهذه الآيات قريبة في معناها من قوله تعالى: (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَات) فاطر: ٨ .. ثم انتقل سبحانه إلى تقرير الحقيقة المطلقة، وهي: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات: ١٣ . قرّرها بأُسلوب آخر، وهو أنّ الذي يخشى ويزّكّى وتنفعه الذكرى هو الّذي يستحق التكريم والتعظيم، أمّا من يعرض عن الحق ولا ينتفع بمواعظ الله فيجب نبذه واحتقاره، وإن كان أغنى الأغنياء وسيد الوجهاء». التفسير الكاشف: ٧ / ٥١٦ .

وعلى كلّ تقدير، نحن نفسّر الآيات دون تعيين مرجع الضمير على وجه ينطبق على كلا النقلين، وإن كان الأوّل ضعيفاً عندنا، والله العالم.

١. (عَبَسَ وَ تَوَلَّى):

أي قبض وجهه وأعرض.

٢. (أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى):

سبب لقبض الوجه والتولّي.

٣ و ٤. (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى):

الضمير في (لَعَلَّهُ) يرجع إلى الأعمى، والجملة خالية من ذكر اسمه .

ويعلّل العتاب بأن الإقبال على الأعمى وعدم التولّي عنه والتصدّي لإرشاده، لا يخلو من إحدى فائدتين :

١. التزكّي والتطهير بالأعمال الصالحة والاجتناب عن الآثام والمعاصي، بإرشاد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وتعليمه.

٢. التذكّر والاتّعاظ بما يسمعه من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من آيات القرآن، وعندئذ فسوف تنفعه الذكرى، فإرشاده يتضمن أحد أمرين: تزكّ أو تذكّر.

٥ و ٦. (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى):

يعني أنّك تتولّى عن الأعمى وتتصدّى لهداية مَن استغنى، والمراد من الاستغناء هو الاستغناء عن هداية الله ودعوته، ومن المعلوم أنّ هذا الإنسان يكون طاغياً، قال تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) العلق: ٦ ـ ٧ . .

٧. (وَ مَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى):

جملة معترضة بين ما سبق وما يأتي، أعني قوله: (وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى)، والمراد أنّ عدم اهتداء المستغني ليس محمولاً عليك ولا تؤاخذ أنت بكفره.

٨ و ٩. (وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَ هُوَ يَخْشَى):

وصف الله سبحانه الأعمى الّذي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)للاهتداء بوصفين:

١. أنّه يسعى .

٢. أنّه يخشى الله سبحانه، وهذا من آثار تلاوة القرآن ، لقوله سبحانه: (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى). الأعلى: ١٠ .

ثم إنّ هذين الوصفين يقابلان وصف الكافر بالاستغناء الّذي يتضمّن ضدّ هذين الوصفين، فالمستغني لا يسعى للهداية ولا يخشى من الله سبحانه.

١٠. (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى):

أي تتغافل وتشتغل عنه بغيره .

١١ ـ ١٦ الآيات: الحادية عشرة إلى السادسة عشرة (كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ *.... كِرَام بَرَرَة) .

(كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُف مُكَرَّمَة * مَرْفُوعَة مُطَهَّرَة * بِأَيْدِي سَفَرَة * كِرَام بَرَرَة) .

المفردات

صُحُف: جمع صحيفة، والعرب تُسمّي كلّ مكتوب فيه صحيفة، وكانت العرب تكتب على قطعة من أديم أو ورق أو خرقة أو غير ذلك. وربما تجمع «صحيفة» على «صحائف»، وهو موافق للقياس غير أنّ القرآن استعمل كلمة «صحف» للجمع.

مكرّمة: أي معظّمة مُبجّلة.

مرفوعة: أي عالية القَدْر عند الله.

مطهّرة: منزّهة، ويراد: الطهارة من الباطل ولغو القول.

سَفَرَة: شبه جمع سفير ـ قلنا: شبه جمع، لأنّ جمعه حسب القياس هو السفراء ـ وهو مطلق الرسول، ويحتمل أن يكون جمع سافر وهو كاتب الأسفار.

كرام: أي عزيزون عند ربهم.

بررة: جمع بارّ، وهو فاعل الخير.

التفسير

١١. (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ):

الضمير في (إِنَّهَا)إمّا يرجع إلى القرآن، والتأنيث لأجل الخبر، أو يرجع إلى الآيات المعلومة من القرائن، وكلمة (كَلَّا)ردع لما سبق وإبطال لما ذُكر، وهو الإعراض عن الأعمى والتوجّه إلى غيره.

فالقرآن تذكرة لما توحي إليه فطرة الإنسان والعقل الحصيف .

١٢. (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ):

الضمير في (ذَكَرَهُ) يرجع إلى التذكرة باعتبار كون المراد منها القرآن، أو يرجع إلى نفس القرآن المفهوم من القرائن، ويحتمل أن يرجع إلى الله سبحانه، والأخير بعيد بقرينة ما يأتي من الآيات.

وفي الآية إشارة إلى أنّ كلّ إنسان إذا تجرّد من العناد ينتفع به، ومن لا ينتفع به، فلأجل وجود حجاب، بينه وبين القرآن ، وقد تكرّر كون القرآن تذكرة في مواضع عديدة، نظير قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) الحاقة: ٤٨ ..

١٣ و ١٤. (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ):

أراد سبحانه بذلك بيان جلالة قدر القرآن فوصفه بأوصاف ثلاثة وقال:

١. (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ)، أي معظّمة عند الله.

٢. (مَرْفُوعَةٍ)، أي رُفع قدرها عند الله.

٣. (مُطَهَّرَةٍ)، من الباطل واللغو.

أي هذه التذكرة موضوعة في صحف ذات شرف ورفعة، مطهّرة من كلّ باطل ولغو.

ثم إنّه يقع الكلام فيما هو المراد من هذه الصحف، والظاهر أنّ المراد من الصحف الموصوفة بالصفات الثلاث: مكرّمة، مرفوعة، مطهّرة، هي الصحف الموجودة بأيدي الملائكة التي منها يتلقّى جبرئيل (عليه السلام)الوحي الّذي أُمر بتبليغه، ولا مانع من أن يكون جبرئيل هو حامل الوحي لقوله سبحانه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤ ..

هذا من غير فرق بين تفسير السفَرة بالرسل أو بالكتّاب، فكلا المعنيين يجتمع إذا أُريد به الصحف القدسية في العالم العلوي.

وهناك احتمالات ضعيفة نشير إليها :

١. المراد هو اللوح المحفوظ، فقد دلّت بعض الآيات على وجود القرآن في لوح محفوظ، قال تعالى: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) البروج: ٢١ ـ ٢٢ ..

يلاحظ عليه: أنّه لم يرد في كلامه تعالى إطلاق الصحف أو الكتب أو الألواح بصيغة الجمع على اللوح المحفوظ.

٢. المراد كتب الأنبياء الماضين.

يلاحظ عليه: بأنّه لا يتناسب مع قوله في وصف الصحف : (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ)، خصوصاً إذا قلنا بأنّ المراد من (سَفَرَةٍ) هم كتّاب السِّفْر.

٣. المراد من الصحف الأشياء الّتي كتب فيها القرآن من قراطيس وأوراق وأكتاف وجريد.

يلاحظ عليه: بأنّ السورة مكيّة، عُدّت الرابعة والعشرين في ترتيب نزول القرآن، ولم يثبت وجود الكتبة (بصيغة الجمع) آن نَزول السورة.

١٥. (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) :

قد تقدّم أنّ سفَرة اسم جمع للسفير، والمراد سفراء الله بينه وبين رسله، وكأنّ حال الملائكة حال السفراء الذين يحملون بأيديهم

الأوامر والعهود.

١٦. (كِرَامٍ بَرَرَةٍ) :

وقد وصف سبحانه السفَرة الذين أُريد بهم الملائكة بوصفين، وهما:

١. أنّهم كرام عند الله، كما يقول في آية أُخرى: (كِرَاماً كَاتِبِينَ)(الانفطار: ١١).

٢. أنّهم بررة (جمع بار وهو فاعل الخير)، أي صالحين متّقين.

١٧ ـ ٢٣ الآيات: السابعة عشرة إلى الثالثة والعشرين (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ....لاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ).

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ).

التفسير

١٧. (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ):

قوله : (قُتِلَ الإِنْسَانُ)هذه الصيغة في لغة العرب، دعاء على الإنسان بأشنع الدعوات، على نحو يُريد الداعي بيان أنّ الإنسان بلغ من قبح الأعمال حدّاً لا يستحق معه أن يبقى حيّاً.

وأمّا قوله: (مَا أَكْفَرَهُ)«ما» نكرة بمعنى الشيء العظيم وهو مبتدأ خبره «أكفره»، والضمير المستتر يرجع إلى «ما»، «والهاء» مفعول به، بمعنى شيء عظيم جعله كافراً، ومنشأ الكفران هو نسيانه ما أُوتي من النّعم، فمع وجود النّعم العظام يكفر بالله سبحانه ويطغى.

ثم أشار تعالى إلى دلائل قدرته ونعمه على الإنسان الّذي كفر بالله مكان أن يؤمن به، وذكر النّعم الّتي غمرته في مراتب ثلاث من وجوده :

١. مبدأ خلقه.

٢. وسط خلقه.

٣. منتهى خلقه.

أمّا المبدأ: فقال:

١٨ و ١٩. (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ):

حيث خلقه من ماء مهين، وتنكير النطفة للتحقير.

وقد أُشير إلى التقدير في آية أُخرى، قال تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) الفرقان: ٢ ..

ولعلّ المراد من التقدير: أنّه سبحانه قدّر كلّ عضو في الكمية والكيفية بالقدر اللائق لمصلحته.

وأمّا الوسط: فقال تعالى:

٢٠. (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ):

وهذه هي أوّل النعم الّتي تفضّل بها الله تعالى على الإنسان في وسط حياته، والمراد به يسر السبيل إلى طاعة الله وامتثال أوامره، وإن شئت قلت: السبيل إلى الخير والسعادة . الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣١٣ .

ويمكن أن يقال: إنّ المراد هو تعرّف الإنسان على الخير والشر، وكيفية الاستفادة من القوى الطبيعية في هذا العالم، وستقرأ في تفسير سورة البلد معنى قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَ شَفَتَيْنِ * وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد: ٨ ـ ١٠ ..

إنّ الآيتين الأُوليين ناظرتان إلى التقدير في قوله (فَقَدَّرَهُ)، كما أنّ قوله: (هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)ناظر إلى تيسير سبيله في قوله (ثُمَّ

السَّبِيلَ يَسَّرَهُ).

أمّا المنتهى: فقد أشار إليه بقوله سبحانه:

٢١ و ٢٢. (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) :

أي قَبَضَ روحه ولم يتركه مطروحاً على الأرض طعمة للسباع، بل جعل في غريزة نوعه أن يواروا ميّتهم تحت الأرض تكرمة له، ثم إذا شاء بعثه بعد موته وأحياه. وفي قوله: (إِذَا شَاءَ)إشارة إلى أنّه سبحانه وحده يعلم وقت البعث والنشر.

ثم إنّه سبحانه رتّب على ذكر هذه النعم الّتي شملت الإنسان بكلّ مراحل حياته، قوله سبحانه:

٢٣. (كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ):

أي أنّ حال الإنسان تدعو إلى العجب، فمع وجود هذه الآيات في خلقه، والقدرات التي أودعت فيه، والنّعم التي أُسبغت عليه، فإنّه لم يؤد حقّ الله تعالى عليه .

وخلاصة الكلام: أنّه سبحانه تبارك وتعالى خلق الإنسان وغمره بالنعم والقدرات والطاقات في مبدأ حياته ووسطها، ثم أنعم عليه بعد قبض روحه بجعل مواراة الميّت أمراً غريزياً للإنسان، ولكنّه يغدو في عناده وطغيانه، ولا يرفع نظره إلى ما أسبغ عليه من عظائم النعم ولا ما ناله حالياً، حتى يعرفه ويعبده ويقتفي أثر رسله.

٢٤ ـ ٣٢ الآيات: الرابعة والعشرون إلى الثانية والثلاثين(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ .... مَتَاعاً لَكُمْ وَ لأَنْعَامِكُمْ) .

(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَ عِنَباً وَ قَضْباً * وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلاً * وَ حَدَائِقَ غُلْباً * وَ فَاكِهَةً وَ أَبًّا * مَتَاعاً لَكُمْ وَ لأَنْعَامِكُمْ) .

المفردات

قضباً: القضْب: هو الخضروات التي تحصد بين فترة وأُخرى والتي تؤكل من غير طبخ، وفي المفردات: القضب يستعمل في البقل.

المفردات للراغب: ٤٠٦، مادة «قضب».

الحدائق: جمع الحديقة بمعنى البستان المحوّط، ومنه قولهم: أحدق به القوم، إذا أحاطوا به .

غُلباً: الغُلْب جمع غَلْباء، يقال: حديقة غلباء: عظُمت أشجارها وتكاثفت والتفّت.

أبّاً: المرعى والكلأ الذي لم يزرعه الناس.

التفسير

عاد البيان القرآني في هذا المقطع كسابقه إلى بيان نعمه سبحانه غير أنّ الفرق بين المقطعين هو أنّه ركّز في المقطع الأوّل على خلق الإنسان في مراحل ثلاث كلّها نِعم، وفي هذا المقطع ركّز على ما به قوام حياته من النعم التي يأكلها وينتفع بها ويعيش بفضلها، كلّ ذلك تنبيهاً على أنّ الإنسان الكافر مع انغماره في هذه النعم: لم يقض ما أمره، ولم يقم بمعرفة الله سبحانه وطاعته واقتفاء أثر رسله، فكأنّه يوبّخ بأنّه مع هذه النّعم وجوداً ونشوءاً، وحياة وبقاءً، إنسان كافر بنعم الله، وإليك النعم التي ذكرت في هذا المقطع:

٢٤. (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) :

أي إن كان الإنسان في شك من ربّه فلينظر إلى ما يطعمه .

وظاهر السياق أنّ المراد هو الطعام الذي هو قوام جسمه وبدنه، وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه فسّره بعلمه الذي يأخذه، عمّن يأخذه تفسير البرهان: ٤ / ٤٢٩ .، وهو تفسير بالباطن الذي لايقف عليه إلاّ المعصوم.

وما ذكره عليه الصلاة والسلام باطن الآية، والمراد من باطنها هو المعنى الّذي يقع في طول المعنى الأوّل على نحو يوجد بينهما كمال

التناسب لا التباين والتضاد، وكأنّ الباطن نوع توسيع لمعنى الظاهر، فالآية تأمر الإنسان بأن ينظر فيما يأكله ويقضمه، هل هو طعام نافع أو مضرّ؟ وباطن الآية يشير إلى أنّ غذاء الروح ـ أعني: العلم الّذي يأخذه ـ أَولى وأهمّ، بأن ينظر الإنسان ممّن يأخذه، فهل هو صالح للأخذ فيكون علماً نافعاً، أو أنّه كان غير صالح فيكون علماً ضارّاً؟

وبهذا يُعلم أنّ تحريم بيع كتب الضلال، لأجل نكتة واضحة وهو أنّ الناس على قسمين:

١. مَن يميّز الحق من الباطل وله قدرة التفكيك بينهما، فلا شكّ أنّ جعل هذه الكتب في متناول أيدي هؤلاء أمر جائز، لأنّهم سيقومون بدراستها ونقدها وردّ سهامها إلى نحور مؤلّفيها.

٢. مَن ليس له قدرة التفكير في تمييز الحق عن الباطل بل يتأثّر بكلّ كلام وخطابة، ومن المعلوم أنّ بيع كتب الضلال إلى هؤلاء أو جعلها في متناولهم يسبّب انهدام إيمانهم ويؤثر في انجرارهم إلى أهل الضلال.

وعلى ضوء ما ذكرنا فلا يعدّ تحريم بيع كتب الضلال منافياً لحرية التفكير الّتي دعا إليها الإسلام وقال: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ) الزمر: ١٨ ..

ثمّ لمّا كانت الغاية من النظر إلى الطعام هي التفكّر والاعتبار بهذه النعمة، ليطيع الإنسان ربّه ويشكره، بيّن سبحانه مصدر تكوّن هذا الطعام بقوله:

٢٥. (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا):

وأُريد به نزول المطر ووصفه بـ (صبّاً) للإشارة إلى غزارة الماء، وبدأ بذكر المواد التي يتكون منها الطعام بالماء ؛ لأنّ له الرئاسة على الحياة، قال سبحانه: (وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْء حَيّ) الأنبياء: ٣٠ . .

وخصّ مبدأ الماء في الأرض بنزوله من السماء مع أنّ الإنسان يستمدّه من العيون والآبار والأنهار، لأنّ مصادر هذه المياه هو المطر فهو ينزل من السماء، ثم يستقرّ في أعماق الأرض، ثم يخرج منها، أو يستخرج بالوسائل والأدوات الخاصّة.

٢٦. (ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا):

بما يخرج منها من نبات، فعندما تمتصّ البذرة الماء، تنتفخ وتتمزّق قشرتها، وهذا يؤدّي إلى ظهور بادرة صغيرة جداً، يُعرف الجزء السفلي منها بالسويقة الجنينية السفلى، وهذه تعطي الجذر الرئيسي، الذي ينمو إلى أسفل فيشقّ التربة ويكوّن المجموع الجذري الذي يمتصّ الماء والأملاح المعدنية التي يحتاج إليها النبات، ويُعرف الجزء العلوي من البادرة بالسويقة الجنينية العليا، وهي تنمو إلى أعلى، فتشقّ التربة، ويخرج النبات فوقها ممتدّاً في الهواء، وفعل النبات هو فعل الله سبحانه ؛ لأنّه مصدر الوجود ومسبب الأسباب ومكوّن النظام، وهو الذي منح النبات تلك القدرة على النمو وشقّ الأرض .

ثم إنّه سبحانه يذكر هذه النِّعم بصورتين مختلفتين:

الأُولى: ما يشير فيها إلى نفس النِّعم التي يتغذّى عليها الإنسان.

الثانية: يذكر المبادئ التي تسبب وجود النِّعم.

أمّا الأُولى فقد أشار إليها بقوله:

٢٧ و ٢٨. (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَ عِنَباً وَ قَضْباً):

فقوله: (حَبًّا) يشمل جنس الحبوب التي يتغذّى بها الإنسان، وتُدّخر، من الحنطة والشعير والحمّص وغيرها. وقد قدّم الحبّ لأنّه المادة الرئيسية لتغذية الإنسان والحيوان، ثم أضاف وقال: (وَ عِنَباً)وقد ذكر العنب دون غيره لأنّه يشتمل على مواد غذائية مقوّية، وربّما يُعد العنب غذاءً كاملاً، ثم ذكر (قَضْباً) ويُراد به الخضر التي يأكلها الإنسان رطبة غضّة، بلا طبخ.

٢٩. (وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً):

يراد بالأوّل ما يعصر منه الزيت المعروف، ويراد بالثاني ـ أعني: «نخلاً» ـ جمع نخلة، وكلاهما معروفان.

وخصّ النخل بالذكر دون ثمرته ـ خلافاً للزيتون حيث ذكر الثمرة ـ وذلك لأنّ منافع النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمرته، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورطب وبسر وجماره، ويشربون ماء عود النخل إذا شُقّ عنه، ويتّخذون من نوى التمر علفاً لإبلهم، فضلاً عن اتّخاذهم البيوت والأواني من خشبه، والحصر من سعفه والحبال من ليفه . التحرير والتنوير: ٣٠ / ١١٦ .

وأمّا الصورة الثانية وهي الإشارة إلى مبادئ هذه النّعم ومراكزها، فقال:

٣٠. (وَ حَدَائِقَ غُلْباً):

أي: بساتين محوطة تشتمل على أشجار عظام غلاظ متكاثفة.

٣١. (وَ فَاكِهَةً وَ أَبًّا):

يشير إلى مطلق الفاكهة، وذكر الحدائق لأنّها هي المركز الذي تؤخذ منه الثمار، ولذلك ذكر بعدها قوله: (وَ فَاكِهَةً).

قوله تعالى: (وَ أَبًّا)أي: الكلأ الذي ترعاه الأنعام.

٣٢. (مَتَاعاً لَكُمْ وَ لأَنْعَامِكُمْ) :

المتاع ما يتمتع به الإنسان والحيوان.

روى السيوطي عن إبراهيم التيمي قال: سُئل أبو بكر عن قوله تعالى: (أَبًّا) فقال: أيّ سماء تُظلّني وأي أرض تُقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

ثم نقل عن البيهقي في «شعب الإيمان» والخطيب والحاكم وصحّحه عن أنس : أنّ عمر قرأ على المنبر: (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَ عِنَباً وَ قَضْباً)إلى قوله: (وأبّاً) قال: كلّ هذا قد عرفناه فما الأبّ، ثم رفع عصاً كانت في يده فقال: هذا لعمر الله هو التكلّف، فما عليك أن لاتدري ما الأبّ، اتّبعوا ما بُيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربّه . الدر المنثور: ٨ / ٤٢١ ـ ٤٢٢ .

لاشكّ أنّ ما في ذيل كلامه من النهي عن التقوّل بغير علم لا إشكال فيه، إنّما الإشكال يتوجّه من جانب آخر، وهو كيف يخفى عليه معنى هذا اللفظ وهو العربي الصميم، وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام)أنّه لمّا سمع بمقالة [الخليفة] قال: «سبحان الله أما علم أنّ الأبّ هو الكلأ والمرعى، وأنّ قوله تعالى: (وَفَاكِهَةً وَ أَبًّا)اعتداد من الله بإنعامه على خلقه فيما غذّاهم به، وخلقه لهم ولأنعامهم ممّا تحيا به أنفسهم وتقوّم به أجسادهم». الإرشاد للشيخ المفيد: ١ / ٢٠٠، كما في الميزان: ٢٠ / ٣١٩ .

٣٣ ـ ٤٢ الآيات: الثالثة والثلاثون إلى الثانية والأربعين (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ).

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ * وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئ مِنْهُمْ يَوْمَئِذ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ).

المفردات

الصاخّة: وهي الصاكّة بشدّة صوتها، الآذان فتصمّها.

المسفرة: يقال: أسفر الصبح أي ظهر ضوء الشمس في أُفق الفجر، ويراد وجوه متهلّلة فرحاً وعليها أثر النعيم.

ضاحكة: كناية عن السرور.

مستبشرة: فرحة.

الغبرة: الغبار.

ترهقها: تعلوها.

القترة: ظلمة الدخان، وفي الحقيقة شبه دخان يغشي الوجه من الكرب والغمّ.

التفسير

بعد أن ذمّ سبحانه المشركين بقوله: (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)ثم استدلّ بصورتين على كفرهم بنعم الله سبحانه، فرّع على ذلك إنذارهم بيوم الجزاء مقابل كفرهم بالله سبحانه وعدم معرفة نعمه ومقامه بشكل يصف ذلك اليوم المروّع بأمرين:

٣٣ ـ أ. (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ):

الّتي تصكّ الآذان، ولعلّه يريد صيحة القيامة.

٣٤ ـ ٣٦ ـ ب . (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَ صَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ):

وصف لهول ذلك اليوم حيث يهرب فيه المرء من أعزّ أفراد عائلته .

وقد ذكر سبحانه هنا أصنافاً ثلاثة من أفراد عائلته، فبدأ بالمحبوب ثم الأحبّ ـ من ناحية تعلّق قلب الإنسان به ـ ، فذكر أوّلاً الفرار من الأخ، ثم ذكر الفرار من الأُمّ والأب، وغير خفيّ أن تعلّق الإنسان بالأبوين أشدّ من تعلّقه بالأخ، وأن الوشيجة الموجودة بين الإنسان وعموديه أقوى من الوشيجة الموجودة بينه وبين إخوانه.

ثم انتقل ثالثاً إلى الفرار من الزوجة والأبناء فقال: (وَصَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ)وهما أشدّ الناس حبّاً للإنسان وحنوّاً عليه.

(ومن الإعجاز النفسي للقرآن الكريم في هذه الآيات، أنّه غاص في أعماق النفس الإنسانية، وأقام مشاعرها على ميزان دقيق محكم، فجاء هذا الترتيب لموقف الإنسان ممّن يفرّ منهم في زحمة هذا البلاء، حسب درجة شعوره بهم، ووزنه لكلّ منهم) التفسير القرآني للقرآن: ١٦ / ٤٦٢ ..

٣٧. (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ):

والآية في صدد بيان شدّة الهول وزيادته، حيث إنّ كلّ إنسان لا يفكّر يومذاك إلاّ في أمر نفسه، وأمره هذا يغنيه عن الاشتغال بغيره.

وإذا أردنا أن نمثّل هول ذلك اليوم فلنمثل بمثال أضعف من أن يشبه ذلك المقام، والمثال هو فيما لو أُلقي القبض على جماعة في جريمة كبرى، فإذا تمّت جلسات التحقيق والمحكمة، وجُمعوا لسماع ما سيصدر بحقّهم من أحكام، فكلّ منهم لا يسمع ولا ينتظر إلاّ حكمه بالذات، ولا ينشغل بسماع الأحكام الصادرة بحقّ الآخرين، ولا يفكّر في أمر آخر.

روى الطبرسي عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يبعث الناس حفاة عراة غرلاً الغرل جمع الأغرل، وهو الّذي لم يختن .يلجمهم العرق ويبلغ شحمة الآذان»، قالت: قلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟؟

قال: شغل الناس عن ذلك، وتلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) . مجمع البيان: ١٠ / ٢٠٦ .

ثم انتقل البيان القرآني إلى بيان حال صنفين من الناس: سعداء وأشقياء، فقسّم من في المحشر إلى قسمين متفاوتين من حيث ظهور علامات الفرح أو الغمّ في وجوههم.

فأمّا القسم الأوّل ـ أعني: السعداء ـ فقد أشار إليهم بقوله :

٣٨. (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ):

أي مشرقة مضيئة.

٣٩. (ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ):

فلو حمل الضحك على معناه اللغوي يكون معنى الآية: ضاحكة من سرورها وفرحها بما أُعدّ لها من الثواب، ولو قلنا بأنّها كناية عن الفرح يصير معنى الآية فرحة مسرورة، لما نالت من الجزاء الأوفر.

نعم نُسبت هذه الآثار إلى الوجوه ولكن المنسوب إليه في الواقع هم أصحابها، وإنّما نُسب إليها لأنّ آثار الفرح والغمّ تظهر في الوجوه قبل كلّ شيء، فترى أنّ الإنسان المطمئن يعلو على وجهه الانبساط، وأمّا الإنسان القلق فترى وجهه منقبضاً متغيّر اللون إلى الغُبرة.

هؤلاء هم السعداء وأمّا الأشقياء فهم في مقابل المؤمنين جزاءً ووصفاً، فأشار إليهم بقوله:

٤٠ و ٤١. (وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) :

فقوله: (غَبَرَةٌ) جاء في مقابل (مُسْفِرَةٌ) فالسعيد يعلو وجهه الانبساط والنور والضياء، وأمّا الشقيّ تعلو وجهه غبرة الحزن والكمد، ويغشاه سواد الخزي والذلّ .

ثم عرّف سبحانه أصحاب تلك الوجوه الموصوفة بالغبرة والسواد، بقوله:

٤٢. (أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) :

أمّا أصحاب تلك الوجوه المشرقة المسرورة، فلم يُشر إليها، وكأنّهم يُعرفون من سياق الآيات.

ثم إنّه قدّم الكفر على الفجور، مع أنّ الأوّل أشدّ، ولعلّ وجهه أنّ الفجور أمر عملي يكشف عن خساسة الذات وخبثها.

تمّ تفسير سورة عبس

٨١-سورة التكوير

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَ إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْب قُتِلَتْ * وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَ إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم * ذِي قُوَّة عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِين * مُطَاع ثَمَّ أَمِين * وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون * وَ لَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِين * وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَان رَجِيم * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَ مَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُميّت السورة في كتب التفسير بسورة «التكوير»، وفي بعض التفاسير بسورة «كوّرت». والأوّل مأخوذ من قوله تعالى: (كُوِّرَتْ)، والثاني حكاية لنفس اللفظ.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها تسع وعشرون آية بالاتّفاق، وهي مكّيّة، نزلت في أوائل البعثة عندما وصف المشركون النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجنون.

أغراض السورة

تتألّف هذه السورة من مقطعين، ففي المقطع الأوّل تتحدّث عن أشراط الساعة وأمارات يوم القيامة، وما يحدث عندها من أهوال وشدائد، ينهار بها نظام الوجود، وتتبدّل السماء، وتُدمَّر الأرض وما عليها. وهو من أوّل السورة إلى الآية الرابعة عشرة.

والمقطع الثاني يتعلّق بالوحي وأنّ ما يتلوه النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)أو (صَاحِبُكُمْ) ـ حسب التعبير القرآني ـ وحيٌ تلقّاه من رسول أمين له شأن وخصوصية، وأنّ أمين الوحي ليس على الغيب بضنين، بل هو يبلّغ ما أُمر به.

وعلى هذين المقطعين تدور آيات السورة.

١ ـ ١٤ الآيات: الأربعة عشرة الأُولى(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ .... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ).

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَ إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْب قُتِلَتْ * وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَ إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ).

المفردات

كوّرت: التكوير: التلفيف على جهة الاستدارة، يقال: كُرتُ العمامةَ على رأسي، أكورها كوراً، وإذا نُسب إلى الشمس يكون المراد انقباض ضوئها المنتشر في العالم وخفاءه.

انكدرت: يفسّر بوجهين:

١. انقلاب الشيء من أصله حتّى يصير أعلاه أسفله وتكون النتيجة التساقط والتناثر.

٢. الكُدرة ضدّ الصفاء كتغيّر لون الماء ويكون المراد تكديرها حين زال عنها لونها.

العشار: جمع عشراء وهي الناقة الّتي قد أتى عليها عشرة أشهر من حملها فقاربت أن تضعه، وهي أنفس شيء عند العرب لكونها مستعدّة للّبن والولد.

الوحوش: جمع وحش وهو الحيوان البرّي غير المستأنس بالإنسان .

حُشرت: أي جُمعت في مكان واحد.

سُجّرت: السجْر: الملء، ويقال : بئر سجْر أي ممتلئة، وتنّور مسجور أي مملوء بالنار.

زوّجت: التزويج: هو الجمع، أي جمع النفوس.

الموءُودة: البنت التي تُدفن حيّة، من وأد يئد وأداً؛ فهي موءُودة.

كشطت: الكشط هو سلخ الجلد عن العضو، وإزالة الإهاب عن الحيوان الميّت.

سُعّرت: أوقدت وأضرمت، والتسعير: تهييج النار حتّى تتأجّج.

أُزلفت: الإزلاف: التقريب. أي قُرّبت من أهلها.

التفسير

هذا المقطع من السورة الّذي يتضمن أربع عشرة آية يصف أشراط الساعة ومقدّماتها، وما يقع فيها من الأهوال المروّعة الّتي ينسى الإنسان المبعوث كلّ شيء سوى إنقاذ نفسه منها.

والآيات ترسم لنا انقلاباً كونياً لكلّ مشهود على نحو تكون الشمس كاسفة والنجوم متناثرة والجبال مُندكّة صائرة تلالاً من الرمل، والبحار هائجة قد فاضت مياهها بسبب الزلازل، وانطلقت إلى كلّ مكان حتى تغطّي الأرض.

وهذه المشاهد المروّعة تدعو الإنسان إلى التأمّل فيما يؤول إليه أمر حياته.

روي عن علي (عليه السلام)قوله: «رحم الله عبداً علم أنّه مَن أين وفي أين وإلى أين» والإنسان الماديّ يهتم بالمرحلة الثانية ويرى حياته مقطوعة عن الأُولى والثالثة، لكن الإنسان الإلهي يهتم بالمراحل الثلاث كلّها، بالأخصّ المرحلة الثالثة.

إنّ الوحي السماوي في مجموع آياته يركّز على شيئين أكثر من التركيز على غيرهما:

١. التأكيد على توحيد العبادة ورفض الأصنام.

٢. التذكير بيوم القيامة وأحوالها، وما سيقابله الإنسان في تلك الحياة.

ولذلك ترى أنّ القرآن يؤكّد في هذه السورة وفيما بعدها من سورتي «الانفطار» و «الانشقاق» ـ على صياغة واحدة ـ يؤكّد على أحوال القيامة، كما سيوافيك.

وقد ذكر سبحانه من عظائم الآيات الّتي يُعد بعضها من أشراط الساعة وبعضها من وقائعها، اثني عشر مشهداً، فإليك تفسيرها:

١ ـ أ. (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ):

أي انقبض ضوْءُها المنتشر في العالم، فيتصوّر أنّ أضواءها كوّرت على رأس الشمس كتكوير العمامة على الرأس، والآية كناية عن برودة الشمس، وانطفاء شعلتها، وانكماش ألسنتها الملتهبة الّتي تمتد من جوانبها كلّها إلى أطراف المجموعة الشمسية؛ أو انضمام بعضها إلى بعض ككور العمامة ولفّها بنحو الإدارة، وهو أيضاً يلازم جمع ضوئها.

وقد أثبت العلم أنّ كلّ ثانية تمرّ من عمر الشمس ينتقص من وزنها ما يقارب أربعة ملايين طن .

وقدّر العلماء وزن الشمس بأنّه يعادل وزن (٣٣٠،٠٠٠) ضعفاً من وزن الكرة الأرضية، ووزن الكرة الأرضية هو ٦٦٠٠ مليون بليون طن، ومن هذا يعلم كم هو وزن الشمس .

٢ ـ ب. (وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) :

هذا هو المشهد الثاني من المشاهد التي تحدث عند قيام الساعة، وهو يحكي عن انكدار النجوم وهي غير الكواكب، فالنجوم ما في ذاتها نور وشعلة، وأمّا الكواكب فهي تفتقد إلى النور، وإنّما تكتسب النور من الشمس الّتي تدور حولها.

وعلى هذا فالأولى تفسير (انْكَدَرَتْ) لانتسابه إلى النجوم، بالانكدار أي الإظلام، نظير قوله سبحانه: (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ) المرسلات: ٨ .أي ذهب نورها.

نعم عبّر القرآن عن ذلك المشهد في مورد الكواكب بالتناثر وقال: (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) الانفطار: ٢ . أي تساقطت. فالنجوم تتكدر، والكواكب تتساقط.

وعلى كلّ تقدير فالنظام الذي يسود النجوم والكواكب يبطل من أساسه، فتفقد ضوءها ونظامها.

٣ ـ ج . (وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ):

هذا هوالمشهد الثالث وهو يحكي عن تسيير الجبال، ويفسِّر ذلك، قوله تعالى: (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ) المرسلات: ١٠ ، وقوله: (يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَ الْجِبَالُ وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً) المزمل: ١٤ ، فإذا نُسفت الجبال، تفتّت صخورها، وتحولّت إلى تلال من رمل، وعندئذ تحرّكها الرياح وتسيّرها أنى اتّجهت، ثم تغدو غباراً معلّقاً في الفضاء، كما قال تعالى: (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً) (الواقعة: ٥ ـ ٦ .).

٤ ـ د. (وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ):

وهذا هو المشهد الرابع، وقد عرفت أنّ النوق الحوامل إذا أتت عليها عشرة أشهر، هي أنفس مال عند العرب لا يبدلها بشيء آخر، لكن أهوال القيامة المروّعة تبلغ إلى حدٍّ ينسى الإنسان أنفس مال عنده، أي يتركه دون أن يفكّر له براع أو حافظ.

والآية تكشف عن فزع الإنسان، حيث يترك كلّ شيء ولا يفكّر في شيء إلاّ في إنقاذ نفسه. ومن المعلوم أنّه لا توجد يوم القيامة ناقة عشراء بحيث لو كان لرجل مثلها لعطلها (أهملها) واشتغل بنفسه.

٥ ـ هـ. (وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ):

وهذا هو المشهد الخامس، فهل المراد حشر الوحوش، كما يستظهر من قوله سبحانه: (وَمَا مِنْ دَابَّة فِي الأَرْضِ وَ لاَ طَائِر يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْء ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) الأنعام: ٣٨..

إنّ حشر الوحوش من أشراط الساعة لا ممّا يقع يوم القيامة، ويفسّر بوجوه:

١. خروجها من غاباتها وأكنانها لأجل الزلزال الشديد الّذي تبدّل فيه الأرض غير الأرض.

٢. تخرج من أكنانها لكن مع اضمحلال الخصائص الوحشية ولم يبق غير الألفة نتيجة لأهوال يوم القيامة فتجتمع في صعيد واحد.

٣. ومع ذلك كلّه فللمراغي تفسير خاص لحشر الوحوش، يقول:(وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)أي ماتت وهلكت، تقول العرب إذا أضرّت السنة بالناس وأصابتهم بالقحط والجرب: حشرتهم السنة: أي أهلكتهم، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم . تفسير المراغي: ١٠ / ٥٤ .

وربما يفسّر جمعها كسائر الأحياء من بين الجنّ والإنس على نحو تزول طباعها المتنافرة الوحشية، فيسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر مع الجدي، وترعى البقرة والدبّ معاً.. الخ . كتاب أشعيا: الآية ٦ ـ ١٠ ولعلّ الوجه الأوّل أفضل.

٦ ـ و. (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ):

هذا هو المشهد السادس، وقد مرّ عليك ـ كما في «المفردات» ـ بأنّ التسجير يستعمل ويراد به الامتلاء تارة، والاشتعال بالنار أُخرى.

فلو أُريد الأوّل فالمراد منه أنّ البحار تمتلأ وتفيض، بسبب الزلازل العنيفة التي ترجّ الأرض، حيث تنشأ أمواج عظيمة، فتندفع المياه إلى مسافات بعيدة جداً، وتغرق الأرض. وتسمّى مثل هذه الأمواج (الأمواج السّنامية)، وقد بلغ ارتفاع هذه الأمواج، عندما وقعت بعض الزلازل، إلى أكثر من (٣٠) متراً.

وإن أُريد الثاني فيراد به أنّها تصير ناراً تضطرم.

وليس هذا ببعيد ؛ لأنّ الماء يتركّب من عنصرين هما: الأوكسجين والهيدروجين، وهما غازان، الثاني قابل للاشتعال بسرعة، والأوّل هو العامل الأساسي في احتراق الأشياء ، فلو تحقّقت، لسبب ما، تجزئة للمياه وانفصل الأوكسجين عن الهيدروجين، فإنّ البحار ستتحوّل إلى كتلة ملتهبة من النار.

٧ ـ ز. (وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ):

هذا هو المشهد السابع من مشاهد يوم القيامة، فما هو المراد من تزويج النفوس، فيمكن أن يقال: بأنّ قوله سبحانه: (لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) النساء: ٥٧ . ، وقوله: (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُور عِين)(الحديد: ٥٤ .) يدلّ على أنّ لنفوس السعداء نساء في الجنة ويمكن أن يفهم ـ بقرينة المقابلة ـ أنّ لنفوس الأشقياء قرائن من أنفسهم، يقول سبحانه: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) الصافات: ٢٢.. والله العالم.

وعن الإمام الباقر (عليه السلام)في تفسير الآية: «أمّا أهل الجنّة فزوّجوا الخيرات الحسان، وأمّا أهل النار فمع كلّ إنسان منهم شيطان، يعني قُرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم». تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥١٤ .

٨ ـ ح . (وَ إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ) :

يقال: وأد الموءودة يئدها: دفنها حيّة، والموءودة اسم كان يطلق على من كانت العرب تدفنها حيّة من بناتها، وهو وائد، والبنت موءودة .

وكانت مذاهب العرب مختلفة في الوأد وقتل الأولاد، وكانوا يئدون لأسباب مختلفة:

١. فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق عار بهم من أجلهنّ فيما إذا وقعن أسيرات بيد أعدائهم.
٢. ومنهم من يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء تشاؤماً منهم بهذه الصفات. وأُريد من الثانية السوداء، ومن الثالثة مَن فيها بياض يظهر في الجسم مثل البرص، ومن الرابعة العرجاء.
٣. ومنهم من يقتل أولاده خشية الإملاق أو خوف الفقر، وقد نزل فيهم قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً) الإسراء: ٣١، ولاحظ: سورة الأنعام: ١٥١ ..

وهذه الجريمة كانت متفشّية بين قسم من القبائل؛ روي أنّ رجلاً من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وكان لا يزال مغتمّاً بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما لك تكون محزوناً»؟ فقال: يا رسول الله، إنّي أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألاّ يغفره الله لي وإن أسلمت. فقال له: «أخبرني عن ذنبك»، فقال: يا رسول الله، إنّي كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفعت إليّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتّى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتني الحميّة ولم يحتمل قلبي أن أزوّجها أو أتركها في البيت بغير زواج، فقلت للمرأة: إنّي أُريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسُرّت بذلك وزيّنتها بالثياب والحلي، وأخذت عليّ المواثيق بألاّ أخونها، فذهبت إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية أنّي أُريد أن أُلقيها في البئر فالتزمتني، وجعلت تبكي، وتقول: يا أبت أيش تريد أن تفعل بي؟ فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحميّة، ثَم التزمتني وجعلت تقول: يا أبتِ لا تضيّع أمانة أُمي! فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها حتّى غَلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبتِ، قتلتني، فمكثت هناك حتّى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وأصحابه، وقال: «لو أمرت أن أُعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك» المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي: ٥ / ٧٤، نقلاً عن الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧ / ٩٧ ..

ونقل الآلوسي في «بلوغ الأرب» ما يدلّ على تفشّي هذه الجريمة النكراء، قال: إنّ صعصعة بن ناجية بن عقال كان يفدي الموءُودة من القتل، ولمّا أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قال: يا رسول الله إنّي كنت أعمل عملاً في الجاهلية أفينفعني ذلك اليوم؟ قال: وما عملك؟ فأخبره بخبر طويل فيه أنّه حضر ولادة امرأة من العرب بنتاً فأراد أبوها أن يئدها. قال: فقلت له: أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادها. قال: قلت: إنّما أشتري حياتها ولا أشتري رقّها، فاشتريتها منه بناقتين عشراوين وجمل وقد صارت لي سنَّة في العرب على أن أشتري ما يئدونه بذلك، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءُودة وقد أنقذتها! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا ينفعك ذلك لأنّك لم تبتغ به وجه الله وإن تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه».

وأخرج الطبراني عن صعصعة بن ناجية المجاشعي قال: قلت: يا رسول الله إنّي عملت أعمالاً في الجاهلية فهل فيها من أجر؟ أحييت ثلاثمائة وستين من الموءُودة أشتري كلّ واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل فهل لي من ذلك من أجر؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «لك أجره إذ منَّ الله تعالى عليك بالإسلام». المعجم الكبير: ٨ / ٧٦ .

وهذه الرواية أصحّ من الرواية الأُولى، وقد ذكر الفرزدق إحياء جده الموءُودة في كثير من شعره: كما قال:

ومنا الّذي منع الوائدات *** وأحيا الوئيد فلم يُوأَدِ*

*بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي: ٣ / ٤٦ .

ثم إنّ اللازم ـ حسب الظاهر ـ أن يُسأل القائل (الوائد) عن سبب قتلها، لا أن تُسأل الموءُودة نفسها، وهذا يعني أنّ المراد من السؤال هو تعيين الذنب الموجب لقتلها، كان الوائد من كان؟، ولذلك قال:

٩. (بِأَيِّ ذَنْب قُتِلَتْ):

إشارة إلى مظلوميتها وبراءتها من أي ذنب، وفي هذا مزيد تقريع للقاتل، وتبشيع لجريمته النكراء .

والآية تدلّ على أنّ حُسن الأفعال وقُبحها يُعلم من جانب العقل، وإن لم ينصّ عليه الشرع، ولذلك ذُمّ عمل هؤلاء حيث كانوا يقتلون بناتهم بلا ذنب وبلا سبب.

ثم إنّ ما مرّ من المشاهد التسعة كان راجعاً إلى أشراط الساعة ومقدّماتها، ولكن من هنا يبدأ القرآن بالحديث عن نفس القيامة وبعث الإنسان للمحاسبة ويقول:

١٠ ـ ط. (وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ):

والمراد صحف الأعمال الّتي كتبت الملائكة فيها أعمال أهلها من خير وشر، فتنشر ليقرأها أصحابها فيجازوا بحسبها، قال سبحانه: (اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) الإسراء: ١٤. .

وأمّا ما هو واقع الصحف ونشرها وكيفية قراءة أصحابها، فهو من الأُمور الغيبية التي لا تُعلم إلاّ بعد الخروج من هذه الدنيا والوفود على الآخرة.

١١ ـ ي. (وَ إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ):

قلنا: الكشط هو سلخ جلد الحيوان عن بدنه، وكأنّ السماء جلد حيوان يمنع عن مشاهدة ما وراءه، فتُزال السماء عن موضعها. وأمّا ما هي الغاية من هذا الكشط فغير ظاهر، ولعلّ المراد منه رفع الحجب الفاصلة بين العالمين السفلي والعلوي، ولعلّ السماء هي المانعة من رؤية الملائكة أو الجنة والنار، فيكون عالم الوجود من ملكها وملكوتها شاخصاً أمام الإنسان، والله العالم.

١٢ ـ ك. (وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ):

أي أُوقدت وأُضرمت، ويطرح هنا سؤال وهو أنّ الجنّة والجحيم مخلوقتان فعلاً، كما يومئ إليه قوله تعالى: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) التوبة: ٤٩ .ومع ذلك فكيف يقال: (وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ)؟

ويمكن أن يجاب بأنّ التأجيج وتهييج النار يختصّ بيوم القيامة، وإن كانت موجودة قبل يوم القيامة. والله العالم.

١٣ ـ ل . (وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ):

أي قُرّبت من أهلها وقُرّبوا منها؛ لأنها أُعدّت لهم وأُعدّوا لها، قال سبحانه: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيد) ق: ٣١. .

ثم إنّه سبحانه بعد بيان هذه الجمل الّتي تحكي عن أشراط الساعة ومشاهد القيامة يذكر جواب هذه الجمل الشرطية الّتي بلغت اثنتي عشرة جملة، فيقول:

١٤. (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ):

فلو كانت الجمل السابقة بصورة القسم كان هذا جواباً له. وتنكير (نَفْسٌ)للدلالة على العموم، وأنّ هذا الحكم لا يختصّ بنفس دون نفس كما يصرّح بذلك قوله: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْر مُحْضَراً وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوء)(آل عمران: ٣٠.).

ثم ما هو المراد من الأعمال الّتي أحضرتها؟

هناك احتمالات لذلك:

١. حضور نفس الأعمال بوجودها الأُخروي، فإنّ لكلّ من أعمال الإنسان ظهورين: ظهور دنيوي وظهور أُخروي. فحقيقة الصلاة في الحياة الأُخروية يتجلّى نوراً، وهكذا.

٢. حضور جزاء الأعمال بشهادة قوله: (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) .

٣. ظهور صحيفة الأعمال الّتي ينعكس فيها ما صدر عن الإنسان من خير وشر، والله العالم بحقائق ما أراد.

إلى هنا تمّ تفسير المقطع الأوّل وهو الراجع إلى بيان أشراط الساعة ومشاهد القيامة. وبعده نبدأ بتفسير المقطع الثاني، الّذي يتكفّل ببيان أنّ القرآن ليس كلام بشر وإنّما هو كلامه سبحانه، أنزله على قلب نبيه بواسطة رسول كريم، وإليك الآيات.

١٥ ـ ٢٩ الآيات: الخامسة عشرة إلى التاسعة والعشرين(فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ .... إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

(فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم * ذِي قُوَّة عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِين * مُطَاع ثَمَّ أَمِين * وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون * وَ لَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِين * وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَان رَجِيم * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

المفردات

الخُنّس: قال ابن فارس: الخَنَس أصل واحد يدلّ على استخفاء وتستّر، والخنّاس في صفة الشيطان، لأنّه يخنس إذا ذُكر الله تعالى. معجم مقاييس اللغة: ٢ / ٢٢٣، مادة «خنس».

وفي «لسان العرب»: الخُنوس: الانقباض والاستخفاء. ثم قال: وانخَنَس: انقبض وتأخّر، وقيل: رجع، وفي الحديث: الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر اللهَ خنس أي انقبض منه وتأخّر. لسان العرب: ٤ / ٢٣١، مادة «خنس» .

وقد أُضيف في اللسان معنى الانقباض .

الجوارِ: جمع جارية، وهو الشيء الّذي يتحرك بسرعة.

الكُنَّس: قال ابن فارس: له أصلان أحدهما يدلّ على سَفْر شيء عن وجه شيء وهو كشْفُه، والأصل الآخر يدلّ على استخفاء، ثم يقول: الكُنّس: الكواكب تكنِس في بروجها كما تدخل الظّباء في كِناسها ، والكِناس: بيت الظبي.(معجم مقاييس اللغة: ٥ / ١٤١، مادة «كنس».)

ولا يخفى أنّه على ما ذكره يكون معنى الكُنّس هو نفس الخُنّس، لأنّه فسّره بالاستخفاء، كما فسّر الخُنّس أيضاً بالاستخفاء.

وفي «لسان العرب» ـ نقلاً عن الزجّاج ـ : الكُنّس: النجوم تطلع جارية، وكنوسها أن تغيب في مغاربها الّتي تغيب فيها . لسان العرب: ١٢ / ١٦٧، مادة «كنس».

وفي التفاسير جاء المعنى قريباً من هذه الكلمات .

ففي «مجمع البيان»: الخُنّس جمع خانس، والكُنّس جمع كانس، وأصلهما الستر .

والشيطان خنّاس لأنّه يخنس إذا ذُكر الله تعالى، أي يذهب ويستتر . مجمع البيان: ١٠ / ٣١٤.

وهو قريب ممّا ذُكر في المقاييس.

عسعس: العسّ في اللغة طلب الشيء بالليل، ويقال: عسعس الليل إذا أدبر، قال الراغب: قوله: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ): أي أقبل وأدبر، وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه.(المفردات للراغب: ٣٣٤، مادة «عسعس».)

الأُفق: جمعه الآفاق بمعنى النواحي، قال سبحانه: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ)(فصّلت: ٥٣ .).

ضنين: البخيل، والضنّ هو البخل بالشي النفيس .

التفسير

هذا هو المقطع الثاني من هذه السورة الّذي هو بصدد بيان أنّ القرآن كلام إلهي أرسله سبحانه عن طريق رسول كريم (وهو جبريل (عليه السلام)) إلى عبده المطّهر، ليقرأه على الناس ويتلوه عليهم.

وفي هذا الصدد يقسم بأُمور ثلاثة :

١. الجواري الموصوفة بالخُنس والكُنّس.

٢. (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ).

٣. (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ).

أقسم بهـذه الأُمور للتأكيد على قوله: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم) فهاهنا أقسام ثلاثة.

١٥ و ١٦. (فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ) :

اختلف المفسّرون في كلمة «لا» النافية هل هي زائدة أو لا ؟

والحق أنّها غير زائدة، ومع ذلك فقوله: (فَلاَ أُقْسِمُ) كناية عن الإقسام، ولعلّ الإتيان «بلا» للإشعار بأنّ المقسم عليه أظهر من الإقسام والإحلاف عليه. ويُعلم ذلك بملاحظة جواب القسم، فإنّه في عامّة الآيات الّتي اشتملت على «لا أُقسم» من الأُمور الواضحة الغنية عن القسم، نظير قوله: (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ) القيامة: ٣.، ولاحظ سائر الموارد .

ثم إنّ الفاء في قوله: (فَلاَ أُقْسِمُ) فاء تفريع، وقد فرّع المقطع الثاني الّذي يركّز على أنّ القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه أرسله عن طريق رسول كريم إلى نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ فرّعه ـ على المقطع الأوّل الّذي يركز على أشراط الساعة وعلاماتها، ووقوع البعث والجزاء .

ووجه التفريع هو أنّ القرآن الكريم هو الّذي أنذر بيوم البعث إنذاراً عنيفاً، فلمّا ركّز على ثبوت البعث والمعاد ناسب أن ينتقل إلى القرآن الّذي أنذرهم بالبعث ويوم القيامة، فكأنّ التفريعَ تفريعٌ ذُكِرَ لتفريع كلام على كلام، بأدنى مناسبة.

إنّ المقسم به عبارة عن: (الْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ) فهنا وجوه في بيان ما أُريد منه:

الوجه الأوّل: أن كُلاًّ من الوصفين يشيران إلى غيبة المقسم به واستتاره، فعلى هذا فالظاهر تفسيره بعامّة النجوم ؛ لأنّها تخنس وتتوارى في النهار ثم تبدو في الليل ثم تكنس وتتوارى في ضوء الشمس .

الوجه الثاني: ما يظهر من الزمخشري في كشّافه حيث فسّر الخَنَس بالغيبة والكَنَس بالظهور، يقول: هي جميع الكواكب تخنس في النهار وتغيب عن العيون، وتكنس في الليل أي تطلع في أماكنها كالوحش في كُنسها . تفسير الكشّاف: ٣ / ٣١٧ .

الوجه الثالث: عكس ما اختاره صاحب الكشّاف، وهو ما نقل عن الشيخ محمد عبده، حيث قال ما معناه: إنّ الخنس عبارة عن الظهور للعيان بعد غياب الشمس، والكنس عبارة عن الاختفاء عن الرائي في ضوء الشمس كما تختفي الظبية في كِناسها.(التفسير الكاشف: ٧ / ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .)

ولم نجد مصدراً ـ في اللغة ـ لهذين التفسيرين.

الوجه الرابع: وهو تفسير الخنس بالانقباض والتراجع، وعلى هذا ينطبق على الكواكب الخمسة المعروفة ـ أعني: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد ـ وهي بالإضافة إلى الأرض ستة كواكب تدور حول الشمس، وهناك كواكب أُخرى تدور حولها أيضاً لا تُرى بالعين المجردة، أعني: أورانوس، وبلوتو، ونبتون.

إنّ نجوم السماء ـ ما وراء هذه الخمسة ـ تظهر وتغيب بشكل جماعي من دون أن تتغيّر الفواصل والمسافات فيما بينها، وكأنّها لآلئ صُبّت على لوحة كبيرة فتتحرك اللوحة وبتبعها تتحرّك النجوم من دون أن يحصل بينها اختلاف في المسافات.

إلاّ أنّ هذه الكواكب الخمسة لا تتحرّك على خط مستقيم ثابت فتراها تسير باتجاه معيّن لفترة من الزمن ثم تعود قليلاً ثم تقف وتدخل في كناسها.

ومن هنا تميّزت هذه الكواكب عن سائر النجوم، وعلى ذلك فيحتمل تفسير الآيتين بالنحو التالي:

إن هذه الجواري في سيرها باتجاه معيّن تنقبض عن السير وتعود قليلاً ثم تجري في مداراتها حتّى تختفي في أكنستها.

وأمّا هذه الحالات الثلاث المذكورة في الآيتين، من الجري والانقباض (الخنس) والاستتار (الكنس)، فقد بيّنها السيد الطباطبائي بقوله: إن لهذه السيّارات حالات ثلاث:

١. حركة متشابهة زماناً وهي الاستقامة أي الحركة باتجاه معيّن، الّتي تشير إليها لفظة «الجواري».

٢. ثم تنقبض وتتأخّر وترجع وهي الخنس.

٣. ثم تقف عن الحركة استقامة ورجعة وزماناً، كأنّها الوحش تكنس في كناسها، وهي الكنس والإقامة. الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٢١٧ .

وكأنّ الآيتين بالشكل التالي: فلا أُقسم بالجواري الخُنّس الكُنّس، أي المتحركة نحو اتّجاه خاص ثم المتراجعة ثم الواقفة في مداراتها.

وهذا الوجه هو الظاهر من الرازي ـ أيضاً ـ يقول: إنّ ذلك إشارة إلى رجوع الكواكب الخمسة واستقامتها، فرجوعها هو الخنوس وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس.

وهناك وجوه أُخرى ذكرها الرازي، فمن أراد المزيد فليرجع إليه . لاحظ : تفسير الرازي: ٣١ / ٧١ .

ووصف الكواكب بالجوار لا يخلو من بلاغة حيث شبّه حركتها بحركة السفن على سطح البحر، والغرض من الإقسام بهذه الكواكب مع مالها من الصفات إثارة الفكر الإنساني إلى التطلّع في هذه السيارات ليتأمّل فيها ويطلع فيها على الأسرار الكامنة فيها، وبالتالي على قدرة البارئ عزّوجّل.

١٧. (وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ):

أي: إذا أدبر بظلامه. وقد روي هذا المعنى عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد.(التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٢٨٥ .)

وأمّا تفسيرها بأقبل بظلامه فغير واضح لما يتلوه من الآية، أعني قوله:

١٨. (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ):

أي: إذا أسفر وأضاء وامتدّ ضوءه حتّى يصير نهاراً.

ولسيد قطب هنا كلام يقول فيه: الصبح حيٌّ يتنفس، أنفاسه النور والحياة والحركة الّتي تدبّ في كلّ حيّ، وأكاد أجزم أنّ اللغة العربية بكلّ مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التعبير عن الصبح، ورؤية الفجر تكادُ تشعر القلب المتفتّح بأنّه بالفعل يتنفّس، ثم يجيء هذا التعبير فيصوّر هذه الحقيقة الّتي يشعر بها القلب المتفتّح .

وكلّ متذوّق لجمال التعبير والتصوير يدرك أنّ قوله تعالى: (فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ).. ثروة شعورية وتعبيرية فوق ما يشير إليه من حقائق كونية، ثروة جميلة بديعة رشيقة، تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر، وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحسّ الشاعر. في ظلال القرآن: ١٠ / ٤٨٢ .

١٩. (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم) :

هذا هو جواب القسم وأنّ هذا القرآن وهذه الصيغ البديعة والمعاني السامية كلام إلهي حمله رسول كريم، أي كريم عند ربّه، والشاهد على كرامته ومقامه، عند ربّه، صفات هذا الرسول (الملَك) الأربع، الّتي ذكرتها الآياتان التاليتان:

٢٠ و ٢١. (ذِي قُوَّة عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِين * مُطَاع ثَمَّ أَمِين):

فالصفات هي:

١. (ذِي قُوَّة)، وكأنّه يشير إلى أنّ حمل الوحي رهن وجود القوة في هذا الملك.

٢. (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)، أي: له مكانة ومقام عند صاحب العرش وهو الله سبحانه.

٣. (مُطَاعٍ)، في الملأ الأعلى ولعلّ المراد إطاعة الملائكة له.

٤. (ثَمَّ أَمِينٍ)، على ما يحمل ويبلّغ، فالله سبحانه اختار هذا الرسول بهذه الصفات السامية لأن يحمل وحيه ويبلّغه إلى نبيّه الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

إلى هنا تمّ بيان صفات الرسول المتوسط بين الله وبين نبيّه، ثم تصدّى البيان القرآني لذكر صفات النبي ـ أعني : المرسل إليه ـ وقد وصفه بأوصاف ثلاثة:

٢٢ ـ أ . (وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ):

حيث اتّهموه بالجنون، وهل يتمكّن المجنون أن يأتي بسورة أو آية من آيات القرآن الكريم؟!

والتعبير بصاحبكم إشارة إلى أنّ المرسل إليه إنسان صاحبَكم عبر سنين وعاشرتموه، فما رأيتم في حياته وفي سلوكه وتصرّفاته ما يخالف رجاحة العقل، فكيف تتّهمونه بالجنون؟! وهو أيضاً جزء من المقسم عليه، وفي الوقت نفسه تأكيد لقوله: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) .

٢٣ ـ ب . (وَ لَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) :

والضمير في قوله: (رَآهُ) يرجع إلى الرسول الكريم وهو يشير إلى أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)رأى ذلك الرسول بالأُفق المبين الواضح الّذي تتم فيه الرؤية عن يقين.

وأمّا أنّه كيف رآه، وفي أي وقت رأى ذلك الرسول الكريم؟ فليس في الآيات ما يدلّ عليه .

وقد ذكر الطبرسي وغيره أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)رأى جبرئيل (عليه السلام)على صورته الّتي خلقه الله تعالى عليها حيث تطلع الشمس. مجمع البيان: ١٠ / ٢٨١ .

ويظهر من سورة النجم أنّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)رأى جبرئيل على صورته الواقعيّة مرتين:

الأُولى: في الأُفق المبين، حيث قال سبحانه: (ذُو مِرَّة فَاسْتَوَى * وَ هُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى) النجم: ٦ ـ ٧ ..

الثانية: عند سدرة المنتهى، قال سبحانه: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) النجم: ١٣ ـ ١٤ . .

٢٤. (وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ):

الضمير يرجع إلى (صَاحِبُكُمْ) الّذي أُريد به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد اختلف في قراءة (بِضَنِينٍ) فمن من قرأها بالظاء ـ أُخت الطاء ـ فيكون المعنى أنّه ليس بمتَّهم، من الظِّنّة أي التُّهمة.

ومن قرأها بالضاد ـ أُخت الصاد ـ فيكون المعنى أنّه ليس بخيلاً، أي لا يبخل بالوحي فيروي بعضه دون بعض.

وكلا الوجهين محتملان، أمّا الأوّل فلأنّه بصدد ردّ الاتّهام عنه بأنّ أحواله وحياته أفضل دليل على أنّه لا يكذب، فاتّهامه بالكذب أمر لا تصدقه سيرته وحياته.

وأمّا الثاني فيراد أنّه ليس ببخيل فيما يؤدّي عن الله أن يعلّمه كما علَّمه.

٢٥. (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ):

وفي هذا إبطال لقول المشركين بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)كاهن يتلقّى عن شيطانه ويسمّون شيطانه رئيّاً، يقول سبحانه: (وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَ لاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) الحاقة: ٤١ ـ ٤٢ ..

لقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)جبريل (عليه السلام)بالأُفق المبين على صورته الحقيقية، وحصل عنده اليقين بذلك، وهو مؤتمن

على أخبار الغيب لا يكتم منها شيئاً، وكلّ هذا يدحض قولهم بأنّ ما يقوله (صلى الله عليه وآله وسلم)إنّما ينفثه الشيطان على لسانه.

٢٦. (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) :

وهي جملة معترضة بين قوله: (وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)وقوله تعالى: (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) .

والفاء لتفريع التوبيخ، فإذا ثبت أنّه ليس بقول شيطان رجيم، فأين تذهبون؟ أي فماذا تدّعون، وقد سُدّ عليكم طرق بهتانكم بالحجج الواضحة. ولعلّ هذه الجملة تستعمل في مثل هذا المقام كمن إذا ترك الجادة اعتسافاً يقال له: أين تذهب وقد تبيّن لك الحق؟

٢٧. (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) :

أي: بيان وهداية للناس جميعاً، فهل يمكن أن يكون مثل ذلك قول شيطان رجيم ؟

٢٨. (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ):

لمّا بيّن أنّه كتاب هداية للعالمين تصدّى في هذه الآية إلى أنّه لا ينتفع به إلاّ من شاء الاستقامة على الحق، وهي التلبس بالثبات على العبودية والطاعة.

٢٩. (وَ مَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ):

إذ كلّ ما في الكون لا يتحقّق إلاّ بمشيئة الله سبحانه، فإرادة الإنسان موقوفة على إرادة الله تعالى، لكن لا بمعنى أنّه سبحانه يريد المشيئة في حقّ إنسان وعدمها في حقّ إنسان آخر، اعتباطاً وبلا ملاك، بل يتبع وجود الاستعداد في نفس الإنسان المريد وقبول الإسلام والحق، فعندئذ يشاء في حقّه الهداية، وأمّا من لم يتوفّر فيه هذا الاستعداد لم تتحقّق فيه المشيئة.

وقد أثبتت البراهين الكلامية على أن تحقّق كلّ وجود إمكاني في ظل مشيئة الله وإرادته من غير فرق بين الجواهر والأعراض، ومن غير فرق بين الإنسان وأفعاله، وإلاّ لزم انقلاب الممكن إلى الواجب.

نعم هناك مَن خصّ تعلّق مشيئة الله بالجواهر دون الأعراض أو بالإنسان دون أفعاله، حذراً من لزوم الجبر، زاعماً بأنّه إذا كان فعل الإنسان متعلّقاً بالمشيئة فيكون محقّق الوجود، فيخرج عن اختيار الإنسان .

ولكنّك عرفت أنّ مشيئة الله تعالى ليست اعتباطاً، وإنّما تتبع علمه بوجود استعداد في الإنسان لقبول الحق، فيشاء، فيشاء العبد.

بقي الكلام في: ما هي الصلة بين الأقسام الثلاثة والمقسم عليه ـ أعني: جواب القسم ـ وهو قوله: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)؟

ويمكن أن يقال: إنّ حال الناس مع القرآن الكريم أشبه بحال هذه الكواكب، فكما أنّ لها انقباضاً وجرياً وتراجعاً، فهكذا حال الناس مع هذا القرآن، فهم بين منقبض من سماع القرآن، وسار مع هداه، ومُدبِر عن هديه تماماً، ثم إنّ القرآن يكون للمستعدين للهداية كالصبح في إسفاره فهو لهم نور وهداية، كما أنّه للمدبرين عنه كالليل المظلم وهو عليهم عمى، والله العالم.

وأخيراً نود الإشارة إلى كلمة قيّمة لأحد علماء الفلك نكتشف من خلالها عظمة تلك الكواكب والنجوم، حيث يقول: لا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السماوات العلى إلاّ ويغضي إجلالاً ووقاراً، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة، ويراقب سيرها في أفلاكها وتنقّلها في أبراجها، وكلّ نجم وأي كوكب، وكلّ سديم وأي سيّار، إنّما هو دنيا قائمة بذاتها، أكبر من الأرض وما فيها وما عليها وما حولها . الله والعلم الحديث: ٢٥ .

تمّ تفسير سورة التكوير

٨٢- سورة الانفطار

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَ إِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُميّت السورة في كتب التفاسير بسورة (الإنفطار) أخذاً من قوله تعالى:(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ). وتُسمّى أيضاً بسورة: (انفطرت) كما في «مجمع البيان».

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها تسع عشرة آية بالاتّفاق، وهي مكيّة، تشهد على ذلك صياغتها ومضمونها.

وهي على غرار سورة التكوير الماضية غير أنّ المذكور من أمارات الساعة في سورة التكوير اثنا عشر، وأمّا في المقام فالمذكور أربع: اثنان منها يتعلّق بالعُلويات واثنان آخران يتعلق بالسُّفليات، كما سيوافيك.

وأمّا وجه التفصيل في السورة المتقدّمة والاقتصار على أربع في هذه السورة، فهو أنّ سورة التكوير نزلت متقدّمة، وبينها وبين سورة الانفطار نزلت سور كثيرة تكرّر فيها ذكر الدعوة إلى الإيمان بالمعاد والبعث، ولذلك اقتضى في الأُولى الإسهاب وفي الثانية الاختصار.

وعلى كلّ تقدير فالجواب في كلتا السورتين واحد مضموناً ففي سورة التكوير:(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)، وفي هذه السورة: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ).

أغراض السورة

مقاصد هذه السورة تُماثل مقاصد سورة التكوير وما سيوافيك من سورة الانشقاق بعدُ، وهي بيان أشراط الساعة، ومن ثمّ الدعوة إلى الاعتقاد بالبعث، وذكر أشراطه وأحواله وأنّ النظام السائد سينقضي ويبطل، وأنّ الإنسان سيُجزى بأعماله جميعاً.

ثمّ تتعرّض السورة إلى أن لكلّ إنسان حافظاً يعلم ما يفعل، وأنّ مصير الأبرار هو النعيم، وأنّ مصير الفجّار هو الجحيم، وأنّ الأمر يوم القيامة بيد الله تعالى، لا تملك نفس معه لنفس شيئاً.

١ ـ ٥ الآيات: الخمس الأُولى(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ .... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ).

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ).

المفردات

انفطرت: الانفطار: هو الانشقاق، بقرينة قوله: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) الانشقاق: ١.،

وقوله سبحانه: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ). الفرقان:٢٥.

وكأنّ المراد حدوث انفراج يقع فيما يُسمّى بالسماء في نظر الرائي.

انتثرت: النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرّقاً. والانتثار: خلاف الانتظام فحبّات السبحة إذا ترتّبت بخيط يقال: انتظمت الحبّات، وأمّا اذا انقطع الخيط، فيقال: انتثرت الحبّات، أي تفرّقت وانتشرت، فالانتثار إذاً، تساقط الشيء وتفرّقه بصورة غير منظمة. لاحظ : المفردات للراغب: ٤٨٢، مادة «نثر» ؛ ولسان العرب: ٥ / ١٩١، مادة «نثر».

فُجّرت: والفجر هو شقّ الشيء شقّاً واسعاً.

بُعثرت: أي قُلب بطنها ظهراً، والبعثرة: الانقلاب، يقال: بعثر المتاع إذا انقلب بعضه على بعض.

التفسير

١. (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) :

ذكر سبحانه في هذه الآيات أشراط الساعة وعلامات قيامها، مبتدئاً بلفظ (إِذَا)التي تستعمل في المستقبل، لإيجاد الاستعداد لسماع ما يأتي، ومع ذلك عبّر عن الأُمور الأربعة بصيغة الماضي ليشير إلى كونها محقّقة الوقوع.

٢. (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ):

أي انتشرت وتفرّقت في الفضاء وفقدت هذا النظام المُحكم السائد فيها، والذي لم تزل عليه عبر آلاف القرون، وهذان الأمران يرجعان إلى علامتين عُلويّتين هما:

١. انشقاق السماء.

٢. تناثر الكواكب.

ثمّ ذكر سبحانه علامتين سُفليتين، وقال:

٣. (وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ) :

قيل: إنّ المراد رفع الحوائل والحواجز بين البحار واتصال عذبها بمالحها، ومالحها بعذبها، فتصير البحار بحراً واحداً تغطي الأرض جميعاً، وهذا هو نتيجة التفجير.

والظاهر أنّ المراد غير هذا ؛ لأنّ البحار كلّها متّصلات إلاّ البحيرات، بل المراد فيضان ماء البحار على ما حولها من الأرضين فيعمّ الماء كلّ الأرض، فشبّه فيضان الماء من البحار إلى ما حولها من الأرضين بالتفجير حيث إنّ ماء العين ينطلق إلى أطرافها بالتفجير.

٤. (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) :

أي قلب بطنها ظهراً، فيخرج الموتى من تحتها إشارة إلى بعث الناس.

٥. (عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) :

جواب للشرط، فإذا تحقّقت أشراط الساعة وبُعث الناس من قبورهم، وتمّ حسابهم، تقف كلّ نفس على كلّ عمل قدّمته وكلّ عمل أخّرته.

أمّا ما قدّمته قبل الموت فهي الأعمال الصالحة والطالحة، وأمّا الأعمال المتأخّرة فهي عبارة عن سنّة أنشأها فتبعها غيره بعد موته، فلو كانت سنّة حسنة يشارك في ثوابها مع فاعلها، وإن كانت سيئة فكذلك. روى الكليني عن أبي عبد الله(عليه السلام) في حديث، قال: «وقد قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) مَن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أُجورهم شيء». الوسائل:١١، الباب٥ من أبواب جهاد العدو، الحديث١.

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام)أنّه قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلاّ ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته، وسنّة هُدىً سنّها فهي يعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له». بحار الأنوار: ٧١ / ٢٥٧ .

وفي رواية أُخرى، قال: «ست خصال ينتفع بها المؤمن بعد موته: ولد صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ منه، وقَليب يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنّة حسنة يؤخذ بها بعده».

روى الطبرسي أنّ سائلاً قام على عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فسأل، فسكت القوم، ثم إنّ رجلاً أعطاه، فأعطاه القوم، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «من استنّ خيراً فاستنّ به،

فله أجره ومثل أُجور من اتّبعه غير منتقص من أُجورهم، ومن استنّ شرّاً فاستنّ به فعليه وزره، ومثل أوزار من اتّبعه غير منتقص من أوزارهم»، قال: فتلا حذيفة بن اليمان: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ) . مجمع البيان: ١٠ / ٣٢٢ .

بقي الكلام في بيان الصلة بين الحوادث الأربع ووقوف كلّ إنسان على ما قدّم وأخّر، والصلة من وجهين:

الأوّل: ما هو الظاهر من التدبّر في الآيات وهو أنّ تخلخل النظام وخروج النجوم عن مساراتها وانفجار البحار وتبعثر القبور من أشراط الساعة وعلائمها، فعندئذ يحاسب الإنسان بما قدّم وأخّر من الأعمال.

الثاني: هو أنّه سبحانه يذكّر الإنسان الغافل الّذي يفكّر في دوام حياته وبقاء سلطته بأنّه سيزول بشهادة أنّ النظام السائد عبر آلاف القرون سيزول وينتهي عمر العالم، فكيف بعمر الإنسان الغافل وسلطته؟! والله العالم.

وعلى كلّ تقدير فالوحي الإلهي يخبر جازماً عن تخلخل النظام الكوني، وأمّا متى يقع ذلك ؟ فقد سكت عنه القرآن الكريم، وليس لأحد أن يتكهّن بذلك ويعيّن وقته.

نعم، إنّ الأُصول العلمية أثبتت نفاد الطاقات الموجودة في الكون باستمرار، وتوجّهها إلى درجة تنطفئ معها شعلة الحياة وتنتهي بسببه فعالياتها ونشاطاتها، ومع ذلك فلن يستطيع أحد أن يتكهّن ويحدد وقت زوال النظام ونفاد الطاقات.

٦ ـ ١٢ الآيات: السادسة إلى الثانية عشرة (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ.... يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ).

(يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَة مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ).

المفردات

«ما» في قوله تعالى: (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)استفهام، والغاية منه الإنكار والتعجّب من غرور الإنسان وإنكار البعث.

غرّك: من الغرور، قال الراغب: وهو كلّ ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين، وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ، وقال أيضاً : الغِرّة، غفلة في اليقظة . المفردات للراغب: ٣٥٩، مادة «غرّ».

فالإنسان ـ إلاّ من عصم الله ـ إذا امتلك أسباب القوة والثراء، يصيبه الغرور، فيطغى ويتكبّر على الحقّ وعلى الخلق، ويرتكب أُموراً تنتهي به إلى الهلاك والخسران، غافلاً عن عثرات فعله. ومن هنا فالطمع بما يتوهّمه المغرور نفعاً وهو ضرّ، هو حقيقة الغرور.

الكريم: صاحب الكرم، والمنعم الّذي تكون جميع أفعاله إحساناً لا ينتظر أي نفع أو دفع ضرر.

سوّاك: أي جعلك سويّاً سالم الأعضاء. روي أنّه إذا ولد لعلي بن الحسين (عليه السلام)ولد يسأل أوّل ما يسأل عن خلقته، ويقول: أسَويّ هو؟ بمعنى: هل هو سالم الأعضاء أو لا.

فعدَلك: أي معتدلاً متناسق الأعضاء ليحاسب على أعماله.

التفسير

انتقل البيان القرآني إلى التنديد بمن لم يكن يؤمن بيوم البعث ويغرّه ما يملك من القوى المادّية الّتي سيزعم أنّها ستخلده، فيقول في مقام التنديد:

٦. (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ):

أي ما هو الموجب لغرورك بربّك الّذي غمرك بإنعامه وإحسانه وهو لا ينتظر منك أي نفع ولا دفع ضرر؟ فالآية بصدد رفض الغرور وليست لبيان سبب الغرور (كما ربّما يُتوهّم من أنّ وصف الرب بالكريم لبيان سبب الغرور) حتّى تكون الآية عذراً للمغترّين، فإنّ هذا النوع من التفسير للآية باطل لا ينسجم مع ما يأتي من الآيات ولا مع ما ورد في القرآن الكريم من تقبيح عمل المغترّين.

وبذلك يظهر عدم صحّة ما ينقل عن بعض العارفين، فقد نقل عن الفضيل بن عياض أنّه قيل له: لو أقامك الله يوم القيامة بين يديه وقال: (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) ماذا كنت تقول له؟ قال: أقول له: غرّني ستورك المرخاة.

وقال يحي بن معاذ: لو أقامني الله بين يديه فقال: ما غرّك بي؟ قلت: غرّني بك برُّك بي سالفاً وآنفاً.

وعن بعضهم قال: غرّني حلمك. وعن أبي بكر الورّاق: غرّني كرم الكريم . مجمع البيان: ١٠ / ٣٢٢ .

وقريب من ذلك ما نسمع عن بعض العصاة معتذرين بأن الله كريم، غافلين عن محلّ كرمه ولطفه.

وكأنّ هؤلاء تلقّوا أنّ الآية بصدد بيان عذرالمغرورين حتّى يتحصّنوا بذلك العذر يوم القيامة، وغفلوا عن أنّ الآية بصدد التنديد بهؤلاء، فإنّ مقتضى كون ربك كريماً بمعنى أنّه غمرك بإحسانه وإنعامه أن تطيعه ولا تعصيه وأن لا تغترّ بقدراتك العاجلة الّتي تزول بسرعة .

وعن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): «غرّه جهله».(الدر المنثور: ٦ / ٣٢٣ .)

وللإمام علي (عليه السلام)كلام قاله عند تلاوته هذه الآية وهو صريح بأنّها بصدد رفع الأمان عن هؤلاء المغترّين، لا تأمين العذر لهم، قال (عليه السلام): «أَدْحَضُ مَسْؤُول حُجَّةً،وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ. أبرح جهالة بنفسه: يقال: لقد أبرحَ فلان جهالةً، وأبرحَ لوماً، وأبرحَ شجاعةً: أتى بالبرْح من ذلك أي بالشديد العظيم. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١١ / ٢٤٠ . يَا أَيُّهَا الاْنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، البُلول: مصدر بلّ الرجل من مرضه، إذا برئ. أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ، أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ؟

فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ الضاحي من حرّ الشمس: البارز. مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِأَلَم يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَ جَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ (مصائبك)، وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الاْنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ لاَ يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَة، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ!

ثم قال: وَحَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ، وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاء». نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٣ .

٧. (الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ):

لمّا وصف الرب في الآية السابقة بالكريم وقد مرّ أن معناه المنعم الّذي تكون جميع أحواله إحساناً، بدأ بذكر بعض النعم والكرامات على الإنسان، فذكر مراحل خلقته ولخّصها في أربع:

١. أصل الخلقة.

٢. التسوية.

٣. التعديل.

٤. التركيب.

وقال: (الذِي خَلَقَكَ)والخلق هو إيجاد الشيء على مقدار مقصود، فلو نُسب إلى الإنسان فيراد به خلق الصورة بالمواد الموجودة، ولو نُسب إلى الله فهو إيجاد بعد العدم.

فخلق الإنسان من نطفة جعلها في رحم الأُم.

وقال: (فَسَوَّاكَ): أي جعلك سويّاً سالم الأعضاء، والسويّ يطلق في مقابل المعيب، وذكر التسوية وإن كان يغني عن ذكر الخلق لأنّها فرع وجوده، لكن لمّا كان المقام الإشارة إلى نعمه سبحانه اقتضى الإطناب .

ويمكن أن يقال: إنّ الخلق تكملة الجسد، وتسويته هي تهيئته لكي يقبل الخلق الآخر ـ أعني: الروح ـ والله العالم.

وقال: (فَعَدَلَكَ)، أي صيّرك متعادلاً متناسب الخلق والقوى من غير تفاوت فيه، فالتناسق يتجلّى في كلّ مكوّنات الجسم، من أعضاء وأجهزة كالجهاز التنفسي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدوري، والجهاز العصبي وغيرها من الأجهزة، التي هي غاية في الدقة والتعقيد والتنظيم.

فالجهاز العصبي، مثلاً، يتكوّن من بلايين الخلايا المختصّة التي تُسمّى (العَصْبونات) أو (الخلايا العصبية)، والتي تتجمّع في شكل حبال تُسمّى (الأعصاب)، تسلك سبلاً متعدّدة تساعد على نقل المعلومات سريعاً إلى كلّ مكان في الجسم.

ويتكوّن الجهاز العصبي من ثلاثة أقسام رئيسية هي: الجهاز العصبي المركزي؛ والجهاز العصبي المحيطي، ويضمّ: العينين والأُذنين والأنف وأعضاء حسّيّة أُخرى؛ والجهاز العصبي التلقائي.

ويتكوّن الجهاز العصبي المركزي من الدماغ والنخاع الشوكي، ويقوم بتنظيم جميع أنشطة الجهاز العصبي والتحكّم فيها.

والدماغ عضو شديد التعقيد، ويتكون من: المخ، والمخيخ، وجذع الدماغ. ويشكّل المخّ نحو ٨٥ ٪ من الدماغ، ويُعدّ الأكثر تعقيداً، حيث يقوم بتوجيه السمع والنظر واللمس والتفكير والإحساس والكلام والتعليم.

أمّا المخيخ ـ الذي يقارب حجمه حجم البرتقالة ـ فيساعد الجسم في الاحتفاظ بتوازنه وينسّق بين المعلومات الحسّيّة وحركة العضلات.

وأمّا جذع الدماغ فيشبه الساق، ويتّصل بالنخاع الشوكي في قاعدة الجمجمة، ويحتوي على العديد من العصبونات التي تتبادل المعلومات الواردة من الحواسّ. والكثير من العصبونات التي تنظّم الوظائف التلقائية، مثل التنفس والنبض القلبي وتوازن الجسم وضغط الدم، يوجد في جذع الدماغ!! انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٨ / ٥٤٦ ـ ٥٥٠ .

فسبحان من خلق الإنسان وسواه وعدله، وأودع كلّ هذا الإبداع والتناسق في تكوينه.

هذا، وقد فسّر بعضهم قوله (فَعَدَلَكَ) بأنّه سبحانه جعله معتدل الخلق يمشي قائماً لا كالبهائم .

٨ . (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ):

لعلّ «ما» زائدة، وعملية التركيب عبارة عن إعطاء الصورة النهائية للإنسان بالنسبة إلى بقية الموجودات. والمراد: ركّبك ما شاء من التراكيب تركيباً حسناً، ومن المعلوم أنّ مشيئته لا تتعلّق إلاّ بتشبيه موزون فيه مسحة من الجمال، فالله سبحانه تكرّم على الإنسان بخلقه من مادة مائية، ثم جعله سويّ الخلقة معدّل القوى والأعضاء وأعطاه صورة إنسانية جميلة بديعة، فمثل هذا التكرّم من الله يقتضي إطاعته وامتثال أمره لا الإعراض عن آياته ورسله.

٩. (كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) :

انتقل البيان القرآني من التوبيخ والزجر على الغرور إلى ذكر جُرم أكبر، يُعدّ هو السبب الأساسي لغرور الإنسان وهو التكذيب بالبعث، فقال ـ إبطالاً لغرورهم الّذي أشار إليه بقوله: (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) ـ :(كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)... فتكذيبهم بيوم البعث والجزاء هو الّذي أركبهم مركب الغرور، فإنّ مَن لا يضع لعمله محاسباً ويتصوّر نفسه مطلق العنان في الحياة، لا يكون له أي رادع من أي عمل قبيح، فإنكار البعث هو رأس ارتكاب الفضائح والقبائح.

ثم انتقل تأكيداً لثبوت يوم الجزاء إلى وجود ملائكة حفَظة يراقبون الإنسان ويكتبون أعماله، موصوفين بالصفات التالية:

١. كونهم حافظين.

٢. كونهم كراماً.

٣. كونهم كاتبين.

٤. كونهم يعلمون ما يفعلون.

وإليك تفصيل هذه الصفات:

١٠. (وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ):

تأكيد للاعتقاد بيوم البعث وأنّ لكلّ إنسان حافظاً أو حفظة تحصي أعماله ولا يشتبهون .

ويكفي في معرفة أنّ عملية الحفظ مبنية على الدقّة، التدبّر في الآيات التالية:

١. قوله سبحانه: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ق: ١٨ ..

٢. قوله سبحانه: (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) ق: ١٧ ..

٣. قوله سبحانه: (وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) يونس: ٦١ ..

والغاية من مراقبة الحفظة هو الاحتجاج على العباد يوم القيامة، نعم هناك شهود على أعمال الإنسان غير هؤلاء الحفظة ويكفي في ذلك شهادة الأعضاء، أي سمع الإنسان وبصره وجلده، قال سبحانه: (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فصلت: ٢٠ ..

ثم إنّه سبحانه يصف هؤلاء الحفظة بأنّهم كرام، قال تعالى:

١١. (كِرَاماً كَاتِبِينَ):

وفي تعظيمهم بالثناء عليهم وأنّهم كرام لأجل تعظيم أمر الكتابة، فإنّ الموكَّل أو الموكَّلين بها إذا كانوا كراماً فذلك يدلّ على عظمة المسؤولية.

والمراد بالكرام ذو كرامة وعزة عند الله وليسوا لئاماً جاهلين حتّى لا يُعتدّ بحفظهم، والشاهد على ذلك أنّه سبحانه يصفهم بها في قوله: (بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧ ..

وقد عبّر سبحانه عن الكتابة في آية أُخرى بالاستنساخ وقال: (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الجاثية: ٢٩ ..

وأمّا ما هي حقيقة هذه الكتابة والاستنساخ فهو من الأُمور الغيبية الّتي لا يُطّلع عليها إلاّ بعد الخروج عن عالم الطبيعة والوفود على العالم الآخر.

١٢. (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) :

لمّا كان هنا مظنّة احتمال خطأ هؤلاء الحفظة، رُدّ على هذه الفكرة، بقوله: (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) وهل علمهم بظاهر العمل أو بحقيقته الّتي لا تعلم إلاّ بالعلم بالنيّة؟ الظاهر هو الثاني وذلك لأنّ العلم بظاهر الفعل لا يكفي في تعيين الجزاء، فإنّ ضرب اليتيم للتأديب ضرباً غير عنيف أمر مستحسن، وضربه لأجل الإيذاء عمل قبيح ، ولا يُعلم إلاّ بالنيّة .

وعلى هذا فهؤلاء الكتبة يعلمون ظاهر الأعمال وباطنها، أي واقفين على نيّات العباد.

روي عن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال: «فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم» الدر المنثور: ٦ / ٣٢٢ ..

وروي أنّ علياً (عليه السلام)مرّ برجل وهو يتكلّم بفضول الكلام ويخوض فيما لا نفع فيه، فقال: «يا هذا إنّك تُملي على كاتبيك كتاباً إلى ربك، فتكلّم بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك». بحار الأنوار: ٥ / ٣٢٧ .

هذا، وقد سأل سائل الإمام الصادق (عليه السلام)عن علّة الملكين الموكّلين بعباده يكتبون ما عليهم ولهم،والله عالم السرّ وما هو

أخفى؟ فقال الإمام مجيباً: «استعبدهم على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبة، وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبد يهمّ بمعصيته فذكر مكانها فارعوى وكفّ، فيقول: ربي يراني وحفظتي عليّ بذلك تشهد، وإن الله برأفته ولطفه وكّلهم بعباده يذبّون عنه مردة الشياطين وهوامّ الأرض وآفات كثيرة من حيث لا يرون، بإذن الله إلى أن يجيء أمر الله»

تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥٢٢ ..

١٣ ـ ١٩ الآيات: السبع الأخيرة (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم *..... وَ الأَمْرُ يَوْمَئِذ لِلّهِ).

(إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم * وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيم * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْس شَيْئاً وَ الأَمْرُ يَوْمَئِذ لِلّهِ).

المفردات

الأبرار: جمع بَرّ، وهو فاعل الخير، وربّما يفسّر بالتقيّ، ولعلّه أنسب لكونه في مقابل الفُجّار.

الفجّار: جمع فاجر: الموصوف بالفجور أي المقارف للمعاصي والآثام، وهو ضد البُرور.

جحيم: والجحمة: شدّة تأجّج النار.

يصلَونها: أي يمسّون حرّها، وربما يفسّر بالاصطلاء أي الاحتراق .

الدين: يطلق ويراد منه معان مختلفة، والمراد هنا الجزاء، بشهادة إضافة اليوم.

التفسير

١٣ و ١٤. (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم * وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيم):

لمّا مرّ ذكر كتبة الأعمال وأنّهم يكتبون كلّ صغير وجليل أشار إلى نتيجة حفظ الأعمال وكتابتها، وهي أنّ الأبرار لفي نعيم وبهجة وسرور حسب ما كتبه الكرام الكاتبين في سجلّ أعمالهم. وأنّ الفجار لفي جحيم كذلك ، كلّ يُجزى حسب ما عمل وفعل، وقد تقدّم قوله: (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) فيجزى كلّ فرد حسب نيته وفعله.

والظاهر أنّ المراد من الفاجر هو الكافر المتهتّك.

١٥. (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ):

وصف للجحيم، أي يمسّون حرّها أو يصطلون بنارها يوم الجزاء، وأن إضافة لفظ يوم إلى الدين إشعارٌ بأنّ صليهم الجحيم ليس أمراً اعتباطياً، بل هو جزاء لأعمالهم الإجرامية.

١٦. (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) :

والضمير في «عنها» يرجع إلى الجحيم الّتي هي مؤنث سماعي، أي هؤلاء الفجّار يصلون حرّها ولا يفارقونها، وهو كناية عن خلودهم في النار.

ثم إنّ قوله سبحانه: (وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) يدلّ على خلود الفجّار في الجحيم، والمراد بالفجّار هنا هم الكفّار المكذّبون بيوم الدين بشهادة ما مرّ من قوله سبحانه: (كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)، فهم مخلّدون في النار، فلا ينافي ما عليه جمهور المسلمين بأنّ صاحب الكبيرة لا يُخلّد في النار.

نعم لو قلنا بأنّ صاحب الكبيرة فاجر، يكون دليلاً على خلود أصحاب الكبائر من المؤمنين، ولكنّه لو ثبت لا يكون دليلاً على المقام، لأنّ المراد من الفجّار فيه هو خصوص مَن لا يؤمن بيوم الدين.

ولمّا تقدّم في الآية السابقة أنّهم يصلون الجحيم في يوم الدين أراد في هاتين الآيتين وما بعدهما وصف ذلك اليوم، فقال:

١٧ و ١٨. (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ):

كلّ واحدة من هاتين الفقرتين كناية عن تعظيم يوم القيامة وتهويله بحيث يصحّ للمخاطب أن يسأل المتكلّم: ما هو هذا اليوم وما شأنه؟ فأُجيب بقوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) أي ما أعلمك وأدراك بواقع هذا اليوم، ثم كرر الجملة تهويلاً وقال: (ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ)كلّ ذلك لتعظيم ذلك اليوم وتهويله، حتّى يرتدع الإنسان ويجتنب ما يؤدّي به إلى استحقاق عقوبة الله سبحانه في ذلك اليوم. ثم إنّ (أدرى) بمعنى أعلم يتعدّى إلى مفعول واحد، وأمّا إذا انضمت إليه ما الاستفهامية فيتعدّى ـ حينئذ ـ إلى مفعولين، كما في المقام. فإنّ الضمير المتّصل في (أَدْرَاكَ) هو المفعول الأوّل و «ما» الموصولة في (مَا يَوْمُ الدِّينِ) هو المفعول الثاني.

ثم لمّا وصف سبحانه واقع يوم الدين بالتهويل العظيم الّذي يخوّف كلّ إنسان، شرح واقع هذا اليوم بتهويل آخر وقال:

١٩. (يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْس شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذ للهِ):

أي لا يقدر إنسان على إنجاء إنسان، لأنّ الأسباب بينهم قد تقطّعت، ولم يبق إلاّ سبب واحد وهو الّذي أشار إليه بقوله: (وَ الأَمْرُ يَوْمَئِذ للهِ).

فإن قلت: إنّ الأمر بيد الله سبحانه في الدنيا والآخرة، فما معنى تخصيص الأمر لله بهذا اليوم؟

قلت: إنّ تخصيص ذلك اليوم بكون الأمر لله، لأجل أنّ الأسباب الداخلية ومسبباتها زائلة يوم ذاك، لأنّ زوال النظام أفضل دليل على تقطّع الأسباب، يقول سبحانه: (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) البقرة: ١٦٦ ، وفي آية أُخرى قال: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً) البقرة: ١٦٥ ..

وأمّا غير ذلك اليوم ـ كما في الحياة الدنيا ـ فالأسباب والشفعاء لها تأثير في نزول الفيض الإلهي بإذن الله تعالى، وإن كان الأمر في الحقيقة لله، لأنّه هو الّذي أعطى للشفيع حقّ الشفاعة، وللسبب قوّة التأثير.

***

تمّ تفسير سورة الانفطار

٨٣- سورة المطففين

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْم عَظِيم * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَد أَثِيم * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيق مَخْتُوم * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيم * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في كتب التفسير والمصاحف بسورة «المطففين» وجاء اسمها في صحيح البخاري بسورة «ويلٌ للمطففين» صحيح البخاري:١٢٦٥، برقم ٤٩٣٨.، ولا مشاحّة في الاسم.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ست وثلاثون آية بالإجماع، إلاّ أنّه اختلف في محلّ نزولها فبعض وصفها بالمكيّة، وآخرون قالوا: إنّها مدنية.

والآيات الواردة في صدر السورة يعلو عليها وصف المدنية، بخلاف الآيات في آخرها فإنّها أشبه بالمكيّة من حيث المضمون.

أغراض السورة

احتلّ التطفيف والتحذير منه، الموضوع الأساسي في هذه السورة، ثمّ تلاه ذكر الفجّار والأبرار وتبيين مصيرهم، ثم انتقلت السورة إلى بيان حال المشركين الذين كانوا يضحكون من المؤمنين، فقوبلوا هناك، في يوم الجزاء، بضحك المؤمنين منهم.

١ ـ ٦ الآيات: الست الأُولى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ..... يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

المفردات

ويل: أي هلاك عظيم.

المطفِّفين: التطفيف: نقص المكيال والميزان. وأمّا الطفيف فهو بمعنى النزر اليسير.

اكتالوا: من الاكتيال وهو الأخذ بالكيل.

يستوفون: يأخذون حقوقهم وافية كاملة.

وزنوهم: وهو الأخذ بالوزن.

يُخسرون: يقال: أخسرتَ الميزانَ وخَسَرته إذا نقصته في الوزن.

التفسير

١. (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ):

ابتدأت هذه السورة بلفظ «ويل» نظير سورة الهمزة، قال سبحانه:(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَة لُمَزَة). وكأنّه ليس دعاءً عليهم، بل خبر عن مصيرهم المرّ. وجاء التحذير من التطفيف في الكيل والوزن، لأنّه نوع من أنواع الظلم الذي يلحق الفرد والمجتمع، وتجاوز لموازين العدل والإنصاف التي ينبغي أن تحكم حياة الناس. ولاشكّ أنّ في شيوع الغشّ والتلاعب في أمر المكيال والميزان، الذي عليه مدار معاملات الناس بشكل عام، سوف يترك آثاراً سلبية على نظام حياتهم، ويزعزع أواصر الثقة التي تربط بينهم. رُوي عن ابن عباس أنّه قال: لمّا قدم رسول الله(صلى الله عليه وآله) المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عزّ وجلّ:(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)فأحسنوا الكيل بعد ذلك. مجمع البيان:١٠/٣٢٧؛ روح المعاني للآلوسي: ٦٧/٣٠.

وروى الرازي في تفسيره قال: وقيل: كان أهل المدينة تجّاراً يطفّفون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)فقرأها عليهم وقال: «خمس بخمس»، قيل: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ما خمس بخمس؟ قال: «ما نقض قوم العهد إلاّ سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلاّ فشا فيهم الفقر، وما ظهر فيهم الفاحشة إلاّ فشا فيهم الموت، ولا طفّفوا الكيل إلاّ مُنعوا النبات وأُخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلاّ حُبس عنهم المطر».(تفسير الرازي: ٨٨/٣١ ـ ٨٩ .)

وكأنّ الآية إعلان حرب من الله عزّ وجلّ على المطفّفين الذين يأكلون أموال الناس بهذه الطريقة غير المشروعة.

وقد اهتمّت بهذا الأمر الشرائع السماوية المتقدّمة، وما ذلك إلاّ لأنّ إقامة العدل في كافّة جوانب الحياة هي الغاية التي يستهدفها المنهج الإلهي، وهي قوام الحياة النظيفة الطاهرة المستقرّة الآمنة ، يقول سبحانه:(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ). الرحمن:٧ـ ٩.

وقال سبحانه حاكياً عن نبيّه شعيب(عليه السلام):(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْر وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم مُحِيط * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ).(هود: ٨٤ ـ ٨٥ .)

ثمّ إنّه سبحانه يفسّر عملية التطفيف بالآيتين التاليتين :

٢. (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ):

٣. (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ):

أمّا الآية الأُولى فمعناها أنّهم إذا اكتالوا على الناس وأرادوا أخذ شيء لأنفسهم يستوفون عليهم الكيل، ويحصلون على حقّهم كاملاً دون نقص فيه. وقيل: إنّ وضع (على) مكان (مِن) للدلالة على أن اكتيالهم من الناس اكتيال فيه ضرر، ومعنى ذلك أنّهم يحصلون ؛ بحكم نفوذهم الاقتصادي أو الاجتماعي، على أكثر من حقّهم عندما يريدون شراء شيء لأنفسهم .

وقد يُسأل: لماذا لم يذكر الوزن مع أنّ الشراء تارة يكون بالكيل وأُخرى بالوزن؟ ولعلّ وجهه أنّ المطففين هم التجّار الباعة، الذين يشترون الكميات الكبيرة التي تقدّر بالكيل لأجل السهولة دون الوزن لوجود العسر في ذلك الزمان.

وأمّا الآية الثانية فمعناها أنّهم إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم يُخسرون ويُنقصون حقّهم. وبعبارة أُخرى: إذا باعوا لهم يخسرون في الكيل والوزن، فحقيقة التطفيف كانت قائمة بأمرين: إذا اشترى أحدهم لنفسه يستوفي حقّه تماماً، وإذا باع للغير يخسر كيلاً ووزناً. وذكر الوزن هنا دون الأوّل ؛ لأنّ البيع تارة يكون بالجملة وأُخرى بالمفرد والكمّيات الصغيرة، ولذا ذكر كلا الأمرين. وعلى هذا فسرقتهم أموال الناس ـ وفق التفسير الأوّل ـ كانت مختصّة بالبيع دون الشراء، فيأخذون حقوقهم كاملة عند الشراء وينقصون من حقوق الآخرين عند البيع.

وهل التطفيف يختصّ بالكيل والوزن عند الشراء والبيع فقط؟ أو أنّ له معنىً وسيعاً وإن كان المورد في السورة هو الاستيفاء في مقام الشراء والنقص في مقام البيع؟

ما نذهب إليه، هو عدم الاختصاص، بل يشمل سائر الموارد التي يقع فيها الظلم والغُبن، والبُعد عن الإنصاف، سواء في الحقوق أم في الواجبات، فمدير الشركة مثلاً، مسؤول عن إعطاء حقّ العامل، وأن يتجنّب استغلاله وغبنه، والعامل مسؤول عن أداء واجبه، بأن يتقن عمله، ولا يتهرّب منه بإضاعة الوقت في ما لا يخصّ عمله، ومثل ذلك يقال في الموظف والمعلّم والمهندس والوزير وغيرهم، فكلّ من اشتغل بما لا علاقة له بما تعاقد عليه، فهو مطفِّف أيضاً.

روى الطبرسي عن ابن عباس أنّه قال:«الصلاة مكيال فمن وفى وفى الله له، ومن طفَّف قد سمعتم ما قال الله في المطفِّفين». مجمع البيان:١٠/٣٢٧.

٤ ـ ٦. (أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْم عَظِيم * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ):

إذا علمت المقصود بالتطفيف فاعلم أنّه سبحانه ذكر في هذه الآيات ما هو الحافز لهذا العمل القبيح، وهو أنّ المطفِّف لا يعتقد، بل لا يظن أنّه سيبعث يوم القيامة، كما يقول: (أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)فالظاهر أنّ الظن هنا هو بمعناه المصطلح، وكأنّه

سبحانه يقول: إنّ المطفف لا يظن بأنّ هناك يوماً يُبعث فيه فضلاً عن الاعتقاد به، وهو اليوم الذي فيه (يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) لأجل الحساب، فلو كان هؤلاء ظانين بيوم الحساب لتركوا هذا العمل وتجنّبوا هذا الظلم خوفاً من العقاب الذي يجوّزونه ويظنّونه. وكأنّ الآية بصدد القول أنّ الظن بيوم القيامة ـ وإن لم يكن معه يقين ـ يصدّ الإنسان عن التطفيف وأخذ حقّ الناس، فضلاً عن العلم واليقين.

ولما كان التطفيف مخلاًّ بالتوازن الاجتماعي وهادماً للعدالة الاقتصادية، كان الإمام علي(عليه السلام) يطوف الأسواق سوقاً سوقاً ومعه الدّرة على عاتقه وينادي: «يا معشر التجّار: اتقوا الله عزّ وجلّ»، فإذا سمعوا صوته ألقوا ما بأيديهم، وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بآذانهم، فيقول(عليه السلام): «قدّموا الاستخارة، أي اطلبوا الخير من الله في أوّله . وتبرّكوا بالسهولة، أي ابتغوا البركة منه تعالى بالسهولة في البيع والشراء.واقتربوا من المبتاعين، وتزّينوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ،ولا تعثوا في الأرض مفسدين» فيطوف في جميع أسواق الكوفة ثم يرجع فيقعد للناس. أُصول الكافي:١٥١/٥، الحديث٣.

٧ ـ ٩ الآيات: السابعة والثامنة والتاسعة (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين..... كِتَابٌ مَرْقُومٌ):

(كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ):

المفردات

الفُجّار: الفجر شقّ الشيء، وأُريد بالفجّار مَن شقّ ستر الديانة.

سِجِّين: قال الراغب: اسم لجهنم (بإزاء عِلّيّين)، وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه. المفردات للراغب: ٢٢٥، مادة «سجن».

وفي «المجمع»: السجين فِعّيل من السجن(وهو الحبس). وقيل هو السجن على التخليد فيه لأنّ هذا الوزن للمبالغة، قالوا: شرّيب وسكّير وشرّير. مجمع البيان:٣٢٦/١٠. ولعلّ المعنى الأخير هو الأنسب ؛ لأنّ تفسيره بجهنم توضيح للواضح، إذ ليس في الآخرة إلاّ موضعان إمّا الجنّة وإمّا الجحيم، فلا شكّ أنّ

موضع المطفّف غير الجنّة. فسجّين إمّا بمعنى التخليد أو سجن شديد في جهنم، وهو أنّ لجهنم دركات وهو في الدرك الأسفل كما عليه المنافقون، قال سبحانه: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ). النساء:١٤٥.

مرقوم: قال الراغب: الرقم: الخطّ الغليظ. المفردات للراغب: ٢٠١، مادة «رقم».وقيل: طبع الخطّ بما فيه علامة الأمر.

التفسير

٧. (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين):

لفظة «كلاّ» ردّ لما سبق وهو عدم ظنهم بيوم البعث، فأبطل ذلك الظنّ بما في الآيات الثلاث من مصير الفجّار.

ثمّ إنّه سبحانه جعل الفجّار في مقابل الأبرار ووصف كلاًّ بما يقابل الآخر، فقال في حقّ الفجّار:(كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ)، وقال في حق الأبرار: (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ).

فكلّ يقابل الآخر ذاتاً وصفة.

إنّ الآيات الثلاث في جانبي الفجّار والأبرار يعلوها شيءٌ من الإبهام؛

فالمراد من الكتاب في قوله: (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين) هو صحيفة الأعمال. وهنا يطرح سؤال وهو: كيف تكون صحيفة الأعمال في سجِّين، فإنّه موضع نفس الفجّار، لا صحيفة أعمالهم؟

وهذا النوع من الإبهام يتكرّر في قوله تعالى: (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)إذ العلّيّون محلُّ الأبرار لا محلّ صحيفتهم.

٨. (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ):

أي ما الّذي أعلمك حقيقة سجّين. ثم إنّه سبحانه وصف السجِّين بشيء يرفع الإبهام، وقال:

٩ . (كِتَابٌ مَرْقُومٌ):

أي مكتوب بخط غليظ. وعن ابن عباس: كلّ ما في القرآن من قوله تعالى: (مَا أَدْرَاكَ) فقد أدراه، وكلّ ما فيه من قوله: (وَ مَا يُدْرِيكَ)فقد طوي عنه.

وهنا سؤال ثان وهو: أنّ ظاهر قوله: (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) تفسير لسجّين، فكيف يكون الكتاب بمعنى الصحفية، نفسَ السجِّين؟

وحصيلة الكلام: أنّ الإشكال مركّز على موردين:

١. كيف يكون كتاب الفجّار لفي سجّين، مع أنّه محلّ الفجّار ؟

٢. كيف يكون «الكتاب المرقوم» تفسيراً لسجّين؟

وما ذكرنا من الموردين يأتي أيضاً في جانب الأبرار حرفاً بحرف.

وسيوافيك تفسير آياته ضمن الآيات ١٨ ـ ٢٠ .

وهناك وجوه لرفع الإبهام نأتي بها تباعاً:

الأوّل: عدم التصرّف لا في لفظ الكتاب ولا في لفظ سجّين، بل حمل الأوّل على الصحيفة وحمل الثاني على الموضع الخاص في جهنم، لكن الإخبار بأنّ كتاب الفجّار لفي سجّين كناية عن كون الفجّار في سجّين. وعندئذ يرتفع التنافي ويكفي في الظرفية أدنى مناسبة، فإذا كان صاحب الصحيفة في سجّين يناسب أن يقال: إنّ مكانها أيضاً في سجّين. وأمّا قوله:(كِتَابٌ مَرْقُومٌ) فهو خبر عن ضمير محذوف يعود إلى (كِتَابَ الْفُجَّارِ)وليس تفسيراً لسجّين، بل تركه سبحانه على حالة الإبهام تهويلاً لحال الواقعين فيه ولم يفسّره بشيء، فيكون المعنى:(إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ) كتاب مبيَّن واضح الخطوط يشبه في الرسوم والأشكال الثوب المنسوج. وهكذا في جانب كتاب الأبرار حرفاً بحرف.

فإن قلت: إنّه سبحانه كلّما قال: (مَا أَدْرَاكَ) جعلت الآية التالية تفسيراً وجواباً للسؤال، كما هو الحال في قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)ففسّرها بقوله: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)، وهكذا سائر الموارد، فما هو الوجه لانقطاع قوله (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) عن كونه جواباً وتفسيراً لسجّين؟

قلت: الأمر كذلك لكن هنا قرينة على الانقطاع وهو تقدّم لفظ (كِتَابٌ)على سجّين، حيث قال:(إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين) فاحتاج الكتاب إلى التفسير ففسّره بقوله:(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)ولولا هذا لوقع تفسيراً لما قبله.

وبذلك يعلم صحّة ما قاله الراغب في مفرداته حيث قال: وقد قيل: إنّ كلّ شيء ذكره الله تعالى بقوله:(وَمَا أَدْرَاكَ) فسّره وكلّ ما ذكر بقوله: (وَمَا يُدْرِيكَ)تركه مبهماً.

وفي هذا الموضع ذكر (وَمَا أَدْرَاكَ) وكذا في قوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) ثمّ فسّر الكتاب لا السجِّين والعلِّيين، وفي هذه لطيفة موضعها الكتب التي تتبع هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. المفردات للراغب: ٢٢٥، مادة «سجن».

ولم نقف على الكتب التي أشار إليها ولكن الوجه ما ذكرنا.

الثاني: ما أفاده الزمخشري صاحب «الكشّاف» وذلك بحمل الكتاب في كلا الموضعين على صحيفة الأعمال، لكن المراد من الكتاب الأوّل صحيفة كلّ فاجر بخصوصه، ومن الثاني الديوان الكبير الذي يشتمل على صحائف كلّ الفجّار وغيرهم من الإنس والجنّ.

هذا مع تفسير «سجّين» بديوان الشرّ، لا بمعنى الجحيم أو الموضع الخاص في جهنّم، وإليك كلامه:

قال: فإن قلت: قد أخبر الله عن كتاب الفجّار بأنّه في سجّين وفسّر سجّيناً بكتاب مرقوم فكأنّه قيل: إنّ كتابهم في كتاب مرقوم، فما معناه؟

قلت: «سجّين» كتاب جامع هو ديوان الشرّ، دوّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجنّ والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بيّن الكتابة، فالمعنى أنّ ما كتب من أعمال الفجّار مثبّت في ذلك الديوان (الذي وصفه سبحانه بأنّه(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)) وسمّي ذلك السجلّ سجّيناً بمعنى الحبس والتضييق، لأنّه سبب الحبس والتضييق في جهنم.(تفسير الكشاف:٣/٣٢٢.)

نعم شارك الشيخ الطريحي صاحبَ «الكشاف» في تفسير سجّين بمعنى السجلّ. لاحظ: مجمع البحرين: مادة «سجن».

ثمّ إنّ ما ذكره صاحب الكشاف اختاره المراغي في تفسيره وبيّنه بأوضح الوجوه، وقال: إنّ للشرّ سجّلاً دوِّنت فيه أعمال الفجّار، وهو كتاب مسطور بيّن الكتابة، وهذا السجلّ يشتمل عليه السجلّ الكبير المسمّى بسجّين كما تقول: إنّ كتاب حساب قرية كذا في السجلّ الفلاني المشتمل على حسابها وحساب غيرها من القرى، فلكلّ فاجر من الفجّار صحيفة، وهذه الصحائف في السجلّ العظيم المسمّى بسجّين. تفسير المراغي:١٠/٧٥.

الثالث: ما أفاده العلاّمة الطباطبائي(رحمه الله) وحاصله الأخذ بظهور سجّين بمعنى الجحيم أو موضع منها و التصرّف في ظاهر الكتاب وحمله على المقضيّ القطعي والمكتوب الحتمي، فيكون معنى الآيات الثلاث كالتالي:

إنّ المقضيّ في حقّ الفجّار (لَفِي سِجِّين) الذي هو سجن يخلد فيه من ورده، وإن شئت قلت: إنّ مصيرهم وما كتب لهم فهو في سجّين.

وأمّا قوله: (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) فهو بظاهره تفسير لسجّين، والمعنى: أنّ ما قُدّر في حقّهم وقُضي عليهم بسجّين، أمر متبيّن لا إبهام فيه، وقضاء حتم لا يتخلّف، وبه يُعلم حال الآيات الثلاث في حقّ الأبرار. الميزان في تفسير القرآن:٢٠/٣٤٦.

ويؤيّد هذا الوجه إطلاق الكتاب وإرادة الحكم المقضيّ في غير واحدة من الآيات، قال سبحانه في بيان النساء التي يحرم الزواج منهن:(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ). النساء:٢٤. أي صارت حرمة الزواج بالمتزوّجات (الْمُحْصَنَاتُ) حكماً قطعياً.

وقوله تعالى: (وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْض فِي كِتَابِ اللهِ)(تفسير القمي: ٢ / ٤٠٤ ؛ تفسير نورالثقلين:٥/٥٣٠،برقم ١٥.): أي فيما قرّر الله سبحانه وجعله حكماً مقضيّاً.

ويؤيّده أيضاً ما ورد في تفسير علي بن إبراهيم حيث فسّر كتاب الفجّار بقوله: ما كتب الله من العذاب لفي سجّين. الأنفال: ٧٥.

ومع ذلك فالظاهر هو المعنى الأوّل من بين الوجوه الثلاثة .

١٠ ـ ١٧ الآيات: العاشرة إلى السابعة عشرة (وَيْلٌ يَوْمَئِذ لِلْمُكَذِّبِينَ ... هَذاَ الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ).

(وَيْلٌ يَوْمَئِذ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَد أَثِيم * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ).

المفردات

معتد: المعتدي: المتجاوز عن الحقّ إلى الباطل، وهو وصف لكلّ كافر يعتدي على دلائل الحق، ولا ينظر فيها، بل كلّ عاص يعتدي على حقوق الله وهي الطاعة.

الأثيم: مبالغة في الإثم، أي: كثير الإثم.

ران: الرَّين: الصدأ الذي يعلو الشيء الجليل، كالسيف والمرآة يعلوهما الصدأ. قال صاحب «الكشاف»: ران عليه الذنب وغان عليه، رَيْناً وغيناً، الكشاف: ٣ / ٣٢٢ .وكأنّهما بمعنى واحد.

وقال غيره: الغَيْن: الحجاب الرقيق الذي يزول عن كثب، والرَّين: هو الغليظ الذي لا يُرجى زواله.(غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ١١ / ٣٣٢ .)

وعلى كلّ تقدير فالمراد هنا هو الغلبة، كما سيأتي.

صالوا: الصلي: الاصطلاء والاحتراق، أو الدخول.

التفسير

١٠ و ١١. (وَيْلٌ يَوْمَئِذ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) :

لعلّه إشارة إلى ما تقدّم من قوله: (أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ) حيث معناه أنّهم كانوا يكذّبون بيوم الدين.

ثمّ إنّه سبحانه وصف المكذبين بأوصاف ثلاثة:

١٢ ـ أ وب. (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَد أَثِيم) :

أي إنّه لا يكذّب بهذا اليوم إلاّ كلّ متجاوز عن الحق إلى الباطل، غارق في الإثم، منهمك في المعاصي، فتجاوز دلائل البعث والإعراض عنها مع العكوف على الآثام يُفضيان بصاحبهما إلى إنكار اليوم الآخر، واستبعاد قدرة الله تعالى على الإعادة.

ويمكن أن يراد بالمعتدي هنا، الذي يعتدي على حقوق الناس وينتهك حرمات الله، فإنّ من يفعل ذلك، ينكر اليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب، ليسوّغ لنفسه الإمعان في تجاوز حقوق الآخرين .

١٣ ـ ج . (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) :

وقد بلغ اعتداؤه على الحق أنّه يصف أفضل الكتب وأحقّها بأنّه أُسطورة كأساطير الأوّلين وحكاياتهم التي لا أصل لها.

وكأنّ المشركين كانوا ينظرون إلى القرآن وكأنّه قصص خيالية تشبه مثلاً قصة مجنون ليلى أو من مقولة الملاحم التي سردها الفردوسي في ملحمته المعروفة، فإنّ أكثرها تخيّلات ساقته إليها قوة خياله الأدبي.

وما أشبه الحاضر بالماضي أمّا الماضي فيظهر من غير واحدة من الآيات أنّ المشركين بدل أن يتدبّروا في آيات القرآن الكريم، كانوا يصفونها بالأُسطورة أو أساطير الأوّلين، يقول سبحانه: (يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ). الأنعام:٢٥

فزعموا أنّ البعث والمعاد أُسطورة من أساطير الأوّلين، روي أنّه جاء أحد المشركين إلى النبي(صلى الله عليه وآله)وبيده عظم رميم، قال:«مَن يحييه وهو رميم»، وقد حكاه سبحانه بقوله: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)، فأجابه بقوله تعالى:(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ).(يس: ٧٨ ـ ٧٩.)

فالمشرك مكان أن يتدبّر في البرهان القاطع الذي أقامه القرآن الكريم، ذهب إلى بيته ووصف منطق القرآن بالأُسطورة وخاطب زوجته بالبيتين التاليين:

ءأترك لذة الصهباء يوماً *** لما وعدوه من لبن وخمر[٢]

حياة ثم موت ثم نشر *** حديث خرافة يا أُمّ عمرو[٣]

٢ . وروي: من طمّ وضمر.

٣ . الملل والنحل:٢/٢٣٦.

وأمّا الحاضر فما زلنا طيلة عمرنا نسمع عن جماعة يصفون أنفسهم بالتقدّمية والتحرّر والتجدّد والعلم، بينما هم يُلصقون صفة الرجعية بالإسلاميين، ويَصِمون الدين بالتخلّف والجمود، ويدّعون أنّ التعاليم الإسلامية تمنع تطوّر المجتمع وتعود به إلى القرون

السالفة.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على جهلهم بالدين وتعاليمه وأنّه يقود البشرية إلى التقدّم والعلم وتوثيق الأواصر الاجتماعية، إلى غير ذلك من مبادئ وتعاليم لا يوجد لها مثيل في فلسفات الغرب ومسالكهم.

ما هو سبب تكذيبهم ؟

ثمّ إنّه سبحانه ذكر سبب تكذيبهم، فقال :

١٤. (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ):

قوله تعالى: (كَلاَّ) ردع وإبطال لقولهم: (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) وأنّ السبب في عدم إيمانهم هو أنّ ما اقترفوه من أعمال إجرامية قد (رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ): أي غلب على قلوبهم، وعلاها كما يعلو الصدأ بعض الفلزّات، فحجَبها عن إبصار ضياء الهدى، ومنعَها عن فهم القرآن، ودخول نور الإيمان فيها.

وقوله:(مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) إشارة إلى استمرارهم في اكتساب القبائح والآثام، والآية تدلّ على أنّ الإصرار على الذنوب مرّة بعد أُخرى يؤثر في تفكير الإنسان وقضائه في الموضوعات المختلفة، على وجه لو استمر الإنسان عليها وتوغل في الاعتداء على حدود الله ربما سيكون هذا سبباً لتكذيبه بما وراء الطبيعة، ويشهد على ذلك وراء هذه الآية قوله سبحانه:(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ). الروم:١٠.

نعم إنّ من المعروف أنّ عمل الإنسان دليل عقيدته، وأنّ أثر الإيمان يظهر في أعماله وأفعاله وفي سلوكه مع أفراد أُسرته وعشيرته «فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيمَانِ» نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦ .، وهذا صحيح لا إشكال فيه، ولكن ربما ينعكس الأمر، فيكون العمل بنّاءً للعقيدة، وصانعاً لها، وهذا هو الذي يشير إليه قوله سبحانه في هذه الآية وما تقدّمها: (بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)فكأنّ ما اكتسبوه وما زالوا يكتسبونه صار صدأً على مرآة القلب، فلا ينعكس فيها نور الإيمان.

وفي بعض الروايات إشارة إلى ما ذكرنا، روى العياشي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)قال: «ما من عبد مؤمن إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله تعالى:(كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)».(مجمع البيان:١٠/٣٣٠.)

وروى أحمد بن حنبل والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)قال: «إنّ العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن:(كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)». الدر المنثور: ٨ / ٤٤٥ .

وروى عطية بن سعد العَوفي عن ابن عباس، قوله: (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)، قال: طبع على قلوبهم بما كسبوا.

تفسير القرآن الكريم: ٣ / ١٤٤، برقم ٢٠٤٢، استخراج وتحقيق عبدالرزاق حرز الدين، منشورات دليل ما، ١٤٣١ هـ.

ثمّ إنّه سبحانه بعد أن بيّن سبب تكذيبهم ذكر جزاءهم يوم القيامة وقال: إنّهم سيجزون بأمور ثلاثة:

١٥ ـ أ . (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذ لَمَحْجُوبُونَ) :

أي أنّ هؤلاء الكفرة الفجرة، ممنوعون من رحمة الله مدفوعون عن ثوابه غير مقبولين ولا مرضيين، وفي النهاية فهم محرومون من كرامة القرب والمنزلة، والدليل على أنّ المراد من الحجب ـ حرمانهم من رحمة الله أو كرامة القرب ـ ما سيأتي في وصف الأبرار حيث

يصفهم بقوله: (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) وهذا يدل على أنّ الفجّار محرومون من نعم الله تعالى.

وفي الكشاف: كونهم محجوبون عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم لأنّه لا يؤذن على الملوك إلاّ للوجهاء المكرّمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلاّ الأدنياء المهانون عندهم. تفسير الكشاف: ٣ / ٣٣٣ .

ومن العجب أنّ الأشاعرة استدلوا بهذه الآية على أنّ المؤمنين يرونه سبحانه، قال الرازي: ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة. ثم قال: وفيه تقرير آخر وهو أنّه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفّار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفّار لا يجوز حصوله في حقّ المؤمن فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حقّ المؤمنين.(تفسير الرازي:٣١/٩٥.)

يلاحظ عليه: بأنّه إذا قيل: حُجب فلان عن الأمير، فهو يستعمل في موردين:

١. حجب عن لقائه.

٢. حجب عن نيل عطاياه.

ومع ذلك يفسر بالوجه الأوّل!!

مضافاً إلى ما عرفته من أنّه سبحانه يقول في حقّ الكافرين بأنّهم عن ربّهم لمحجوبون، وفي مقابله يقول في حق الأبرار: (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)ويُعلَم معنى الأوّل بالمقابلة، فهل الأبرار يرون ربّهم حتى يحرم الفجّار من الرؤية؟ أو أنّ الأبرار يكونون منعمّين ويقابلهم الفجار فيكونون محرومين من النعم .

١٦ ـ ب . (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ):

عطفت هذه الفقرة على الفقرة السابقة بحرف (ثُمَّ)الدالّ على التراخي الرتبي لا الزماني ؛ وذلك لأنّه ارتقاء في الوعيد حيث يدخلون الجحيم، وهو نظير قوله تعالى: (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ) الانفطار: ١٥.

وربّما يقال: إنّ (صَالُوا) جمع صال وهو الذي مسّه حر النار.

١٧ ـ ج . (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ):

والقائل هم خزنة النار، وهو توبيخ وتقريع، ولم يذكر اسم القائل لعدم العناية به .

١٨ ـ ٢٨ الآيات: الثامنة عشرة إلى الثامنة والعشرين(كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ.... يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ).

(كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ* إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيق مَخْتُوم * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيم * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ).

المفردات

الأبرار: جمع بَرّ (بفتح الباء وتشديد الراء)، وهو الذي يعمل البرّ، ويفعل الطاعات.

يقول ابن مالك:

والله برّ والأيادي شاهدة *** ....

علّيّين «علّيّون»: جمع عليّ (فِعّيل) من العلوّ، وهو اسم لأعلى الأمكنة، ويقابل (سِجِّين).

الأرائك: جمع أريكة وهي السرير في الحَجَلة. لسان العرب: ١٠ / ٣٩٠، مادة «أرك».والحجلة كالقبّة على الأسرّة.

نضرة: البهجة التي تطفح على وجه المسرور الراضي، إذ تبدو على وجهه ملامح السرور.

الرحيق: الخمر الصافية الطيّبة.

مختوم: المسدود إناؤه حتى لا يشوبه غيره.

المسك: مادّة على هيئة سائل في غُدّة من غدد غزال المسك الذكر، وعندما تنتزع الغدة وتُجفّف يأخذ المسك شكل حُبيبات، وهي ذات عَرْف طيّب مشهور طيبه.

التنافس: الرغبة.

تسنيم: قال الراغب: عين في الجنة رفيعة القدر، وفسّر بقوله: (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ).

التفسير

لمّا بيّن سبحانه في الآيات المتقدّمة مصير الفجّار ذكر في هذه الآيات منزلة الأبرار ومصيرهم، وقال:

١٨. (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) :

أي ليس الأمر كما ذكره الفجّار من إنكار البعث ومن أنّ كتاب الله هو أساطير الأوّلين، بل هو حقّ كما ينطقون وأنّ (كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ): أي أنّ كتاب المطيعين لله في علّيّين، أي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، وهو كناية عن كونهم في «علّيّين»، والمراد: إنّ الأبرار لفي علّيّين ثم قال:

١٩ و ٢٠. (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ):

ذكره بلفظ «ما» إيذاناً بتكريمه وتعظيمه، ثم ترك تفسيره وإنّما فسّر كتاب الأبرار المتقدّم، وهو أنّ كتاب الأبرار: (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) مبيَّن واضح. ما ذكرنا هنا في تفسير الآيات موافق لما اخترناه من الوجه الأوّل من الوجوه الثلاثة الّتي مرّت في قوله تعالى: (إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ...).

٢١. (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) :

والآية تدلّ على أنّ نخبة من المؤمنين لهم مقام مرموق يشاهدون صحيفة أعمال الأبرار والصالحين، وهذه مزيّة لم تكن موجودة في صحيفة أعمال الفجّار.

وربما يفسّر المقرّبون بالملائكة وهو غير واضح؛ لأنّه سبحانه يصف السابقين بالمقرّبين ويقول:(وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) الواقعة: ٩ ـ ١٠..

٢٢. (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ):

لمّا تقدّم منه سبحانه مصير الفجّار وقال: (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ)، أراد بهذه الآيات بيان مصير الأبرار، وقال: (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) ثمّ وصف النعيم بأوصاف ثلاثة:

٢٣ ـ أ . (عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ):

ينظرون إلى ما حفّ بهم من أنواع النعيم الرغيد في الجنة لترتوي عيونهم من مناظرها البهية، وألوانها الخلاّبة، وحدائقها البهيجة، وعيونها الجارية، وفاكهتها الدانية، وحورها اللؤلؤية..

٢٤ ـ ب . (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) :

أي ترى آثار النعمة في وجوههم بشاشة وإشراقاً.

٢٥ ـ ج . (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ) :

أي من خمر مختوم لا غش فيه ولا شيء يفسده.

وليس الخمر في الجنّة كالخمر في الدنيا، فالثانية تفسد العقل وتوجد البغضاء بخلاف خمر الجنة، ولذلك يصفها بقوله:(لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَ

لاَ تَأْثِيمٌ). الطور: ٢٣ .

ثمّ عاد سبحانه إلى وصف الرحيق بصفتين:

أ. (مَخْتُوم): أي ختم عليه تكريماً لصيانته عن دخول ما يفسده.

٢٦ ـ ب . (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) :

أي يجد الشارب في آخر شربه ريح المسك، وفي مثل هذا الرحيق ـ لا في رحيق الدنيا ـ فليتنافس المتنافسون، وليرغب فيه الراغبون.

ومن المعلوم أنّ التنافس في رحيق الآخرة، لا يتحقّق إلاّ بالمبادرة إلى طاعة الله، فليتنافس من يريد رحيق الآخرة بالمبادرة إلى امتثال أوامره سبحانه واجتناب نواهيه.

٢٧ ـ د . (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيم) :

والضمير في (مِزَاجُهُ) يعود إلى الرحيق،والمراد أنّ هذا الرحيق ممزوج بماء عين اسمها تسنيم.

وبما أنّ خمر الدنيا فيه حرقة يمزجها شاربها بالماء، فالله سبحانه يقول: إنّ الرحيق يمزج بماء عين اسمها تسنيم ؛ وإنّما سمّيت بذلك لأنّ ماءها يأتي من علوّ، فهي تصبّ على جنّاتهم من علوّ وكأنّها سنام.

٢٨. (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ):

و «عيناً» حال لتسنيم أو تمييز له، فيدلّ على أنّ الأبرار يشربون رحيقاً ممزوجاً بماء التسنيم، وأمّا المقرَّبون فيشربون من نفس العين كما قال: (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ).

فعلى هذا ففي الجنة مقامات ودرجات حسب درجات المؤمنين ومقاماتهم.

١. فمنهم من يشرب ما يجري على صورة أنهار، لقوله سبحانه: (وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْر لَذَّة لِلشَّارِبِينَ) محمد: ١٥..

٢. ومنهم من يشرب بكؤوس مختومة.

٣. ومنهم من يشرب من تسنيم الذي هو أفضل أشربة الجنة.

والغرض من هذه الآيات هو الحثّ والترغيب في الإيمان وصالح الأعمال.

٢٩ ـ ٣٦ الآيات: الثمان الأخيرة(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا..... مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).

المفردات

يتغامزون: الغمز، وأصله الإشارة بالجفن أو اليد، طلباً إلى ما فيه (معاب)، ومنه قيل: ما في فلان غميزة أي نقيصة يشار بها إليه، وجمعها غمائز. المفردات للراغب، مادة «غمز».

فكهين: الفكه من الفكاهة وهو حديث ذوي الأُنس. والمراد: يلتذّون بغيبة المؤمنين.

ثوّب: من التثويب ولا يستعمل إلاّ في المكروه، فقوله: ثوّب أي: هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلون؟

التفسير

ذكر الرازي في تفسيره: جاء علي(عليه السلام) في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل عليٌّ إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله). تفسير الرازي:١٠١/٣١.

والآية تدلّ على أنّ المنافقين يتّخذون من المؤمنين مادّة للضحك والسخرية كما هو دأب الأرذال والأنذال. وكان يتلخّص تعاملهم مع المؤمنين في الأُمور التالية:

٢٩ ـ أ. (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ): سخرية.

٣٠ ـ ب.(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) :

الضمير في مرّوا يصلح لأن يرجع إلى المجرمين أو يعود على المؤمنين، ولو صحّ شأن النزول فقد مرّ المؤمنون بالمجرمين فأرادوا اغتيابهم بالهمز واللمز.

٣١ ـ ج . (وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ) :

أي إذا رجعوا إلى أهلهم كانوا يتفكّهون في أحوال المؤمنين.

٣٢ ـ د. (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ):

أي يصفون المؤمنين بالضلال، ثمّ إنّه سبحانه ردّ على تقوّلهم بالضلال بقوله:

٣٣. (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) :

الضمير المتصل في (أُرْسِلُوا)يعود إلى الكفّار والضمير في (عَلَيْهِمْ)إلى المؤمنين، والمعنى: أنّه سبحانه لم يرسل الكفّار ليكونوا حفظة لأعمال المسلمين حتى يصفوهم بالضلال.

وبما أنّ المشركين كانوا يضحكون من المؤمنين فجوزوا مثلاً بمثل، فقال:

٣٤. (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) :

فالمراد من اليوم يوم القيامة لا يوم نزول الآية، وإلاّ لقال: فيومئذ الذين آمنوا من الكفّار يضحكون.

ولا يخفى ما في هذا الإخبار والحكاية من تسلية المؤمنين، وتثبيتهم على الإسلام، والتصبّر على متاعب التكاليف، ومشقّات الطريق، وأذى الأعداء، للظفر بتلك النهاية السعيدة، والنعيم الذي لا يحيط به وصف. انظر : غرائب القرآن: ١١ / ٣٣٦.

٣٥. (عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ) :

قوله: (عَلَى الأَرَائِكِ)خبر لقوله: (الَّذِينَ آمَنُوا)والمعنى: إنّ الذين آمنوا يضحكون من الكفّار في حالة كونهم جالسين على السرر ينظرون إلى جزاء الكفّار وأفعالهم الّتي كانوا يفعلونها في الدنيا من أنواع الجرائم.

ثمّ إنّ كلامه سبحانه وصل إلى نهاية المقصد وقال: فمن الفائز في يوم القيامة ومن هو الخاسر؟

٣٦. (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ):

وهذا الكلام سواء كان من الله سبحانه أو من الملائكة أو من المؤمنين يخبر بأنّه يُجازى الكفّار بما كانوا يعملون، هذا على القول بأنّ معنى «ثوّب»: جُوزي.

وأمّا إذا قلنا: إنّ معناه الثواب على عمل الخير، فتُحمل الآية على سبيل التهكّم، كما في قوله تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الدخان:٤٩.فيكون المراد: هل سُعدوا بأعمالهم الإجرامية واستخفافهم بالمؤمنين والغمز واللمز بهم؟ والله أعلم.

تمّ تفسير سورة المطففين

٨٤- سورة الانشقاق

(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ* وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ* وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ* يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ

كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ* فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً* وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً* وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً* إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً* إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ* بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً* فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ* لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ* فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لاَ يَسْجُدُونَ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ* وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ* فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى السورة في المصاحف بسورة «الانشقاق»، أخذاً من قوله سبحانه:(انْشَقَّتْ) كما سمّيت السورة المتقدّمة لها «المطففين» أخذاً من قوله تعالى:(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ).

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها خمس وعشرون في العدّ المكّي والمدني والكوفي، وفي العدّ البصري والشامي ثلاث وعشرون.

ففي العدّ الأوّل، قوله: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ) آية مستقلة، وفي العدّ الثاني هي جزء من قوله:(فَسَوفَ يُحَاسَبُ)؛ وأيضاً ففي العدّ الأوّل قوله: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) آية مستقلّة، وفي العدّ الثاني هي جزء من الآية التالية لها أعني:(فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً). والسورة مكيّة بالاتّفاق.

أغراض السورة

إنّ سورة الانشقاق وما تقدّمها من سورتي الانفطار والتكوير على غرار واحد، والجميع لبيان أشراط الساعة وحضور يوم القيامة واختلاف الناس في مصيرهم، ويظهر قولنا: على غرار واحد، بملاحظة الآيات الواردة في صدر السورة، فلاحظ ما يلي:

١. (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) التكوير: ١ ـ ٢.

٢. (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَ إِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ).(الانفطار: ١ ـ ٢.)

٣. (إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ).(الانشقاق: ١ ـ ٢.)

والعجيب أنّ جواب الشرط في السورتين المتقدّمين هو على غرار واحد، أمّا في سورة التكوير فالجواب فيها: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)، وفي سورة الانفطار فالجواب هو: (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ)، وأمّا في سورة الانشقاق فالجواب محذوف وهو «رأى الإنسان ما قدّم من خير وشرّ» ويدلّ عليه قوله:(يا أَيُّهَا الإنسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) فهي تشير إلى سير الإنسان من نقطة إلى نقطة إلى أن يموت ويلاقي ربّه، فعندئذ تقف كلّ نفس على ما أحضرت أو ما قدّمت من خير وشرّ. وعندئذ يكون الجواب فيها نفس ما في السورتين حقيقة ومعنى.

فهذه السور الثلاث متشابكة صيغة وأغراضاً وأجوبة.

١ ـ ٦ الآيات: الست الأُولى (إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ*.... كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ).

(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ* وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ* وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ* يا أَيُّهَا الإنْسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ).

المفردات

انشقّت: الشقّ: الخرمُ الواقع في الشيء، قال الشيخ الطوسي: الانشقاق: افتراق امتداد عن التئام، فكلّ انشقاق افتراق، وليس كلّ

افتراق انشقاقاً.

أذِنتْ: يقال: أذن له أي أجاز له، وهذا المعنى غير مناسب للمقام، إذ لا يناسب أن يأذن المخلوق لخالقه، بل الصحيح أن يقال: أذن له: أي استمع وهذا هو المراد. فالإذن الاستماع، تقول العرب: أذن لك هذا الأمر إذناً، أي استمع لك. قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به *** وإنْ ذُكرتُ بسوء عندهم أَذنوا

حُقّت: بمعنى حقيق ولائق، نظير قوله تعالى: (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ). الأعراف:١٠٥.

كادح: الكدح: السعي الشديد في الأمر والدأب في العمل، يقال: كدح الإنسان في عمله، يكدح.

التفسير

١. (إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ):

وهو بمنزلة قوله سبحانه:(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ).(الانفطار:١.)

والشق طروء الفصل في الجسم المتصل، وبما أنّ السماء قائمة على عمد غير مرئيّة، فإذا انفلت رباط هذه العُمد صدق أنّها انشقّت، وعلى كلّ حال فالمراد منه طروء الاختلال في النظام الكوني، وهو من أشراط الساعة، كلّ ذلك بأمره سبحانه ولذلك يقول تعالى:

٢. (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) :

أي استمعت إلى أمر ربها وانقادت وأطاعت تكويناً، وحُقّ لها ذلك، لأنّها مخلوقة له، والعالَم بأسره لا يخرج عن سلطان قدرته، قال سبحانه:(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). يس:٨٢ .

وقال سبحانه:(فَقَالَ لَهَا وَ لِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ).(فصلت:١١.) فإرادته نافذة في جميع الأشياء.

٣. (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ) :

والمراد بسطها بإزالة الجبال، كبسط الأديم، وقد أشار إليه سبحانه في موضع آخر فقال: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَ تَرى فِيهَا عِوَجاً وَ لاَ أَمْتاً)(طه: ١٠٥ـ ١٠٧.)، ومجموع الآيات من أشراط الساعة.

فهذا النوع من المدّ مميت للأرض ومن عليها وما عليها، وكان قبل ذلك مَدٌّ محييٌ لها ولمن عليها، قال سبحانه: (وَ هُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْهَاراً) الرعد: ٣ ..

٤. (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) :

أي رمت ما في بطنها من أشياء كثيرة، كالمعادن والكنوز وغيرها، يقول سبحانه:(وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا)، الزلزلة: ٢ . وعندئذ تتخلّى الأرض عمّا فيها، ولم يبق في بطنها شيء.

٥. (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) :

مرّ تفسيره مع أنّه تكرر بظاهر اللفظ ولكنّه ليس تكراراً حقيقة، لأنّ الأوّل راجع إلى السماء والثاني إلى الأرض، وهذه الأُمور الجلائل من علائم القيامة.

٦. (يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ):

والآية تتضمن أمرين:

١. أنّ الإنسان ساعٍ وسائر إلى ربّه بالجهد والتعب.

٢. أنّ هذا السير يتم بلقاء الله(الرب) يوم القيامة.

أمّا الأمر الأوّل: فيبدأ منذ انعقاد نطفة الإنسان إلى أن يخرج من بطن أُمّه ويعيش في هذه الدنيا رضيعاً ثم طفلاً، وصبياً، وشاباً،

وكهلاً، وشيخاً إلى أن يتم مراحل سيره. والشاهد على أنّ سيره وكدحه راجع إلى الدنيا هو قوله: (إِنَّكَ كَادِحٌ): أي في زمان الخطاب، فالإنسان ـ على الإطلاق ـ سواء أكان مؤمناً أم كافراً يسير ويكدح إلى الله سبحانه، سواء علم بذلك أم لم يعلم، فمثل الجاهل بهذا السير مثل راكب السفينة التي تسير، ولكنّه يزعم أنه ساكن، فهو في النهاية يصل إلى المقصد وإن لم يكن يعرف.

فكأنّ النظام خلق لسير الإنسان في هذا العالم من بدء حياته إلى نهايتها في الدنيا إلى التهيّؤ للقاء الله.

وأمّا الأمر الثاني: أنّ الغاية من هذا السير هي لقاء الله سبحانه .

وفي هذه الآية دليل على الحياة الأُخروية، فإنّ سعي الإنسان وسيره إلى لقاء الله يلازم وجود الغاية وهي المحاسبة على أعماله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر، فعبودية الإنسان وربوبية الرب تقتضيان وجود يوم الجزاء.

ويمكن أن يقال: إنّ الكائنات كلّها كادحة إلى ربها فتلاقيه، وإنّما خصّ الكدح في الآية بالإنسان فلأجل أنّ للكائنات ـ سوى الإنسان ـ كَدحاً واحداً، وأمّا الإنسان فله كدحان: كدح نتاجه الراحة والرضوان من الله تعالى، قال: سبحانه: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الأعراف: ٣٢، وكدح نتاجه الشقاء والاستبعاد عن الله سبحانه.

٧ ـ ١٥ الآيات: السابعة إلى الخامسة عشرة (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ.... بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً).

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً* وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً* وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً* إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً* إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ* بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً).

المفردات

الثُّبور: الهلاك والفساد، قال تعالى:(لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً). الفرقان:١٤.

يصلى: صلى فعل لازم، يقال للشيء إذا مسّته النار، وربما يفسّر بالدخول، قال الراغب: قيل: صلى النار: دخل فيها، قال تعالى: (فَسَوفَ نُصليه ناراً).(النساء:٣٠.)

فلو قلنا بالمعنى الثاني فالمعنى أنّه يدخل ناراً، ولو قلنا بالمعنى الأوّل يجب أن نقول: إنّ «سعيراً» منصوب على نزع الخافض أي يصلى بسعير.

السعير: السعر هو التهاب النار.

يحور: يقال: حار يحور إذا رجع، ويقال: كلمته فما حار جواباً، أي ما ردّ جواباً.

التفسير

نشاهد في هذه الآيات تقسيماً ثنائياً لمصير الكادحين من الأخيار والأشرار، فالأخيار يؤتون كتبهم بأيمانهم، والأشرار يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم.

٧. (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) :

أي فمن أُوتي كتابه بيده اليمنى فهو دليل على كونه فائزاً، فإنّ البركة عند عامّة الناس في اليد اليمنى وضدّها في اليد اليسرى، حتى سمّيت البركة يُمناً والشمال شؤماً.

٨ . (فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً) :

لعلّ المراد من يُسر الحساب التساهل فيه وعدم المناقشة، والإغماض عن السيئات إمّا بالتوبة أو بالعفو. وفي الحديث: «من حاسب نفسه في الدنيا هانَ الحساب عليه في الآخرة». التفسير الكاشف: ٧ / ٥٤٠ .

٩. (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً) :

أي يرجع إلى ما أعدّه الله له في الجنة من الحور والغلمان والنعم الدائمة والقصور العالية.

وأمّا تفسيرها بالأزواج والأولاد والعشيرة فبعيد؛ لأنّ لازم ذلك أن يكون هؤلاء من أهل الجنّة قبله، ولا قرينة على ذلك.

١٠. (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ):

والظاهر أنّ المراد أُوتي كتابه بشماله من وراء ظهره، تحقيراً له، ويدلّ عليه قوله سبحانه:(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ).(الحاقة: ٢٥.)

١١. (فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً) :

أي يدعو بالويل والهلاك ويقول: واثبوراه.

١٢. (وَيَصْلَى سَعِيراً) :

أي يدخل ناراً مؤجّجة لا يوصف عذابها، أو يُصطلى ويُشوى بالسعير.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر سبب هذا التعذيب فقال:

١٣. (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً) :

أي كان يسرّه متاع الدنيا وزخرفها وتُلهيه زينتها وينسى الآخرة ولا يأخذ أُهبتَها، بل يكذّب بها، فهذا النوع من الفرح مذموم جدّاً، والله سبحانه يصف قارون بهذا الوصف ويقول:(لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ). القصص:٧٦. وقال سبحانه:(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ).(المؤمن:٧٥.)

١٤. (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) :

أي يعتقد بأنّه لا يرجع إلى الله وأنّه لا حياة بعد هذه الحياة، ولذلك كان متوغّلاً في الآثام والسيئات، ففرحه في هذه الدنيا يتجلّى في الآخرة بصورة ندائه: واثبوراه.

١٥. (بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً):

إنّ لفظة «بلى» تستعمل في إبطال الكلام المنفي المتقدّم، نظير قوله سبحانه: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) الأعراف:١٧٢.، وقال سبحانه: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ).(التغابن:٧.) وأمّا المقام فهو إبطال لزعم من يعتقد أنّه لن يحور (أي يرجع) فقال سبحانه:«بلى» أي يحور ويرجع؛ وذلك لأنّ ربّه «كان» بصيراً وعليماً بمآله.

ولعلّ في قوله: (بَصِيراً) إشارة إلى لزوم المعاد، فإنّ الله سبحانه يعلم أنّ الناس بين طائع وعاص ومصلح ومفسد، فرمي الجميع بسهم واحد على خلاف العدل والإنصاف، فلا محيص من محاسبة الناس ومجازاتهم حسب أعمالهم.

وفي حديث عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: «ثلاث مَن كنّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته» قالوا: وما هي يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: تؤتي مَن حرمك، وتصل مَن قطعك، وتعفو عمّن ظلمك»(تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥٣٧ .).

بقي هنا أمر هام وهو أنّ الآيات السابقة قسّمت الناس إلى قسمين:

١. مَن أُوتي كتابه بيمينه وهم أصحاب اليمين.

٢. مَن أُوتي كتابه بيده اليسرى من وراء ظهره، وهم أصحاب الشمال.

ولم تذكر الآيات مصير المقرّبين الذين هم فوق أصحاب اليمين والشمال، قال سبحانه: (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ). الواقعة:٨ ـ ١١.

ولعلّ عدم ذكرهم أنّهم لسموّ مقامهم وطهارة أنفسهم وزكاة قلوبهم فوق أن يحاسبوا، إذ لا توجد في صحيفة حياتهم نقطة سوداء

حتى يحاسبوا عليها، وهناك احتمال آخر وهو إدخالهم واندماجهم في أصحاب اليمين، والله العالم.

وللسيد الطباطبائي هنا كلام نأتي بنصّه فإنّه بعدما طرح السؤال، قال: فمن الجائز أن لا يكون تقسيم أهل الجمع (يعني: القيامة) إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال تقسيماً حاصراً لجميعهم، بل تخصيصاً لأهل الجنة من المتقين وأهل الخلود في النار بالذكر بتوصيفهم بإيتاء الكتاب باليمين وبالشمال لمكان الدعوة إلى الإيمان والتقوى، نظير ذلك ما في سورة المرسلات من ذكر يوم الفصل ثم بيان حال المتقين والمكذّبين فحسب وليس ينحصر الناس في القبيلين، ونظيره ما في سورة النبأ والنازعات وعبس والانفطار، والمطففين وغيرها، فالغرض فيها ذكر أُنموذج من أهل الإيمان والطاعة وأهل الكفر و التكذيب، والسكوت عمّن سواهم ليتذكّر أنّ السعادة في جانب التقوى والشقاء في جانب التمرّد والطغوى. الميزان في تفسير القرآن:٢٠ / ٢٦٣. ط . طهران.

١٦ ـ ١٩ الآيات: السادسة عشرة إلى التاسعة عشرة (فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* .... لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق):
(فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ* لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق):

المفردات

الشَّفَق: هو الحمرة الظاهرة في وقت المغرب عند الأُفق. قال الشاعر المبدع دعبل الخزاعي(رحمه الله) وهو يذكر مصائب آل البيت(عليهم السلام):

رزايا أرتنا خضرة الأُفق حُمرةً *** وردّت أُجاجاً طعم كلّ فراتِ

الوَسَق: هو الجمع والضمّ، فإنّ الليل إذ أقبل أوى كلّ شيء إلى مأواه.

اتّسق: الاتّساق: هو الاجتماع والتكامل، واتّساق القمر: اجتماع نوره وتكامله في الليالي الثلاث: الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة .

طبق: الطباق في الشيء الذي يكون فوق الآخر، يقول سبحانه: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات طِبَاقاً) الملك: ٣ . أي بعضها فوق بعض.

التفسير

أقسم سبحانه في هذه الآيات بأُمور أربعة:

١. الشفق.

٢. الليل.

٣. ما وسق.

٤. القمر في حالة الاتّساق.

وجواب القسم (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق)، وإليك البيان.

١٦. (فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ):

فهو ـ أي: (فَلاَ أُقْسِمُ)ـ وإن كان بظاهره نفي القسم، ولكنّ المتفاهم منه في العرف هو الكناية عن القسم، فأقسم سبحانه بالحمرة التي تظهر في الأُفق الغربي عند ما ترسل الشمس آخر خيوطها وهي تجنح للمغيب، إذ يرتسم على الأُفق منظر رائق، بهيج الألوان، يروي ظمأ العيون للجمال، ويُلهم الشعراء المعاني العرفانية الغرّاء.

١٧. (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ):

أقسم بالليل لأنّه ـ كالنهار ـ عماد الحياة، ولولا الليل لارتفعت حرارة الأرض بشروق الشمس الدائم على الكائنات الحيّة ولانعدمت الحياة فيها.

وأقسم سبحانه أيضاً بـ(وَمَا وَسَقَ) أي بما جمع، فكأنّ ظلمة الليل هي السبب لعودة الإنسان والحيوان والطيور إلى منازلهم وأوكارهم، ونسبة الجمع إلى الليل نسبة مجازية باعتبار كونه ظرفاً للجمع.

١٨. (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) :

حلف سبحانه بالقمر عند اكتماله في الليالي الثلاث لما فيه من روعة وجمال، ولذلك يشبّه الوجه الوضيء الجميل بالقمر، مضافاً إلى نوره الرقيق الهادئ الذي يغطي سطح الأرض وهو في الرقّة واللطافة بمكان لا يكسر ظلمة الليل وفي الوقت نفسه ينير الطرق والصحاري للسائرين ليلاً.

فهذه أقسام أربعة بينهما ترتيب طبيعي تقريباً، فقدّم الشفق على الليل مع أنّه يظهر بعد مضيّ شيء قليل من الليل ؛ لأنّ الشفق من نور الشمس عند استتارها تحت الأُفق، ولذلك قدّمه على الليل.

ثمّ يتلوهما القمر في حالة الاكتمال.

وأمّا المقسم عليه فهو ما أشار إليه بقوله تعالى:

١٩. (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق):

وهنا أمران:

١. ما هو المراد من الركوب؟

٢. ما هو المراد من الطبق بعد الطبق؟

أمّا الأوّل فالظاهر أنّ المراد منه هو السلوك والاقتحام، فكأنّ الإنسان يركب الحالات التي يمر بها عبر حياته أو بعدها.

وأمّا الثاني فقد أتى سبحانه بكلام جامع قابل للتفسير بصور مختلفة ولم يرفع الغطاء عنه ليذهب ذهن السامع إلى أي مذهب، وفي ذلك شحذ للأذهان للتأمّل والتفكّر.

ويمكن أن يقال: إنّ الآية خطاب للإنسان المتواجد في الدنيا التي اجتاز مراحلها، فلابدّ أن يقال: إنّ المراد من هذه الطبقات هي ما يرجع إلى الآخرة، حيث إنّه يجتاز الحياة البرزخية عبر قرون يعلم الله عددها، ثم ينتقل إلى الآخرة وله فيها مواقف كثيرة حتى يحاسب ويتسلّم صحيفة أعماله بيمينه أو بشماله.

وعلى هذا فقوله سبحانه:(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق) يشير إلى المراحل التي يجتازها الإنسان بعد الموت، كما أنّ قوله:(يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) يشير إلى المراحل الزمنية التي يجتازها الإنسان في هذه الدنيا، فبالجمع بين الآيتين يظهر أنّ حياة الإنسان تبدأ بالتعب والألم منذ طفولته إلى موته، ومن حياته البرزخية إلى يوم تقرير مصيره، وأمّا الحياة الطيبة المجردة عن التعب فإنّما هي الحياة الأُخروية للصالحين، ولذلك يقول سبحانه: (وَ إِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) العنكبوت:٦٤. .

ويظهر من بعض الروايات أنّ الآية ناظرة إلى أنّ الأُمّة الإسلامية ستركب سنّة من سبقها من الأُمم، فقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم ما يلي:(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق) يقول: حالاً بعد حال، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لتركبنّ سنّة مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة، (تفسير القمي: ٢ / ٤٠٧ ـ ٤٠٨. ولو صح الحديث سنداً، فهو من مقولة تطبيق الكلي على مصداق خاص .) ولا تخطئون طريقتهم، شبر بشبر، وذراع بذراع، وباع بباع، حتى أن لو كان مَن قبلكم دخل جحر ضبّ لدخلتموه» قالوا: اليهود والنصارى تعني يا رسول الله؟ قال(صلى الله عليه وآله): «فمن أعني لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أوّل ما تنقضون من دينكم الإمامة (الأمانة) وآخره الصلاة». ريش السهم.

وأمّا وجه الصلّة بين المقسم به والمقسم عليه، فيمكن أن يقال: إنّ القرآن يقسم بأُمور متتابعة الوقوع ذات تسلسل زمانيّ خاص كما مرّ، فإذا كان المقسم به بهذا النحو فالطبقات التي يركبها الإنسان هي كالمقسم عليه ابتداءً من موته إلى برزخه إلى يوم تقرير مصيره، فالنظام سائد في كلّ من المقسم به والمقسم عليه يوم القيامة.

٢٠ ـ ٢١ الآيتان: العشرون والحادية والعشرون(فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ*.... و لاَ يَسْجُدُونَ).

(فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرءَانُ لاَ يَسْجُدُونَ).

التفسير

٢٠. (فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) :

هل الآية تفريع على قوله تعالى:(يا أَيُّهَا الإنْسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ)، أو هي تفريع على قوله: (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق)؟

ولعلّ الثاني أظهر ؛ لأنّ وجود الأهوال يوم القيامة يبعث كلّ عاقل على الإيمان بالله، فعدم إيمان هؤلاء موضع تعجّب، ولذلك سُئل متعجّباً، وقيل: (فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

ويمكن أن يفسّر عدم إيمانهم بوجه آخر وهو: أنّ وجود النظام في حياة الإنسان منذ بدء نشأته إلى موته، كما أنّ في اجتيازه الطبقات المختلفة يوم القيامة، يدلّ على وجود نظام بديع قائم بالله سبحانه، أفيمكن أن يكون خلق الإنسان بهذا النظام والدقة، عبثاً لا غاية له، أم يكون دليلاً على البعث والمعاد؟ وقد ذكر الطبرسيّ في «مجمع البيان» مراحل حياة الإنسان في هذه الدنيا وعدّها إلى سبع وثلاثين مرحلة. لاحظ : مجمع البيان:١٠/٣٤٦.

٢١. (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرءَانُ لاَ يَسْجُدُونَ):

أي ما الذي يصرفهم عن السجود لله تعالى إذا تُلي عليهم القرآن، وقد تجلّى سبحانه فيه «بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلاَتِ. وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!»(نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧ .)، ثمّ القرآن، أيضاً، المعجزة الكبرى التي تدلّ بوضوح على أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) صادق في دعوته عن الله تعالى ومبعوث منه.

وهل المراد سجود التلاوة عند سماع القرآن أو المراد التسليم والخضوع والاستكانة؟

الظاهر هو الثاني، إذ ليست تلاوة القرآن ـ على وجه الإطلاق ـ تفرض السجود، كما ليس المراد من القرآن هنا آيات السجدة، وليست هذه الآية ممّا تطلب السجود، فتعيّن أن يكون المراد سجوداً قلبياً، وخضوعاً واستكانة روحية حتى يؤثر القرآن في أفكار الإنسان وأعماله.

وأمّا وجه الاستفهام مع أنّه سبحانه يعلم وجه عدم إيمانهم وعدم سجودهم لكنّه طرحه بصورة السؤال تشبيهاً بتجاهل العارف، إلاّ أنّه ذكر في الآيات التالية السبب الواقعي لعدم إيمانهم وسجودهم، وهذا ما سنتلوه عليك.

٢٢ ـ ٢٥ الآيات: الأربع الأخيرة (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُون.... لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون).

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ* وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ* فَبَشِّرْهُمْ بِعَذاب أَليم* إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون).

المفردات

يوعون: الإيعاء جعل الشيء وعاءً، والوعاء ـ بكسر الواو ـ : الظرف لأنّه يجمع فيه. وسُميّت القلوب أوعية لما يحصل فيها من معرفة أو جهل. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «إِنَّ هذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا». نهج البلاغة: قسم الحكم: ١٤٧ .

التفسير

لمّا كان ظاهر الآيتين السابقتين هو التعجّب حيث قال: (فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) انتقل منه الى الإخبار عنهم بأنّهم مستمرون على الكفر والطعن بالقرآن الكريم، وقال :

٢٢. (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) :

استمرارهم في الطعن في القرآن، وتكذيب رسالة النبي(صلى الله عليه وآله)ومعه يستحيل أن ينفذ نور الإيمان إلى قلوبهم. فما دام هؤلاء على هذه الحالة لا يخضعون لأي دليل وبرهان.

٢٣. (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) :

إنّ الله أعلم بما يجمعون في صدورهم ويضمرون في قلوبهم من الرذائل والأغراض الخبيثة، فقد رفع تعجّبه تارة باستمرارهم في التكذيب، وأُخرى بجذور التكذيب التي هي الصفات الخبيثة الرذيلة التي تحدّد شخصيتهم، ومع ذلك كلّه يمتنع دخول نور الإيمان إلى قلوبهم.

٢٤. (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) :

التبشير استعارة للإنذار وقد أطلق عليه من باب التهكّم.

٢٥. (إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ):

وقد استثنى سبحانه من جملة المخاطبين الطائفة المؤمنة والعاملة للصالحات وبشّرهم بأجر غير مقطوع ولا منقوص.

ويمكن أن يقال: إنّ الاستثناء منقطع ؛ لأنّ الآيات المتقدّمة اختصّت بالذين كفروا....

فبما أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) مبشّر ومنذر، فقد أردف إنذاره بالتبشير، وبذلك أتمّ رسالته. ***

تمّ تفسير سورة الانشقاق

٨٥- سورة البروج

(وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَ شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ * وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَ اللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «البروج».

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها اثنتان وعشرون آية، وهي مكيّة تشهد على ذلك صياغتها، فإنّ السور المكيّة وآياتها غالباً قصيرة، والغالب عليها الدعوة إلى التوحيد وصفاته سبحانه والتنديد بالشرك، وإنكار الحياة الأُخروية.

أغراض السورة

التنبيه إلى مَنْ يعذِّبون المسلمين في مكّة المكرّمة وأنّ مثلهم مثل أصحاب الأُخدود، وتسلية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)بما حلّ بالأُمم الطاغية الّتي كذّبت رسلها، فاستأصلها الله تعالى بعذابه، ثم يستشهد على ذلك بقوم فرعون وثمود، لتكون عاقبة

أمرهما عبرة للمشركين الذين كان شأنهم تكذيب الرسول(صلى الله عليه وآله) وتعذيب المؤمنين.

١ ـ ٧ الآيات: السبع الأُولى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ .... وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ).

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَ شَاهِد وَمَشْهُود * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ).

المفردات

البروج: جمع البرج، وهو من التبرُّج أي الظهور، يقول سبحانه مخاطباً أزواج النبي(صلى الله عليه وآله):(وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى) : الأحزاب: ٣٣. أي لا تظهرن ظهور المرأة في الجاهلية، ويشهد على ذلك قوله تعالى:(غَيْرَ مُتَبَرِّجَات بِزِينَة) النور: ٦٠ .: أي: غير مظهرات لزينتهن، ولو أُطلق البروج على القصور فلأجل ظهورها.

ويطلق البروج في مصطلح الفلكيّين على منازل القمر حيث إنّه يسير في كلّ برج منها يومين وثلث يوم، فذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستتر ليلتين.

وأمّا بروج الشمس، فهي اثنا عشر برجاً: ستة منها في شمال خط الاستواء وستة في جنوبه، فالتي في شماله هي: الحَمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة.

والتي في جنوبه هي: الميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

وأمّا المراد من صيرورة الشمس في أحد هذه البروج، فهو أنّ الشمس إذا قابلت مجموعة من النجوم الثابتة التي هي بصورة الحمل يقال إنّها دخلت في برج الحمل، وهكذا إذا قابلت مجموعة من النجوم الثابتة التي هي بشكل الثور، يقال: دخلت برج الثور،وقس عليهما البواقي، فالمراد مقابلة الشمس في مسيرها لواحد من مجموعات النجوم التي يتخيّل أنّها بصورة أحد هذه الأُمور التي قسم منها صورة الحيوان، فالحمل هو: ابن الغنم والذي عمره أقل من سنة، والثور: ذكر البقر، والجوزاء: الغنم الأسود في وسطه بياض، والسرطان: حيوان من القشريات يعيش على شواطئ البحر وبعضها في المياه العذبة وتسميه العامة (السلطعون)، والأسد، والسنبلة، والميزان، والقوس، والعقرب، والحوت، واضحة المعنى.

وأمّا الجدي فهو ولد المعز الصغير.

والدلو: ما يُخرج به الماء من البئر.

الأُخدود: الشق العظيم في الأرض، أو الحفرة المستطيلة.

الوَقود: (بالفتح) ما تشتعل به النار من الحطب وغيره. وهو بالضم: بمعنى الإيقاد.

التفسير

قد أقسم سبحانه في أوائل هذه السورة بأقسام أربعة ضمن الآيات الثلاث الأُولى، وذلك لبيان قصة أصحاب الأُخدود والتنبيه على ما فيها من الدروس والعبر. وسيوافيك ذكر تلك القصة، بعد بيان الأقسام وتفسير آياتها:

١ ـ أ . (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ):

والبروج كما مرّ، هو الأمر الظاهر، ويقرب استعماله في القصر العالي، ويسمّى سور البلد للدفاع برجاً، وعلى هذا فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء لقوله سبحانه:(فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) الواقعة:٧٥.ولكن الأظهر أنّ المراد نفس الكواكب لظهورها.

وأمّا تفسيرها بالبروج الاثني عشر للشمس فبعيد، إذ هو رهن معرفة عرب عصر الرسالة بهذه البروج، ولو صحّ فيحمل على أنّه تفسير بمصداق خاص، وكأنّه يقول: والسماء ذات الكواكب.

وأمّا السماء فقد ثبت أنّ كلّ ما علاك فهو سماء .

فلأجل ما لهذه الكواكب (من نورها وحركاتها وطلوعها ومغيبها) من رموز وأسرار، صحّ الإقسام بها لعظمتها.

وربّما تفسّر البروج بالقصور العالية، كما عليه صاحب تفسير الفرقان، وقد استشهد بقوله سبحانه: (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) النساء: ٧٨ . .

ثم فرّع على ذلك قوله: هذه البروج المعنيّة في السماء هي القصور والكواكب ذوات القصور المزيّنة المتبرجة بألوان الزينة المدرّعة والمزوّدة بالمدفعيات والقاذفات.(تفسير الفرقان: ٣٠ / ٢٥٦ .)

ولا يخفى أنّ ذلك التفسير على وجه الجزم والقطع أمر غير صحيح، فإنّ للفظة برج أصلين: أحدهما البروز والظهور، والآخر الحصون والقصور مقاييس اللغة: ١ / ٢٣٨، مادة «برج».، ولا وجه لتطبيق البروج على المعنى الثاني، مع احتمال كون المراد هو الأوّل .

نعم ورد في بعض الروايات ما يستفاد منه وجود القصور والمدائن في السماء، والله العالم.

٢ ـ ب. (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) :

وهو يوم القيامة الذي وعده سبحانه لعباده للقضاء بينهم.

٣ ـ ج . (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ):

تعدّدت الأقوال وتضاربت في معنى الشاهد والمشهود، وقد أنهاها بعضهم إلى ثمان وأربعين قولاً، يرجع ستة عشر منها إلى معنى الشاهد والباقي إلى معنى المشهود. ولو رجعنا إلى القرآن الكريم نرى أنّه يفسّر لنا معنى الكلمتين.

فأمّا الشاهد فقد وصف الله به النبي(صلى الله عليه وآله) وقال: (يَا أَيُّهَا النَّبِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً). الأحزاب:٤٥.

وأمّا المشهود فالمراد به يوم القيامة ؛ لأنّه من صفاتها، قال سبحانه:(ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)(هود:١٠٣.): أي يشهده الخلائق كلّهم ويحضرون فيه، من الملائكة والجنّ والإنس والأوّلين والآخرين، ولا يوصف بهذه الصفة يوم سواه.

إلى هنا تمّ بيان الأقسام الثلاثة، وما ذكرناه هو المروي عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) حيث فسّروا القرآن بالقرآن.

روي أنّ رجلاً دخل مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله) فإذا رجل يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: فسألته عن الشاهد والمشهود، فقال:نعم، الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، فجزته إلى آخر يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)فسألته عن ذلك؟ فقال: أمّا الشاهد فيوم الجمعة، وأمّا المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام كأنّ وجهه الدينار، وهو يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقلت: أخبرني عن شاهد ومشهود، فقال: نعم؛ أمّا الشاهد فمحمد وأمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعت الله سبحانه يقول:(يَا أَيُّهَا النَّبِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً) وقال: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) فسألت عن الأوّل، فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثالث، فقالوا: الحسن بن علي(عليهما السلام). تفسير نور الثقلين:٥/٥٤٣، ولاحظ: مجمع البيان:١٠/٣٥٥.

وفي رواية أُخرى عن ابن عباس: إنّ الشاهد هو الله، والمشهود يوم القيامة . التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣١٦ .

وبذلك ظهر وجه الإقسام بهما لشرافتهما وكرامتهما لدى الله سبحانه.

قصة أصحاب الأُخدود

جاء في تفسير علي بن ابراهيم: كان سببهم ـ يعني سبب قتل أصحاب الأخدود ـ أنّ الذي هيّج الحبشة على غزوة اليمن ذو نواس ـ وهو آخر مَن مَلَك من حمير ـ تهوّد واجتمعت معه حمير على اليهودية وسمّى نفسه يوسف، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثمّ أُخبر أنّ بنجران بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى وعلى حكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبد الله بن بريا، فحمله أهل دينه على

أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران فجمع مَن كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كلّه، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل. فاتّخذ لهم أُخدوداً وجمع فيه الحطب وأشعل فيه النار، فمنهم من أُحرق بالنار، ومنهم من قُتل بالسيف، ومُثِّل بهم كلّ مثلة، فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين الفاً، وأفلت رجل منهم يُدعى دوس ذو ثعلبان على فرس له ركضة، وأتبعوه حتى أعجزهم في الرمل، ورجع ذو نواس إلى ضيعة من جنوده، فقال الله: (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) إلى قوله: (الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ). تفسير القمي: ٢ / ٤٠٩ ؛ تفسير نور الثقلين:٥/٥٤٤.

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى تفسير بقيّة الآيات:

٤ . (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ):

والآية تحتمل معنيين:

١. أنّه دعاء على أصحاب الأُخدود وإبراز غضب الله عليهم، فيكون قوله: (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) بمنزلة: قاتلهم الله، وعلى هذا يكون المراد: إنّ الذين عذّبوا المستضعفين من المؤمنين، لُعنوا بتحريقهم المؤمنين في الدنيا بلا جُرم.

٢. إخبار عمّا جرى على المستضعفين من المؤمنين من التعذيب بالنار وإلقائهم في الحفرة، وعندئذ يكون وصف المؤمنين المعذَّبين بأصحاب الأُخدود لأجل كفاية مجرد المقارنة والملازمة في الوصف.

والظاهر هو المعنى الأوّل، لأنّ هذه الصيغة استعملت في القرآن في إبراز الغضب، نظير:

١. قوله سبحانه:(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * اَلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَة سَاهُونَ). الذاريات:١٠ـ ١١.

٢. قوله سبحانه: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ). المدثر: ١٨ ـ ١٩.

٣. قوله سبحانه: (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ). عبس: ١٧.

٤. (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ) :

تفسير للأُخدود، أي كان الأخدود مشتملاً على الحطب وغيره ممّا تُشعل به النار، فيكون «بدل اشتمال».

٥. (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) :

على الكراسي أو في مكان عال.

٦ (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ):

أي ينظرون ويشاهدون كيف يفعل بالمؤمنين من التعذيب إشرافاً حاكياً عن قسوة نفوسهم.

والمراد من الشهود هو الحضور في الواقعة ومشاهدتها، ورؤية كيفية تعذيب المؤمنين بالنار، ولا يراد منها تحمّل الشهادة لعمل المعذبين وأداؤها إلى رئيسهم.

وعلى هذا فالحاضرون في الواقعة على طائفتين:

١. أُمراء ورؤساء حضروا مشهد تعذيب المؤمنين التذاذاً به.

٢. عمّال منفّذون لأوامر الرؤساء.

وعلى هذا، فالظاهر أنّ مرجع الضميرين في قوله:(هُمْ) و (يَفْعَلُونَ)مختلف، فالأوّل يرجع إلى الطغاة الذين شهدوا تلك الجريمة البشعة؛ عملية تحريق المؤمنين.

والثاني يرجع إلى القائمين بعملية التعذيب من حفر الأرض وإشعال الحطب وإلقاء المؤمنين في النار.

ويكون تقدير الآية هكذا: وهم (أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) شهود، على ما يفعلون (عمالهم) بالمؤمنين.

ثمّ إنّ الرازي لمّا جعل مرجع الضميرين واحداً أورد سؤالاً وقال: إذا كان المراد من الشهود هو الحضور فكان يجب أن يقال:«وهم لما يفعلون شهود» و لا يقال:(وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ).

ثمّ أجاب بقوله: إنّما ذكرت لفظة «على» بمعنى أنّهم على قبح فعلهم بهؤلاء المؤمنين ـ وهو إحراقهم بالنار ـ كانوا حاضرين مشاهدين لتلك الأعمال القبيحة. تفسير الرازي:٣١/١١٩.

ولا يخفى أنّ الظاهر هو الوجه الأوّل.

وأمّا جواب القسم فسيوافيك بيانه بعد تفسير الآيات التالية.

٨ ـ ١١ الآيات: الثامنة إلى الحادية عشرة (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ.... ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ).

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيء شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ).

المفردات

نقموا: النقم: العيب، وفي المفردات: نقمت الشيء ونقمته إذا أنكرته، إمّا باللسان وإمّا بالعقوبة. المفردات للراغب: ٥٠٤، مادة «نقم».

فتنوا: أي عاقبوا، قال الراغب: أصل الفتْن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار، قال تعالى: (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) الذاريات:١٣. المفردات للراغب: ٣٧١، مادة «فتن»..

التفسير

٨ . (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلاّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) :

أشار سبحانه في هذه الآية إلى السبب الذي استحق به المؤمنون التعذيب بالنار ـ حسب نظر طواغيت عصرهم ـ وهو أنّهم بقوا على الإيمان بالله ورسوله وكتابه، واستقاموا على دينهم وشريعتهم ولم يهابوا أحداً دونها.

وكفى في بيان منزلة هؤلاء الذين أُحرقوا في سبيل حفظ دينهم والثبات عليه هو ما رواه جميل بن درّاج عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: «قد كان قبلكم قوم يقتلون ويحرقون و ينشرون بالمناشير وتضيق عليهم الأرض برحبها فما يردّهم عمّا هم عليه شيء ممّا هم فيه من غير تِرة وتُروا من فعل ذلك بهم ولا أذى، بل ما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فاسألوا ربكم درجاتهم واصبروا على نوائب دهركم، تدركوا سعيهم». تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥٤٧، عن الكافي: ٨ / ٢٤٨. قوله: «ترة»: المكروه والنقص.

وقوله:(وَمَا نَقَمُوا) أشبه بالمدح الوارد في صورة الذم، فإنّ الاستقامة على الدين الصحيح من الفضائل الرابية التي يمتدح بها الإنسان، ولكنّها بنظر الكافرين جريمة تستحق العقاب.

ونظير ذلك قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم *** بهنّ فُلول من قراع الكتائب

٩. (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّموات وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهِيدٌ):

وهذه الآية هي بمنزلة التعليل، أي أنّ إيمانهم كان أمراً مثالياً، حيث آمنوا بالله الذي له الصفات التالية:

١. (الْعَزِيزِ).. القادر القاهر الّذي لا يُغالَب.

٢. (الْحَمِيدِ).. المستحق للحمد كلّه.

٣. (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ).

٤. (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

فالإيمان بالله الذي له هذه الصفات العليا والأسماء الحسنى فضيلة مقدّسة، وفي الوقت نفسه وصفه بكونه عزيزاً، إيعاز بأنّه سيعاقب هؤلاء المجرمين على جرائمهم، فالله سبحانه يُمهل ولا يُهمل، وأنّه سيوصل الثواب للمؤمنين والعقاب للكافرين يوم القيامة ولا يعجل في ذلك لمصلحة واضحة، وهو يعرف المطيع والمجرم لقوله: (وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

١٠. (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ):

لما ذكر سبحانه قصة أصحاب الأخدود أتبعها بذكر طائفتين:

الأُولى: الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأمروهم بالرجوع عن دينهم واستمرّوا على عملهم، ولم يتوبوا بعد.

الثانية: المؤمنون الذين استقاموا على دينهم ولم يكترثوا لتهديد الكافرين.

أمّا الطائفة الأُولى فقد أشار إليها بقوله:(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ)إلخ ، لكن ذُكِرَ فيها أمران:

١. أوعدهم بالعذاب فيما لو لم يتوبوا، فقال:(ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) وهذا يدلّ على أنّهم لو تابوا لتخلّصوا ونجوا من هذا الوعيد، فيكون مضمون الآية على خلاف ما اشتهر من أنّ توبة القاتل عمداً غير مقبولة، والظاهر إمكان الجمع بأنّ توبته غير مقبولة بالنسبة إلى الحدّ الذي حكم عليه به، ومقبولة يوم القيامة، فكأنّ قتله وإقامة الحدّ عليه هو توبة له.

وقد تكون الآية بصدد التعريض بطغاة قريش، الذين أذاقوا المؤمنين والمؤمنات أقسى ألوان العذاب من أجل أن يصرفوهم عن إيمانهم بالدين الجديد وبرسوله الأمين، ولذا توعّدهم الله تعالى إذا لم يكفّوا عمّا هم فيه . انظر: التفسير الكاشف: ٧ / ٥٤٦ .

٢. أنّه سبحانه أوعدهم بأمرين:

أ. عذاب جهنم.

ب. عذاب الحريق

فما هو المراد من التعدّد؟ وقد أجاب عنه الطبرسي(رحمه الله) بقوله: المراد: لهم أنواع العذاب في جهنم سوى الإحراق، مثل الزقوم والغسلين والمقامع، ولهم مع ذلك الإحراق بالنار. مجمع البيان:١٠/٣٥٨.

وأمّا الطائفة الثانية فقد أشار إليها بالآية التالية.

١١. (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ):

في الآية وعد جميل للمؤمنين يطيّب به نفوسهم كما أنّ ما في قبلها وعيد شديد للكفّار الفاتنين المعذِّبين. ولعلّ المراد بالفوز الكبير هو رضوان الله ؛ لقوله سبحانه:(وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ). التوبة:٧٢.

بقي هنا كلام: وهو: ما هو جواب القسم؟ وبعبارة أُخرى: ما هو المقسم عليه؟

وهنا احتمالات:

١. قوله تعالى:(قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) بتقدير «لقد» قتل أصحاب الأخدود، فيكون هو جواب القسم، نظير قوله سبحانه:(وَالشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا)فيكون جوابه:(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)بتقدير: لقد أفلح.

٢. قوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ)فقد أقسم سبحانه ليؤكّد على أنّه يعذب هؤلاء المجرمين أشدّ العذاب.

٣. ما اختاره الزمخشري في «الكشّاف» وهو أنّ جواب القسم محذوف يدلّ عليه قوله:(قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) كأنّه سبحانه أقسم

بهذه الأشياء لتأكيد أنّ كفّار قريش ملعونون كما لُعن أصحاب الأُخدود، وفي ذلك تثبيت للمؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على مَن تقدَّمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتدوا بهم ويصبروا على أذى قومهم، ويعلموا أنّ كفّار مكّة عند الله بمنزلة أُولئك الذين كانوا في الأُمم السالفة يحرّقون أهل الإيمان بالنار، وأحقّاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش كما قُتل أصحاب الأُخدود. تفسير الكشّاف:٣/٣٢٦.

وإنّما يصحّ الاحتمالان الأخيران إذا لم تفقد الصلة بينهما وبين الإقسام بالأُمور الأربعة:

أ. السماء ذات البروج.

ب. اليوم الموعود.

ج. الشاهد.

د. المشهود.

والذي يمكن أن يقال: إنّ وجه الصلة فيما ذكره الزمخشري هو أنّه سبحانه يقصد بهذه الآيات تثبيت قلوب المؤمنين وتصبيرهم على الأذى، كما مرّ في هذا القول ، وعندئذ يمكن أن يقال:إنّ وجه الصلة عبارة عن أنّه سبحانه حلف بالسماء ذات البروج لبيان أنّه كما يدفع عن السماء كيد الشياطين ـ كما قال سبحانه: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَة الْكَوَاكِبِ * وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَان مَارِد * لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلاِ الاَْعْلَى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِب) الصافات: ٦ ـ ٨ .: أي يرمون بالشهب من كلّ جانب من جوانب السماء إذا أرادوا الصعود إلى السماء للاستماع مجمع البيان: ٨ / ٣٢٨ .فكذلك يدفع عن المؤمنين كيد الكافرين.

ثم أقسم باليوم الموعود لبيان أنّ عمل هؤلاء المجرمين لا يُترك سُدى، بل يُجزَون به يوم القيامة.

كما أقسم ثالثاً بالشاهد وهو النبي(صلى الله عليه وآله) الذي هو من شهداء الأعمال ويشهد يوم القيامة على أعمال المجرمين.

ثم أقسم بيوم مشهود وهو يوم القيامة الذي يتحقّق فيه وعيده سبحانه، فيكون الإقسام لغاية تأكيد تثبيت قلوب المؤمنين، فحينما قال سبحانه:(قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) فكأنّه قال: «قتل كفّار قريش».

١٢ ـ ١٦ الآيات: الثانية عشرة إلى السادسة عشرة (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ..... فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ).

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ * وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ).

المفردات

البطش: تناول الشيء بصَوْلة.

التفسير

الظاهر أنّ هذه الآيات تأكيد وتحقيق لما تقدّم من الوعيد للكفّار والوعد للمؤمنين، وذلك بتوصيفه سبحانه بصفات ثمان:

١٢ ـ أ. (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) :

وقد دلّ البطش على الأخذ بالعنف، فإذا وُصف بالشدّة فقد تضاعف إيلامه، نظير قوله سبحانه:(إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) هود:١٠٢..

١٣. ب و ج. (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) :

أي يخلقهم أوّلاً في الدنيا ويعيدهم في الآخرة، فهم أحياء بعد الموت للحساب والجزاء، فليس إمهاله لمن يعصيه إهمالاً لعقابه.

١٤ ـ د و هـ .(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) :

وهذان الوصفان لتأكيد الوعد، كما أنّ الصفات السابقة كانت لتأكيد الوعيد.

والظاهر أنّ (الْوَدُودُ) صفة لله سبحانه أي يَودُّ أولياءه ويحبّهم.

١٥. و ، ز.(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) :

والعرش كناية عن مُلكه سبحانه، فالعالم كلّه عرش الرحمن، فله أن يتصرّف في ملكه كيفما شاء.

وقد ورد لفظ (الْعَرْشِ) في القرآن الكريم ما يقارب عشرين مرّة، وأُريد به ملكه تعالى واستيلاء سلطانه، وتفسيره بسرير يجلس عليه سبحانه تردّه القرائن القاطعة على بطلانه، ولا يقول به إلاّ المجسّمة خذلهم الله.

وأمّا (الْمَجِيدُ) فلو قرئ بالضم ـ كما عليه الأكثر ـ فهو وصف آخر لله سبحانه فهو موصوف بالمجد ؛ لأنّ المجيد لم يسمع في غير صفة الله.

وأمّا لو قرئ بالكسر (المجيدِ) فقد جُعل وصفاً للعرش، فيكون بمنزلة قوله: (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) التوبة: ١٢٩ .فمعنى كونه مجيداً أي بالغاً حدّ الكمال والعلو والرفعة.

١٦ ـ ح . (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) :

أي لا يصرفه عمّا وعد أو أوعد شيء لا من داخل ولا من خارج، فلو أوعد الله الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالنار، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنة، لم يخلف وعده ؛ لأنّ كلّ ما يُريده سبحانه يتمّ بعظيم قدرته، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «فَاعِلٌ لاَ بِاضْطِرَابِ آلَة، مُقَدِّرٌ لاَ بِجَوْلِ فِكْرَة... يُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ...يَقولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لاَ بِصَوْت يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاء يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ» نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦ ..

١٧ ـ ٢٢ الآيات: الستة الأخيرة (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ .... فِي لَوْح مَحْفُوظ).

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيب * وَ اللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْح مَحْفُوظ).

المفردات

لوح: اللوح واحد جمعه ألواح، ويراد به ما يكتب فيه من الخشب وغيره، وأمّا ما هي كيفية اللوح المحفوظ فهي تخفى علينا، إذ هو من الأُمور الغيبية التي يجب الإيمان بها.

التفسير

١٧ و ١٨. (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ):

لمّا تقدّم حال أصحاب الأُخدود من تعذيبهم المؤمنين ليردّوهم عن دينهم، بيّن أنّه لم يكن أمراً شاذاً، بل كانت له نظائر وهم فرعون وقومه، وأراد به ملأه، وثمود أي قبيلة ثمود فقد كانوا يعذبون المؤمنين، وقصّتهما معروفتان في القرآن الكريم.

أمّا قصة فرعون فقد أغرق الله فرعون وجنوده في اليمّ بعد ما نجّى بني إسرائيل، قال سبحانه في حقه: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) طه: ٧٧ ـ ٧٨ ..

وأمّا قصة ثمود فقد أخذهم الله بعذاب بئيس بعد ما عقروا ناقة صالح (عليه السلام)، قال سبحانه: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَة مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) هود: ٦٦ ـ ٦٧ ..

وفي الآية تسلية للنبي(صلى الله عليه وآله)، فكما أنّه سبحانه قضى على فرعون وملئه وقوم ثمود، فهو سبحانه سيقضي على أعدائك يعني قريشاً.

١٩. (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيب) :

أي إعراض وإبطال لما ربّما يُتوهَّم من احتمال إيمان هؤلاء الكافرين في المستقبل، فيبطل ذلك الاحتمال بأنّهم مغمورون في التكذيب كأسلافهم المذكورين في الآيات المتقدّمة، فلا يرجى إيمانهم .

٢٠. (وَ اللّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) :

أي مسلّط عليهم لا يفلتون منه. وفي الآية تطييب لقلب النبي(صلى الله عليه وآله)وأنّهم غير قادرين على إيقاف حركة التبليغ والدعوة.

٢١. (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) :

وهو إضراب بعد إضراب، وإبطال لتكذيبهم القرآن ووصفه بأنّه أساطير الأوّلين، أو قول كاهن، أو قول شاعر، فأبطل مزعمتهم هذه بقوله: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) أي مجيد في معارفه.

٢٢. (فِي لَوْح مَحْفُوظ) :

أي مودع في لوح محفوظ عن طروء الباطل ومسّ الشياطين.

فقد وصف القرآن هنا بأمرين:

١. قرآن مجيد، لأنّه أعظم الكتب السماوية.

٢. مكتوب في لوح محفوظ.

تمّ تفسير سورة البروج

٨٦-سورة الطارق

(وَالسَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْس لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِق * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّة وَ لاَ نَاصِر * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت في كتب التفسير بسورة (الطارق)، وربما تُسمّى بسورة (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)ولكلّ مناسبة خاصّة.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها سبع عشرة آية، وهي مكيّة بالاتّفاق، ويشهد على ذلك مضمون آياتها.

أغراض السورة

تهدف السورة إلى التنبيه على حفظ النفوس وأعمالها، والإنذار بالمعاد والاستدلال عليه، وتثبيت قلب النبي(صلى الله عليه وآله) بأنّه سبحانه يبطل كيد الكائدين.

١ ـ ٤ الآيات: الأربع الأُولى (وَالسَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ *..... إِنْ كُلُّ نَفْس لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ).

(وَالسَّمَاءِ وَ الطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْس لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ).

المفردات

الطارق: من الطَّرْق، وهو في الأصل كالضرب إلاّ أنّه أخصّ لأنّه ضربُ توقّع كطرق الحديد بالمطرقة، ثمّ شاع استعماله بمن يأتي في الليل فيجد الأبواب مغلقة فيطرقها ويدقّها حتى يخرج له صاحب المنزل ويفتح الباب، ومع ذلك يستعمل في كلّ ما يظهر بالليل، ولذا يطلق على الحوادث التي تحدث ليلاً بالطوارق.

النجم: الكوكب الطالع في السماء، يقال لكلّ طالع ناجم تشبيهاً به.

الثاقب: من الثقب وهو يعادل الخرق، ولكن استعمل في الآية للنجم الذي يثقب بنوره ظلمات السماء، قال سبحانه:(فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ). الصافات: ١٠ .

التفسير

١ . (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ):

أقسم سبحانه في بدء السورة بأمرين عظيمين هما:

١. السماء.

٢. الطارق الظاهر بالليل.

فقوله:(وَالسَّمَاءِ): أي أحلف بالسماء:(وَالطَّارِقِ) أي وما يظهر فيها.

٢ . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ):

هذا النوع من الخطاب يستعمل في بيان تعظيم الشيء، كما في قوله تعالى:(وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ). الحاقة: ٣.وكما سيمرّ عليك في قوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)، ولمّا أفادت الجملة عظمة المقسم به وفي الوقت نفسه إبهامه، رفع سبحانه الإبهام في الآية التالية .

٣. (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) :

أي الذي يخرق ظلمات الليل ويضيء السماء.

والمراد به جنس النجم، أي مطلق النجم من غير تحديد، وخصّهُ بعضهم بزُحَل زُحَل: ثاني أكبر كواكب مجموعتنا الشمسية، ولا يوجد أكبر منه سوى المُشتري. وتحيط بزحل سبع حلقات تتلألأ بألوان زاهية. ويعادل قُطره عشرة أمثال الكرة الأرضية تقريباً. وتستغرق دورته حول الشمس (١٠٧٥٩) يوماً أرضياً، أي حوالي (٢٩،٥) سنة أرضية، وذلك مقابل (٣٦٥) يوماً، أي سنة أرضية واحدة بالنسبة لدورة الأرض حول الشمس، وتستغرق دورته حول محوره مرة كلّ (١٠) ساعات و (٣٩) دقيقة، مقابل (٢٤) ساعة بالنسبة للأرض. الموسوعة العربية العالمية: ١١ / ٥٢٦ .لقوّة شعاعه، ويحتمل أن يراد به القمر لأنّه يطلع بالليل.

٤. (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ):

لفظ «إنْ» نافية، ولفظ «لمّا» بمعنى إلاّ، أي ما من نفس إلاّ عليها حافظ.

وربما يستفاد من الآية أنّه سبحانه يحفظ النفوس بمفارقتها الأبدان وأنّ الموت ليس فناءً للإنسان، بل هو خروج من دار إلى دار أُخرى، حتى إذا قامت القيامة أُرجعت النفوس المحفوظة إلى أبدانها، ويؤيّده قوله سبحانه في جواب المعترضين القائلين بأنّ موت الإنسان فناء وضلال له، فردّ عليهم سبحانه بقوله:(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ).[١]

فإنّ التوفّي هنا بمعنى الأخذ، أي يأخذكم ملك الموت الذي وكّل بكم فليس الموت ضلالاً وفناءً.

ثمّ إنّ حفظ النفوس يستلزم حفظ أعمالها خيرها وشرّها والمحاسبة عليها والجزاء على وفقها.

نعم يظهر من الطبرسي تخصيصه الآية بحفظ عمل النفوس وقولها وفعلها وإحصاء ما تكتسبه من خير وشرّ. مجمع البيان:٣٦٤/١.لكنّه مخالف لإطلاق الآية، والظاهر حفظ النفوس والغاية من حفظها حفظ أعمالهم من خير وشرّ ثمّ المحاسبة.

ثمّ إنّ هنا سؤالين:

الأوّل: ما هو السبب للإقسام بالسماء والطارق؟

الثاني: ما هي الصلة بين الإقسام بهما وترتُّب قوله:(إِنْ كُلُّ نَفْس لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) عليهما، إذ لابدّ من الصلة بين المقسم به والمقسم عليه؟

أمّا الأوّل: فوجه الإقسام واضح فإنّ عظمة السماء وظهور النجم الثاقب أمر عظيم يليق أن يقسم به حتى يتدبّر الإنسان ما فيها من الأسرار، إنّما الكلام في الأمر الثاني وهو الصلة بين المقسم به ـ السماء والنجم الثاقب ـ والمقسم عليه.

ويمكن أن يقال:إنّ وجه الصلة عبارة عن أنّ الإنسان العاصي يتصوّر أنّه إذا مات فقد فُني وجودُه وعُدمت شخصيتُه، فليس لغروبه طلوع آخر، وكأنّ كلّ ما غاب عُدم لا يأتي منه خبر.

والله سبحانه ينبه على خطأ هذه الفكرة ويقول: إنّ موت الإنسان ليس بمعنى فنائه وزواله بالمرّة، بل له غيبوبة يتبعها ظهور، نظير النجم الثاقب الذي إذا غرب يطلع بعد يوم آخر، فيكون الإقسام لغاية إثبات المقسم عليه، وهو أنّ لكلّ نفس حافظاً يحفظها من الفناء في الحياة الدنيا وبعد ذهابها إلى الدار الآخرة، فموتها نوع غيبوبة وإحياؤها في الآخرة نوع ظهور، كالنجم الثاقب.

هذا إذا كان المراد هو وجود الحافظ لكلّ نفس، وأمّا إذا كان المراد وجود الحافظ لصحيفة أعماله من خير وشر فهو أيضاً ظاهر فإنّ كلّ مَن يقوم بفعل من خير وشرّ فله ظهور وطلوع ثم لا يمضي زمان إلاّ ويتلوه غروب، ولكن سوف يتلوه ظهور آخر يوم القيامة فتوزن الأعمال ويحاسب الإنسان بها.

فظهور الطارق بعد غروبه أشبه بظهور الإنسان وصحف أعماله بعد موته، يوم القيامة.

وهناك وجه آخر ذكرناه عند دراستنا الأقسام في القرآن الكريم، فقلنا: إنّ الصلة بين الإقسامين والمقسم عليه هي أنّ السماء والنجوم تتحرك في مدارات منظمة على حساب دقيق، فليعلم الإنسان بأنّ أعماله أيضاً تخضع للحساب الدقيق، فإنّ في دار الوجود من يحفظ أعماله ويسجّلها، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر؛ فعلى هذا فما من أحد إلاّ وله مراقب يكتب كلّ أعماله فلا يضيع شيء في هذه الدنيا أصلاً.

هذا إذا قلنا بأنّ المراد من الحافظ هو حافظ الأعمال، ومثله ما إذا قلنا: إنّ المراد حافظ النفوس.

وبعبارة واضحة: إنّ للنفوس رقيباً يحفظها ويدبّر شؤونها في جميع أطوار وجودها ويحفظ صور أعمالها، كما أنّ للسماء مدبّراً لشؤونها بما تحتويه من أنظمة رائعة ومعقدة، فلكلٍّ حافظ.

٥ ـ ١٠ الآيات: الخامسة إلى العاشرة (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ *... فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّة وَ لاَ نَاصِر).

(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِق * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّة وَ لاَ نَاصِر).

المفردات

الدافق: من الدَّفْق وهو صبٌّ فيه دَفْعٌ، والماء الّذي يتولّد منه الإنسان يكون دافقاً.

وقد فسّره في «المفردات» بقوله: سائل بسرعة. المفردات للراغب: ١٧٠، مادة «دفق».

الصُّلب: الشديد، وسمّي الظهر صلباً لأجل صلابته وشدّته.

الترائب: عظام الصدر، الواحدة تريبة.

تُبلى: من البلاء وهو الاختبار والامتحان ومعرفة حقيقته أو ظهور جودته ورداءته.

السرائر: الإسرار خلاف الإعلان، وهي جمع سريرة، قال سبحانه: (سِرّاً وعَلانيةً) البقرة: ٢٧٤ ، وقال سبحانه:(يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ)(هود: ٥).

التفسير

تستدلّ الآيات بصورة واضحة على إمكان المعاد فيأمر الإنسان بالنظر إلى المادة التي خُلق منها بقوله:

(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) ثم يشرح المادة التي خلق منها بقوله: (خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِقٍ)حيث خُلق من هذا الماء الذي يخرج بقوّة وشدّة.

ثمّ وصف ذلك الماء الدافق ـ كما هو المشهور بين المفسّرين وسيوافيك ما هو المختار عندنا وأنّ الضمير في (يَخْرُجُ) يرجع الى الإنسان، لا الى الماء الدافق، فانتظرـ بأنّه يخرج من (بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) أي يخرج من العمود الفقري الكامن في وسط الظهر، والترائب أي عظام الصدر.

ثم يوجه نظر الإنسان إلى أنّ الله القادر على خلق الإنسان من الماء الدافق، أقدر على إرجاعه إلى الحياة ويقول:(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) فحكم الإعادة كحكم البدء، فالقادر أوّلاً قادرٌ ثانياً، فالقادر على خلق الإنسان من الماء الخاص قادر على إعادته؛ وقد تكرر هذا الاستدلال على المعاد في بعض الآيات، يقول سبحانه: (قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ) يس:٧٩ ، وقال سبحانه:(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ).

(الأعراف:٢٩.) وقال سبحانه:(وَ هُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ).(الروم:٢٧.)

نعم بقي هنا بحث في تعيين الضمير في قوله: (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) فإنّ أكثر المفسّرين ذهبوا إلى أنّ الضمير في الفعل يرجع إلى الماء الدافق في الآية المتقدّمة، وقد جرينا في تفسير الآية على هذا الوجه ونسبناه الى مشهور المفسّرين، فيكون معنى الآية: أنّ خلق الإنسان من ماء دافق، يخرج من بين الصلب و الترائب .

وهنا سؤال وهو: أنّ ظاهر الآية الذي يدلّ على خروج نطفة الرجل من بين صلبه وترائبه لا ينسجم مع ما اتّفق عليه العلم، فإنّ مصدر ماء الرجل الانثيان وهما الخصيتان فيندفع الماء منهما إلى رحم المرأة.

وأمّا ماء المرأة، فعبارة عن بويضات كروية دقيقة تنتجها غدتان تسمّيان المبيضين، فلم يبق للصلب والترائب أي محل لا لماء الرجل ولا لبويضة المرأة؟!

هذا هو الإشكال وقد شغل بال المفسّرين فذكروا وجوهاً لتفسير الآية، ولو أنّهم نظروا إلى الآية بنظرة فاحصة لعلموا أنّ الذي أوقعهم في الإشكال هو التفسير الخاطئ للآية حيث تصوّروا أنّ الضمير في الفعل (يَخْرُجُ)يرجع إلى «الماء الدافق» في الآية المتقدّمة، مع أنّه غير ظاهر، بل الظاهر خلافه، بل الضمير يرجع إلى الإنسان في قوله:(فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)والشاهد عليه ما بعد الآية وهو قوله تعالى: (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) فإنّ الضمير في «رَجْعِهِ» يرجع إلى الإنسان، وعلى هذا فالآية تتكفّل بيان ولادة الإنسان من بين الصلب والترائب لا خروج ماء دافق من بينهما.

وبعبارة أُخرى: الذي أوقعهم في تفسير الآية بصور مختلفة هو تصوّر أنّ مرجع الضمير في «يَخْرُجُ» هو الماء لكونه قريباً منه، ولكن المرجع هو الإنسان وإن كان بعيداً، والشاهد عليه قوله تعالى:(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)فالضمير يرجع إلى الإنسان .

وممّن تنبّه به على وجه الإجمال هو الشيخ الطوسي في «التبيان» ولكن غفل عنه أكثر المفسّرين، قال الشيخ: ومعنى الآية إنّ الذي ابتدأ الخلق من ماء دافق أخرجه من بين الصلب والترائب حيّاً قادر على إعادته. التبيان:١٠/٣٢٥.

ثمّ إنّ هذه الآية تهدف إلى إلفات نظر المشركين الذين ينكرون المعاد أشدّ الإنكار، بالبيان التالي وهو: أنّ نشأة الإنسان تبدأ من

ماء دافق يقع في رحم الأُمّ ثم يتطوّر وينمو إلى أن يصير إنساناً قابلاً للخروج من هذا المكان الضيّق إلى العالم الفسيح.

فالقادر على إنشاء الإنسان بالنحو المذكور قادر على إرجاعه إلى الحياة بعد موته، وإليك تفسير الآيات على هذا النسق. المراد فرض رجوع الضمير في «يخرج» إلى الإنسان.

٥ و ٦. (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِق):

أي (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ) المنكر للحياة الأُخروية إلى ما خلق منه فقد (خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِق)يقع في رحم الأُم ثم ينمو و يتكامل ويخرج من بين صلب الأُمّ وترائبها، حيث إنّ لصلبها وترائبها دوراً في حفظ الجنين، فالقادر على إنشائه بالنحو الماضي قادر على رجعه.

ثمّ إنّ مَن قال بأنّ الضمير في(يَخْرُجُ)يرجع إلى (مَاء دَافِق) مال يميناً ويساراً لتصحيح الآية وانطباق مفادها على ما هو المحقّق في العلم الحديث وذكروا وجوهاً أفضلها ما يلي:

إنّ الصلب وإن كان عبارة عن العمود الفقري والترائب عبارة عن عظام الصدر التي بين الترقوتين والثديين وهو موضع القلادة من المرأة، والصلب وإن كان غير مختصّ بالرجل لكن يستعمل فيه غالباً على عكس الترائب فإنّها تضاف إلى الرجل والمرأة، لكنّها تستعمل في النساء أكثر.

٧. (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) :

وهو إشارة إلى مبدأ تكوّن الجنين، فإنّ الجنين يتكوّن من حيمن الرجل وبويضة المرأة، فإنّ لكلّ من الزوجين دوراً في تكوّنه على خلاف ما كان عليه تصور العرب في عصر الرسالة، فاللّه سبحانه يريد بيان تكوّن الجنين من كلّ من الرجل والمرأة فيكنّي عن الأوّل بالصلب و عن المرأة بالترائب، فيكون معنى قوله تعالى:(يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ): أي يخرج من الرجل والمرأة جزء يكوّن واقع الجنين.

وعلى هذا فالآية بصدد نقد الفكرة الجاهلية التي تقول بأنّ للوالد دوراً في تكوّن الجنين، وأمّا المرأة فهي وعاء لنشوئه.

وعلى تلك الفكرة الباطلة قال شاعر الجاهلية:

بنونا بنوا أبنائنا وبناتنا *** بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

وعلى هذه الفكرة الباطلة أيضاً قام وعّاظ السلاطين في العصر الأموي بترويج خرافة سياسية، وهي أنّ الحسنين(عليهما السلام) ليسا من أولاد النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله)، بل هما من أولاد علي(عليه السلام) بحجّة أنّهما ينتميان إلى النبي(صلى الله عليه وآله)عن طريق بنته (عليها السلام)وأبناء البنت ليسوا أبناءً للرجل.

نعم أشاعوا تلك الفكرة مع أنّ القرآن يردّها بوضوح ؛ لأنّه صرّح بأنّ المسيح بن مريم هو من ذرية إبراهيم، ومن المعلوم أنّ عيسى بن مريم لا أب له وإنّما انتمى إلى إبراهيم عن طريق أُمّه، قال سبحانه: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ). الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥ . فقد عدّ الجميع ومنهم «عيسى» من ذريّة إبراهيم(عليه السلام).

نعم يرد على هذا التفسير أنّه على خلاف الظاهر، وذلك أنّ المفروض ـ على هذا الوجه ـ أنّ مرجع الضمير يرجع إلى (مَاء دَافِق)، ومعه لا يصحّ تفسير الآية بتكوّن الجنين من نطفة الرجل وبويضة المرأة.

وفرض كون «الصلب» كناية عن الرجل و«الترائب» عن المرأة، ينافي رجوع الضمير إلى ماء الرجل، فما ذكر في هذا التفسير صحيح ولكنّه لا ينطبق على ظهور الآية.

تفسير الشيخ المراغي للآية

إنّ الشيخ المراغي افترض أنّ الضمير في (يَخْرُجُ) يرجع إلى (مَاء دَافِق)، ثم إنّه حين التفت إلى أنّ الماء الدافق لا يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، حاول تفسير الآية بالبيان التالي وقد استعان في تفسيره هذا، بالنطاسي(الطبيب) البارع عبد الحميد العرابي بك وكيل مستشفى الملك سابقاً، وحاصل ما ذكره أنّ المراد من (مَاء دَافِق) هو ماء الرجل والمرأة وكلا الماءين يخرجان من بين الصلب والترائب وإليك نصّ كلامه: إنّ الإنسان خلق ونشأ من الماء الدافق (ماء الرجل وأهمّ ما فيه الحيوان المنوي، وماء المرأة وأهم ما فيه البويضة) الذي ينصب مندفعاً من عضوين هما الخصية والمبيض، ومنشؤهما وغذاؤهما وأعصابهما كلّها بين الصلب والترائب.

وقد ثبت في علم الأجنة أنّ البويضة ذات الخلية الواحدة تصير علقة ذات خلايا عدّة، ثم تصير العلقة مضغة ذات خلايا أكثر عدداً، ثم تصير المضغة جنيناً صغيراً وزعت خلايا إلى طبقات ثلاث يخرج من كلّ طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة في أوّل الأمر، فإذا تمّ نموّها كوّنت جسم الإنسان. تفسير المراغي:١٠/١١٥.

ونحن مع تثميننا لجهود المراغي وغيره من المفسّرين في تفسير الآية ورفع إبهامها، ولكن لنا عليه ملاحظة وهي: أنّ تعميم (مَاء دَافِق) إلى ماء الرجل وماء المرأة، خلاف الظاهر، فالدفق من صفات ماء الرجل، دون المرأة. ولكن نقول:إنّ منشأ هذا الاحتمال هو عدم التدبّر في تعيين مرجع الضمير، فلو قلنا بأنّه يرجع إلى الإنسان بشهادة الآية المتأخّرة، فلا نجد أنفسنا بحاجة إلى هذين الوجهين وغيرهما، والله العالم.

وقد تبعه بعض المفسّرين وقال: إنّ في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة حيث يلتقيان في قرار مكين ويصبحان ماء الجنين، فمن الماء الدافق إلى الإنسان العاقل الناطق . تفسير الفرقان: ٣٠ / ٢٧٥ .

ويرد عليه: أنّ ظاهر كلامه أنّ الماء الدافق وصف لكلا المائين المتّحدين، مع أنّ الدفق وصف لماء الرجل ولا دفق لماء المرأة.

٨ . (إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) :

لوضوح اتّحاد حكم البدء مع العود.

٩. (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) :

أي عندما يُبتلى الإنسان ويُمتحَن ترتفع الحجب وتظهر سريرته، وما يطويه في نفسه ويتميّز الصالح عن الطالح، ويتم الحساب، وعندئذ يجد الإنسان واقع الآية التالية.

١٠. (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لاَ نَاصِرٍ) :

أي ليس له قوّة من نفسه تدفع عنه العذاب، ولا ناصر من خارج يفيده في دفع الأذى عنه.

الآيات ١١ ـ ١٤ الآيات: الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة (وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * و وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ).

(وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ).

المفردات

الرجع: قال الراغب: الرجع: المطر، وسمّي رجعاً لردّ الهواء ما تناوله من الماء (أي البخار).

الصدع: وهو الشّقّ، ومنه قوله تعالى:(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) الروم: ٤٣ .أي يتفرّقون.

فصل: أي يفصل به الحق عن الباطل، ومنه: فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم.

الهزل: وهو مقابل الجدّ.

التفسير

١١ و ١٢. (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ):

أقسم سبحانه وتعالى مرّة أُخرى بأمرين:

١. السماء الموصوفة بذات الرجع.

٢. الأرض الموصوفة بذات الصدع.

والغاية من الإقسام هنا، هي نفسها من الإقسام في صدر السورة وهي إمكان المعاد، كما سيوافيك بيانه.

وهل الإقسام بالسماء ذات الرجع هو نفس ما أُقسم به في صدر السورة، أعني (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) أو غيره؟

الظاهر المغايرة والتعدّد.

نعم ربما يقال بأنّ المراد من السماء ذات الرجع هو النجم الثاقب حيث إنّه يظهر ويغيب ثم يرجع. فيكون المعنى: أُقسم بالنجم الثاقب الذي يظهر ويغيب ويرجع.

يلاحظ عليه: أنّ هذا الوجه يفتقد وجود المناسبة بين الفقرتين ـ أعني: (وَالسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) و (الأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) ـ بل المتعيّن ـ حفظاً للمناسبة بين الفقرتين ـ هو تفسيره بالسماء ذات المطر. وقد مرّ أنّ المطر سُمّي رجعاً لأنّ الهواء يعيد إلى الأرض ما تناوله من الماء، والمتبادر من الفقرتين أنّه سبحانه بصدد إقامة الدليل على إمكان المعاد، فقد جعل كيفية خلقة الإنسان في صدر السورة دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد، وفي هذين القسمين ذكر كيفية خلقة النبات حيث إنّ السماء تمطر والأرض تحتضن الماء والحبّ ثم تنشقّ ويخرج النبات، فالسماء (ذَاتِ الرَّجْعِ)وهي تصبّ الماء كأنّها الرجل، والأرض (ذَاتِ الصَّدْعِ) وهي تحتضن الماء ثم يخرج منها النبات كأنّها المرأة، فالنبات وليد أمرين:

ماء السماء.

واحتضان الأرض للماء وإخراجها النبات.

وفي هذين المشهدين: عَودة الماء إلى الأرض الّتي خرج منها، وتصدّع الأرض بالنبات وعودته إلى ظهرها بعد أن نفذ إليها من ظهرها، في هذين المشهدين دليل على تلك الدورة الّتي يدور فيها الإنسان، فينتقل من ظهر الأرض إلى بطنها، ثم يعود من بطنها إلى ظهرها.

انظر: التفسير القرآني للقرآن: ١٦ / ١٥٢ .فليتدبّر الإنسان في هذا الدليل، لتتجلّى له قدرة الله تعالى على إعادته بعد الموت.

١٣ و ١٤. (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ):

وهو ثناء على القرآن الّذي يفصل الحقّ من الباطل، والآيتان تعربان عن أنّ المشركين يزعمون بأنّ النبي(صلى الله عليه وآله) يهزل بالدعوة إلى التوحيد والحياة الأُخروية، وكانت قلوبهم تتقطع بسماع دعوته إلى توحيد العبادة والحياة الأُخروية فلذلك حاولوا أن يُقنعوا أنفسهم بأنّ القرآن هزل ليس بالجدّ، فنزل قوله سبحانه: (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ)، وقد أُنزل لهداية الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدارين، فكيف يكون هزلاً؟

١٥ ـ ١٧ الآيات: الثلاثة الأخيرة(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً).
(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً).
المفردات

الكيد: إذا أُسند إلى الناس فهو بمعنى إخفاء قصد الضُّرّ وإظهار خلافه، وأمّا إذا أُسند إلى الله سبحانه فهو إبطال آثار كيدهم، فالتعبير عن فعل الله سبحانه بالكيد لحفظ المشاكلة بجامع أنّه سبحانه يخفي إنزال ضُرّه ثم يظهره.

والفرق أنّ كيد الإنسان آية عجزه، وهو في الله سبحانه آية قدرته.

رويداً: يستعمل وصفاً محذوف الموصوف، يقال: سيروا رويداً أي سيروا سيراً رويداً، بحذف الموصوف، وتقول للرجل يعالج الشيء:

رويداً، أي علاجاً رويداً.

وأمّا المقام فالظاهر أنّ الموصوف لفظة «إمهالاً» أي أمهِلهم إمهالاً رويداً غير مستعجل.

التفسير

١٥ و ١٦. (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً* وَأَكِيدُ كَيْداً) :

وفي الآيتين تنديد بإعراض المشركين عن القرآن، حيث وصفوه بالهزل والهذيان، فعاد ووصف عملهم بأنّهم يكيدون ليقنعوا بذلك أنفسهم ثم ليصرفوا الناس عن الإيمان به، ولذلك كانوا يصفون النبي(صلى الله عليه وآله) بأوصاف؛ كالكاهن والشاعر والساحر والمجنون، ولكنّهم جهلوا بأنّ كيدهم يرجع إلى أنفسهم فسوف يرون آثار كيدهم بعد قليل، والله سبحانه يبطل كيدهم بنجاح النبي(صلى الله عليه وآله)في معترك الدعوة إلى الله، فهو سبحانه لمّا وفقه(صلى الله عليه وآله) لفتح مكّة، أبطل هذه التهم وأثبت أنّ ما وصفوا به النبي(صلى الله عليه وآله)أوهام وأقوال كاذبة، فإنّ الكاهن أو الساحر أو المجنون لا يتمكّن من إدارة بيته فكيف وُفّق ـ معاذ الله ـ ذلك]الكاهن والساحر] على فتح قلعة كبيرة من قلاع الوثنية، ولعلّ هذا هو المراد من قوله سبحانه:(وَأَكِيدُ كَيْداً)، أي أُبطل كيدهم بنصرك عليهم في المستقبل.

١٧. (فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً) :

فالفقرتان تسلّيان النبي(صلى الله عليه وآله) بأن يُمهل الكافرين ويصبر عليهم وينتظر قليلاً، وسوف يرى عاقبة أمرهم، حين يُصرعون في ساحة القتال، أو يقاسون ألوان العذاب والهوان في يوم القيامة، كما قال تعالى: (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَاب غَلِيظ) لقمان: ٢٤..

تمّ تفسير سورة الطارق

٨٧- سورة الأعلى

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى * فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَ الآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت في أكثر التفاسير بسورة «الأعلى» لوقوع تلك اللفظة في الآية الأُولى منها.

وفي صحيح البخاري سمّيت بسورة (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) لاحظ : صحيح البخاري: ٣ / ٣٢٤، كتاب التفسير، برقم ٤٩٤١ ..

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها تسع عشرة آية بلا خلاف، وهي مكيّة في قول الأكثر، ونقل عن ابن عباس أنّ قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) نزل في صلاة العيد وصدقة الفطر، أي هما مدنيتان، فتكون السورة بعضها مكيّاً وبعضها مدنياً.

والظاهر من السيد الطباطبائي اختيار هذا القول، قال: وسياق الآيات في صدر السورة سياق مكّي، وأمّا ذيلها أعني قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) الخ، فقد ورد من طرق أئمة أهل البيت(عليهم السلام)وكذا من طريق أهل السنّة، أنّ المراد به زكاة الفطرة وصلاة العيد،

ومن المعلوم أنّ الصوم وما يتبعه من زكاة الفطرة وصلاة العيد إنّما شرِّعت بالمدينة بعد الهجرة، فتكون آيات الذيل نازلة بالمدينة.

الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

ولعلّه يريد ما رواه الشيخ الصدوق في «الفقيه»: قال: وسئل الصادق (عليه السلام)عن قول الله عزوجل: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)؟ قال: «مَن أخرج الفطرة»، قيل له: (وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)؟ قال: «خرج إلى الجبّانة، أي الصحراء. والجبانة: المقابر، لأنّها تكون في الصحراء تسمية للشيء بموضعه. لسان العرب: ١٣ / ٨٥، مادة «جبن». فصلّى». تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥٥٦.وقريب منه ما في تفسير علي بن إبراهيم القمّي. تفسير القمي: ٢ / ٤١٣ .

ولكن الظاهر أنّ السورة مكّية، لأنّ سياق الآيات وقرب الفواصل والمضمون تدلّ على أنّها مكيّة، وأمّا الآيتان فلعلّ المراد بهما الدعوة إلى مطلق التزكية والصلاة، وقد وردت آيات فيهما قبل الهجرة، وأمّا رواية الصدوق فالظاهر أنّ الإمام (عليه السلام)بصدد تطبيق المعنى الكلّي على أوضح مصاديقه. والله العالم.

أغراض السورة

تدعو السورة إلى تنزيهه سبحانه عن طريق النظر في عالم الكون، ثم تذكر تأييد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وتثبيته لتلقّي الوحي وأنّه لا ينساه، ثم تذكر من ينتفع بالتذكير ومن يتولّى عنه.

١ ـ ٥ الآيات: الخمس الأُولى (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ....جَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى).

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى).

المفردات

سوّى: يقال: رجل سويّ: استوت أخلاقه وخلقته عن الإفراط والتفريط.

وربما يراد به تكميل الخلقة، كما في قوله: (الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) الإنفطار: ٧ .: أي جعل خلقتك على ما اقتضت الحكمة.

المرعى: اسم مكان للرعي وقد يطلق لنفس الرعي.

غثاء: ما يتفرق من النبات اليابس.

أحوى: الأحوى: اللون المائل إلى السواد، وقيل: الأسود لشدّة خضرته.

التفسير

١. (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى):

ابتدأت السورة بتسبيح اسم الرب الأعلى، فهناك أُمور أربعة:

١. التسبيح ٢. الاسم ٣. الربّ ٤. الأعلى.

فلندرس كلّ واحد منها:

أمّا الأوّل: أعني التسبيح، فهو التنزيه لله عن النقائص وعمّا لا يليق به سبحانه، في مقابل التحميد، وهو وصفه بما يليق به. وبما أنّه سبحانه جامع لصفات الجمال والجلال، فوصْفه بالعلم والقدرة تحميد، كما أن وصْفه بعدم الجسمية والجهة والتركّب وعدم الحاجة، تسبيح وتنزيه له سبحانه.

وأمّا الثاني: أعني الاسم، فيطلق الاسم تارة ويراد به العَلَم، فدور العَلَم ليس إلاّ الهداية إلى شخص معيّن سُمّي به ، كالأعلام الّتي يسمّي بها الآباء أولادهم، وهذا النوع من الاسم لا يدلّ على معنى خاص إلاّ الإشارة إلى الشخص، يقول ابن مالك:

اسم يعيّن المسمّى مطلقاً *** علمه كجعفر وخرنقا

وأُخرى يطلق الاسم على الوصف أي اللفظ الحاكي عن معنى خاصّ لموصوف خاصّ، وهذا كأسماء الله سبحانه كالعالم والقادر

والحيّ وغير ذلك.

إذا تبيّن ذلك فاعلم أنّ التسبيح تارة يتعلّق بالذات، وأُخرى بالاسم (الوصف)، فلو قلنا: إنّه سبحانه ليس جسماً ولا في جهة، فهو تسبيح للذات أي تنزيه ذاته عن النقائص، وأُخرى يتعلّق بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات، كما في المقام.

والمراد التجنّب عن تسميته سبحانه بما يُشعر بالنقص. مثلاً: وصفُه سبحانه بالأب يعدّ على ضدّ تسبيح الاسم. وعلى هذا فكل اسم يحكي عن تنزهه عن النقائص فهو تسبيح له، وأمّا تسميته سبحانه بأسماء تحكي عن النقص دون التنزيه فهو على ضد التسبيح.

يقول السيد الطباطبائي: وبالجملة تنزيه اسمه تعالى أن يجرّد القول عن ذكر ما لا يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى وهو تنزيهه تعالى في مرحلة القول الموافق لتنزيهه في مرحلة الفعل. الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣٨٧

وكأنّ تسميته سبحانه بما لا يليق بساحته يُعدّ إلحاداً في أسمائه وقد نهي عنه، قال سبحانه: (وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(مجمع البيان: ٤ / ٤٣٣.): أي يصفونه بما لا يليق به ويسمّونه بما لا يجوز تسميته به. الأعراف: ١٨٠.

تقدّم أن التنزيه تارة يتعلّق بذاته سبحانه، وأُخرى باسمه ووصفه، وهناك قسم آخر نسمّيه بالأسماء العينيّة، فإن الأنبياء والأولياء والأئمة المعصومين أسماء عينية لله تبارك وتعالى، فيجب تنزيهها عن العصيان والصفات الذميمة، ولو قيل أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)وأئمة أهل البيت(عليهم السلام)أسماء الله تعالى، فهو بهذا المعنى، أنّهم مظاهر أسمائه الاسمية، فالنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)لعلمه مظهر اسم العالم لله سبحانه وهكذا، وعلى هذا فالتنزيه تارة يتعلّق بالذات وأُخرى بالوصف، وثالثة بأسمائه العينية.

وأمّا الثالث: أعني الربّ، فأنت ترى أنّ الاسم أُضيف في الآية إلى الربّ دون الخالق، أي لم تقل سبِّح باسم خالقك بل قالت: (سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ)والفرق بينهما واضح، فإنّ الخَلْق عبارة عن إيجاد الشيء بعد أن لم يكن، ويناسبه قوله تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ) البقرة: ١١٧..

وأمّا الربّ فهو مشتق من ربب وفُسّر في اللغة بمعنى الصاحب، يقال: ربّ الضيعة وربّ الحيوان وربّ البيت، ومعلوم أنّ ما يرجع إلى الربّ في هذه الموارد هو رعاية المربوب وتهيئة ما يديم حياته ووقايته ممّا ينافي حياته، ولكن الربّ بهذا الحدّ لا يفي بواقع ربوبيته تعالى فإنّها أعلى وأفضل من ذلك بل ربوبيته لا تخلو عن استمرار الخلقة، فبقاء الإنسان والحيوان والعالم الإمكاني كلّه رهن إفاضة الوجود على المربوب في كلّ يوم وكلّ عام.

وإنّما خصّ تنزيه اسم الرب، لأجل أنّ المشركين كانوا يطلبون من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أن يذكر أسماء آلهتهم مع اسم ربّه، فأمره سبحانه بتنزيه اسم ربّه دون أن يقرنه بأسماء أرباب المشركين، ولذلك قال سبحانه: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ)، وفي آية أُخرى قال تعالى: (وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ) القصص: ٨٨..

وأمّا الرابع: الأعلى، فنقول: إنّه سبحانه تارة يوصف بكونه «الأعلى» كما في الآية، وأُخرى بأنّه «أكبر»، ومن المعلوم أنّ صيغة التفضيل تحتاج إلى تقدير المفضّل عليه، فيصح أن يقال: الله أعلى من كلّ شيء، ولكن قيل بأنّه لا يصح أن يقال: الله أكبر من كلّ شيء.

ووجهه: أنّ المراد من العلو هو الرفعة المعنوية، فالله أرفع وأسمى من كلّ شيء، ولا يترتّب على هذا القول أي محذور.

وأمّا لو قلنا: الله أكبر من كلّ شيء، فإنّ الكبر يستعمل في الكميّات المحسوسة، فيلزم تحديده سبحانه بما إذا كبر على كلّ الأشياء بمقياس محدود، فيلزم أن يكون محدداً بكميّة كلّ شيء مع إضافة شيء آخر، ولذلك ورد في الروايات أنّه إذا قيل: «الله أكبر» يراد به أكبر من أن يوصف.

روى الكليني عن جميع بن عمير قال: قال لي أبو عبدالله (عليه السلام): أيّ شيء الله أكبر؟ فقلت: الله أكبر من كلّ شيء، فقال: وكان ثمّ شيء فيكون أكبر منه؟

فقلت: فما هو؟ قال: «الله أكبر من أن يوصف» الوسائل: ٤، الباب ٣٣ من أبواب الذكر في كتاب الصلاة، الحديث ١ ..

وروى ابن محبوب، عمّن ذكره، عن أبي عبدالله (عليه السلام)قال: قال رجل عنده: الله أكبر، فقال: الله أكبر من أيّ شيء؟ فقال: من كلّ شيء، فقال أبو عبدالله (عليه السلام): حددته، فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: «قل: الله أكبر من أن يوصف». الوسائل: ٤، الباب ٣٣ من أبواب الذكر في كتاب الصلاة، الحديث ٢. ولاحظ جامع أحاديث الشيعة: ١٥ / ٤٣٢ .

وعلى كلّ تقدير فالخطاب في قوله: (سَبِّحْ اسْمِ رَبِّكَ) وإن كان للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ظاهراً ولكن أُريد به عامّة المكلّفين، كما في غير هذا المورد .

٢ و ٣. (الذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالذِي قَدَّرَ فَهَدَى):

وُصف «الربّ» في هاتين الآيتين بأوصاف أربعة:

١. خلق.

٢. سوّى.

٣. قدّر.

٤. هدى.

وإطلاق الآيات يدلّ على أنّ ما وقعت عليه هذه الأفعال ليس خصوص الإنسان فقط، بل يعمّ كافّة المخلوقات من ذي روح وجماد، وإليك دراسة الأُمور الأربعة.

أمّا الأوّل ـ أعني: الخلق ـ : فهو من الله إيجاد الشيء بلا مادة سابقة، ولذلك يقول سبحانه: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ) البقرة: ١١٧ .، والإبداع هو الخلق من دون مثال سابق، فالله سبحانه هو الخالق، على خلاف ما عليه النصارى فهو عندهم الوالد، وهذه هي المرحلة الأُولى للتنزيه.

والخلق بهذا المعنى يختصّ بالله سبحانه، نعم ربّما ينسب الخلق إلى غير الله تعالى ويراد به إيجاد الصورة، يقول سبحانه حاكياً عن المسيح (عليه السلام): (أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ)(آل عمران: ٤٩ .) .

فدور المسيح هو تركيب أجزاء الطين بعضها ببعض لتتحقّق به الصورة، وأمّا صيرورته طيراً وإضفاء الروح الحيوانية عليه فهما من الله سبحانه.

وأمّا الثاني ـ أعني: التسوية ـ : فقد مرّ أنّ معناها إكمال الخلقة أي جعل المخلوق على ما تقتضيه الحكمة بعيداً عن الإفراط والتفريط.

وهذا ما يشهد له قوله سبحانه في خلقة آدم: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) الحجر: ٢٩ ..

وقريب منه قوله تعالى: (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) القيامة: ٤ ..

وقد أثبت العلم الحديث بفضل التجارب أنّ حكمة الله تتجلّى بأوضح صورها في مخلوقاته لما فيها من نظام دقيق بديع.

وأمّا الثالث ـ أعني قوله: «قدّر» ـ : فقد اختلفت كلمات المفسّرين في تفسيره إلى أقوال:

١. قدّر الخلق على ما خلقهم فيه من الصور والهيئات.

٢. قدّر أقواتهم وهداهم لطلبها.

٣. قدّرهم ذكوراً وإناثاً.
٤. قدّر المنافع في الأشياء.
ثم إنّ أصحاب هذه الأقوال كلّ فسّر الهداية حسب ما اختاره في معنى التقدير، والظاهر أنّ المراد أحد هذين المعنيين أو كليهما :
١. هو أنّه سبحانه خلق الأشياء وسوّاها وأكملها ولكن ليس على حدّ أن تدوم إلى آخر الدنيا، بل جعل لكلٍّ أجلاً خاصّاً لا يتجاوزه، فإذا بلغ ذلك الحدّ حكم عليه بالموت والفناء، ويشهد لهذا المعنى، قوله سبحانه: (قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيءْ قَدْراً) الطلاق: ٣..
٢. تزويد كلّ شيء بالقدرات والإمكانات الخاصّة، فأعطى كلّ شيء ما يستحقّه ليتاح له أداء وظيفته الّتي خُلق لأجلها، وتحقيق الغاية من وجوده.
وإليه يشير قول موسى (عليه السلام):(الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) طه: ٥٠. .
وأمّا الرابع ـ أعني «هدى» ـ : فالمراد به الهداية التكوينية حيث إنّه سبحانه خلق الأشياء وسواها وأكملها وحدّد لها عمرها اشارة إلى المعنى الأوّل . وإمكاناتها، اشارة إلى المعنى الثاني.لكن ذلك لا يكفي إلاّ أن يودع في نفس هذا المخلوق قوة تهديه إلى ما فيه بقاؤه وصلاحه إلى أجل محدّد، وكيفية الاستفادة من هذه الإمكانات والقدرات، فالله سبحانه يشير إلى تلك الهداية التكوينية المودعة في داخل المخلوقات.
وإليك شيئاً يسيراً من أسرار الهداية المودعة في مخلوق واحد من مخلوقاته، هو النحلة:
تتألف مستعمرة نحل العسل، كما هو معلوم، من ملكة واحدة، مهمّتها وضع البيض، وآلاف الشغّالات، وبضع مئات من الذكور. تنفقس البيوض الّتي تضعها الملكة بعد ثلاثة أيام من وضعها، وتخرج من كلّ بيضة (يَرَقة) على شكل دودة صغيرة. تضع الشغّالات (الغذاء المَلَكي) في أسفل كلّ خلية من عشّ الحضانة، والغذاء الملكي يتم تشكيله عن طريق الغدد الموجودة في رأس الشغّالات الفتية. وعندما يصبح عمر اليرقة ثلاثة أيام تغذّيها الشغّالات بخليط من العسل وحبوب اللقاح، ويُدعى (خبز النحل)، ثم تتحوّل اليرقة إلى (خادرة)، وبعدها تنمو لتصبح حشرة كاملة.
تختار الشغّالات بطريقة نجهلها بعض اليرقات لتصبح (ملكات)!! فيغذّين هذه اليرقات على الغذاء الملكي فقط!!، وفي الوقت نفسه تبني شغّالات أُخرى خلايا خاصة لتنمو بها الملكات!!
عندما تزدحم المستعمرة وتقلّ قدرة الملكة على وضع البيض تبني الشغّالات خلايا لملكات جديدات!! وتضع الملكة القديمة بيضها في هذه الخلايا. وبعد أن يتطور هذا البيض إلى خادرات تغطي الشغّالات الخلايا بالشمع!! وبعد أيام تغادر الشغّالات مع الملكة القديمة الخلية على شكل طرد (سِرْب)!! وتبقى بعض الشغّالات في الخلية للعناية باليرقات والملكة الجديدة!!
ويتجمّع الطرد على شكل عنقود حول غصن أو دعامة، وبعدها تبحث الشغّالات الّتي تسمّى (الكشّافات) عن موقع جديد للمستعمرة. وكل نحلة تعود إلى الطرد وتقوم برقصات خاصة لشرح المسافة واتجاه الموقع الّذي وجدته، لباقي النحل!! وبإشارة خاصة يسافر الطرد كله إلى الموقع الأفضل. والّذي يقود الطريق إلى الموقع الجديد هو النحل (المخطّط)!! ثم تتبعه الملكة.
في فصل الشتاء، يتجمّع النحل بشكل عنقود كثيف في الخلية، ويبقى النحل المتجمّع في حالة دفء عن طريق الارتعاش والازدحام، لمنع فقد الحرارة!!
وعند ارتفاع درجة الحرارة، يقلّ ازدحام النحل في الخلية الحارة، ليسمح بمرور تيارات هوائية فيما بينها، كما أنّها تجمع الماء وتنشره في الخلية، وعندما يتبخّر الماء يعمل على تبريد الخلية!! انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٢٥ / ٢٦٨ ـ ٢٧٨ .
فسبحان الّذي هداها لهذه الطرق، للوصول إلى غايتها.

يُذكر إن الاستدلال بالخلق والهداية كان أحد الأساليب الّتي أبدعها الكليم (عليه السلام)عند حواره مع فرعون، حيث سأله فرعون عن ربه: (فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى) طه: ٤٩ . .

فأجاب موسى بقوله: (رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) طه: ٥٠ .ومرّ أن هذه الآيات اتّخذت مطلق الخلق للبحث والدراسة، فالخلق والتسوية والتقدير والهداية لا يختصّ بنوع دون نوع، فكلّ مشتمل على هذه الأُمور الأربعة، ولأجل إيضاح الكلام نذكر نماذج ممّا يدلّ على أنّ الآية عامّة .

قدّر الأشياء كلّها فهداها إلى أداء وظائفها كما قدّرها لها، فالله لمّا قدّر للإنسان أن يكون قابلاً للنطق والعلم والصناعة بما وهبه من العقل وآلات الجسد هداهُ لاستعمال فكره لما يُحصِّل له ما خُلق له، ولمّا قدّر البقرة للدرّ ألهمها الرعي، ورثمان الرثم: هو الضرب بطرق الأنف . ولدها لتدر بذلك للحالب، ولمّا قدّر النحل لإنتاج العسل ألهمها أن ترعى النَّور والثمار وألهمها بناء الجِبح وخلاياه المسدسة الّتي تضع فيها العسل . التحرير والتنوير: ٣٠ / ٢٤٥ .

وقسّ على ذلك سائر المخلوقات من الجمادات إلى المجرّات.

٤ و ٥. (وَالذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى):

الآيتان تذكران نموذجاً من أنواع الخلق الّذي له طراوة في أوّل الخلقة ثم يجفّ، ويسودّ، ويتفرّق، ولعلّه بذلك يشير إلى ما ذكرنا من تقدير القدرات في عامة المخلوقات، وأن لكلّ شيء حدّاً محدوداً لا يتجاوزه.

فإذا بلغه يقع في منحدر شديد ينتهي به إلى الموت والاضمحلال. فلو حكم على الملخوقات بالبقاء والخلود لامتلأ العالم بها وانقطعت الخلقة لذلك، فمجموع العالم كشلاّل ماء فما يكون في أوّله ينحدر بسرعة إلى آخره، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّة ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) الروم: ٥٤..

ولعلّ التمثيل بالمرعى وصيرورته غثاء هو لأجل تنبيه الإنسان على أنّ الحياة الدنيا ليست إلاّ مثل هذين الأمرين (خروج المرعى بطراوة ثم صيرورته نباتاً يابساً متفرق الأجزاء أشبه بالتّبن) وقد صرّح به سبحانه في آية أُخرى، قال: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ) يونس: ٢٤..

٦ ـ ٧ الآيتان: السادسة والسابعة (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى) .

التفسير

٦. (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى):

ذكر المفسّرون أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)كان إذا نزل عليه جبرئيل بالوحي يقرأه مخافة أن ينساه، فكان لا يفرغ جبرئيل من آخر الوحي حتّى يتكلم هو بأوله، ونزلت هذه الآية تعده بعدم نسيانه، قال سبحانه: (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى)، فهناك قارئ، ومقرئ، فالقارئ هو الشخص الّذي يقرأ القرآن تحت إشراف معلم قراءة ربّما لا تكون صحيحة والمعلم هو المقرئ الّذي يقرأه على واقع الآية مجرداً عن الغلط والتصحيف، ويعلّمه مواضع أغلاطه، والله سبحانه يعده بأنّه سيجعله قارئاً، بإلهام القراءة فلا ينسى ما يقرأ، فالله سبحانه هو المقرئ والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)هو القارئ، فالله سبحانه هو الّذي يجعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قارئاً أي حافظاً للقرآن وصائناً له. وكم فرق بين المقرئين والقارئين.

وهناك سؤال وهو أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)كان قارئاً للقرآن منذ نزوله وحتى نزول آية الإقراء، فما معنى قوله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى) ؟

ولكن الجواب ـ حسب الامعان في الآية ـ واضح، وهو أنّ الإقراء في الآية مقيّد بعدم الإنساء، أي جعله قارئاً على نحو لاينسى، ولذلك لا حاجة إذا نزل عليه جبرئيل أن يقرأه مخافة أن ينساه.

ثم إنّه يقع الكلام في ما هي الصلة بين هاتين الآيتين وما تقدّمها من تسبيح اسم الربّ؟

ويمكن أن يقال: إن الصلة هي أنّ الآيات الأُولى أمرت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بتسبيح اسم الربّ، ومن المعلوم أنّ التسبيح بالمعنى الكامل لا يتحقّق إلاّ بالعثور على ما يليق به سبحانه ويرتضيه لنفسه، ولا يُعلم ذلك إلاّ عن طريق الوحي.

٧. (إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى) :

يقع الكلام في تفسير هذه الآية في مقامين:

١. ما هو معنى الاستثناء، وهل هو بمعنى الإخبار عن تحقق النسيان منه (صلى الله عليه وآله وسلم)في المستقبل بمشيئة الله تعالى، أو له معنى آخر؟

٢. ما هو المقصود من قوله: (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى) ؟

أمّا الأوّل: فالظاهر أنّ الاستثناء ليس بمعنى الإخبار عن تحقق النسيان مستقبلاً، فإنّ ذلك مردود من جهتين:

الأُولى: أنّه لو كان هذا هو المراد فهو أمر عام يشمل جميع أفراد الإنسان، وكلّ إنسان يتذكّر ما يتذكّر ويحفظ ما يحفظ إلاّ ما شاء الله عدم تذكّره ونسيانه، ولا يختصّ بالنبي مع أنّ الآية في مقام الامتنان على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ومعناه اختصاص مفاد الآية به لا شمولها لجميع الأفراد.

الثانية: أنّه لو كانت بصدد الإخبار عن تحقّق النسيان فيما يستقبل من الزمان يلزم عدم الاعتماد على ما يخبر به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن طريق الوحي لاحتمال أنّه سبحانه أنساه بعض ما له دخل في مفاهيم الآيات وحدود الشريعة. وبذلك يُعلم أنّ ما مال إليه قسم من المفسّرين يردّه البرهان وقد ذكر هؤلاء في المقام وجهين للاستثناء:

١. الآية ناظرة إلى نسخ تلاوة بعض ما أُنزل على النبي حيث أمره بأن يترك قراءته فأمر النبي المسلمين بأن لا يقرأوه حتّى ينساه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)والمسلمون. وهذا مثل ما روي عن عمر أنّه قال: «كان فيما أنزل: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما» مسند أحمد: ٥ / ١٣٢، باب في حد المحصنين في الزنا .قال عمر: لقد قرأناها، وأنّه كان فيما أنزل: «لا ترغبوا عن آبائكم فإنّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم». صحيح البخاري: ٨ / ٢٠٩، باب رجم الحبلى.

٢. ما يعرض نسيانه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)نسياناً مؤقّتاً كشأن عوارض الحافظة البشرية ثم يقيّض الله له ما يذكّره به. ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت: سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)رجلاً يقرأ من الليل بالمسجد، فقال: يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آيةً أسقطتهن أو كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا، وروي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أسقط آية في قراءته في الصلاة فسأله أُبيّ بن كعب: أنُسِخَت؟ فقال: «نُسِّيتُها» قال الزيلعي: رواه النسائي في سننه، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه وفي مسنده، والطبراني في معجمه، وكذلك البخاري في كتابه المفرد في الأدب، في القراءة خلف الإمام... تخريج الأحاديث والآثار: ٤ / ١٩٢، برقم ١٤٨٣ ..

وكلا الوجهين من الضعف بمكان فإنّ عنوان نسخ التلاوة واجهة للتحريف حيث يريد القائل به تصحيح الروايات الدالّة على التحريف بأنّها من قبيل منسوخ التلاوة.

إذ لقائل أن يسأل: لماذا نسخت، هل كان لنقص في فصاحتها أو ألفاظها وبلاغتها، أو كان لنقص في محتواها؟

أمّا الأوّل: فممّا لا يمكن أن يتفوّه به أحد، لأنّ نسبة النقص إلى الآية ممّا لا يمكن تصوّره إذا كان المنزل هو الله تعالى.

وأمّا الثاني: أي النقص في المضمون فالمفروض أنّ المعنى لم ينسخ حيث إنّ الشيخ والشيخة يرجمان، والغاية هي نسيان النبي بعد لم تتحقّق.

وأمّا الوجه الثاني فهو يوجب سلب الاعتماد على ما يتلوه النبي ـ سواء أكان وحياً باللفظ والمعنى أو وحياً بالمعنى فقط كالحديث ـ إذ يتسّرب الشكّ إلى الأذهان بكلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)حيث إنّه ينسى بعض الوحي دون بعض.

ومن عجائب القول ما حُكي عن الحدّاد في كتابه: «الكتاب والقرآن» حيث قال: فالاستثناء: (إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ) يفيد بأن الله قد يشاء أن ينسي النبي بعض ما يوحى إليه... إلى آخر ما ذكره . لاحظ : تفسير الفرقان: ٣٠ / ٢٨٨ .

ولا يخفى أن ما ذكره على طرف النقيض من القول بالعصمة في أخذ الوحي وحفظه وتبليغه الذي يؤكد القرآن عليه، قال تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْء عَدَداً) الجن: ٢٦ ـ ٢٨.

والصحيح أن يقال: إنّ الاستثناء في الآية نظير الاستثناء في قوله سبحانه: (وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ) هود: ١٠٨ ..

ومن المعلوم أنّ الجنة دار الخلود فمعنى الاستثناء أنّ الخلود هو بمشيئة الله وإرادته، لكنّ حكمه بالخلود ليس بمعنى عدم تمكّنه من الإخراج، بل إذا أراد إخراجهم لا يمنعه من ذلك شيءٌ، ولكنّه لا يخرج كما هو الحال في الخالدين في جهنم، فهكذا الآية في المقام فإنّ الغرض من الاستثناء هو أنّ الحفظ وعدم النسيان تفضّل وتكرّم من الله على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلو أراد سبحانه أن ينسيه لفعل، فوعده بعدم النسيان ليس بمعنى عدم تمكّنه منه.

وأمّا المقام الثاني: ـ أعني معنى قوله: (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى)ـ فلعلّه إشارة إلى ما في ضمير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)حيث كان يخاف أن يفوته شيء من القرآن وأحب صيانته ولكن لم يكن يتكلّم بذلك تأدّباً والله سبحانه يخبره بأنّه يعلم الجهر وما يخفى، ولأجل ذلك قضينا حاجتَك فجعلناك قارئاً لا تنسى.

٨ ـ ١٣ الآيات: الثامنة إلى الثالثة عشرة(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى .... ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَ لاَ يَحْيَى).

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى * فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَ لاَ يَحْيَى).

المفردات

اليُسرى: على وزن الفُعْلى من اليُسر وهو سهولة العمل .

الخشية: الخوف، ولكنّها ذات مراتب وفي درجاتها يتفاضل المؤمنون.

التجنب: التباعد.

الأشقى: هو الشديد في الشقاء، واللام للجنس أُريد به عامّة الأشقياء.

التفسير

٨ . (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى):

إنّ اللفظين أعني: (نُيَسِّرُكَ) و (الْيُسْرى)واضحان من حيث المعنى، إنّما المهم هو ماذا أُريد من هذا التركيب؟

الظاهر المراد من (نُيَسِّرُكَ) هو التمكين والتوفيق، والمراد من (الْيُسْرى) هو الشريعة السهلة السمحاء، مضافاً إلى أخذ الوحي

وتبليغه، فيكون معنى الآية: نوفّقك لليسرى، ونمكّنك من تلقّي الوحي وبيان الشريعة السهلة.

والّذي يؤيد هذا المعنى أنّه كان في ذهن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)وجود العسر في تحمّل الوحي وحفظه وبيانه وبالتالي بيان الشريعة على وفق الوحي، فجاءت الآية تبشّره بتيسر الأمر وتوفيقه له وتمكينه منه.

فإن قلت: إنّه سبحانه يصف ما أُمر به النبي بالثقل ويقول: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) المزمّل: ٥ ..

قلت: إنّ المراد من «الثقل» هنا هو عظمة الكلام ورصانته ووزنه بمعنى: سنوحي لك قولاً عظيم الشأن . مجمع البيان: ١٠ / ١٧٩ .

٩. (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى):

حذف مفعول قوله (فَذَكِّرْ) ليدلّ على العموم، وقوله: (إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى)جملة معترضة، فالله سبحانه يأمره بالتذكير ثم يرتّب عليه ـ كما سيأتي ـ ردّ فعل الناس بإنّهم بين مَن يتذكّر وبين مَن يتجنّب، إنّما الكلام في قوله: (إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى).

فهل هو شرط لوجوب التذكير، بمعنى أنّه يجب تذكير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)إذا كان نافعاً وإلاّ فلا، مثل قولك: أكرم زيداً إن أعطاك.

وهذا هو الّذي اختاره السيد الطباطبائي فجعل «إن» شرطية وقال: وقد اشتُرط في الأمر بالتذكرة أن تكون نافعة، وهو شرط على حقيقته فإنّها إذا لم تنفع كانت لغواً، وهو تعالى أجلّ من أن يأمر باللغو .

ولمّا كان هذا التفسير يرِدُ عليه الإشكال التالي، وهو أنّه سبحانه يأمر بتذكير كلتا الطائفتين: المتزكّي والأشقى، كما يستفاد من الآيات اللاحقة، مع أنّ تذكير الطائفة الثانية غير نافع، فكيف يأمر به سبحانه؟

أجاب (قدس سره)عن ذلك بقوله: التذكرة لمن يخشى لأوّل مرّة تفيد ميلاً من نفسه إلى الحق وهو نفعها، والتذكرة للأشقى الّذي لا خشية في قلبه لأوّل مرة تفيد إتمام الحجة عليه وهو نفعها، ويلازمها تجنُّبه وتولّيه عن الحق . الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣٩١ ـ ٣٩٢ .

ويؤيّد هذا المعنى قوله سبحانه: (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) ق: ٤٥ .حيث خصّ التذكير بالقرآن لمن في قلبه خوف .

ولكن يمكن أن يقال: إنّ «إن» مخفّفة من المثقّلة بمعنى التحقيق، وهو يُريد أنّ النفع يلازم التبليغ طبيعة، ولا ينافي خروج بعض الموارد عن هذا الحكم العام، فهو من قبيل الشرط الغالب. نعم يبقى الإشكال في صحة الأمر بتذكير غير المنتفع في غير المرة الأُولى، وأمّا فيها فالنفع إنّما هو إتمام الحجة عليه، إنّما الكلام في المرة الثانية والثالثة.

١٠ و ١١. (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى):

هاتان الآيتان متفرّعتان على قوله (فَذَكِّرْ) ثم إنّ نتيجة التذكير تختلف حسب اختلاف قابلية المذكَّر (بالفتح)، فمن كان في قلبه شيء من خشية الله ينتفع من هذا التذكير، ومن لم يكن في قلبه شيء من خشية الله فإنّه يُعرض عن التذكير.

إن المائز بين الإنسان والحيوان هو أن الأوّل حسب طبعه يفكّر في مستقبله ومصيره ولا يكتفي بحياته الفعلية، ولذلك يستعدّ بعض الاستعداد بما يأتي من الأيام، وهذا بخلاف الحيوان فإنّه ينسى ما قبله ولا يفكّر بما يأتي، فالمؤمن الّذي امتلأ قلبه من خشية الله وكملت فيه الإنسانية، يُصغي إلى كلام المصلحين وعلماء الدين في الحياة الأُخروية، يفكّر فيه ويُفيد منه ، بخلاف الإنسان الأشقى فهو كالحيوان المنقطع عن الماضي والمستقبل ولا يرى الحياة إلاّ من خلال ما هو فيه، ولذلك قال سبحانه: (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى)، وأمّا الآخر فقال عنه (وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى) ووصف هذا الأشقى بما في الآيتين التاليتين .

١٢ و ١٣. (الذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَ لاَ يَحْيَى):

إنّ من كان يتمتع بالخشية من الله سيقطف ثمرة الاهتداء بهداية الأنبياء، وأمّا من خلا قلبهُ من خشية الله فربما يتصوّر أنّه يترك سُدى لكنّه تصوّر باطل، بل سوف يصلى النار الكبرى، أي يلزم أكبر النيران وهي نار جهنم، والنار الصغرى نار الدنيا.

وبما أنّ الإنسان إذا دخل النار سيُقضى عليه ويموت وربما يتصوّر أنّ الحال في العذاب الأُخروي كذلك، قال سبحانه رداً على هذه الفكرة : (ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى): أي إنّه يعاقب بأشدّ العقوبات، لا يموت حتّى يستريح من العذاب، ولا يحيا حياة خالية من الآلام، بل هي حياة هكذا شأنها ووصفها «لاَ فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ، وَلاَ دَعَةٌ مُزِيحَةٌ، وَلاَ قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَلاَ مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ، وَلاَ سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ، بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ!» نهج البلاغة: الخطبة ٨٣ وتسمّى «الغرّاء». ومعنى (الفَتْرة): السكون، أي لا يفتُرُ العذاب حتّى يستريح المعذَّب من الألم. و (دَعَة): راحة. و (مُزيحة): تزيح ما أصابه من التعب. و (ناجزة): حاضرة. و (سِنَة): أوائل النوم. و (أطوار الموتات): ألوانها وأنواعها. كأنّ كلّ نوع من أنواع العذاب موت لشدّته.

١٤ ـ ١٩ الآيات: الست الأخيرة (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى).

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَ الآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى).

المفردات

الصحف: جمع صحيفة ـ على غير قياس ـ والجمع المطابق للقاعدة هو الصحائف، نظير ؛ سفينة حيث تجمع على: سُفُن وسفائن، والأول على خلاف القياس.

الأُولى: هي السابقة في الزمان .

التفسير

لمّا ذكر سبحانه مصير الأشقى المتجنّب عن التذكير بأنّه سيلزم النار الكبرى ويبقى فيها خالداً معذَّباً، ذكر مصير من يخشى باستئناف بيان.

١٤. (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى):

والظاهر أنّ المراد من التزكية هو تطهير النفس من العلائق الدنيوية الصارفة عن الآخرة. بمعنى أنّه لم يجعل الدنيا آخر مناه بل اتّخذها وسيلة لكسب الآخرة، والدليل على أنّ المراد من التزكية هو هذا، قوله سبحانه فيما يأتي: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، وعلى هذا فالمراد أنّه قد أفلح من لم يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة. ومن المعلوم أنّ هذه الحالة نتيجة أمرين سابقين، أعني: التذكّر والخشية، فيكون المراد من المجموع أنّ من ذكر وهو يخشى يفلح بالتزكية.

١٥. (وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى):

قدّم سبحانه التزكّي على ذكر الله والصلاة، لأجل أنّ الأوّل أساس الثاني، فلولا التحوّل في النفس والروح لصار ذكر الله والصلاة أشبه بلقلقة لسان، وهذان (ذكر الله والصلاة) إنّما ينفعان إذا كان هناك تزكية للنفس، فالكمال الذاتي يضفي على الفعل القبول والسموّ.

١٦. (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا):

وفي الآية عدول عن الغيبة إلى الخطاب، والخطاب للأشقياء، والآية تتضمّن بيان سبب إعراض الأشقياء عن الذكرى، وهو أنّهم يختارون الحياة الدنيا على الآخرة، ويقبلون عليها، ويهتمون بها ولا يهتمون بالحياة الأُخروية.

١٧. (وَ الآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى):.. أجلْ، فالدنيا «خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ» نهج البلاغة: الخطبة ١١٣، ومعنى (عتيد): حاضر، وهي زائلة، فانية.

١٨ و ١٩. (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى):

الآيتان تشيران إلى أنّ ما تقدّم في الآيات السابقة أمر مشترك بين الشرائع السماوية، فمن قوله سبحانه: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)إلى قوله: (وَ الآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى) هو ممّا أُوحي إلى إبراهيم وموسى وأنّ صحفهما تشتمل على هذا البيان.

وإنّما وصف صحفهما بالأُولى لسبق زمانهما، روي عن أبي ذر أنّه قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ فقال: «مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً»، قلت: يا رسول الله كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، وبقيتهم أنبياء». قلت: كان آدم (عليه السلام) نبيّاً؟ قال: «نعم، كلّمه الله وخلقه بيده. يا أباذر، أربعة من الأنبياء عرب: هود وصالح وشعيب ونبيّك». قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة وأربعة كتب، أنزل الله منها على آدم (عليه السلام)عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وهو أوّل من خط بالقلم، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان». مجمع البيان: ١٠ / ٣٧٤.

تمّ تفسير سورة الأعلى

٨٨-سورة الغاشية

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْن آنِيَة * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيع * لاَ يُسْمِنُ وَ لاَ يُغْنِي مِنْ جُوع * وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّة عَالِيَة * لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَ إِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِر * إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف والتفاسير بسورة «الغاشية»، وربما تُسمّى بسورة (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)، ولا مشاحّة في التسمية.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ست وعشرون بالإجماع، وهي مكيّة، وتشهد على ذلك صياغتها، حيث إنّ غالب السور المكيّة تشتمل على آيات قصيرة، والفواصل متقاربة.

أغراض السورة

تركّز السورة على انقسام الناس يوم القيامة إلى أشقياء وسعداء، وأنّ مصير الطائفة الأُولى نار حامية، ومصير الطائفة الثانية جنّة عالية.

ثم إنّها تعرّف كلا الطائفتين بصفات متضادة، كما تصف جزاءهم كذلك، ثم تعطف نظر الكافرين إلى آيات توحيده وقدرته حتّى يتأملوا فيها ويرجعوا عن عنادهم وكفرهم، وبالتالي يصدّقوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي نهاية الأمر تسلّي السورةُ النبيَّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)من تولّي الكافرين وإعراضهم عن الحقّ، وأنّ واجبه هو التذكير لا السيطرة والإجبار.

١ ـ ٧ الآيات: السبع الأُولى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * .... لاَ يُسْمِنُ وَ لاَ يُغْنِي مِنْ جُوع).

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْن آنِيَة * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ

ضَرِيع * لاَ يُسْمِنُ وَ لاَ يُغْني مِنْ جُوع).

المفردات

الغاشية: غشي، غشية وغشاوة: أي ستره، والغشاوة ما يغطّى به الشيء، قال: (وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً) الجاثية: ٢٣.. والغاشية من أسماء يوم القيامة.

خاشعة: الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب. وأُريد بها هنا المَذلّة بالغمّ والعذاب. وإنّما نسب إلى الوجوه لأنّ الخشوع والمَذلّة يظهر عليها .

ناصبة: التعبة من العمل.

آنية: البالغةُ النهايةَ في شدة الحرارة.

الضريع: نبت تأكله الإبل يضرّ ولا ينفع، وإنّما سمّي ضريعاً لأنّه يشتبه عليهم أمره فيتوهّموا أنّه كغيره من النبت الّذي ينفع.

التفسير

١. (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) :

الخطاب هنا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ولكن المقصود به عموم الناس، أي: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ يوم القيامة الّتي تغشى الناس بأهوالها بغتة، فقد سمّيت غاشية بمعنى أنّ أهوالها تغطي جميع الناس ولا يشذّ فرد عنها.

ويمكن أن يقال: إنّ نفس يوم القيامة يغشّي عامّة بني آدم من عصر أبيهم إلى يوم القيامة، إذ لا يوجد يوم يجتمع فيه الناس جميعاً ؛ لأنّ كلّ زمان يشتمل على طائفة من الناس لكن يوم القيامة يجمع الناس كلّهم ويغطّيهم، ولعلّه إلى هذا يشير قوله سبحانه: (قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَ الآخِرِينَ * لَمجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْم مَعْلُوم) الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠ .

فإلى هنا تبيّن تفسير الغشيان بوجهين:

١. غشيان أهوال يوم القيامة عامّة البشر.

٢. غشيان نفس يوم القيامة لعامّة أفراد الإنسان .

وهنا احتمال ثالث وهو إحاطة السيئات بالخاطئين وغشيانها لهم، خصوصاً عند تجسّم الأعمال، فالإنسان يكون محاطاً بما كسب من سيئة، كما يقول سبحانه: (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)(البقرة: ٨١).

ثم إنّ خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بالسؤال ليس لأجل تحصيل الجواب، كما هو الحال في الأسئلة الواقعية؛ وإنّما غاية ذلك هي تشويق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لاستماع الخبر، أو جلب انتباهه، إلى غير ذلك من الغايات الّتي يمكن أن تكون مقصودة في هذا النوع من الأسئلة .

ثم إنّه سبحانه يصنّف الناس يوم القيامة إلى صنفين:

الصنف الأوّل: يصفهم بأوصاف ثلاثة.

ثم يصف سبحانه عاقبتهم ومنتهى أمرهم بأوصاف أُخرى، ولكلّ من صفات الصنف الأوّل وصفات عاقبتهم، ما يقابلها من صفات للصنف الثاني وصفات عاقبتهم، وهذا ما سيتّضح للقارئ الكريم، وإليك البيان:

٢ ـ أ. (وُجُوهٌ يَوْمَئِذ خَاشِعَةٌ):

أي ذليلة نتيجة للشدائد الّتي تلقّاها، والمراد بذلك أصحاب هذه الوجوه، وإنّما ذكرت الوجوه لأنّ الذلّ والخضوع يظهر فيها قبل سائر الأعضاء، والشاهد على ذلك أي على إرادة الذوات من الوجوه، قوله تعالى: (وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَ الإِكْرَامِ) الرحمن: ٢٧ .

فإنّ قوله: (ذُو الْجَلاَلِ)وصف لله سبحانه. بشهادة رفعه (ذو) ولو كان وصفاً للرب كان اللازم أن يكون مجروراً (ذي).

٣ ـ ب . (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) :

قد مرّ أن النَّصَب هو التعب فهؤلاء موصوفون بالعمل المُعِقب للتعب، ومن المعلوم أنّ ظرف العمل هو الدنيا وظرف التعب هو الآخرة، فيكون المعنى يعملون في الدنيا لتحقيق مطالبهم، ولكنّهم لا يظفرون بمطلوبهم في الآخرة لحبط أعمالهم، قال سبحانه: (وَ قَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَل فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) الفرقان: ٢٣، فلا يعود إليهم من عملهم إلاّ النصب والتعب.

٤ ـ ج . (تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً) :

أي تدخل أو تلزم ناراً في نهاية الحرارة. ثم إنّ صريح الآيات أنّ هذه الطائفة يدخلون ناراً حامية ويكونون أحياءً فيها، ومن المعلوم أنّ وجود الحيّ رهن سقي وطعام، فالله سبحانه يذكر ما يشربون ويأكلون .

٥ ـ د. (تُسْقَى مِنْ عَيْن آنِيَة):

أي بالغة النهاية في حرارتها.

٦ ـ هـ . (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيع) :

قد عرفت معنى الضريع ولعلّه كناية عن عدم انتفاعهم بما يأكلون، كما أنّ الإبل لا تنتفع به ، ويشهد عليه ـ بعد ذلك ـ قوله سبحانه :

٧. (لاَ يُسْمِنُ وَ لاَ يُغْني مِنْ جُوع):

أي لا ينفعهم بل يضرّهم.

٨ ـ ١٦ الآيات: الثامنة إلى السادسة عشرة (وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ .... وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّة عَالِيَة * لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) .

المفردات

ناعمة: أي منعّمة بأنواع اللذات.

لاغية: أي كلمات لاغية.

سُرر: جمع سرير وهو ما يجلس عليه ويضطجع عليه فيسع الإنسان المضطجع وله قوائم ليكون مرتفعاً عن الأرض.

الأكواب: جمع كوب وهو قدح لا عروة له. قال سبحانه: (بِأَكْوَاب وَ أَبَارِيقَ وَ كَأْس مِنْ مَعِين) الواقعة: ١٨ ..

والأكواب ما قد عرفت، والكأس ما كانت له عروة، والإبريق ما يصبّ منه الماء من خرطومه.

نمارق: جمع نُمرُقة، وهي الوسائد.

مصفوفة: يتصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة في الدنيا.

زرابيّ: جمع زربيّة (بفتح الزاي وسكون الراء وكسر الموحدة وتشديد الياء) وهي البساط المنسوج من الصوف الناعم، تفرش في الأرض للزينة أو الجلوس عليها.

قال ابن عاشور التونسيّ: والزربيّة نسبة إلى آذربيجان، فأصل زربيّة: أذربية حذفت همزتها للتخفيف لثقل الاسم لعجمته، واتصال ياء النسب به، و«ذالها» مبدّلة عن الزاي في كلام العرب وليس في الكلام الفارسي حرف الذال، وبلد آذربيجان مشهور بنعومة صوف أغنامه، واشتهر بدقة صنع البسط ورقة خملها. التحرير والتنوير: ٣٠ / ٢٦٨ .

المبثوثة: المنتشرة على الأرض بكثرة.

التفسير

بعد أن ذكرت السورة أوصاف الصنّف الأوّل، انتقلت إلى بيان صفات الصنّف الثاني، فذكرت الأوصاف التالية:

٨ ـ أ. (وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ):

وهو يقابل الوصف الأوّل أعني: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذ خَاشِعَةٌ).

والمراد من ناعمة أي منعمة بمعنى يظهر عليها أثر النعمة والسرور.

٩ ـ ب . (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ):

وهو يقابل قوله سبحانه: (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ)فالصنف الأوّل يعملون في الدنيا ولا ينتفعون بعملهم في الآخرة، وأمّا الصنف الثاني فهم يعملون في الدنيا وينتفعون به في الآخرة، ولذلك فهم راضون به، ويصفهم بقوله: (لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ).

١٠ ـ ج. (فِي جَنَّة عَالِيَة) :

يصف مكانهم بأنّه جنة عالية، وهو يقابل قوله: (تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً)فهؤلاء يعيشون في جنة مرتفعة وأمّا غيرهم فهم في حفرة حامية، لأنّ أحسن الجنات ما كان في المرتفعات، قال تعالى: (كَمَثَلِ جَنَّة بِرَبْوَة) البقرة: ٢٦٥ ..

١١. (لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً):

اللغو هو الكلام الّذي لا فائدة فيه وهذا دليل على أنّ الجنة دار جدّ وحقيقة، و (لاَغِيَةً) وصف حُذف موصوفه أي «كلمات لاغية» أو «كلمة لاغية» والغرض من الآية تنزيه الجنة عن النقائص، وبيان أنّ أصحابها مُهذَّبون، يغمر حياتهم الأمن والسكينة والمودّة والرحمة.

١٢. (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ):

ويقابله ـ في أوصاف جهنم ـ قوله تعالى: (تُسْقَى مِنْ عَيْن آنِيَة).

يذكر سبحانه بعد ذلك أوصافاً للجنة لم يذكر ما يقابلها في أوصاف جهنم، لأنّ الأخيرة دار عذاب وشقاء.

١٣. (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ):

وهذا وصف لمحاسن الجنّة، وهي أن فيها سرراً مرفوعة والسرر جمع سرير، وفي ارتفاعها جلالة القاعد عليها، أو ليرى المؤمنون ما حولهم من المناظر.

١٤. (وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ) :

على جانب العين مهيّأة للشراب.

١٥. (وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ) :

أي يتصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة في الدنيا.

١٦. (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) :

وقد قلنا: إنّ الزربيّة هي البساط المنسوج من الصوف الملوّن، الناعم يفرش في الأرض للزينة تارة، وللجلوس عليه أُخرى.

بقي هنا شيء وهو تنظيم صفات الأشقياء وصفات السعداء على وجه التقابل والّذي أشرنا إليه، غير أنّ الغرض هنا تنظيمه بشكل واضح .

الأشقياء وصفاتهم   السعداء وصفاتهم

١. وُجُوهٌ يَوْمَئِذ خَاشِعَةٌ   وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاعِمَةٌ

٢. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ   لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ

٣. تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً   فِي جَنَّة عَالِيَة * لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً

٤. تُسْقَى مِنْ عَيْن آنِيَة   فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌلَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيع لاَ يُسْمِنُ   وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَ نَمَارِقُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوع   مَصْفُوفَةٌ * وَ زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ

فإنّ هذا البيان الرائع، والنظام البديع أدلّ دليل على أنّ القرآن الكريم وحي إلهي نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين حيث إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)حينما نزلت عليه هذه الآيات كان يعاني من قريش وأزلامها أشدّ الصعاب والمشاكل، الّتي لا تسمح له بأن يضع من عنده مثل هذه الآيات وبهذه الدقة والمتانة، لو افترضنا أنّه لم يكن وحياً من السماء.

١٧ ـ ٢٦ الآيات: العشر الأخيرة (أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ *.... ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ).

(أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِر * إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ).

التفسير

لمّا كان المستفاد من الآيات السابقة أنّ المشركين ما زالوا ينكرون توحيده سبحانه في الربوبية والعبادة، فقد عرّجت هنا على بيان النظام البديع السائد في العالم الدالّ على توحيده في الربوبية وبالتالي في العبادة، فبدأت هنا بإلفات نظر المشركين إلى الإبل كيف خلقت ثم إلى السماء ثم الجبال وبعدها الأرض، فذكر سبحانه هذه الأُمور الأربعة وطلب من المشركين التدبّر فيها، وإليك التفصيل:

١٧. (أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ):

أي أفلا يتفكّرون بنظرهم إلى الإبل ويعتبرون بما خلقه الله عليها من عجيب الخلق؟ فإنّ لها مزايا لا توجد في غيرها :

١. إنّها مع قوتها وعظمتها يذلّلها الصغير وتنقاد له بتسخير الله إيّاها لعبده، فيُبركها ويحمل عليها ثم تقوم، وليس ذلك في غيرها من ذوات الأربع فلا يحمل على شيء منها إلاّ وهو قائم . مجمع البيان: ١٠ / ٣٨١ .

٢. إنّها تتحمّل العطش والجوع، وتستطيع العيش لأيام وربّما لأسابيع بقليل من الطعام والماء أو بلا شيء على الإطلاق، وليس لغيرها من الدوابّ ذلك التحمّل. يُذكر أنّ معظم الحيوانات تختزن الشحم في أجسامها، ولكنّ الإبل وحدها الّتي تختزن معظم شحمها في سَنامها. وإذا عزّ الحصول على الطعام فإن الشحم الّذي في السنام يزوّد الإبل بالطاقة الّتي قد تحتاج إليها.

٣. إنّها تطوي مسافات طويلة في اليوم الواحد في الصحاري الحارّة الجافة المحرقة، وتسير فوق الرمال الناعمة بيسر وخفّة، حيث تساعدها أخفافها على تثبيت أقدامها في الرمال، كما تفعل أحذية الجليد الّتي تساعد في تثبيت أقدام صاحبها.

٤. إنّها تتغذى على أي شوك ونبات إلاّ الضريع وتشبع بالقليل، وإذا أصبح الطعام نادراً، فبإمكانها حينئذ أن تأكل أيّ شيء مثل العظام والسمك واللحم والجلد، حتّى خيام أصحابها.

٥. إن لعينها وأُذنها قوة خاصّة أمام العواصف الرملية لا تعيقها عن السير، فللجمل عينان واسعتان، ولكلّ عين رموش مقوّسة تقي العينين من الرمال، وعندما تعلو الشمس، فإن الجفون الكثيرة الشعر تقي العيون من شمس الصحراء، ولا تسمح بدخول ضوء زائد

عن الحدّ .

إلى غير ذلك من الأوصاف الّتي تختصّ بها. انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٨ / ٤٦٨ ـ ٤٧٥ مادة «الجمل»، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ.

١٨. (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) :

ثم إنّه سبحانه يلفت نظر المشركين إلى السماء كيف رفعت فوق الأرض وحصل بينهما هذا الفضاء الّذي به قوام الحياة، مضافاً إلى ما اشتملت عليه من الكواكب والشموس والمجرّات الّتي لم تزل رغم كثرة الاكتشافات في غموض، فكلّما تقدّم العلم لرفع القناع عن واقع السماء، يرى العلماء أنفسهم أمام مجاهيل كثيرة لم يكتشفوها بعد.

١٩. (وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ):

أي أفلا يتفكرون في خلق الجبال الّتي جعلها أوتاداً للأرض، وأنّه لولاها لمادت الأرض بأهلها. أضف إلى ذلك: أنّ للجبال دوراً في حفظ الحياة على ظهر هذا الكوكب فإنّها تحفظ الماء داخلها بعد نزول المطر أو الثلج، ثم يخرج منها بصورة عيون فيّاضة عليها مدار الحياة، وتوجد للجبال فوائد كثيرة أُخرى ذكرها المختصّون.

٢٠. (وَ إِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) :

أي بَسَطها الله ووسّعها على وجه لو كانت باقية على ما كانت عليها من الارتفاع والانخفاض الشديدين لما استقرت عليها الحياة، والمراد من التسطيح هو هذا ولا ينافيه كونها كروية، لأنّ كلّ شيء كروي لا يخلو من سطح، فهؤلاء المشركون عليهم أن يتدبّروا في هذا النظام البديع الّذي تدور عليه رحى الحياة ليعبدوا خالقها ويسبّحوه ويحمدوه، لا الأوثان الّتي لا تقدر على حفظ أنفسها فضلاً عن إيصال النفع إلى من يعبدها .

ثم إنّ هنا سؤالاً وهو أنّه لماذا خصّ الله تعالى هذه الأُمور الأربعة بالذكر وأمر بالتدبّر فيها وأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بتذكيرهم بها؟ مع أنّه توجد في الحياة أُموراً أُخرى لا تقل عن هذه الأُمور المذكورة أهمية وغرابة .

وقد أجاب الرازي عن ذلك ، فقال: إنّ القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيراً، لأنّ بلدتهم بلدة خالية من الزرع، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيراً ما يسيرون عليها في المهامه والقفار مستوحشين منفردين عن الناس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكّر في الأشياء، لأنّه ليس معه مَن يحادثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بدّ من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أوّل الأمر على الجمل الّذي ركبه، فيرى منظراً عجيباً، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنّه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والإنفراد عن الغير حتّى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثم إنّه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئاً سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية . تفسير الرازي: ٣١ / ١٥٨ .

أقول: إنّ هذا البيان من الرازي يحطّ من عظمة القرآن الكريم، فيجعله كتاباً خاصاً للعرب الذين بُعث فيهم النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكنّ الحقّ أن يقال: إنّ هذه الأُمور الأربعة من عظائم الخلقة وعليها مدار الحياة، وإنّما وقع الرازي فيما وقع لذكر الإبل في الآيات ولكنّها ذكرت بعنوان نموذج من الحيوان الأهلي الّذي يخدم المجتمع البشري بأنواع الخدمات، ولذلك ترى أنّه سبحانه يذكر في موضع آخر غيره معه ويقول: (وَ الأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعُ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ * وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَد لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَ الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) النحل: ٥ ـ ٨ ..

ومن غريب القول ما ذكره السيوطي حيث قال: إنّ ما ذكره أهل علم الهيئة هذيان لا دليل عليه... حيث قالوا إنّ الأرض كرة لا

سطح، فنزل القرآن بأنّها سطح، قال تعالى: (وَ إِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)(عقود الجمّان: ٣١).

وقد نشرت الصحف رأي مفتي السعودية السابق (ابن باز) حيث قال: بأنّ الأرض مسطّحة لا كروية، وبذلك عارض أحد مسلّمات علم الجغرافية الّتي ثبتت بالتجارب الحسيّة، فجعل القرآن في موقف المعارض للعلم الحديث، غافلاً ـ هذا وأمثاله ـ عن كون الأرض مسطّحة لا ينافي كونها كروية، لأنّ الأجسام بعامّة أشكالها لها سطح.

٢١. (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ):

التذكّر عبارة عن تعريف الموضوع بالبيان المفهوم بوجه يقنع الإنسان المنصف، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)مذكّر بالآيات القرآنية وكلماته المتقنة وهذا لا يختصّ بالنبي الأكرم، فإنّ عامة الأنبياء بعثوا بقوة المنطق فيهدون أُممهم إلى الحق اليقين بالبراهين الدامغة والمواعظ الشافية والجدال بالأحسن، قال سبحانه: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ) النحل: ١٢٥ ..

والآية وما دلّ على لزوم التذكير آية متقنة غير منسوخة، وما ربّما يتصوّر أنّ آيات الجهاد نسخت تلك الآية، فضعيف جداً، لأنّ الغاية من الجهاد هو رفع الحواجز عن البيان والتبليغ ورفع الموانع الّتي تقف في طريق تذكير الناس بآيات الله، فكيف يمكن أن تكون منسوخة؟ والدليل على أنّ الجهاد شرِّع لرفع الحواجز أنّ الإسلام فسح لأهل الكتاب البقاء على دينهم تحت شروط خاصّة.

٢٢. (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ):

أي لست مسلّطاً عليهم حتّى تجبرهم على دخول حظيرة الإيمان ، فإنّ الإيمان من الحالات المعنوية الّتي لا تخضع للإجبار، وإنّما تخضع له الحالات المادية القائمة بالجوارح.

٢٣. (إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ):

الاستثناء منقطع، والمستثنى منه قوله: (فَذَكِّرْ) أي فذكرهم إلاّ مَن تولّى وكفر، بمعنى أعرض عنهم ولا تقابلهم فإنّهم ليسوا بأهل للتذكير.

وتوهُّم كونه استثناءً لقوله: (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)غير صحيح ؛ لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)ليس مسيطراً على أي إنسان، سواء أقبِل أم تولّى. وتوهُّم سيطرة النبي عليهم في الغزوات لا صلة لها بمفهوم الآية.

٢٤. (فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ):

يريد سبحانه أنّ إعراضك عنهم ليس بمعنى ترك الله سبحانه إيّاهم، بل يعذّبهم العذاب الأكبر في الآخرة، فإنّ عذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا .

٢٥ ـ ٢٦. (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ):

والآيتان أشبه بالدليل على أنّ الله سبحانه يعذّبهم العذاب الأكبر؛ وذلك لأنّ مرجعهم إلى الله وحسابهم عليه فعند ذلك يحكم عليهم بالعذاب الأكبر وفق الحساب.

ويقع هنا سؤال وهو: إذا كان الإياب إلى الله سبحانه، فما معنى قول الإمام (عليه السلام)في الزيارة الجامعة: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم»؟

والجواب واضح، فالحساب مستقلاًّ على الله، والإياب ـ كذلك ـ إلى الله. وأمّا عن طريق الشفاعة، فهما لأئمة أهل البيت(عليهم السلام) وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام)أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا فما كان لله سألناه أن يهبه فهو لهم، وما كان لنا فهو لهم، ثم قرأ الآية: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ). تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥٦٨ .

تم تفسير سورة الغاشية

٨٩- سورة الفجر

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي).

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت بسورة «الفجر» بحذف الواو.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ثلاثون في عدّ الكوفي والشامي، وعند أهل البصرة تسع وعشرون.

والسورة مكيّة، بشهادة مضمونها.

أغراض السورة

تهدف السورة إلى ذمّ الإنسان المكبّ على الدنيا الموجب للكفر والطغيان، ثم بيّنت ذلك بذكر قصة ثمود الّذين كان لهم من الحضارة ما لم يكن في سائر البلاد في أعصارهم، ومع ذلك كلّه أهلكهم الله سبحانه لأجل انكبابهم على الدنيا وبالتالي فسادهم.

ثم تندّد السورة بالفكر القاصر لبعض المشركين بل أكثر المترفين، حيث يتصوّرون أنّ بسط النعمة والغنى آية أنّهم عبادٌ مكرمون عند الله، وعندئذ يفسدون في حياتهم اعتماداً على تلك الفكرة، كما يتصوّرون أنّ فقر الفقراء آية أنّ ربهم يهينهم وليس لهم عند الله مقام واحترام، وقد غفلوا عن أنّ لكلّ من الغنى والفقر أسباباً يختبر بها أصحابها، كما سيوافيك بيانه.

١ ـ ٥ الآيات: الخمسة الأُولى (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ..... * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ).

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ).

المفردات

الفجر: هو شقّ الشيء شقّاً واسعاً، قال سبحانه: (وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً) القمر: ١٢.ومنه قيل للصبح فجرٌ لكونه شقّ الليل. والفجر فجران: الكاذب، وهو كذنَب السِّرحان(أي الذئب)، والصادق، وهو المنبسط على الأُفق وبه يتعلّق حكم الصوم والصلاة. المفردات للراغب: ٣٧٣، مادة «فجر».

حِجْر: الحِجْر: المنع، ويطلق للعقل لكون الإنسان في منع منه ممّا تدعو إليه نفسه. المفردات للراغب: ١٠٩، مادة «حجر».

التفسير

ابتدأ سبحانه هذه السورة بأقسام خمسة: الفجر، وليال عشر، والشفع، والوتر، والليل إذا يسر.

أمّا الأوّل فقال:

١. (وَالْفَجْرِ) :

أي فجر الصبح، فقد عبّر سبحانه عن الصبح هنا بالفجر، وما ذلك إلاّ لأنّ الصبح يشقّ الأُفق، ويبدّد ظلام الليل شيئاً فشيئاً حتّى تطلع الشمس.

وفي سورة أُخرى يعبّر عنه بقوله: (وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) التكوير: ١٨ وفي التعبير تصوير رائع، فكأنّ الصبح كان ينوء بثقل اللّيل، ثم ارتفع الثقل، فتنفّس الصبح.

وفي سورة ثالثة يعبّر عنه بقوله: (وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) المدثر: ٣٤ . وفي هذا التعبير تصوير رائع آخر، وهو أنّ الصبح شيء جميل كان محجوباً بظلام الليل، وكأنّه بطلوعه ألقى الحجاب وكشف عن وجهه .

ثم إنّه يقع السؤال لماذا أقسم الله سبحانه بالفجر وما هو شأنه؟ والله سبحانه هو العالم، ولكن يمكن أن يقال: إنّ لهذا الوقت ميزة خاصّة هي أنّ الإنسان يقوم من نومه وقد استراح من عناء اليوم السابق، كما أنّ ما يُثقل بدنَه من الأكل والشرب قد زال، وتهيّأت روحه للصلاة والمناجاة وعبادة الله. فلأجل أنّ له هذا الشأن أقسم به سبحانه.

وأمّا الثاني، فقال:

٢. (وَلَيَالٍ عَشْرٍ):

والتنكير للتفخيم، وجاء في معناه احتمالات نذكر أقواها:

١. المراد هو الليالي العشر من أوّل ذي الحجة إلى عاشره، وربّما يؤيد هذا قوله سبحانه في ميعاد موسى، قال سبحانه: (وَ وَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) الأعراف: ١٤٢ ..

فدلّت الروايات على أنّ العشر المتمّمة كانت هي العشر الأُولى من ذي الحجة؛ روى العياشي عن محمد الحلبي، عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام)في قوله: (وَ وَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ) قال: «بعشر ذي الحجة ناقصة ». تفسير البرهان: ٤ / ١٨٠ .

ولا يخفى ما للعشر الأُولى من ذي الحجة من الفضيلة، ففيها ليلة التروية وليلة عرفة وليلة النحر، إذ كلّ منها يضفي على هذه الليالي ميزة وفضيلة .

ولعلّ لهذه الليالي آثاراً خاصّة أقسم بها سبحانه، ويشهد لذلك ورود صلاة خاصّة في هذه الليالي، تُقرأ فيها الآية المذكورة أعلاه.

٢. المراد بها الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان، ويدلّ على ذلك احتمال نزول القرآن في أحدها، كما أنّ من المحتمل جدّاً كون ليلة القدر فيها، وقد روي أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)كان يعتكف فيها، كما ورد في إحياء هذه الليالي أدعية وأعمال كلّها تشير إلى وجود فضيلة رابية لها، فصح أن يقسم بها سبحانه.

وأمّا الثالث والرابع، أعني قوله تعالى:

٣. (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ):

فقد ذكر المفسّرون هنا احتمالات تناهز العشرين، تفسير الرازي: ٣١ / ١٦٣ ـ ١٦٤ . منها:

١. الشفع هما الركعتان من صلاة الليل، والوتر هو الركعة الأخيرة منها، وهذا الاحتمال مبني على كون الشفع والوتر بهذا المعنى كان رائجاً بين المسلمين في مكّة حتّى أقسم الله به.

٢. الشفع هو الأيام الزوجية الخمسة من الليالي العشر من ذي الحجة، والوتر هو الأيام الفردية من هذه الليالي، وعلى هذا فاليوم

الثامن الّذي هو يوم التروية شفع، واليوم التاسع الّذي هو يوم عرفة وتر، وهكذا.
والّذي يضعّفه أنّه سبق الحلف بهذه الأيام ضمن قوله: (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)اللّهم إلاّ أن يقال: المقسم به في قوله: (عَشْرٍ) هو الليالي والمقسم به هنا هو الأيام.
٣. الشفع هو كلّ ما خلقه الله، قال سبحانه: (وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً) النبأ: ٨ .والوتر هو الله تعالى، وكان اللازم على هذا القول أن يستدلّ صاحبه بآية أُخرى وهي: (وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات: ٤٩ .. فما سوى الله تبارك وتعالى شفع، والوتر الحقيقي هو الله.
٤. المراد بهما عدد الزوج وعدد الفرد ؛ لأنّ الرياضيات مبنية عليهما وعلى معرفتهما فصحّ أن يحلف بها، قال السيد الطباطبائي: وفي الإقسام بها تذكير بالعدد لما في ضبط المقادير به من عظيم النعمة من الله سبحانه. الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٤٦٠ .
هذه احتمالات انتخبناها والباقية منها ليست بهذه المنزلة. مجمع البيان: ١٠ / ٧٣٨ .
وأمّا الخامس:
٤. (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ):
فيُراد به جنس الليالي كما قال: (وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) المدثر: ٣٣ ..
فقد أقسم سبحانه بالليل اذا يسري في الظلمة ابتعاداً عن النور ثم يسري إلى النور بُعداً عن الظلمة، ونهاية المطاف هو النور، ولعلّ وجه الحلف به أنّ سير الليل على المقادير المرتبة ومجيء الضياء عند تقضيه، أدلّ دلالة على أنّ فاعله يختصّ بالعزّ والجلال، ويتعالى عن الأشباه والأمثال. مجمع البيان: ١٠ / ٧٣٦ .
هذا على القول بأنّ المراد مطلق الليالي، وربما يقال: المراد ليلة خاصّة وهي ليلة المزدلفة لاختصاصها باجتماع الناس فيها بطاعة الله وفيها يسري الحاج من عرفة إلى مزدلفة ثم يصلي الغداة بها، ويغدو منها إلى منى.
فعلى الاحتمال الأوّل اللام للجنس، وعلى الاحتمال الثاني اللام للعهد.
٥. (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) :
هذه جملة معترضة بين الأقسام الخمسة وما جاء بعدها من الجواب أو قُدّر كما سيوافيك، وتنكير (قَسَمٌ)للتفخيم والاستفهام هنا لتقرير الواقع، كمن ذكر حجّة باهرة، ثم قال: هل فيما ذكرته حجّة؟ ومعنى الآية أنّ فيما قدّمنا قسماً كافياً لمن له عقل.
وأمّا جواب القسم، فهنا وجهان:
الأوّل: أنّ الجواب هو قوله: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)وعلى هذا فما بينه وبين الآيات السابقة جمل معترضة جاءت كمقدّمة لجواب القسم، والمعنى: إنّ ربك لبالمرصاد للمكذبين لا يخفى عليه أمرهم، فيكون تثبيتاً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، نظير قوله تعالى: (وَ لاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) إبراهيم: ٤٢ . لكن الّذي يبعده الفصل الطويل بين المقسم به والمقسم عليه، وهو مخلّ بالبلاغة.
الثاني: أنّ جواب القسم محذوف، وعليه صاحب الكشاف، يقول: تقديره: «ليعذبنّ» ويدلّ عليه قوله: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ...) إلى قوله: (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ). تفسير الكشاف: ٣ / ٣٣٥ . وقال الطبرسي: قيل جوابه محذوف ليقبضنّ على كلّ ظالم أو لينتصفنّ كلّ مظلوم من ظالمه، أما رأيت كيف فعلنا بعاد وفرعون وثمود لما ظلموا. مجمع البيان: ١٠ / ٣٤٦، سورة الفجر.
وهو خيرة العلاّمة السيد الطباطبائي حيث يقول: جواب الأقسام المذكورة محذوف يدلّ عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنة، وإنّ إنعامه تعالى على من أنعم عليه وإمساكه عنه فيمن أمسك، إنّما هو

ابتلاء وامتحان . الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٤٠٧ .

يبقى الكلام في وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فقد ذكرنا فيما سلف أنّ مَن كان ذا لبٍّ، علم أنّ ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على قدرته وحكمته، فهو قادر على أن يكون بالمرصاد لأعمال عباده فلا يعزب عنه أحد ولا يفوته شيء من أعمالهم ؛ لأنّه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم، خصوصاً بالنظر إلى ما عاقب به قوم عاد وثمود مع ما كان لهم من القوة والمنعة.

٦ ـ ١٤ الآيات: السادسة إلى الرابعة عشرة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد...نَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ).

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَاب * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ).

المفردات

عاد: قوم نبيّ الله هود (عليه السلام).

إرم: ممنوع من الصرف، للتعريف والتأنيث، أمّا التعريف فواضح، وأمّا التأنيث فيشهد عليه وصفها بذات العماد.

واختلفوا في معناها على أقوال:

١. اسم القبيلة، قال أبو عبيدة هما عادان؛ فالأُولى هي قبيلة إرم، وهي الّتي قال الله تعالى عنها: (وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى) هود: ٥٠ . .

٢. لقب عاد، كان عاد يعرف به .

٣. اسم المدينة الّتي بناها شدّاد بن عاد.

والظاهر هو الثالث كما سيوافيك، فتقدير الآية: بعاد (صاحب إرم) .

ذات العماد: العماد مفرد جمعه عُمد، وهو ما تُبنى به الأبنية، ويستعمل في القوة والشرف، يقال: فلان رفيع العماد.

ثمود: قوم نبي الله صالح (عليه السلام)وكانوا يعيشون في وادي القُرى بين المدينة والشام، وقد اكتشفت بلادهم أخيراً بفضل الحفريات الّتي قام بها علماء الآثار، فكانت كما وصفها القرآن.

جابوا: أي قطعوا، ونحتوا الصخر.

الوادي: وهو الّذي يسيل فيه الماء، ولعلّ المراد به سفح الجبل حيث كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً(الحجر: ٨٢ .).

وروي أنّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)لما مرّ في مسيره إلى تبوك بوادي القُرى، أمر بالإسراع في السير قائلاً بأنّ الأرض ملعونة . روح البيان: ١٠ / ٤٢٥ .

فرعون: طاغية عصر موسى، بقرينة وصفه بالإفراد حيث قال: (ذِي الأَوْتَادِ).

الأوتاد: جمع الوتد وهو ما يثبت به، إنّما وصف به لما في بعض الروايات: أنّه كان إذا عذب رجلاً بسطه على الأرض على وجهه ومدّ يده ورجليه فأوتدها بأربعة أوتاد في الأرض، وربما بسطه على خشب منبسط فوتّد رجليه ويديه بأربعة أوتاد ثم تركه على حاله حتّى يموت، فسمّاه الله تعالى فرعون ذا الأوتاد . تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥٧١ .

وأضاف في «الكشّاف»: كما فعل بماشطة بنته وبآسية . تفسير الكشاف: ٣ / ٣٣٥ .

الصبّ: إفراغ ما في الإناء.

السوط: آلة ضرب تتخذ من الجلود.

المرصاد: المكان الّذي يرقب فيه للرصد.

التفسير

قد سبق أن جواب الأقسام أحد أمرين:

١. الجواب مقدّر بمعنى أن الله سبحانه سيعذّبهم.

٢. قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ).

وعلى كلّ تقدير فالله سبحانه يذكر نماذج ممّن شملهم عذابه، أو أخذهم بأشد العذاب وهو بالمرصاد، فذكر نماذج ثلاثة:

١. قوم عاد.

٢. قوم ثمود.

٣. فرعون.

فأشار إلى أنّه شملهم العذاب على وجه الإجمال، وإليك بيان ذلك .

٦. (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد):

المراد من الرؤية، الرؤية العلمية لا البصرية.

ذكر القصّاصون انظر: مجمع البيان: ٥ / ٤٨٦ . عن قوم عاد ومدينتهم الموسومة بـ «إرم» أخباراً أشبه بالأساطير ورُوي أكثرها عن كعب الأحبار ووهب بن منبّه الأبناوي الصنعاني (٣٤ ـ ١١٤ هـ) المعروفَين برواية الإسرائيليات نقل محمود أبورية عن الأُستاذ محمد رشيد رضا أنّه قال: إن شرّ رواة هذه الإسرائيليات ٢

أو أشدّهم تلبيساً وخداعاً للمسلمين هذا الرجلان (يعني وهباً وكعب الأحبار) . لاحظ : أضواء على السنّة المحمدية: ١٧٤ ، ولا محيص للمحقّق إلاّ الاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم ممّا يرجع إلى حياتهم.

يقول العلاّمة الطباطبائي: وقد انقطعت أخبار قوم هود وانمحت آثارهم فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم على نحو تطمئن إليه النفس إلاّ ما قصّه القرآن الكريم من إجمال قصتهم، إنّهم كانوا بعد قوم نوح، قاطنين بالأحقاف، وكانوا ذوي بسطة في الخلق، أُولي قوة وبطش شديد، وكان لهم تقدّم ورقيّ في المدنية والحضارة، لهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم . الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٢٨٠ .

وقد ذكر في «الكشّاف» شيئاً من حياة قوم عاد، ممّا يشبه أخبار ألف ليلة وليلة. تفسير الكشاف: ٣ / ٣٣٥ .

٧. (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) :

قد تقدّمت الأقوال في المراد من قوله: (إِرَمَ) والّتي منها أنّها اسم مدينة لا القبيلة، ويدلّ على ذلك أنّه سبحانه وصفها بالوصفين التاليين، هما؛ قوله: (ذَاتِ الْعِمَادِ)، وقوله: (لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ)، وكلاهما لا ينطبقان إلاّ على المدينة.

أمّا الأوّل: فالمتبادر من ذات العماد أي ذات الأعمدة الّتي تبنى بها الأبنية الفخمة، ولذا كان نبيهم هود يذمّهم بقوله: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيع آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩ ، والمعنى: أتبنون بكلّ مكان مرتفع بناءً لا تحتاجون إليه وإنّما تُريدون العبث بذلك، وتتّخذون حصوناً وقصوراً مشيّدة كأنّكم تخلدون فيها، فإنّ هذه الأبنية بناء من يطمع في الخلود.

وأمّا الثاني: أعني قوله:

٨ . (التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ):

فإنّ ضمير التأنيث في (مِثْلُهَا) يعود على ذات العماد، وهو دليل على أنّ لفظة (إرم) اسم للمدينة لا القوم والقبيلة، إذ يبعُد أن يقال: إنّ قبيلة إرم (لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ) ولو أُريد ذلك كان اللازم أن يقول: «لم يخلق مثلهم في البلاد».

وعلى هذا، يكون معنى الآية:

ألم تر كيف فعل ربك (بقوم) عاد أصحاب مدينة إرم ذات الأعمدة الّتي لم يخلق مثلها في البلاد.

وكلمة (لم) تدلّ على أنّها كانت عديمة النظير في العصور السابقة، لا عصر نزول السورة ولا بعده.

وعلى كلّ تقدير، يظهر بُعد قول من قال بأنّ الوصفين يتعلّقان بالقوم أو بالقبيلة حيث قال: لم يخلق مثل تلك الأُمّة في الأرض وأُريد بالخلق خلق أجسادهم. (التحرير والتنوير: ٣٠ / ٢٨٢ .)

وأمّا كيفية إهلاكهم فيذكرها سبحانه في سورة أُخرى، ويقول: (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ). الحاقة: ٦ ـ ٨ .

٩. (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) :

ثمود ـ كما قلنا ـ من أقدم الأقوام ونبيهم صالح، وكانوا يعيشون في وادي القرى، بين المدينة والشام، وحياتهم كانت حياة مرفهة، ومن عملهم قطع صخور الجبال ليصنعوا بها البيوت، وإليه يشير قوله تعالى: (جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)وفي آية أُخرى قال تعالى: (وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ).(الحجر: ٨٢ .)

وفي ثالثة: (وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ)(الشعراء: ١٤٩ .).

وفي آية رابعة: (وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً) الأعراف: ٧٤ . .

فكلتا القبيلتين ـ عاد وثمود ـ كانت لهم من القوة والقدرة في بناء الأبنية واتّخاذ البيوت في الجبال والنحت في صخورها، مكانة عالية، غير أنّ قوم عاد كانوا يبنون البيوت على سفوح الجبال، وقوم ثمود يبنونها داخل الجبال.

وبالرغم من قوة «ثمود» وقدرتهم، فإنّ الله أهلكهم بالصيحة ولم يُبقِ لهم من باقية، قال سبحانه: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)(القمر: ٣١ .).

١٠. (وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ):

مرّ وجه وصف فرعون بذي الأوتاد، وقد جاء في بعض التفاسير الحديثة، أنّ المراد بالأوتاد، تلك الأهرامات التي أقامها فراعنة مصر، فكانت أشبه بالجبال، التي هي أوتاد الأرض. انظر: التفسير القرآني للقرآن:١٦/١٥٥٣.

١١. (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ) :

والظاهر أنّه صفة لجميع الطوائف الثلاث.

أمّا طغيانهم فلأجل إعراضهم عن عبادة الله سبحانه إلى عبادة الأصنام والأوثان.

١٢. (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) :

ولعلّ فسادهم لأجل إهلاك الحرث والنسل، يقول سبحانه: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ) البقرة: ٢٠٥ . .

١٣. (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ):

عرفت أنّه أهلك عاداً بريح صرصر في أيام نحسات، كما أهلك قوم ثمود بالصيحة، وأمّا فرعون فقد أهلكه بالغرق، وأمّا ما هي المصلحة من التنويع في العذاب فالله سبحانه أعرف وأعلم، قال تعالى: (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَ مَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) العنكبوت: ٤٠ ..

١٤. (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ):

قلنا: إنّ المرصاد هو المكان الّذي يرصد منه ويرقب، وهو كناية عن حفظه تعالى لأعمال عباده، شبّه بمن يقعد في المرصاد ليرقب

أعمال عماله أو من تحت أمره.

قال الإمام علي (عليه السلام): «وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ» نهج البلاغة: الخطبة ٩٧ ..

فالله سبحانه يُمهل العصاة والطاغين ولكن حاشاه أن يهملهم فيأخذهم يوم البعث في مواقف متعدّدة.

١٥ ـ ١٦ الآيتان: الخامسة عشرة والسادسة عشرة (فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ.... فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ).

(فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ).

التفسير

الآيتان تندّدان بالتصوّر السقيم الذي يسود الكثير من المجتمعات ـ والأفراد كذلك ـ وهو أنّ الغنى والثراء ووفرة الإمكانات المادية دليل على أنّ صاحبها مقرّب عند الله ومكرّم عنده، فلأجل هذا المقام الذي يتمتع به الإنسان الثري فالله سبحانه أنعم عليه!!

وفي مقابل ذلك فإنّ الفقر وكون الإنسان مفتقراً إلى الحاجات الأساسية لحياته الدنيوية، دليل على كونه مبغوضاً عند الله، ومهاناً من قبله، وليس له مقامٌ وشأن خاصّ عنده، وإلاّ لأنعم عليه!!

وهاتان الآيتان تشيران إلى هذا التصوّر وتردّان عليه باستنكار، بأن يكون الغنى آية الإكرام، والفقر آية الامتهان، بل هما معاً من وسائل الابتلاء والامتحان والتمحيص، وذلك أنّ الله تعالى عندما ينعم على إنسان لا لأجل أنّه يكرمه، بل لأجل أن يضعه في بودقة ويقال لها أيضاً: البوتقة وهي الوعاء الذي يذيب الصائغ فيه المعدن، وهي فارسية، كما قال صاحب المنجد: ٥٢ . الامتحان والفحص، فصاحب النعمة عندما يقوم بواجباته من إكرام اليتيم وإطعام المسكين ورفع خلّة المعوزين، فقد نجح في الامتحان وخرج ناصع الجبين.

ولكن على العكس ربما يتّخذ الإنسان الثروة والنعمة وسيلة للتكبّر وتحقير الآخرين والإفساد في الأرض، فيصبح فاشلاً في الامتحان ويُحشَر أسود الوجه.

وهكذا الفقر، فربما تجد فقيراً متعفّفاً قانعاً بما قسم الله له، من دون أن يمدّ يده إلى مال الآخرين، فالفقر هنا يكون سبباً للتكامل والسمو.

وفي مقابل ذلك تجد فقيراً ساخطاً متذمّراً، قد يتّخذ من فقره ذريعة للتجاوز على أموال الآخرين،

ولكن على العكس ربما يتّخذ الإنسان الثروة والنعمة وسيلة للتكبّر وتحقير الآخرين والإفساد في الأرض، فيصبح فاشلاً في الامتحان ويُحشَر أسود الوجه.

وهكذا الفقر، فربما تجد فقيراً متعفّفاً قانعاً بما قسم الله له، من دون أن يمدّ يده إلى مال الآخرين، فالفقر هنا يكون سبباً للتكامل والسمو.

وفي مقابل ذلك تجد فقيراً ساخطاً متذمّراً، قد يتّخذ من فقره ذريعة للتجاوز على أموال الآخرين، فيكون بذلك من الهاوين، فلا الغنى دليل الإكرام، ولا الفقر دليل الإهانة، قال سبحانه:

١٥. (فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ):

قوله: (إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ): أي إذا اختبره وامتحنه بالنعمة (فَأَكْرَمَهُ)بالمال (وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ): أي يفرح بذلك ويُسرّ ويعدّه كرامة عند الله. ونشير هنا الى أنّه سبحانه ذكر في هذا الابتلاء أنّه تمّ بالإنعام والإكرام، وأمّا في الابتلاء التالي فقد ذكر أنّه تمّ بأمر واحد وهو قوله: (قدّر) أي عدم السعة بالمال، والظاهر أن الأمرين في الاتبلاء الأوّل هما شيء واحد وهو السعة في المال، مقابل الضيق فيه.

١٦. (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ):

فقوله: (إِذَا مَا ابْتَلَاهُ)بالفقر والفاقة (فَقَدَرَ): أي فضيّق وقتّر (عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ): أي يظن أنّ ذلك هوان منه .

وربّما يتبادر سؤال في بعض الأذهان وهو: أنّ الله سبحانه عالم بضمير الإنسان فماذا يعني بامتحان الإنسان والابتلاء، فإنّ ذلك شأن مَن لا يقف على الواقع فيريد أن يكتشفه ويعرفه ؟

والجواب: أنّ الابتلاء على أقسام:

١. تارة يكون الممتحِن ـ بالكسر ـ جاهلاً بواقع الممتحَن ـ بالفتح ـ فيمتحنه بصور مختلفة، كما هو الحال في الامتحانات التي تُجرى للطلاب في المواد التي تتضمّنها الكتب المخصّصة لهم، لمعرفة المستوى الدراسي للطلاب، وتمييز المتفوّقين عن غيرهم.

٢. وربما يكون الغرض من الامتحان إتمام الحجّة عليهم، فإنّ المعلم يعلم أنّ التلميذ الفلاني ناجح أو فاشل، ولكنّه يمتحنه لإقامة الحجّة عليه، حتّى لا يعترض عليه في حرمانه من النجاح والانتقال إلى الصف الآخر.

٣. وربّما يكون الهدف من الامتحان هو البلوغ بالإنسان الممتحَن إلى قمة الكمال المعنوي، فقد تكمن في صميم ذاته قابلية الوصول إلى الكمال، ولكنّها قابلية محضة وقوة خالصة، لا تنتقل إلى الفعلية إلاّ إذا تعرّضت للبلاء والامتحان، وهو سرّ قوله تعالى: (وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ) الأنفال: ٢٨ ، وذلك كما بيّنه الإمام علي (عليه السلام)في قوله: «وَمَعْنَى ذلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَ الرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ» نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ٩٣..

فقوله: «لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»، يشير إلى ما ذكرنا من أنّ الإنسان قد يكمن في ذاته ما يستحق به أحد الأمرين خصوصاً الثواب، فما لم يتعرض للامتحان يبقى ما يستحق به الثواب بصورة القوة الصرفة ولا يُجزى به، وأمّا إذا تعرّض للابتلاء فإنّ القوة تخرج إلى عالم الفعلية، الّذي يظهر فيه جمال المرء وكماله، أو يبين فيه خبثه ودناءته، ومن هذا القبيل كان ابتلاء إبراهيم (عليه السلام)حيث أمره سبحانه بذبح فلذة كبده وثمرة فؤاده، والإنسان يحب ثمرة وجوده حبّاً شديداً ولا يعدل به إلى غيره .

ولعلّ في الآيتين إشارة إلى أنّ قوم عاد وثمود وفرعون كانوا محكومين بهذا التصوّر الفاسد فصاروا يتبجّحون بثروتهم وقدراتهم ويعدّون أنفسهم أنّهم أقرب إلى الله من بقية الأقوام، وبذلك كانوا يهينون المعوزين والفقراء، ولكنّهم جهلوا أنّهم قد أُعطوا النعم للابتلاء والتمحيص، فلمّا سقطوا في الامتحان أبادهم الله وأهلكهم، كما مرّ عليك.

١٧ ـ ٢٠ الآيات: السابعة عشرة إلى العشرين (كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .... وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا).

(كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا).

المفردات

تَحاضُّون: الحضّ: التحريض كالحثّ، هذا إذا كان ثلاثياً مجرداً، وأمّا تَحاضُّون فمن باب المفاعلة وأصله تتحاضّون، فحذفت إحدى التائين اختصاراً للتخفيف، أي حضّ بعضُكم بعضاً على ذلك .

التراث: بمعنى الميراث.

لمّاً: اللّم هو الجمع، ووصف الأكل به من باب المبالغة، أي أكلاً جامعاً مال الوارثين إلى مال الآكل، كقوله تعالى: (وَ لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ) النساء: ٢..

جمّاً: أي كثيراً.

التفسير

١٧. (كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ):

لفظة (كَلاَّ): للردع وإبطال ما تقدّم، والمقصود إبطال التصوّر السقيم حول الغنى والفقر.

ثم إنّه سبحانه بعدما نبّه على أنّ الغنى من أدوات الابتلاء يريد في هذه الآيات التنبيه على أنّ هذه الأقوام الثلاثة قد اختبروا بالغنى والثروة ولم ينجحوا في الامتحان، وذلك للأُمور الأربعة التالية:

أ. قوله تعالى: (لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) وقد ذكر إكرام اليتيم دون إطعامه إشعاراً بأنّ أحوج ما يحتاج إليه اليتيم هو رفع حاجته الروحية حيث إنّه فقد عماد حياته، ومن كان يحنو عليه في الراحة والشدة.

فأفضل عمل يؤدّى إلى اليتيم هو الإكرام بدل إهانته، وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة» وأشار بالسبابة والوسطى.

١٨ ـ ب. (وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ):

إنّ الذكر الحكيم تارة يأمر بإطعام المسكين ويندّد بمن لم يطعمه ويقول: (وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) المدثر: ٤٤، وأُخرى يأمر بالحضّ على الإطعام ويقول: (وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) الماعون: ٣.ولكنّه في المقام يأمر بالتحاض أي حثّ البعض بعضاً، فالحضّ في الآية الثانية عمل فردي، وفي المقام أمر جماعي.

١٩ ـ ج. (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا):

أي يأكلون نصيب أنفسهم ونصيب غيرهم.

٢٠ ـ د. (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) :

أي حبّاً كثيراً، ومن المعلوم أنّ حبّ المال أمر فطري، ولكن المنهي عنه هو ذلك الحبّ الطاغي الّذي يفضي إلى الطمع والجشع، والتهالك على جمع المال، وعدم التورّع عن المحارم في كسبه، وإلى العزوف عن أداء واجب حقّه، نحو حقّ السائل والمحروم فيه .

٢١ ـ ٢٦ الآيات: الحادية والعشرون إلى السادسة والعشرين(كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ... وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) .

(كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) .

المفردات

دُكت: الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط، كما في «التبيان في تفسير القرآن»، أو بمعنى الضرب الشديد، حتى يتحطّم كلّ شيء على ظهر الأرض من جبل أو بناء أو شجر .

صفّاً: الصف هو أن تجعل الشيء على خط مستو، يقول سبحانه: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) الصف: ٤، ولعلّ المراد هنا المصطّفين أي صفاً بعد صف.

يوثق، والوثاق (بفتح الواو وكسرها): اسم لما يوثَق (أي يُشدّ) به الشيء، وهو القيد، والحبل، ونحوهما.

التفسير

٢١. (كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) :

(كَلاَّ) ردع ثان لما يستفاد من الآيات السابقة، وهو الإعراض عمّا كان عليه القوم من عدم إكرام اليتيم ولا التحاضّ على طعام المسكين وأكل التراث وحبّ المال، أي لا ينبغي للإنسان أن يوصف بها؛ وذلك لأنّه مسؤول عن هذه الأُمور يوم القيامة. ويشير إلى أهوالها في الآيات التالية.

قوله تعالى: (إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) وتكرار الدكّ يشير إلى التتابع أي دكّاً بعد دكّ، مثل قولك: قرأت باباً باباً. وحاصل الآية: أنّه يتوالى الدكّ حتّى تصير الأرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا هبوط، كما قال سبحانه: (لاَ تَرى فِيهَا عِوَجاً وَ لاَ أَمْتاً) طه: ١٠٧ . .

٢٢. (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا):

ونسبة المجيء إلى الله غير نسبته إلى الملائكة، إذ يمتنع على الأوّل الحركة والانتقال، فإنّ المجيء بالمعنى الحقيقي إنّما يكون من آثار من يكون في جهة والله محيط لا محاط، فلابدّ أن يكون تمثيلاً لظهور آيات اقتداره وتبيّن آثار قهره وسلطانه. مُثّلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلّها ووزرائه وخواصّه . تفسير الكشاف: ٣ / ٣٣٧ .

وبعبارة أُخرى: نسبة المجيء إلى الله سبحانه ظهور قضائه ومحاسباته وظهور الحقائق الغيبية يوم القيامة الّتي كان ينكرها الكافر فكنّي عن هذا التجلّي بمجيء الرب، ولذلك نرى أنّه سبحانه ينسب المجيء أو ما بمعناه إلى أمر ربك ويقول: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) النحل: ٣٣ ..

قوله: (وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا): أي يصطفّون صفّاً بعد صفّ مُحدقين بالجنّ والإنس.

٢٣. (وَجِيءَ يَوْمَئِذ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى):

ولعلّ المراد به هو بروز جهنّم للمحشورين، كما قال سبحانه: (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى) النازعات: ٣٦ . .

روى الطبرسي مرفوعاً عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا نزلت هذه الآية تغيّر وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وعُرف في وجهه حتّى اشتدّ على أصحابه ما رأوا من حاله، وانطلق بعضهم إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام)فقالوا: يا علي، لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فجاء علي (عليه السلام)فاحتضنه من خلفه. وقبّل بين عاتقيه، ثم قال: يا نبي الله، بأبي أنت وأُمّي، ما الّذي حدث اليوم؟ قال: جاء جبرائيل (عليه السلام)فأقرأني (وَجِيء يَوْمَئِذ بِجَهَنَّم) قال: فقلت: كيف يجاء بها؟ قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثم أتعرض لجهنم فتقول: مالي ولك يا محمد، فقد حرّم الله لحمك عليّ؟ فلا يبقى أحد إلاّ قال: نفسي نفسي، وإن محمداً يقول: رب أُمّتي أُمّتي».(مجمع البيان: ١٠ / ٤٠٠ .)

ولو صحّ الحديث لكان المجيء بعد بروزها.

قوله سبحانه: (يَوْمَئِذ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى): أي يوم المجيء بجهنّم وبروزها يندم الإنسان على ما فرّط فيه من أعمال في حياته، ولا تنفعه الذكرى. وبذلك يُعلم أنّه لا تنافي بين قوله: (يَوْمَئِذ يَتَذَكَّرُ)وقوله: (وَأَنى لَهُ الذّكْرى) فإنّ المراد من الأوّل: يتذكر ما فرّط فيه، ومن الثاني: الذكرى النافعة، فالمثبتة من الذكرى غير المنفية.

٢٤. (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي):

أي في ذلك اليوم، يوم الجزاء، يتمنّى الإنسان لو كان عمل الصالحات لهذه الحياة الحقيقية الدائمة، ولكنّه (أطال الأمل، فأساء العمل) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): مَنْ أَطَالَ الأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ. نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ٣٦ .، فأحسّ بالندم، ولاتَ ساعة مَندَم.

ثم إنّه سبحانه يبيّن مصير هذا الإنسان الذي فرّط في حياته الدنيوية ولم يقدّم شيئاً إلى حياته الأُخروية ويقول:

٢٥ و ٢٦. (فَيَوْمَئِذ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ):

أي لا يعذّب أحد في الدنيا مثل عذاب الله الكافر يوم القيامة، ولا يوثق أحد في الدنيا مثل وثاق الله الكافر يوم القيامة. مجمع البيان: ١٠ / ٤٠١ .وهذا المعنى ظاهر لأنّ كلاًّ من فعل (يُعَذِّبُ) و (يُوثِقُ) مبني على المعلوم وقوله: (أَحَدٌ) في الموضعين فاعل: يعذب ويوثق، والضمير في عذابه عائد إلى الإنسان فيكون المعنى: لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق، ولا يوثق وثاق أحد من الخلق، أي أنّ

عذابه تعالى ووثاقه يومئذ فوق عذاب الخلق ووثاقهم، والغرض هو التشديد في الوعيد.

٢٧ ـ ٣٠ الآيات: السابعة والعشرون إلى الثلاثين(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ... وَادْخُلِي جَنَّتِي).

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي).

التفسير

بعد أن فرغ سبحانه من بيان حال المستكبرين ومصيرهم يوم القيامة، اقتضى أن يذكر حال المؤمنين ومصيرهم. هذا ومن عادة القرآن الكريم أنّه يقرن التبشير بالإنذار، حتّى أنّه حينما يصف النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)يصفه بالبشير والنذير، قال تعالى: (وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً) سبأ: ٢٨ ، ليكون ذلك باعثاً إلى اتّباع طريق المؤمنين وترغيبهم عن طريق الكافرين.

٢٧ و ٢٨. (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً):

يصف الله تعالى نفس المؤمن بثلاث صفات:

١. «المطمئنة». ٢. «راضية». ٣. «مرضيّة».

وكأنّ الوصف الأوّل يلازم الثاني والثالث، وذلك لأنّ المراد من الاطمئنان هو السكون إلى الله تعالى، كسكون العبد بالنسبة إلى مولاه، لا يرى لنفسه خيراً ولا شرّاً ولا يملك نفعاً ولا ضراً، فإذا بلغت هذه المرتبة تعود راضية بما قدّر وقضى أو حكم في كتابه الكريم، فإذا صارت راضية يكون سبحانه راضياً عنها فتعود النفس مرضية عند الله تبارك وتعالى، ولذلك قلنا: إنّ الاطمئنان يتبعه الوصفان الأخيران.

وقد ذكرنا في تفسير سورة القيامة شيئاً حول هذه الصفات الثلاث نقتبس منه ما يلي: النفس المطمئنة عبارة عن النفس الّتي تسكن إلى ربها، فإذا تواترت عليها النعم لم تسبب لها الطغيان والتعالي والاستكبار، وإذا ما ضيّق عليها الفقر والعوز فلا يخرجها ذلك إلى الكفر وترك الشكر، فنفوسهم مستقرّة في العبودية لا تخرج عن الصراط المستقيم، قال سبحانه: (أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد: ٢٨ . .

فالنفس المطمئنة لا تحرّكها العواصف في إدبار الدنيا وإقبالها، فهي مطمئنة عند أهوال الدنيا الرهيبة وعند تواتر النعم الجزيلة .

فإذا بلغت النفس مرتبة الاطمئنان فتكون راضية بتقدير الله سبحانه من عسْر أو فقر أو قوة أو ضعف، سواء رفعتها السياسة إلى درجة عالية، أو أنزلتها العوامل المادية وحاصرتها في زاوية الإهمال والنسيان، ففي كلّ الحالات تكون النفس راضية بما قُدّر لها، وإذا رضي العبد عن ربه رضي الربّ عنه، إذ لا يسخطه تعالى إلاّ خروج العبد من زيّ العبودية، فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربّه عنه، فصارت نفسه مرضيّة.

وإذا اجتمعت في النفس هذه الصفات الثلاث، استحقّت أجرها وهو ما يذكره الله تعالى بقوله:

٢٩ و ٣٠. (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي):

وهذا الأجر له صورتان:

١. الدخول في عداد عباد الله، كما يحكي عنه قوله تعالى: (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي).

٢. الدخول في الجنة، كما يحكي عنه قوله تعالى: (وَادْخُلِي جَنَّتِي).

يصف سبحانه في هذه الآيات بعض النفوس بكونها مطمئنّة وراجعة إلى ربها راضية مرضيّة، ونحن نشير إلى نموذج منها والّذي هو في الذروة من هذه الصفات .

روى الحسن بن محبوب، عن صندل، عن ابن فرقد قال: قال أبو عبدالله الصادق (عليه السلام): «اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم، فإنّها سورة الحسين وارغبوا فيها رحمكم الله». فقال له أبو أُسامة ـ وكان حاضراً في المجلس ـ : كيف صارت هذه السورة للحسين (عليه السلام)خاصّة؟ فقال: «ألا تسمع إلى قوله تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي) إنّما يعني الحسين بن علي صلوات الله عليهما، فهو ذو النفس المطمئنّة الراضية المرضيّة، وأصحابه من آل محمد صلوات الله عليهم الراضون عن الله يوم القيامة وهو راض عنهم». بحار الأنوار: ٢٤ / ٩٣، برقم ٦ .

وهذا هو الإمام أبو عبدالله الحسين (عليه السلام)يصرح في خطبته الّتي ألقاها في مكّة المكرمة يوم التروية وأنّ ما أختاره من المصير إنّما هو تبعاً لرضا الله سبحانه حيث قال: «الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلاّ بالله، خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه وكأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأنَ مني أكراشاً جُوفا وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أُجور الصابرين». مثير الأحزان لابن نما الحلّي: ٢٩ .

تمّ تفسير سورة الفجر

٩٠- سورة البلد

(لاَ أُقْسِمِ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدِ وَ مَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَ شَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَة * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْم ذِي مَسْغَبَة * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَة * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَة * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير بسورة (البلد)، ووجه التسمية ورود كلمة البلد في أوّل السورة.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها عشرون آية، وصياغة الآيات ومضمون أكثرها يدلاّن على كونها مكّية.

أغراض السورة

تؤكّد السورة على أنّ الإنسان خلق في تعب ومشقّة فلا تجد قوماً في راحة إلاّ وهم في معاناة وشدّة من جهة أُخرى، وعلى ذلك فليجدّ الإنسان في نشر الرحمة على المبتلين بنوائب الدهر، كفكّ الرقبة، والإطعام في يوم ذي مسغبة.

١ ـ ٤ الآيات: الأربع الأُولى(لاَ أُقْسِمِ بِهَذَا الْبَلَدِ *.... لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد) .

(لاَ أُقْسِمِ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدِ وَ مَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد) .

المفردات

حِلّ: قال الراغب: الحل: حلّ العُقدة، وجُرِّد استعماله للنزول فقيل: حَلَّ حلولاً، قال عزوجل: (أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ) الرعد: ٣١ ، ثم قال: (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) أي حلال المفردات للراغب: ١٢٨، مادة «حل»..

ويظهر من كلام الراغب أنّ الحِلّ لم يستعمل بمعنى الحلول أي الإقامة، وإنّما استعمل في معنى الحلال.

وسيوافيك ما هو المراد من كون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)حلالاً .

ثم إنّ كثيراً من المفسّرين فسّروا الحِلّ هنا الحالّ أي المقيم ولم يذكره صاحب الكشّاف . تفسير الكشاف: ٣ / ٣٣٨ .

نعم ذكره الرازي وجعله الوجه الأوّل . تفسير الرازي: ٣١ / ١٧٩ .

الكَبَد: قال الراغب: الكبد: المشقّة، قال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد)تنبيهاً على أنّ الإنسان خلقه الله تعالى على حالة لا ينفك من المشاق المفردات للراغب: ٤٢٠، مادة «كبد»..

وفي «الكشّاف»: الكبد أصله من قولك: كبِد الرجل كبَداً فهو أكبد إذا وجعت كبِدُه وانتفخت، فاتسع فيه حتّى استعمل في كل تعب ومشقّة . تفسير الكشاف: ٣ / ٣٣٩ .

التفسير

١. (لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ):

إن الله سبحانه بدأ السورة بجملة (لاَ أُقْسِمُ)وقد وردت هذه الصيغة في الآيات التالية:

١. (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) الواقعة: ٧٥.

٢.(فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ)(الحاقة: ٣٨.).

٣. (فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَ الْمَغَارِبِ) المعارج: ٤٠..

٤. (لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) القيامة: ١..

٥. (وَ لاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) القيامة: ٢..

٦. (فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * اَلْجَوَارِ الْكُنَّسِ) التكوير: ١٥ ـ ١٦..

٧. (فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) الانشقاق: ١٦ ـ ١٧..

٨ . (لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) البلد: ١..

فلابد أن يفسّر الجميع على نسق واحد:

إمّا أن تكون نافية حقيقة فيكون المراد عدم الإقسام حقيقة، أو تكون زائدة مؤكّدة للقسم ـ كما هو المختار ـ فلا يصحّ التمييز بين هذه الآيات بتفسير بعضها بالإقسام، وتفسير البعض الآخر بعدمه.

إذا عرفت ذلك فنقول:

المراد من البلد هو مكّة المكرّمة بشهادة قوله: (بِهَذَا الْبَلَدِ).

٢. (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ):

فقد فُسّر بوجوه ثلاثة:

الأوّل: أنّ الحِلّ بمعنى الحالّ والمقيم وكأنّه سبحانه يقسم بهذا البلد من جهة أنّ رسول الله حلّ به وأقام فيه، والغرض التنبيه على شرف مكّة بشرف من حلّ بها وهو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإن كان لمكّة أيضاً شرفٌ خاص عند الله سبحانه، لكنّها لمّا صارت في زمن القسم ـ مركزاً للأوثان والأصنام ـ أقسم سبحانه بهذا البلد لحلول أشرف المخلوقات به.

وهذا التفسير هو الظاهر من أكثر المفسّرين، وربّما أُشكل عليه بأنّ الحِلّ بمعنى الحالّ، لم يرد في كتب اللغة كالصحاح واللسان والقاموس، ومفردات الراغب . التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٠٧ .

والّذي يؤيّد هذا الوجه أنّه يترتّب عليه كون الآية بصدد الإقسام بالبلد، وهو لا يتحقّق إلاّ على هذا الوجه وأمّا على الوجهين التاليين

تكون النتيجة على العكس أي يكون المراد عدم إقسامه سبحانه، كما سيوافيك .

الوجه الثاني: الحِلّ: بمعنى الحلال أي الكفّار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات، لكنّهم يستحلون إيذاءك ولو تمكّنوا منك لقتلوك، فأنت حلال في اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك حيث إنّهم لا يقتلون بها صيداً وغير ذلك.

يلاحظ عليه: أنّ ظاهر قوله: (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)كونه كذلك عند الله، لا في اعتقاد الكفّار، أضف إلى ذلك: أنّه يلزم على هذا التفسير كون «لا» نافية وأنّه لا يقسم بهذا البلد لأجل عدم حصول احترام لك فيه، مع أنّ المفروض تفسير (لاَ أُقْسِمُ) في عامة الآيات بالإقسام المؤكّد لا نفيه .

الوجه الثالث: المراد من (أَنْتَ حِلٌّ): أي لست بآثم وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت عند فتحها، فيكون ناظراً إلى ما بعد الهجرة حيث إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فتح مكة في العام الثامن من هجرته وأحل دماء بعض المشركين، منهم ابن خَطَل الّذي قُتل وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومِقْيس بن صُبابة وغيرهما . مجمع البيان: ١٠ / ٧٤٧ .

يلاحظ عليه: أنّ السورة ناظرة إلى الزمن الحالي، لا إلى المستقبل، وقياسه بقوله سبحانه: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)، الزمر: ٣٠ . كما في «الكشاف» تفسير الكشاف: ٤ / ٢٥٥ .قياس مع الفارق لوجود القرينة في الآية الثانية، بخلاف المقام فالقرينة على العكس .

نعم روى الكليني في «الكافي» عن علي بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): «وكانت الجاهلية يعظمون المحرّم ولا يقسمون به، ولا شهر رجب ولا يعرضون فيهما لمن كان فيهما ذاهباً أو جائياً وإن كان قتل أباه. ولا لشيء يخرج من الحرم من دابة أو شاة أو بعيراً أو غير ذلك .

قال الله عزوجل لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم): (لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)قال: فبلغ من جهلهم أنّهم استحلوا قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعظموا أيام الشهر حيث يقسمون به فينتقصون». الكافي: ٧ / ٤٥٠؛ تفسير نور الثقلين: ٥ / ٥٧٨ .

أقول: إنّ هارون بن مسلم من أصحاب الإمام الهادي(عليه السلام)(المتوفّى ٢٥٤هـ)، فبعيد أن يروي عن مسعدة بن صدقة، الذي هو من أصحاب الصادق(عليه السلام)، ولكن لمّا كثرت رواياته عنه بلغت رواياته عنه في الكتب الأربعة(١٣٢) مورداً. معجم رجال الحديث:٢٣١/١٩، فلابدّ أن يقال إنّه كان من المعمّرين، غير أنّ مسعدة بن صدقة لم يوثّقه أصحابنا وإن لم يصفوه بشيء من الجرح، فالاعتماد على الرواية في تفسير الآية، أمر مشكل.

والظاهر أنّ المعنى الأوّل أظهر.

٣. (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ):

الظاهر أنّ المراد ـ بقرينة كلمة البلد ـ هو إبراهيم وولده إسماعيل(عليهما السلام)وفائدة التنكير الإبهام، المشعر بالمدح والتعجّب، ومنه يظهر وجه قوله: (وَمَا وَلَدَ)حيث لم يقل «ومن ولد».

وقيل: المراد جميع أولاد إبراهيم وهذا بعيد، لأنّه سبحانه يقسم بمن له فضل وفضيلة، وليس في جميع ولد إبراهيم ذلك الملاك.

وقال الطبرسي وغيره: إنّ المراد كلّ والد ومولود إنساناً كان أم حيواناً أم نباتاً. والغرض من هذا القسم ـ كما يقول بعضهم ـ هو التنبيه إلى إنشاء الكائنات الحية وتطوّرها من خلق إلى خلق، من النطفة إلى الإنسان أو الحيوان، ومن الحبّة إلى الشجرة وغيرها من النبات.

التفسير الكاشف:٥٦٦/٧. لاحظ مجمع البيان: ٤٩٣٨٠ طبعة صيدا.

٤. (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد) :

وهو جواب القسم بالبلد وبالوالد وما ولد، وفُسّر الكبد بوجوه:

الأوّل: أنّه مخلوق في نصب وشدّة حيث لا يزال يكابد مصاعب الدنيا وشدائد الآخرة، وكأنّ حياته ممزوجة بالآلام والمصائب،

فلاترى إنساناً سعيداً من عامّة الجهات، فلو كان سعيداً من جهة فهو يشكو من جهة أُخرى، ورحم الله تعالى أبا فراس الحمداني، حيث يقول:

الدهرُ رهْنُ مصائب لا تنقضي *** حتى يُوارى في ثرى رَمْسِهِ

فمؤجَّلٌ يلقى الرّدى في أهلِهِ *** ومُعجَّل يلقى الرّدى في نفسِهِ

وفي ذمّ الدنيا قال الإمام علي (عليه السلام): «لم يكُنِ امرؤٌ منها في حَبرة إلاّ أعقبَتْهُ بَعدَها عَبْرة، ولم يَلقَ في سرّائها بطناً، إلاّ منحَتْهُ من ضرّائها ظهراً، ولم تَطُلَّه ديمةُ رخاء، إلاّ هَتَنَتْ عليه مُزْنةُ بلاء، وحَريٌّ إذا أصبحتْ له منتصرةً، أنْ تُمسي له متنكّرةً، وإنْ جانبٌ منها اعذَوْذَبَ واحلَوْلى، أمَرَّ منها جانبٌ فأَوبي!». نهج البلاغة: الخطبة ١١١.

الثاني: أن يفسر الكبد بالاستواء، أي خلق قائماً منتصباً بخلاف الحيوانات الأُخرى، فتكون الفقرة بمنزلة الامتنان عليه .

يلاحظ عليه: أنّه لا يناسب سياق الآيات.

الثالث: المراد شدّة الخلقة وقوّتها، قال الكلبي: نزلت هذه الآية في رجل من بني جُمح يكنّى أبا الأشد، وكان يجعل تحت قدميه الأديم العكاظي فيجتذبونه من تحت قدميه فيتمزق الأديم ولم تزل قدماه.

يلاحظ عليه: أنّ التحدّث عن شخص شاذ نادر بعيد عن شأن القرآن .

ومن غريب القول تفسير الكبد بالتضاد بين العقيدة والعمل السائد بين المشركين، قال ابن عاشور: إنّ الكبد]هو[التعب الّذي يلازم أصحاب الشرك من اعتقادهم تعدّد الآلهة، واضطراب رأيهم في الجمع بين ادّعاء الشركاء لله تعالى وبين توجّههم إلى الله بطلب الرزق وبطلب النجاة إذا أصابهم ضرر . التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣١٠ .

يلاحظ عليه: أنّ الموضوع في الآية هو الإنسان الشامل للمؤمن والكافر، كما أنّه يعمّ الكافر غير المشرك والمشرك، فما معنى تخصيص الكبد بالقسم بالمشرك، على أنّه تفسير لا دليل عليه من الكتاب والسنّة. ولو صحّ لزم أن يقال: «إن الإنسان لفي كبد». وهو يقول: لقد خلقنا الإنسان في كبد.

وأمّا ما هي الصلة بين المقسم به ـ أعني: البلد المقيم فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ووالد وما ولد (إبراهيم وإسماعيل) ـ والمقسم عليه ـ أعني: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد) ـ ؟ فبيانه أنّه سبحانه حلف بالبلد لأجل احتضانه الرسول الأكرم، فيكون الحلف بالبلد حلفاً به في الواقع، وعندئذ تتّضح الصلة بينهما؛ لأنّ حياة النبي فيه، وهكذا حياة إبراهيم وولده إسماعيل كانت مقرونة بالتعب؛ أما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فواضح، وأمّا إبراهيم (عليه السلام)، فقد أخذ يكافح الوثنيين وعبّاد الأجرام السماوية، وهو في رَوْق شبابه، فقوبل بالتكذيب والجفاء والتهديد من أبيه(آزر) ومن قومه، ثم صدرت بحقّه عقوبة الإحراق بالنار، فأُلقي فيها، ولكنّ الله تعالى جعلها برداً وسلاماً عليه، وعند ذاك لم يجد إبراهيم بدّاً من مغادرة الوطن والهجرة إلى فلسطين، ولم يزل بها حتى أُمر بإسكان زوجه وابنه إسماعيل في بيداء قاحلة لا ماء فيها ولا زرع، يحكي سبحانه تلك الحالة عن لسان إبراهيم (عليه السلام) ويقول: (رَبَّنا إِنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادغَيْرِ ذِي زَرْع عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرّمِ رَبَّنا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ). الأقسام في القرآن الكريم (للمؤلف): ١٦٤ .

فحياة المقسم به ـ أعني: الأنبياء الثلاثة ـ من المصاديق الواضحة لخلق الإنسان في كبد.

٥ ـ ٧ الآيات: الخامسة والسادسة والسابعة (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ....أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ).
(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ).
المفردات

لبداً: الكثير مأخوذ من تلبّد الشيء: إذا تراكب بعضه على بعض، قوله تعالى: (يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) الجن: ١٩ .: أي مجتمعين .

التفسير

المهم في المقام بيان النظم بين هذه الآيات وما قبلها، فالآيات السابقة أثبتت ـ مؤكّدة ـ على أنّ الإنسان خلق في مشقّة، وعندئذ يطرح السؤال التالي:

ما هي الصلّة بين قوله سبحانه: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد)، وبين الآيات الثلاث:

١. (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ).

٢. (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً).

٣. (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ).

ويمكن بيانه بالنحو التالي:

٥. (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ):

وهو يحكي عن وجود إنسان يظن أنّه لن يقدر على عقابه أحد إذا عصى الله تعالى وارتكب القبائح، وبئس هذا الظن. كيف اغترّ صاحبه بقدرته مع أنّه سبحانه خلق الإنسان في كبد أي في ألم ومشقّة؟! فلو كانت له قدرة فليذبّ الآلام والمشاقّ عن حياته، فيكون قوله سبحانه: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَد)تمهيداً للردّ على هذا الزعم.

٦. (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً) :

فهو يحكي عن وجود إنسان إذا قيل له أنفق في سبيل الله يقول مفتخراً متبجّحاً: أنفقت مالاً كثيراً، وهو يتصوّر أنّ أحداً غير واقف على عمله، وأنّه هل أنفق أو لم ينفق؟ وعلى فرض الإنفاق هل أنفق كثيراً أو قليلاً؟! وعلى فرض الكثرة هل أنفق في سبيل الله أو في سبيل الشيطان، كالرياء والسمعة؟! بل أسوأ من ذلك أنفقه في سبيل قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٧. (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ) :

وهو ردٌّ على قول القائل: (أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً)، وتنبيهاً له على أنّ الله ليس بغافل عمّا يعمل.

وبذلك اتّضحت الصلة بين كون خلق الإنسان في كبد وهذه الآيات الثلاث، وفي الوقت نفسه بعضها مع بعض .

وحصيلة الكلام: أنّ المشركين في عصر الرسالة بين مَن ينكر المعاد وبالتالي العقاب، وبين من إذا قيل له: أنفق في سبيل الأيتام والمساكين وفي وجوه الخير، يُعرض عن قول القائل ويقول: صرفت مالاً كثيراً، والله سبحانه يحاكم كلتا الطائفتين، فيردّ على الأُولى: بأنّ الإنسان خُلق في مشقّة وألم، فكيف يدّعي القدرة؟ ويردّ على الطائفة الثانية بأنّ الله مُطّلع على عمل الإنسان، فكيف يتصوّر أنّ عمله مخفيّ عن غيره ويزعم أنّ أحداً غير واقف على عمله؟

قال أمير المؤمنين(عليه السلام) وهو يُعظّم الله عزّ وجلّ: «مَن تكلّم سَمِعَ نُطقَهُ، وَمَن سكتَ علِمَ سرَّهُ... كُلُّ سرٍّ عندكَ علانيةٌ، وكلُّ غَيب عندكَ شهادةٌ» نهج البلاغة: الخطبة ١٠٩ ..

روى ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: «لا تزول قدما العبد حتّى يسأل عن أربعة ؛ عن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين جمعه، وفيما أنفقه، وعن عمله ماذا عمل به، وعن حبّنا أهل البيت(عليهم السلام) ».(مجمع البيان: ١٠ / ٧٤٨).

٨ ـ ١٠ الآيات: الثامنة والتاسعة والعاشرة(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ .... وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ).

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَ شَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ).

المفردات

النجْد: أصله العلوّ، ونجد بلدٌ سُمّي نجداً لعلوّه عن انخفاض تهامة، وكلّ عال من الأرض نجْد، والجمع نجود. وأكثر المفسّرين على أنّ المراد من النجدين:نجد الخير والشر.

التفسير

يذكر سبحانه في هذه الآيات نعماً أربع، وهي:

١. العينان. ٢. اللسان. ٣. الشفتان. ٤. الهداية إلى النجدين .

فيقع الكلام أوّلاً: في أنّه لماذا خصّ هذه النعم من بين النعم الكثيرة الّتي أنعم بها على الإنسان؟ وثانياً: ما هي الصلة بين هذه النعم وما تقدّم من التنديد بقول المشركين ؟

أقول: لمّا كان المستفاد من قوله: (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ) أنّ بعض المشركين يظنون أنّ الله سبحانه في غفلة عمّا أنفق، فاقتضى الحال ردّ هذه الفكرة، وأنّه كيف يمكن أن يكون سبحانه غير عالم وواقف على ضمائرهم وحقيقة أعمالهم؟ كيف وهو قد جهّز الإنسان بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات، كما جهّزه باللسان والشفتين ليستعين بهما على التكلّم والدلالة على ما في ضميره من العلم ويهدي بذلك غيره إلى العلم بالأُمور الغائبة عن البصر، وعرّفه طريق الخير وطريق الشر بإلهام منه، أفيمكن أن يكون المعطي فاقداً للعلم والإدراك؟!

وبعبارة أُخرى: ليست الآيات في مقام بيان كلّ النعم أو معظمها على الإنسان، بل هي بصدد بيان النعم الّتي يدرك بها الإنسان خارج وجوده أو يستطيع أن يوقف الآخرين على ما في ضميره ووجدانه، فإذا كان الإنسان مجهزاً بهذه المزية، أفيصحّ أن يحسب الجاهل أنّ الله لا يحيط علماً بأعمال الإنسان وغاياته؟

وللسيد الطباطبائي هنا كلام جدير بالذكر، يقول: إنّ الله سبحانه هو الّذي يعرّف المرئيات للإنسان بوسيلة عينيه، وكيف يتصوّر أن يعرّفه أمراً وهو لا يعرفه؟! وهو الّذي يدلّ الإنسان على ما في الضمير بواسطة الكلام، وهل يعقل أن يكشف له عمّا هو في حجاب عنه؟! وهو الّذي يعلّم الإنسان ويميّز له الخير والشر بالإلهام وهل يمكن معه أن يكون هو نفسه لا يعلم به ولا يميّزه؟! فهو تعالى يرى ما عمله الإنسان ويعلم ما ينويه بعمله ويميّز كونه خيراً أو شرّاً وحسنة أو سيئة. الميزان في تفسير القرآن:٢٠/٤٢٢.

وللرازي هنا كلمة، قال: يقول المشرك من ذا الّذي يحاسبني عليه؟ فقيل له: الّذي قدر أن يخلق لك هذه الأعضاء، قادر على محاسبتك. (تفسير الرازي:٣١/١٨٣.)

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى توضيح الآيات:

٨ . (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ):

ليبصر بهما آيات حكمته.

٩. (وَلِسَاناً وَ شَفَتَيْنِ):

لينطق بها، فيبيّن باللسان، ويستعين بالشفتين على البيان.

١٠. (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ):

أي سبيل الخير وسبيل الشر، وإنّما سمّي طريقا الخير والشر «نجداً» لوضوحهما للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار، يقول سبحانه: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(الإنسان: ٣.).

والآية دليل على كون الحسن والقبح أمرين عقليين، يقف عليهما الإنسان بإلهام من الله سبحانه.

١١ ـ ٢٠ الآيات: العشر الأخيرة(فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ *..... عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ).

(فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَة * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْم ذِي مَسْغَبَة * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَة * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَة * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ).

المفردات

اقتحم: الاقتحام: الدخول في الأمر الشديد، وهي المهالك والأُمور العظام، وفي المجمع: الاقتحام: دخول على صعوبة. مجمع البيان:١/٣٢٦.

العقبة: الطريق الّتي تُرتقى على صعوبة. قال الراغب: العقبة: طريق وعر في الجبل.(المفردات للراغب:٣٤١، مادة «عقب».)

مسغبة: المجاعة، يقال: سغب يسغب سغباً فهو ساغب: إذا جاع.

مقربة: القرابة.

متربة: قال الراغب: ذا لصوق بالتراب لفقره. المفردات للراغب: ٧٣، مادة «تراب».وربّما يفسّر بالحاجة الشديدة من قولهم: ترب الرجل إذا افتقر.

مؤصدة: مطبقة، بمعنى لا يفتح بابُها.

التفسير

١١. (فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ):

العقبة الّتي هي في اللغة الطريق الوعر، فاقتحامها كناية عن مجاهدة النفس في طريق إطاعة الله والاجتناب عن الهوى، ومعلوم أن طيّ هذا الطريق لا يخلو عن صعوبة كما لا يخلو طيّ العقبة عنها.

أي أنّ هؤلاء الكفّار أو المشركين ما اقتحموا العقبة في طريق الطاعة.

١٢. (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ):

أي ما أدراك ما هي العقبة، ومن المعلوم أنّ هذه الصيغة (مَا أَدْرَاكَ)تستعمل للتعظيم، وقد ذكر سبحانه موارد خاصّة، عن طيّ هذه العقبة وهي الإنفاق في موارد فيها رضا الله:

١٣ ـ أ. (فَكُّ رَقَبَة):

أي تخليصها من الرقّ، وتحريرها من أسر العبودية.

١٤ ـ ب. (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْم ذِي مَسْغَبَة) :

أي مجاعة. وأمّا المُطعَم، فذكره فيما يلي.

١٥ ـ ج. (يَتِيماً ذَا مَقْرَبَة) :

أي ذا قربى من قرابة الرحم أو النسب .

١٦ ـ د. (أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَة) :

أي فقيراً قد لصق بالتراب من شدّة ضره وفقره.

وما ذُكر يدلّ على عناية الإسلام بفك الرقبة، وإطعام الجائعين خصوصاً إذا كانوا ذوي قربى من اليتامى أو من المساكين في أيام القحط والمجاعة.

وحاصل الآيات أن من قال: (أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً) لا يقدّر إنفاقه بشيء إذا لم يكن عمله لله، وإنّما يقدّر الإنفاق إذا كان لله،

ولأجل ذلك ردّ إنفاقه بقوله: أنّه ما فك رقبة، وما أطعم جائعاً يتيماً أو مسكيناً. فقوله سبحانه: (فَلاَ اقْتَحَمَ)جملة خبرية تحكي عن حال المشرك، ومن المعلوم أنّ طيّ هذا الطريق لمن لا يؤمن بالله سبحانه كطيّ العقبة فيه صعوبة.

(وسُمّيت هذه الأُمور عقبة، لأنّ الذي يتخطّاها، إنّما يغالب نوازع نفسه من الأثرَة، وحبّ المال، وإنّه ليس من السهل على الإنسان أن ينزع من نفسه الأنانية والأثَرَة، وحبّ المال، وإنّ ذلك ليحتاج إلى معاناة وجهد ومغالبة، حتى يقهر المرء هذه القوى التي تحول بينه وبين البذل والسخاء). التفسير القرآني للقرآن:١٥٧٩/١٦.

١٧. (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ):

يقع الكلام في لفظة (ثُمَّ) فإنّها عاطفة عطفت الجملة الفعلية ـ أعني:

(كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...)ـ على جملة فعلية أُخرى ـ أعني: (اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)ـ فمقتضى العطف عود النفي على المعطوف أيضاً فيكون المعنى: فلا اقتحم العقبة..، ولا كان من الذين آمنوا... الخ .

والآية بصدد بيان أنّ نشر الرحمة عن طريق فكّ الرقبة والإطعام في المجاعة، ليس كافياً في نجاة الإنسان، بل يجب أن يقترن اقتحام العقبة بالإيمان بالله حتّى تكون الأعمال لله ويقترن بالتواصي بالصبر، أي يوصي بعضهم بعضاً بالصبر على المعاصي والطاعات والمحن الّتي يُبتلى بها المؤمن، وأن يقترن أيضاً بالتواصي بالمرحمة أي يوصي بعضهم بعضاً بأن يعطفوا ويشفقوا على المحروم وصاحب الحاجة.

فإذا اجتمعت فيه هذه الأُمور يكون في عداد الموصوفين في الآية التالية.

١٨. (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) :

أي من الذين يأخذون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم، أو أنّهم من أصحاب اليمن والبركة على أنفسهم .

١٩. (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ):

أي أنّ الذين كذّبوا أنبياءنا (هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) وفيه أيضاً الوجهان الماضيان، أي يأخذون كتبهم بشمائلهم، أو أنّهم من أصحاب الشؤم على أنفسهم.

٢٠. (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ) :

بيان عاقبة الكافرين، وأنّ النار مطبقة عليهم. فهؤلاء يساقون إلى جهنم زمراً حتّى إذا جاءُوها فتحت لهم أبوابها، فإذا دخلوها أطبقت عليهم، ويبقون فيها إلى ما لا نهاية له .

ثم إنّ الله سبحانه خصّ الإطعام في أيّام المجاعة، بالذكر ؛ لأنّ الإنفاق فيه أثقل على النفس وأفضل عند الله، وقد ورد في حق آل البيت أنّهم أطعموا المسكين واليتيم والأسير في حال حبِّهم للطعام وكونهم جائعين، كما يحكي عنهم قوله تعالى: (وَ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيمًا وَ أَسِيراً) الإنسان: ٨ ..

وهنا نكتة وهي أنّه سبحانه خصّ من مظاهر الرحمة، فك الرقبة، ولاشكّ أنّ المراد هو العتق، لكن إذا نهض إنسان وتحمّل مصاعب وعقبات حتّى وفّق لتحرير البلاد والعباد من الاستعمار، فلاشكّ أنّ عمله هذا أكثر ثواباً من فك الرقبة، فالمصلحون في المجتمع الإنساني هم كالشموع المنيرة أذابوا أنفسهم في طرد الاستعمار عن الأوطان، وقد كابدوا المحن والصعاب في طريق هدفهم، وعلى رأسهم الأنبياء والأولياء والعلماء المجاهدون.

تمّ تفسير سورة البلد

٩١- سورة الشمس

(وَالشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَ مَا طَحَاهَا * وَنَفْس وَ مَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت في المصاحف وكتب التفسير بسورة (الشمس)، وفي صحيح البخاري سمّيت بسورة (وَالشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا) صحيح البخاري: ١٢٦٨ ، كتاب التفسير.، ولإظهار الفرق بين هذه السورة وسورة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) سُمّيت الثانية بسورة التكوير.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ست عشرة آية في العدّ المكّي، وخمس عشرة في عدّ الباقين، والاختلاف في لفظة «فعقروها» فمن وصلها صار العدّ عنده خمس عشرة، ومن فصلها صار العدّ عنده ست عشرة.

والسورة مكّية كما يحكي عن ذلك مضمونها وصياغتها.

أغراض السورة

إنّ السورة تركّز على تزكية النفس بما ألهمها ربُّها من التقوى والفجور، في مقابل مَن دسّى نفسه، ثم إنّه سبحانه أتى بمثال ممّن دسّى نفسه بالطغيان.

١ ـ ٨ الآيات: الثمان من أوّل السورة(وَالشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا * .... فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا).

(وَالشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا).

المفردات

ضحاها: يعني ضحى الشمس، وهو صدر وقت طلوعها، وضحى النهار صدر وقت كونه. التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣٥٧ . وقال الراغب: الضحى: انبساط الشمس وامتداد النهار. المفردات للراغب: ٢٩٢، مادة «ضحى».

والأَولى أن يقال: هو انبساط نورها وضوئها، فإنّ لضوئها دوراً أساسياً في نشوء الحياة، وبقائها، والفتك بالأمراض وزوالها.

وعلى كلّ تقدير، فالصبح هو عبارة عمّا بين الطلوعين، وأمّا الضحى فهو عبارة عن شباب النهار، وهو النصف الأوّل من نصف النهار، فلو كان النهار اثنتي عشرة ساعة، فالنصف الأوّل منه ست ساعات، وهو الضحى.

جلاّها: أظهرها وأبرزها للعيان.

يغشاها: الغشاوة ما يغطى به الشيء، قال سبحانه: (وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) لقمان: ٣٢..

طحاها: الطحو كالدحو وهو بسط الشيء، قال سبحانه: (وَ الأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) النازعات: ٣٠ . .

والأَولى أن يقال: بسط الشيء للسير والجلوس والاضطجاع.

سوّاها: من المساواة وهي المعادلة المعتبرة في الزرع والوزن والكيل، يقال: هذا ثوب مساو لذلك الثوب.

ثم إنّه يستعمل الاستواء في اعتدال الشيء في ذاته، ومنه قوله سبحانه: (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) الانفطار: ٧ .: أي جعل خلقتك

على ما اقتضت الحكمة، وتسوية النفس إشارة إلى التقوى الّتي جعلها مقوّمة للنفس، فنسب الفعل إليها.

ألهمها: الإلهام: إلقاء الشيء في الرُّوع، وربّما يعبر عنه بالنفث في الرُّوع.

قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّ روح القدس نفث في رُوعي» المفردات للراغب: ٤٥٥، مادة «لهم»..

التفسير

هذه السورة سورة بديعة بين نظائرها حيث افتتح الكلام فيها بأحد عشر قَسَماً لأمر واحد، وهو قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) وأمّا عناوين الأقسام فهي كالتالي:

١. الإقسام بالشمس .

٢. الإقسام بضحى الشمس .

٣. الإقسام بالقمر .

٤. الإقسام بالنهار .

٥. الإقسام بالليل.

٦. الإقسام بالسماء.

٧. الإقسام بما بناها.

٨. الإقسام بالأرض.

٩. الإقسام بما طحاها.

١٠. الإقسام بالنفس .

١١. الإقسام بما سوّاها.

بناءً على أنّ «ما» في الجميع موصولة، وكناية عن الخالق سبحانه.

وقد أقسم بهذه الأُمور العظام لتتأكد عنايته بجوابه، وهو أنّ الفلاح نصيب من زكّى نفسه، وأنّ الخيبة والحرمان نصيب من دسّاها.

إذا علمت ذلك فيقع الكلام في مفاد المقسم به وسرّ الإقسام بها أوّلاً، وما هي الصلة بين الإقسام بهذه الأُمور وجواب القسم أعني: الفلاح أو الخيبة؟ وقد اهتمّ المفسّرون بالأمر الأوّل، ولم يولوا عناية للأمر الثاني، وإليك التفصيل.

١. (وَالشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا) :

أقسم سبحانه بالشمس من حيث هي، ظهرت أم احتجبت لأنّها خلق عظيم ثم أقسم بضيائها، لأنّ الحياة الموجودة في الأرض تعتمد ـ بجميع صورها ـ على ما ترسله الشمس من حرارة وضوء ، وبذلك علم لماذا أقسم بشيئين: نفس الشمس ـ لعظمتها ـ وضوء الشمس لتأثيره في بقاء الحياة، فإن الشمس إذا ارتفعت تبسط ضوءها على البسيطة فينشط بضوئها الحيوان والإنسان والنبات وكلّ ذي حياة. ويكفي في عظمة الشمس: أنّه النيّر الكبير الّذي له دور هام في استقرار الحياة على الأرض وهو مصدر للنور والحرارة إلى غير ذلك من المعطيات ، وهو سلطان منظومتنا، وله حركة انتقالية وحركة وضعية، ويعجز البيان واللسان عن بيان ما له من الأهمية، ويكفيك انّه ينتج في كلّ دقيقة ٢٤٠ ميليون وحدة طاقة، ولم تزل الشمس ترفد بهذا العطاء على الرغم من أنّ عمرها يتجاوز الخمسة آلاف ميليون سنة.

هذه الشمس التي ما زالت أسرارها في الخفاء، هي محور نظامنا السيّاري ومصدر حياتنا أيضاً، هذه الشمس التي كلّ ما يكتشف عنها يزيدها غموضاً، ولم تُزِح يدُ العلم بعدْ النقاب عن كلّ ما يجب أن نعلمه عن الشمس، هذه الشمس التي تفقد أربعة ملايين

طن من وزنها في الثانية من احتراقها، ولم تزل تجدّد وزنها وحجمها، والتي تبعث إلى العالم الخارجي طاقة تعادل خمسة آلاف بليون قنبلة ذرية في كلّ ثانية، هي آية من آيات الخالق، وما هي إلاّ آية صغيرة، حيث تزخر السماء بملايين من النجوم أضخم منها حجماً وأكبر سرعة وأكثر تألّقاً، ولكنّها ذات أهمية بالغة للإنسان، تفوق أهمية النجوم الأُخرى، فبدون حرارة الشمس وضوئها، لا يمكن أن توجد حياة في الأرض . أنظر: الأقسام في القرآن الكريم: ١٦٦ .

٢. (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا) :

هو قسم آخر، قسم بالقمر إذا تلا الشمس، إنّما الكلام فيما هو المراد من تلو القمر للشمس؟ هاهنا احتمالان:

هلال كلّ شهر يظهر بعد غروب الشمس، ثم يغيب بعد دقائق.

وهناك احتمال آخر وهو أن يكون المراد ليلة البدر، حيث يطلع القمر بعد مغرب الشمس، والله سبحانه يقسم بهذا المنظر الرائق للقمر حين يتلو الشمس بالطلوع. لقد أقسم بالقمر، لأنّه المصباح الوحيد في ظلام الليل في البحار والصحاري، والميقات الطبيعي لعامّة الناس حضريّها وبدويّها .

قال سبحانه: (هُوَ الّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً) يونس: ٥ ..

وقال سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ)(البقرة: ١٨٩.).

٣. (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا) :

ولاشكّ أنّ النهار مبتدأ خبره (إِذَا جَلاَّهَا) والفعل في الخبر يشتمل على فاعل مستتر ومفعول ظاهر، فالضمير المستتر يرجع إلى النهار والضمير المتصل يرجع إلى الشمس، ويكون المعنى: أُقسم بالنهار إذا جلّى النهارُ الشمسَ.

وعندئذ يقع الكلام فيما هو المراد من تجلية النهار الشمس، مع أنّ النهار ليس مجلّياً للشمس، بل الشمس هي الّتي تجلّي النهار؟

ومع ذلك يمكن تصحيح هذا الاحتمال بالبيان التالي؛ وهو أنّ الشمس تحتل محل المركزية وهي ثابتة، وأمّا الأرض فهي الّتي تدور، من الغرب إلى الشرق، وعندما يواجه نصفُ الكرة الأرضية قرص الشمس يُظهر النهارُ الشمسَ، والأمر في ذلك كالاستدلال من المعلول إلى العلّة.

هذا كلّه إذا قلنا بأنّ الضمير المتّصل في قوله: «جلاّها» يرجع إلى الشمس .

وأمّا لو قلنا بأنّ الضمير يرجع إلى الأرض المعلوم من سياق الكلام، فيكون المعنى: أقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار .

وبعبارة أُخرى يقسم بالنهار إذا أظهر الأرضَ بضوئه.

٤. (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) :

هذا هو القسم الخامس، أي يقسم بالليل بما فيه من بركة وراحة، والنور وإن كان أفضل من الظلمة وأكثر بركة ولكن لا يخفى أنّ للظلمة دوراً هامّاً في الحياة، لأنّ استمرار سطوع الشمس يؤدّي إلى ارتفاع درجات الحرارة، الّتي تُبيد كلّ شيء، ولذلك يقول الله سبحانه: (وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً) الأنعام: ٩٦ ..

وفي هذه الآية مثل سابقتها وجهان:

الأوّل: أنّ الضمير في (يغشاها) يرجع إلى الشمس بمعنى أنّ الليل يغشى وجه الشمس، بواسطة حركة الأرض حيث إنّ نصفاً منها مواجه للشمس والنصف الآخر غائب عنها، فيكون النصف الأوّل مضيئاً والآخر مظلماً، وهذا هو معنى أنّ الليل يغشى الشمس.

الثاني: أنّ الضمير يرجع إلى الأرض وأنّ الليل يغشى الأرض أي يغطيها حسب ما قلنا في الآية السابقة من أنّ النهار يجلّي الأرض.

ثم إنّ هنا سؤالاً وهو أنّه سبحانه عبّر عن تجلية النهار بصيغة الماضي وعن غشيان الليل بصيغة المستقبل وقال: (وَالنَّهَارِ إِذَا

جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) ولعلّ وجهه ـ والله العالم ـ الإشارة الى غشيان الفجور أرض الجزيرة العربية في زمن نزول الآية.

٥ و ٦. (وَالسَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَ مَا طَحَاهَا) :

أقسم سبحانه بالسماء وخالقها كما أقسم بالأرض وطاحيها، بناءً على أنّ «ما» موصولة، ومن المعلوم أنّ «من» تستعمل في الشخص و «ما» في الشيء، ووجه استعمال «ما» في المقام لأجل إفادة التفخيم والتعظيم ومعناه: أُقسم بالسماء والشيء القوي العجيب الذي بناها، وأقسم بالأرض والشيء القوي العجيب الّذي بسطها.

إنّ القرآن الكريم ذكر السماء وما يرجع إليها من الخصوصيات في الكثير من السور، وكان القدامى من المفسّرين متأثّرين بالهيئة البطليموسية فكانوا يؤوّلون الآيات وفقاً لها، ولمّا أثبتت البحوث العلمية الأخيرة بطلان الكثير من الفروض البطليموسية صار المحقّقون من المفسّرين يتداولون ذلك الموضوع والآيات الواردة فيه بالبحث والدراسة، ومع ذلك كلّه فالموضوع لا يخلو من غموض وتعقيد، ولعلّ الله سبحانه يحدث بعد ذلك أمراً.

وأمّا الأرض، فهي مهد الحياة وقوامها، يقول سبحانه: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) البقرة: ٢٢..

ويقول سبحانه: (الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً) طه: ٥٣ ..

وهي إحدى الكواكب الّتي تدور حول الشمس وتتبعها في سيرها أينما سارت، وهي الكوكب الخامس من حيث الحجم، والثالث من حيث القرب إلى الشمس من بين كواكب المجموعة الشمسية.

٧. (وَنَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا):

تنكير (نَفْس) للتفخيم، وكأنّ للنفس نبأً ومقاماً خاصّاً، والمراد من النفس هو النفس الإنسانية، لا مطلق النفس ولا خصوص نفس آدم وحواء، وأُريد من التسوية تعديل قواها وتكميل خلقتها على نحو أنّه سبحانه عندما فرغ من خلقه لها وصف نفسه بقوله: (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) المؤمنون: ١٤..

أقسم سبحانه بالنفس لما فيها من العظمة الّتي مَن عرفها فقد عرف ربّها، ولكن الإنسان المادي إذا حصر حقيقة الإنسان في الأعصاب والعروق وفسّر العلم والحالات الروحية بالتفاعل المادي الكيمياوي في المخ، لا يمكن له أن يعطي النفس قيمتها الصحيحة على نحو يصلح للإقسام بها.

وأمّا على القول بتجرّدها وعدم شوبها بالمادة وآثارها، فهي لأجل قربها من صانعها وتنزّهها عن التغيّر والتبدّل، تكون لائقة أن يُقسم بها.

إنّ الإنسان المادّي يدّعي بأنّه لا يؤمن بوجود جوهر مجرد عن المادّة؛ وذلك لأنّه لا يرى أثراً من النفس في المختبرات، غير أنّه غفل عن أنّ النفس لو كانت أمراً مادّياً جاز أن يستدلّ المادّي بعدم رؤيتها فيها على عدمها، وأمّا إذا كانت فوق المادّة فلا تصلح الأدوات المادّية للقضاء بوجودها أو عدمها.

وها نحن نأتي هنا ببرهان واضح لعلّه يقنع المادي وغيره، ونثبت بفضله أنّ للإنسان وراء بدنه شيئاً آخر لا ينساه ولا يغفل عنه، وهذا البرهان هو المعروف ببرهان الطلق، وقد قرّره الفيلسوف ابن سينا، وقال:

افرضْ نفسك في حديقة زاهرة غنّاء، وأنت مستلق لا تُبصِرُ أطرافك ولا تتنبّه إلى شيء، ولا تتلامس أعضاؤك، لئلاّ تحسّ بها، بل تكون منفرجة، ومرتخية في هواء طلق، لا تحسّ فيه بكيفية غريبة من حرٍّ أو برد أو ما شابه، ممّا هو خارج عن بدنك. فإنّك في مثل هذه الحالة تغفل عن كلّ شيء حتّى عن أعضائك الظاهرة، وقواك الداخلية، فضلاً عن الأشياء الّتي حولك، إلاّ عن ذاتك، فلو كانت الروح نفس بدنك وأعضائك وجوارحك وجوانحك، للزم أن تغفل عن نفسك إذا غفلت عنها، والتجربة أثبتت خلافه. شرح

الإشارات: ٢ / ٩٢؛ والشفاء قسم الطبيعيات، في موردين: ٣٨٢، وص ٤٦٤

وبكلمة مختصرة: «المغفول عنه غير اللامغفول عنه»، وبهذا يكون إدراك الإنسان نفسه من أوّل الإدراكات وأوضحها .

نعم كلّ مَن يتصوّر أنّ خلق الأرواح قد تمّ قبل خلق الأبدان، يطرح هذا السؤال:

لماذا نزل هذا المخلوق السامي إلى الدنيا الدنية، ولماذا نزلت الروح إلى هذا الحضيض الأوضع؟ وللشيخ الرئيس قصيدة عينية، في شرح هذا السؤال، قال فيها:

هبطتْ إليك من المحلّ الأرفعِ *** ورقاء ذات تعزّز وتمنُّعِ

محجوبة عن كل مقلة عارف *** وهي الّتي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره إليك وربما *** كرهت فراقك وهي ذات تفجُّع

ثم يقول:

فلأي شيء أُهبطت من شاهق *** سام إلى قعر الحضيض الأوضع

إن كان أهبطها الإله لحكمة *** طويت عن الفَطِن اللبيب الأروع

فهبوطها إذ كان ضربة لازم *** لتكون سامعة بما لم تسمع

ثم إنّ الشيخ العلاّمة محمد جواد البلاغي ـ لمّا كان سالكاً طريق الشيخ الرئيس ـ أنشأ قصيدة عارض بها عينية ابن سينا، وأجاب فيها عن سؤاله، وحاصل الجواب: أنّها نزلت إجابة لدعوة ربها، الواردة في قوله سبحانه: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) الفجر: ٢٧ ـ ٢٨ ..

وقد قال :

نَعِمتْ بأن جاءت بخلق المُبدع *** ثم السعادة أن يقول لها: (ارجعي)

خُلقت لأنفع غاية يا ليتها *** تبعت سبيل الرشد نحو الأنفع

الله سوّاها وألهمها فهل *** تنحو السبيل إلى المحلّ الأرفع

نعمت بنعماء الوجود ونوديت *** هذا هُداك وما تشائي فاصنعي

ثم يقول:

إن شئت فارتقعي لأرفع ذروة *** وحذارِ من درك الحضيض الأوضع

ولكن السؤال والجواب مبنيّان على خلق الأرواح قبل الأبدان، وأمّا على القول الآخر بأنّ النفس الإنسانية هي المتولّدة من حركة المادة في بطن الأُم وخارجها إلى أن تصير نفساً كاملة عارفة مدركة للكلّيات، فالسؤال والجواب ساقطان؛ وذلك لأنّ النفس على هذا القول لم تُخلق قبل البدن مجرّدة عن المادة حتّى يُسأل عن سبب نزولها من عالم أعلى إلى عالم أدنى، وإنّما هي وليدة عالم المادة، فالمادة بتحرّكها ـ بأمر الله تعالى ـ نحو الكمال تتولّد منها نفس مجرّدة، تدبّر البدن.

٨ . (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا):

قد مرّ أنّ الإلهام هو الإلقاء في الرَّوع من دون أن يُعلم مصدره، فالآية تحكي أنّ الله سبحانه ألهم النفس وعرّفها منهجين: منهج التقوى، ومنهج الفجور، ولم يجبرها على سلوك واحد منهما، قال سبحانه : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً) الإنسان: ٣ ..

وفي الآية إشارة ـ أو فوق الإشارة ـ إلى أنّه سبحانه علّم البشر محاسن الأفعال وقبائحها الّتي تناط بهما الطاعة والعصيان، وأنّ كلّ واحد منّا يميّز الحسن عن القبيح من دون حاجة إلى سماع من الشرع، وهذا هو الّذي دار فيه الخلاف بين العدلية والأشعرية،

فالطائفة الأُولى على القول بإمكان تعرّف الإنسان على ما هو حسن بالذات وما هو قبيح كذلك، خلافاً للطائفة الثانية، وبما أنّ المجال هنا غير فسيح، نقتصر هنا على ذكر ما يقنع المخالف إقناعاً وجدانياً.

يقول العلاّمة الحلّي: ذهبت الإمامية، ومن تابعهم من المعتزلة، إلى أنّ من الأفعال ما هو معلوم الحسن والقبح بضرورة العقل، كعلمنا بحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضارّ، فكلّ عاقل لا يشكّ في ذلك، وليس جزمه بهذا الحكم بأدون من الجزم بافتقار الممكن إلى العلّة، وأنّ الأشياء المساوية لشيء واحد، متساوية، ومنها ما هو معلوم بالاكتساب أنّه حسن، أو قبيح، كحسن الصدق الضارّ، وقبح الكذب النافع، ومنها ما يعجز العقل عن العلم بحسنه أو قبحه فيكشف الشرع عنه كالعبادات.

وقال الأشاعرة: إنّ الحسن والقبح شرعيان، ولا يقضي العقل بحسن شيء منها ولا بقبحه، بل القاضي بذلك هو الشرع، فما حسّنه فهو حسن، وما قبّحه فهو قبيح . نهج الحق وكشف الصدق: ٨٣ .

وهذا هو الذكر الحكيم يحتجّ في موارد بقضاء الفطرة على حسن بعض الأفعال وقبحها، على وجه يسلّم أنّ الفطرة صالحة لدرك حسن الشيء وقبحه، ولذلك يتّخذ وجدان الإنسان حَكَماً صادقاً في قضائه، ويقول:

١.(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّار).(ص:٢٨.)

٢. (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمين) . القلم: ٣٥.

٣. (هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلاّ الإِحْسان) . (الرحمن:٦٠.)

ففي هذه الآيات يوكِل الذكر الحكيم القضاء إلى وجدان الإنسان، وأنّه هل يصحّ التسوية بين المفسدين والمتّقين، والمسلمين والمجرمين؟ كما يتّخذ من الوجدان قاضياً، في قوله: (هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلاّ الإِحْسان) .

وهو أفضل دليل على أنّ الإنسان تعلّم ما في هذه الآيات في منهج الفطرة، من دون تعليم من أحد.

وربّما تفسّر الآية بأنّ الله أودع في النفس عوامل الفجور والتقوى، فإنّ وجودها مزيج من الأمرين المتضادين، قد خوّل الإنسان كيفية الانتفاع من هاتين القوتين اللتين لكلّ منهما تأثير في الحياة، فإنّ الشهوة والغضب وإن كانا من عوامل الفجور لكن انتفع بهما الإنسان بلا تعديل، وأمّا في صورة التعديل فهما أيضاً قوام الحياة كسائر عوامل التقوى.

وفي خطب الإمام علي (عليه السلام)حول خلقة الإنسان تصريح بذلك قال: «مَعْجُوناً بِطِينَةِ الاَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَالاَْشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَالاَْضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالاَْخْلاَطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ، والمساءةِ والسرورِ» نهج البلاغة: الخطبة ١..

وهذا القول وإن كان صحيحاً في حدّ نفسه، لكن الآية غير ناظرة إليه، لقوله: (فَأَلْهَمَهَا) أي علّمها طريق العصيان والطاعة، وأين هذا من القول بكون خلقة الإنسان ممزوجة من قوى الشر والخير؟

٩ ـ ١٠ الآيتان: التاسعة والعاشرة(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :
٩ و ١٠. (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :
المفردات
خاب: الخيبة: الحرمان والخسران، يقال: خاب يخيب وخاب يخوب، ومنه الدعاء: «أعوذ بك من خيبة المنقلب»، وخيّبه الله ـ بالتشديد ـ جعله خائباً خاسراً.(مجمع البحرين: مادة «خيب».) دسّاها: أصل دسّى: دسس، فأبدل من إحدى السينين ياءً نحو: تظنّيت، أصله: تظنّنت. ودسّاها: من دسّ نفسه يعني أخفاها بالفجور والمعصية، وكلّ شيء أخفيته فقد دسسته، ومنه قوله تعالى: (أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) النحل: ٥٩ .: أي يخفيه ويدفنه.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) :

يقع الكلام في مقامين:

١. أنّ هاتين الآيتين جواب للقسم بأحد عشر أمراً، وعندئذ يقع السؤال عن وجه الصلة بينهما؟

٢. ما هو المراد من تزكية النفس وتدسيسها؟

أمّا المقام الأوّل: فالصلّة واضحة بين المقسم به والمقسم له؛ وذلك لأنّه سبحانه يذكر نعمه الهائلة في هذه الآيات الّتي لو فقد الإنسان واحدة منها لتوقّفت الحياة، فمقتضى إفاضة هذه النعم، هو السير على درب الطاعة (أي تزكية النفس) دون الولوج في درب العصيان (أي تدسيس النفس).

ولكن صاحب الكشّاف قال: إنّ جوابه]يعني القسم[محذوف تقديره: ليدمدمنّ الله على أهل مكّة لتكذيبهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما دمدم على ثمود لأنّهم قد كذبوا صالحاً... ثم قال: وأمّا قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) فهو تابع لقوله: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا) على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء. تفسير الكشاف: ٣ / ٣٤٢ .

يلاحظ عليه: أنّه لو كان جواب القسم هو ما قدّره، فعندئذ يفقد الجواب الصلة اللازمة بينه وبين الأقسام الكثيرة الواردة في سورة الشمس، والظاهر أنّ قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) منضمّاً إلى قوله: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا)، هو جواب القسم.

وعلى ما ذكرنا فالصلة بين الأمرين واضحة، وهي أنّه سبحانه يذكر نعمه الهائلة في هذه الآيات الّتي لو فقد البشر واحدةً منها لتوقّفت عجلة الحياة عن السير نحو الأمام، فمقتضى إفاضة هذه النعم وإنارة الروح بإلهام الفجور والتقوى هو المشي على درب الطاعة، وتزكية النفس دون الولوج في طريق الفجور وإخفاء الدسائس الشيطانية.

المقام الثاني: ما هو المراد من التزكية والتدسيس؟

أمّا التزكية فلها استعمالان:

الأوّل: التصفيّة وربما يعبر عنها بالتخلية، كما هو الحال في الزراعة حيث إنّ الفلاّح يقلع الحشائش الضارة المحيطة بالأشجار والخضروات لكي لا تعيقها عن النمو والإثمار، وهكذا النفس فمن أراد تزكيتها فعليه أن يجرّدها من العوامل المانعة عن التكامل، أعني: الرذائل نحو الحسد والعجب والطمع والأنانية وغيرها، ممّا يجعله (التجرّد) الإنسان محوراً لاهتمامه، ولا يقيم لغيرها قيمة.

وبعبارة أُخرى: أن يكون متحرّراً من الشهوات ولا يكون عبداً لها، ولا يكون مصداقاً لقوله سبحانه: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً) الفرقان: ٤٣. .

وأنت ترى أنّ الإنسان المادّي يبحث عن أنواع الحريات كحرية الفكر والبيان وحرية السياسة والاقتصاد، ولكنّه لا يفكّر في التحرّر من الشهوات، وعبودية النفس الأمّارة الّتي تصدّ الإنسان عن التعالي والتكامل، وتضع الإنسان في عداد البهائم الّتي لا همّ لها إلاّ علفها وشهواتها الجنسية.

الثاني: بمعنى التنمية، ويعبّر عنها بالتحلية، فإذا كان الجو خالياً عن العوامل المعرقلة للنمو تصل النوبة إلى العوامل المساعدة له، وهي التحلّي بالطاعة، ونعمَ ما قال الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير الآية: «قد أفلح من أطاع، وقد خاب من عصى» (مجمع البيان: ١٠ / ٤٩٨.).

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال ـ حين تلا الآية ـ : «اللّهم آت نفسي تقواها، أنت وليُّها ومولاها، وزكِّها فأنت خير مَن زكّاها» (مجمع البيان: ١٠ / ٤٩٨.).

نعم لا تنافي بين نسبة التزكية إلى الله سبحانه في هذا الحديث ونسبتها إلى الإنسان في الآية المباركة، ووجه عدم التنافي هو أنّ الله سبحانه هو مسبب الأسباب وتأثير كلّ سبب ينتهي إليه، فمن وفّق إلى تزكية نفسه فإنّه وفّق بإقدار من الله سبحانه، وما أكثر ما ورد مثل هذا الأمر في القرآن الكريم، حيث ينسب شيء إلى الله تعالى وفي الوقت نفسه ينسب إلى غيره، نحو قوله سبحانه: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (الزمر: ٤٢ .)، بينما يقول في آية أُخرى:

(إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) الأنعام: ٦١ ، ويقول أيضاً: (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) الأعراف: ٣٧.

وأمّا قوله تعالى: (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)، فقد مرّ أن الدسّ عبارة عن الإخفاء، كما قال سبحانه: (يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ)، وأنّ العرف يستعمل الدسّ في التصرّف بالشيء بما ليس منه، مثلاً: دسّ في كتاب فلان، أي أدخل فيه ما ليس منه، قال الإمام الصادق (عليه السلام): «فإنّ المغيرة بن سعيد ـ لعنه الله ـ دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي». بحار الأنوار: ٢ / ٢٥٠ .والإنسان العاصي والطاغي يدخل بعصيانه وطغيانه في النفس ما ليس فيها، ويدخل فيها ما ليس من طبيعتها، وكأنّ النفس خلقت للطاعة وبالتالي للتكامل، وهو بالعصيان والطغيان يجعل نفسه بغير ما طُبعت عليه.

١١ ـ ١٥ الآيات: الخمس الأخيرة(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا *..... وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا) .

المفردات

طغواها: الطغيان: هو تجاوز الحدّ.

سقياها: السُقيا اسم مصدر سقى، والمراد شربها من الماء.

عقروها: يقال: عقرت النخل: قطعته من أصله، وعقرت البعير: نحرته .

دمدم: أي أطبق عليهم العذاب، وقيل: دمدم: غضب، وقيل: أرجف بهم الأرض يعني حرّكها فسوّاها بهم، ويقال: دمدم الله بهم أي أهلكهم بذنبهم. مجمع البحرين: مادة «دمدم».

فسوّاها: أي استووا في إصابتها لهم، والضمير يرجع إلى الدمدمة المأخوذة من دمدم عليهم. وربما يفسّر بجعل الأرض مستوية عليهم لا تظهر فيها أجسادهم ولا بلادهم، وعلى هذا: فالضمير يرجع إلى الأرض.

التفسير

لمّا حذّر سبحانه من طغيان النفس ودسّها، ذكر نموذجاً من الأقوام السالفة الذين هلكوا بسبب طغيان النفس وعصيان الله سبحانه وهم قوم ثمود، وأمّا قصّتهم على وجه الاجمال فهي: أنّ قوم نبي الله صالح (عليه السلام)طلبوا منه معجزة تدلّ على صدق نبوته، وروي أنّهم سألوه أن يخرج لهم من إحدى الصخور ناقة، فسأل صالح ربّه تعالى ذلك، فانصدعت الصخرة صدعاً كادت عقولهم تطير منه، ثم اضطربت كالمرأة يأخذها الطلق ثم انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء، ومع ذلك فهؤلاء سلكوا مسلك العناد، وحذر صالح قومه عن مسّ الناقة بسوء، وأن يتركوها وسقيها، ومع ذلك عقر الناقةَ أشقاهم، فقال لهم نبيهم: (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) هود: ٦٥ . .

وعندئذ، أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

١١. (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا):

أي كذّب قوم ثمود نبيهم صالح بسبب طغيانهم وعتوّهم عن أمر ربّهم.

١٢. (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا):

الظرف متعلّق بقوله: (كَذَّبَتْ)أو بقوله: (بِطَغْوَاهَا) والمراد من الانبعاث اندفاع ذلك الشقيّ وإسراعه إلى عقر الناقة، واسمه كما في الروايات قدار بن سالف.

١٣. (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) :

أي: رغم أنّ رسولهم قد أتمّ الحجّة عليهم وأتى بالمعجزة الّتي طلبوها ومع ذلك خالفوه، ووقف النبي صالح (عليه السلام)على ما انتوَوْه، فحذرهم من ذلك بقوله: (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا): أي احذروا ناقة الله واتركوا شربها من الماء فلا تزاحموها فيه، لكن المواعظ لا تؤثر في قلوب عميت، ولذلك يقول سبحانه:

١٤. (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا):

أي: كذبوا نبيّهم صالح وقاموا بعقر الناقة، وإنّما قال سبحانه (فَعَقَرُوهَا)، مع أنّ العاقر واحد، لأنّهم كانوا راضين عن فعلته الشنعاء، كما قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «أَيُّهَا النَّاس، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحانَهُ : (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)، الشعراء: ١٥٧.فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الأَرْضِ الْخَوَّارَةِ». نهج البلاغة، الخطبة٢٠١.

وقوله تعالى: (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِم): أي أطبق عليهم ربُّهم العذاب (فَسَوَّاهَا) أي فسوّى الدمدمة بينهم بحيث لم يهرب منها أحد، أو بمعنى تسوية الأرض بتدمير مساكنهم عليهم.

١٥. (وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا) :

الظاهر أنّ الضمير يرجع إلى الدمدمة المستفاد من الفعل، والمراد أنّه سبحانه أهلكهم ولم يَخَفْ منهم مع قوتهم، وليكن ذلك عبرة للمشركين .

روى الثعلبي في تفسيره بإسناده مرفوعاً إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)قال: «يا عليّ أتدري من أشقى الأوّلين؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر الناقة»،

قال: «أتدري من أشقى الآخرين» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك». تفسير الثعلبي: ٤ / ٢٥٨ .

وفي رواية أُخرى قال: «أشقى الآخرين مَن يخضب هذه من هذه»، وأشار إلى لحيته ورأسه. مجمع البيان: ١٠ / ٧٥٦ .

روى الصدوق (رحمه الله) خطبة النبي في آخر جمعة من شعبان، وجاء في آخرها سؤال عليٍّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: فقمت فقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر ؟

فقال: «يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عزوجل». ثم بكى، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: «يا علي أبكي لما يستحلّ منك في هذا الشهر كأنّي بك وأنت تصلّي لربك وقد انبعث أشقى الأوّلين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك»، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): فقلت: يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني؟ فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «في سلامة من دينك». ثم قال: «يا علي، من قتلك فقد قتلني، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن سبّك فقد سبني، لأنّك مني كنفسي، روحك من روحي، وطينتك من طينتي». عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٢٦٦ .

تمّ تفسير سورة الشمس

٩٢-سورة الليل

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى * وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى * فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَد عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَة تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى السورة في المصاحف وكتب التفسير بسورة «الليل»، وربّما تسمّى بسورة «والليل»، ولا مشاحّة في التسمية، وكلّ يشير إلى موضوع واحد.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها إحدى وعشرون، ومضمون الآيات يشهد على أنّها مكيّة، ولكن ما نقل عن ابن عباس من سبب النزول يفترض كونها مدنيّة، وهو أنّه كانت لأحد المنافقين نخلة، فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل اذا جاء فدخل الدار، وصعد النخلة ليأخذ منها التمر، فربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فمنعهم منها، فاشتراها أبو الدحداح الأنصاري بأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وجعلها لهم، وقد ذكر شأن النزول ـ مفصّلاً ـ الطبرسي في مجمعه. مجمع البيان: ١٠ / ٧٥٩ .

أغراض السورة

١تدلّ السورة على أنّ أمام الإنسان مسلكين:

١. مسلك مَن أنفق واتّقى وصدّق بالحسنى، فمن سلكه فسيرزقه الله تعالى حياة طيبة.

٢. مسلك مَن بخل واستغنى وكذّب بالحسنى، فسوف يلقى حياةً شاقّة.

كما أنّ السورة أشارت إلى أهمية مسألة الإنفاق .

١ ـ ٤ الآيات: الأربع الأُولى(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ... إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) .

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) .

المفردات

يغشى: قال الراغب: غشي: غشيَه غشاوة أي ستره، والغشاوة ما يُغطّى به الشيء، قال سبحانه: (وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً) الجاثية: ٢٣ .

وقال: (وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ) (لقمان: ٣٢). المفردات للراغب: ٣٦١، مادة «غشي».

تجلّى: قال الراغب: أصل الجلو: الكشف الظاهر، يقال: رجل أجلى: انكشف بعض رأسه عن الشعر. المفردات للراغب : ٩٦، مادة «جلو».

شتى: جمع شتيت، والشتّ: التفريق ، يقال: شتّ جمعُهم، شتّاً وشتاتاً.

قال سبحانه: (مِنْ نَبَات شَتَّى) طه: ٥٣ .أي مختلف الأنواع، وقال سبحانه: (وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) الحشر: ١٤..

التفسير

افتتح سبحانه هذه السورة بأقسام ثلاثة:

١. اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى

٢. النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى

٣. مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى

وقوله: (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)، هو جواب الأقسام الثلاثة، فلنفسّر الجميع.

١. (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى):

أقسم سبحانه بالليل إذا يغشى، أي إذا غطّى، والظاهر أنّ المراد غشيانه النهارَ، لقوله سبحانه: (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) الأعراف: ٥٤ . ، ومعناه أنّ الليل يُجلِّل النهار كما أنّ النهار يغطي الليل، ولم يذكر هذا لكونه معلوماً من الكلام . والإغشاء هو إلباس الشيء ما رقّ بما يجلّله. وفي الحقيقة أنّ الليل يغطي بظلامه نصف الكرة الأرضية الّذي كان مُضاءً قبل غشيانه. ولعلّ التعبير بالغشيان لأجل أنّ الظلمة هي الأصل في النظام الشمسي وإنّما أضاءت بعد خلق الشمس، ولذلك يقدّم الليل في التاريخ على اليوم.

٢. (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) :

عطف على الليل وقد مرّ أنّ التجلي ظهور الشيء لغة، والمراد ظهور النهار على الأرض، حيث يبدأ من اللحظة الّتي يطلع فيها الفجر فيشقّ ظلامَ الليل ويغمر كلّ شيء بالنور.

والغاية من القسم بالليل والنهار هو الإشارة إلى أنّ كلّ واحد منهما يُعدّ عماداً للحياة، وأنّ كلاًّ منهما مكمّل لها، فإنّ للنور والظلمة دوراً في حياة البشر، وكلاهما من نعم الله الكبرى.

أمّا الليل فلأنّه يعدّل حرارة الشمس على الأرض، وينشر السكينة بين الموجودات الحيّة، ويخلق الجو الملائم لاستراحة العمال، كما أنّ للنهار دوراً في حياة الإنسان فلو استمرت الظلمة لانعدمت الحياة بشتى أنواعها.

ثم إنّه سبحانه قدّم الإقسام بالليل على الإقسام بالنهار، على خلاف السورة السابقة حيث أقسم بالنهار أوّلاً ثم بالليل ، وقال: (وَ النَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) الشمس: ٣ ـ ٤ . .

ويمكن أن يقال: إنّ السورة مكيّة وقد نزلت أوائل البعثة وكان الكفر يومئذ يسود المجتمع، إلاّ النادر منهم، فناسب أن يقسم بالليل أوّلاً إيعازاً بحال المجتمع، ثم بالنهار ثانياً لظهوره بعد الليل إيعازاً بظهور الإسلام بعد الكفر.

ولو صحّ هذا فيجب أن تكون سورة الشمس غير نازلة في أوائل البعثة بل عندما بزغت شمس الرسالة على مكّة وآمن بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)قسم كبير من المكيّين وغيرهم، ولذلك قدّم الإقسام بالنهار على الإقسام بالليل .

ثم إنّ هنا سؤالاً آخر وهو: أنّه سبحانه عبّر عن غشيان الليل بصيغة المضارع، فقال: «يغشى» وعن تجلّي النهار بصيغة الماضي ـ أعني قوله تعالى: (إِذَا تَجَلَّى) ـ فما وجه ذلك ؟

والجواب: أنّ الفعل الماضي إذا قُرن بإذا، فهو يفيد معنى المضارع، كما في قوله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحُ) النصر: ١..

٣. (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى):

الظاهر أنّ «ما» موصولة والمراد هو الله سبحانه الّذي خلق الذكر والأُنثى المختلفين.

فإن قلت: إنّ «ما» الموصولة تستعمل في الشيء من دون دلالة على العقل والشعور بخلاف «من» الموصولة فإنّها تستعمل في الشخص الملازم للعقل والشعور، فلو كان المراد به الله سبحانه، فلماذا جاء بلفظ «ما» ولم يأت بـ «من»؟

قلت: إنّ «ما» الموصولة تستعمل أيضاً في الموجود العاقل كما هو الحال في سورة الشمس الماضية، وقد تكرر فيها «ما» ثلاث مرات وأُريد من الجميع: باني السماء، وطاحي الأرض، ومسوّي النفس .

إنّما اختيرت هنا لفظة «ما» إيعازاً إلى الشيء العجيب الّذي خلق الذكر والأُنثى، فالتعظيم الّذي يستفاد من كلمة «ما» لا يستفاد من كلمة «من»، وأي شيء أعظم عجباً من خلق الذكر والأُنثى اللذين يدور عليهما وجود المخلوقات في الأرض، وبهما تتمّ دورة الحياة؟!

وربما يتصوّر أنّ «ما» مصدرية لا موصولة، والمقسم به هو خلْق الذكر والأُنثى، ولكنّه بعيد.

٤. (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى):

هذه الآية إجمال لما ستفسّره الآيات الواقعة بعدها، وقد عرفت معنى «شتّى» وأنّ المراد به الاختلاف، والآية تدلّ على أنّ الإنسان ذا شخصيتين، ولأجل التعدّد يكون ذا مسلكين، فتارة يكون سلوكه وفق الشخصية الأُولى، وأُخرى وفق الشخصية الثانية.

توضيحه: أنّ ما سوى الإنسان ـ من الحيوانات والنباتات والجمادات ـ ذو مسير واحد في الحياة، فليس له التعدّي عنه، فالشجر في كافة بقاع الأرض ينمو وينبت ويثمر على نمط واحد، ثم يجفّ ، وهكذا الحيوان كالفرس والغنم، فالجميع لهم مسير واحد، لا يحيدون عنه قيد شعرة، حتّى أن المَلَك ذو شخصية واحدة يجري عليها، وعمل الجميع كعمل النحل في خلاياه الّذي أمره الله سبحانه أن يتخذ من الجبال بيوتاً كما قال سبحانه: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) النحل: ٦٨ ـ ٦٩..

فعملهم هذا أشبه بعربات القطار الّتي تسير على السكة الحديدية بلا انحراف إلى يمين أو شمال، فهي مجبورة على أن تسير على هذا الخط الحديدي ولا تحيد عنه قيد شعرة.

وهذا على خلاف الإنسان فإنّ الله سبحانه أعطاه مواهب عديدة وجهّزه بغرائز عالية وسافلة، كلّ منها يجرّه إلى مقتضاه، مثلاً: هو يدرك في منهج الفطرة حسن العدل وقبح الظلم ويميل إلى هذا الإدراك، لكنّه في صميم الذات يلتذّ بجمع المال، والاستجابة للشهوات، كما في قوله سبحانه: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) آل عمران: ١٤..

فالإنسان يقع في تجاذب بين هذين النوعين من الغرائز، وإلى هذا يشير الله سبحانه بقوله: (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)، فمن الناس من يسعى نحو الغرائز العالية ويصبّ جهوده في إنمائها وإرضائها ونشرها.

ومن الناس من يسيطر عليه إرضاء الشهوات والغرائز السافلة، ولذلك خلق الإنسان مختاراً وأُعطيت بيده حرية اختيار أحد المسلكين.

وبذلك ظهر وجه الصلة بين الإقسامين وجوابهما، فأقسم سبحانه بالليل أوّلاً لأنّه يناسب حياة الإنسان المغرور المنكبّ على الشهوات، وأقسم سبحانه بالنهار لأنّه يناسب التسامي في السلوك وإرضاء الغرائز السامية. وأمّا الصلة بين الإقسام الثالث والجواب فيحتاج إلى تأمّل.

٥ ـ ١١ الآيات: الخامسة إلى الحادية عشرة(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى .... وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى).

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى * وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى).

المفردات

تردّى: التردّي: هو السقوط والهُوِيّ من علوّ إلى سُفل، يقول سبحانه في الحيوان الساقط من العلوّ إلى السفل: (وَ الْمُتَرَدِّيَةُ) المائدة: ٣ . ولكن المراد هنا هو الموت للملازمة الغالبية بين التردّي والموت. فيكون معناه: إذا مات. والرّدى: الهلاك.

التفسير

سبق أن قلنا: إنّه سبحانه وصف سعي الإنسان على أنّه شتى أي لا يصبّ في مصبٍّ واحد، بل كلّ يعمل على شاكلته، فالمؤمن يصبّ جهوده في طريق المثوبة والتجنب عن العقوبة، أو يصبّ جهوده في كسب رضا الله تعالى، مع قطع النظر عن الثواب والعقاب.

وأمّا الكافر، حيث إنّه لا يصدّق بالوعد والوعيد ولا الحياة الأُخروية، فيصبّ جهوده في تلبية شهواته وميوله وغرائزه، وهذا هو الّذي تفسّره الآيات السبع، ولكن مقتضى قوله: (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)التركيز على تقسيم السعي وتبيين تعدّده، ولكن ركّز على تقسيم الساعي وبيان حال كلّ قسم، كما هو الظاهر من الآيات التالية، فقسّمه إلى قسمين:

١. المؤمن، وقد وصفه بقوله:

أَمَّا مَنْ أَعْطَى، وَ اتَّقَى، وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى

٢. الكافر، ووصفه بقوله:

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ، وَ اسْتَغْنى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى

فجزاء الأوّل هو قوله سبحانه:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى).

وجزاء الثاني هو قوله سبحانه:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى).

إذا وقفت على ذلك فلنرجع إلى تفسير الآيات.

٥ و ٦. (فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقَى * وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى):

هاتان الآيتان تشيران الى أوصاف الصنف الأوّل وهي:

أ. (مَنْ أَعْطَى)، وقد حذف متعلّق العطاء، ولكن الظاهر بالنسبة إلى الآيات التالية: هو المال، والمراد إنفاقه في سُبل الخير والإحسان، ومع ذلك يمكن أن يكون للآية مفهوم عام يشمل كلّ عطاء ماديّ ومعنويّ حتّى يشمل العلم، فإنّ هناك من يبذل علمه بلا طلب أجر، وهناك من يبخل حتّى على أهله وأولاده .

ب. (وَ اتَّقَى) فهو يقابل الوصف الثاني للصنف الثاني ـ أعني: (وَاسْتَغْنى) ـ فيجب أن تفسّر التقوى في الآية على وجه يقابل قوله: (وَاسْتَغْنى)، والظاهر أنّ المراد من الاستغناء عدّ نفسه غنياً عن الله تعالى مكتفياً بولاية الأصنام، فيقابله من يؤمن بالله ولا يرى نفسه غنياً عن الله، فتكون النتيجة هي الإيمان في الصنف الأوّل والكفر في الصنف الثاني.

ج. (وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى). فيقع الكلام فيما هو المراد من الحسنى؟ وهي مؤنث أحسن، والظاهر أنّ الحسنى وصف لموصوف محذوف أي العِدة الحسنى، وهي ما وعد الله من الثواب على الإنفاق لوجهه الكريم، فيكون كالتأكيد لقوله: (وَ اتَّقَى) في الصنف الأوّل، (وَ اسْتَغْنى) في الصنف الثاني.

ثم إنّه سبحانه يصف نتيجة الساعي الأوّل بقوله:

٧. (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى):

وعندئذ يقع الكلام فيما هو المراد من تيسير المؤمن لليسرى وتيسير الكافر للعسرى، فهنا احتمالان:

١. توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه بدون الإحساس بالتعب، كما أنّ المراد بتيسيره للعسرى خذلانه وعدم توفيقه للأعمال الصالحة .

٢. أنّ المراد باليسرى هو الجنة، والمراد من العسرى الجحيم، على أن يكون الوصفان قد صارا علماً بالغلبة على الجنة والنار، فيكون معنى الآية: فنيسره لدخول اليسرى، أو نيسره لدخول العسرى .

٨ ـ ١٠. (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى):

أي ما ظن بماله الذي لايبقى له، وبخل بحق الله فيه، والتمس الغنى بذلك المنع، وكذب بالجنّة والثواب، فسنيسره للعسرى، والمراد بالعسرى الخذلان.

فهنا سؤال، وهو أنّه لماذا عبّر عن الخذلان ـ على التفسير الأوّل ـ أو عن الجحيم ـ على التفسير الثاني ـ بتيسير الكافر للعسرى، فإنّه حسب الظاهر أشبه بالمتناقضين ؟

وبعبارة أُخرى: لو قال سبحانه: نيسّر العسرى للكافر، يكون مفهومه واضحاً، ولكنّه قال: نيسّر الكافر للعسرى، فماذا يريد بذلك؟

ويمكن الجواب عن ذلك: أنّ العسرى إذا كانت بمعنى الخذلان ـ على التفسير الأوّل ـ أو الجحيم ـ على التفسير الثاني ـ هي نتيجة اتباع الشهوات واقتراف المعاصي، فالله سبحانه ييسّر الكافر لهذه الأُمور الّتي ظاهرها لذة وراحة وباطنها ألم وعسر يوم القيامة، فيصحّ أن يقال: (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى).

فالكافر يرتكب القبائح بظن أنّها لذّة ولكنه يغفل عن أنّ ذلك سيخلق العسر له يوم القيامة، فتخلية المجال للكافر ورفع الحواجز بينه وبين المعصية عبارة عن تيسير الكافر للعسرى، وهو ما يعبر عنه في سائر الآيات بالاستدراج، قال سبحانه: (وَ لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) آل عمران: ١٧٨ . .

وقال سبحانه: (وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ)(الأعراف: ١٨٢ .).

١١. (وَمَا يُغْني عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدّى):

وهو عطف على قوله: (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى)، وقد قلنا: إنّ التردّي هو السقوط من علو ، والمراد به الموت، أي إذا مات.

و «ما» استفهام بمعنى الإنكار، أو نافية محضة، ومعنى الآية: لا يغنيه ماله إذا مات وهلك.

١٢ و ١٣ الآيتان: الثانية عشرة والثالثة عشرة (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى) .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى) .

التفسير

١٢. (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى):

لعلّه جواب عن سؤال مقدّر، كأنّ القارئ يدور في ذهنه: كيف وكَلَ اللهُ تعالى المسيءَ إلى نفسه وأهوائه فبخل بماله واستغنى عن الله، فإذا هو تردّى لم ينفعه ذلك المال، أما ينافي هذا رحمة الله تعالى؟ فأُجيب بأنّ الهداية من الله سبحانه وقد هيَّأها لكلّ إنسان بالهداية التكوينية أوّلاً حيث خلقه على فطرة التوحيد ثم هداه بالهداية التشريعية ببعث الأنبياء والأولياء، ولكنّ هذا الإنسان البخيل المستغني أبى أن يستمع لنداء الفطرة ودعوة الأنبياء، فوكله الله إلى نفسه، فتنكّب عن طريق الهدى، وسلك طريق الضلال، وإلى هذا المعنى يشير قوله سبحانه: (وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف: ٣٦..

١٣. (وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى) :

تأكيد بأنّه سبحانه مالك الملك والملكوت، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرّه معصية من عصاه.

١٤ ـ ٢١ الآيات: الرابعة عشرة إلى آخر السورة (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظّى .... وَلَسَوْفَ يَرْضَى).

(فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَد عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَة تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى).

المفردات

تلظّى: اللَّظى: اللهب الخالص، يقال: قد لظيت النار وتلظّت.

الأشقى: الشقاء خلاف السعادة، ويعلم حقيقتهما حسب ظروفهما، فلذلك تنقسمان إلى دنيوية وأُخروية.

سيجنبها: من التجنّب: تصيير الشيء في جانب من غيره.

التفسير

١٤. (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى) :

هذا تفريع على ما تقدّم من قوله: (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) فإنّ لازم كون الهداية على الله هو التبشير والإنذار، وهذه الآية تركّز على الإنذار الّذي هو من شقوق الهداية، فإنّ بعث الرسل إذا كان مجرّداً عن الثواب والعقاب لا يؤثّر إلاّ في الكمّلين من الناس دون السواد الأعظم، الذين يؤثّر فيهم ما فيه من التبشير والإنذار، فالله سبحانه ينذر بالنار المتلهّبة ، وتنكير (نَاراً) جاء للتهويل .

١٥. (لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى) :

صفة للنار أو حال منها، أي عُدّت هذه النوعية من النار للأشقياء، وليس المراد من الأشقى من هو أشد شقاءً من غيره، فإنّ التفضيل غير مقصود، والمراد مطلق الشقيّ بشهادة قوله: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ) هود: ١٠٦ ، وقد وصف سبحانه الشقيّ بقوله:

١٦. (الذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى):

فإن قلت: فعلى هذه الآية تختصّ النار بمن كذّب وتولّى، وبعبارة أُخرى: تختصّ بالكافر ولا تعمّ المؤمن إذا فسق وعصى.

قلت: النار المختصّة بالكافر هي نار خاصّة بشهادة تنكير «ناراً» الّذي قلنا: إنّه للتهويل، فلا منافاة بين تخصيص نار خاصّة بالكافر ووجود نار أُخرى تعمّ العصاة.

وحصيلة الكلام: أنّ الذين كذّبوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وأعرضوا عن دعوته، فهؤلاء ومن على شاكلتهم يصلَون ناراً تلظّى.

١٧. (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى) :

وهو في مقابل قوله تعالى: (لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى)فالشقيّ يدخل النار، والتقيّ يُبعَد عنها ويُجعل منها على جانب.

ثم إنّه سبحانه وصف الأتقى بوصفين، هما:

١٨ ـ أ . (الذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) :

أي يبذل ماله لغاية التزكيّة، لا للفخر والرياء، بل لغاية أن ينمو نماءً صالحاً في الآخرة.

١٩ ـ ب. (وَمَا لأَحَد عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَة تُجْزَى):

لفظة (مِن) في قوله: (مِنْ نِعْمَة)زائدة، تفيد التأكيد أي لم يفعل الأتقى ما فعله من إيتاء المال وإنفاقه في سبيل الله في مقابل نعمة أُسديت إليه حتّى يكافأ عليها، وتقدير الآية: من نعمة تجزى به، حذف الظرف رعاية للفواصل، وقوله (تُجْزَى) بُني على المجهول، لأنّ القصد لم يتعلّق بفاعل معيّن.

٢٠. (إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى):

المراد من الوجه هو الذات، بشهادة قوله: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَ الإِكْرَامِ) الرحمن: ٢٧ ، فإنّ قوله: (ذُو الْجَلاَلِ) وصف للوجه المراد به الذات، والاستثناء منقطع، والمراد به أنّه يؤتي ماله لوجه الله لا يريد من أحد جزاءً ولا شكوراً. فإذا كان الأمر كذلك فيكون مصيره قوله تعالى:

٢١. (وَلَسَوْفَ يَرْضَى) :

الضمير في (يَرْضَى) يرجع إلى من أعطى المال، أي أنّه إذا شاهد جزاء ربه الأوفى يرضى بما عمل وأعطى.

تمّ تفسير سورة الليل

٩٣- سورة الضّحى

(وَالضُّحَى * وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تسمّى هذه السورة بسورة «الضحى» تارة، وسورة « والضحّى» أُخرى؛ والأنسب هو الأوّل، كما هو الحال في سورة «القلم».

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آيات سورة الضحى إحدى عشرة آية بالإجماع، كما أنها مكّية بالاتّفاق، مضافاً إلى شهادة مضمونها على أنها نزلت في مكّة المكرّمة.
نعم إنّ قوله سبحانه: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)يحتمل أن يكون مدنياً، وسيوافيك ما حوله من الروايات، وكون السورة مكّية لاينافي خصوص كون تلك الآية مدنية؛ وذلك لاحتمال نزول الآية مرّتين كما هو الحال في بعض الآيات، ولذلك قال السيد الطباطبائي(قدس سره): والسورة تحتمل المكّية والمدنية. الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣١٠ . ولعلّه ينظر إلى خصوص هذه الآية، وإلاّ فبقيّة الآيات يناسب كونها مكّية.

أغراض السورة

التدبّر في مجموع آيات السورة يدلّ على أنّ السورة نزلت لأجل تقوية روحية النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)وتطييب نفسه، وذلك بتذكيره بالنعم الوافرة التي أنعم الله بها عليه منذ ولادته إلى عصر الرسالة، ولا يعني ذلك أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)كان غافلاً عن هذه النعم تماماً، إلاّ أنّ التذكير له دور في استحضار ما يَذَكَّر به الإنسان، حتى يستعدّ للقيام بالمهمّة التي يُكلَّف بها في مستقبل أيّامه.
إنّ الأنبياء(عليهم السلام) مع كونهم على مكانة سامية من الإيمان والإيثار، لكنّهم بما أنّهم بشر تؤثّر في روحهم ونفسيّاتهم الشدائد والمشاكل التي يواجهونها، ولذلك يكون للاتّصال بالوحي وتذكيرهم بالنعم دورٌ في تجديد نشاطهم ودؤوبهم على العمل مستقبلاً كما هو الحال في الماضي.

سبب النزول

ذكر غير واحد من المفسرين أن سبب نزول السورة هو احتباس الوحي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكنّهم اختلفوا في سبب الاحتباس ومدته الى وجوه وأقوال، وإليك البيان:
١. قال المشركون: إنّ محمّداً قد ودّعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه، وعندئذ نزلت السورة.
٢. احتبس الوحي عنه اثني عشر يوماً. عن ابن جريج.
٣. وقيل: أربعين يوماً.(عن مقاتل.)
٤. وقيل: إنّ المسلمين قالوا: ما لَكَ لا ينزل عليك الوحي يا رسول الله؟! فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «وكيف ينزل عليَّ الوحي وأنتم

لاتنقّون براجمكم البراجم: العُقد التي تكون في ظهور الأصابع، يجتمع فيها الوسخ، الواحدة: برجمة بالضم. النهاية لابن الأثير: ١ / ١١٣، مادة «برجم» .، ولا تقلّمون أظفاركم».

٥. وقيل: لمّا نزلت السورة قال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)لجبرائيل (عليه السلام): «ما جئت حتّى اشتقتُ إليك»، فقال جبرائيل (عليه السلام): وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً، ولكنّي عبد مأمور، وما نتنزّل إلاّ بأمر ربّك.

٦. وقيل: سأل اليهودُ رسولَ الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذي القرنين وأصحاب الكهف، وعن الروح؟ فقال: «سأُخبركم غداً»، ولم يقل: إنّ شاء الله؛ فاحتبس عنه الوحي هذه الأيّام، فاغتمّ لشماتة الأعداء، فنزلت السورة تسلية لقلبه.

٧. إنَّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) رمي بحجر في إصبعه فدُميَتْ، فقال: هل أنت إلاّ إصبع دُميتِ، وفي سبيل الله ما لقيتِ، وهو بيت شعر تمثّل به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وليس من إنشائه.فمكث ليلتين أو ثلاثاً لايوحى إليه، وقالت له أُمّ جميل بنت حرب، امرأة أبي لهب: يا محمّد ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك لم أره قرُبَك، منذ ليلتين أو ثلاث؛ فنزلت السورة. مجمع البيان: ١٠/٧٦٤.

مختارنا في هذه المسألة

إنّ هذا النوع من الاختلاف الهائل في سبب الاحتباس ومدّته يثير الشكّ في صحّة هذا السبب الذي لم يزل يُتناقل بين أصحاب التفاسير، حتى أنّ الدكتور محمدحسين هيكل أرسله إرسال المسلّمات في كتابه: «حياة محمد» وقال: انتظر هداية الوحي إيّاه في أمره، وإنارة سبيله، فإذا الوحي يفتر، وإذا جبريل لا ينزل عليه.. إلى أنّ قال: وقد روي أن خديجة قالت له: ما أرى ربّك إلاّ قد قلاك، وتولاّه الخوف والوجل، فهما يبتعثانه من جديد، يطوي الجبال وينقطع في حراء، يرتفع بكلّ نفسه ابتغاء وجه ربّه، يسأله: لِمَ قلاه بعد أن اصطفاه؟ ولمْ تكن خديجة أقلّ منه إشفاقاً ووجلاً... وإنّه لكذلك تساوره هذه المخاوف، إذ جاءه الوحي بعد طول فتوره، وإذ نزل عليه بقوله تعالى: (وَ الضُّحَى). حياة محمد: ١٣٨، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة عشرة.

ورؤية هيكل هذه، لها أصل في الصحاح، وقد صقَلها وصبّها في قالب القصص الروائية!!

والعجب أنّ رجلاً مثقّفاً كهيكل اعتمد على ذلك!!

وأوّل من شكّ في هذا السبب محمّد عبده شيخ الأزهر وقال: ليس في نسق السورة ما يشير إلى ذلك، فمن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي؟ ولكن النبي كان قد اشتاق إلى الوحي بعد أن ذاق حلاوته، وكلّ ذوق يصحبه قلق، وكلّ قلق يشوبه خوف.

وما ذكره شيخ الأزهر حقّ لامرية فيه، لولا ما في آخر كلامه، حيث قال: «وقد جاء في الصحيح: بأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حزن لفترة الوحي حزناً كبيراً»؛ إذ ليس في نسق السورة أيضاً ما يشير إلى حزنه لفترة الوحي كما صرّح به.

والظاهر أنَّ مسألة انقطاع الوحي فرية تاريخية صنعتها يد الجعل لغايات خاصّة، ولم تكن هناك أيّة فترة وأنّ المسألة كانت بصورة أُخرى، وهي:

تعلّقت مشيئته سبحانه على نزول الوحي تدريجاً ونجوماً وفي فترة بعد فترة حسب المقتضيات والأسباب الموجبة لنزوله أوّلاً، وتثبيتاً لفؤاد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك ثانياً.

قال سبحانه مشيراً إلى الأمر الأوّل : (وَ قُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) الإسراء:١٠٦. .

وقال سبحانه ـ مشيراً إلى الأمر الثاني وأنّ من بواعث نزول الوحي تدريجاً كونه سبباً لتثبيت فؤاده ـ : (وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)(الفرقان: ٣٢).

فعلى ضوء ذلك لم يكن هناك إلاّ موضوع طبيعيّ على صعيد الوحي وهو نزوله تدريجياً لا دفعة واحدة، غير أنّ المشركين الجاهلين بمشيئته سبحانه وأسرار نزول الوحي تدريجياً، كانوا يترقّبون نزول الوحي عليه دوماً وفي كلّ يوم وساعة، أو نزول مجموع الشريعة

دفعة واحدة، كما نزلت التوراة على موسى(عليه السلام)، قال سبحانه: (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)(الأعراف: ١٤٥). فلمّا شاهدوا خلاف ما كانوا يترقّبونه من مدّعي النبوة انصرفوا إلى اتّهام النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه ودعه ربه الذي أنزل عليه الوحي، أو الشيطان الذي يلهمه على حدّ تعبيرهم.

بقيت هنا كلمة، وهي أنّ قوله سبحانه: (وَ مَا قَلَى) يعرب عن أنّه كانت هناك تهمة أُلصقت بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فما هو السبب في إلصاقها به؟

أقول: ليس هذا الاتّهام فريداً في بابه وقد اتّهموه بالكهانة والسحر والجنون والشعر، ولم يوجد لهذه التهم سبب واقعي، وإنّما هم انتحلوها من عند أنفسهم بسبب وساوس شيطانية، وما نحن بصدده من هذا المقام.

إلاّ أنّه يمكن أن يكون السبب هو ما تمت الإشارة إليه في «صحيح البخاري» عن الأسود بن قيس، قال: سمعت جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلم يَقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمّد إنّي لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قرُبَك مُنذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزّ وجلّ:(وَ الضُّحَى * وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى).

صحيح البخاري: ١٢٧١، برقم ٤٩٥٠، كتاب تفسير القرآن.

ثم إنّ ما ذُكر من وجوه تأخّر نزول الوحي، كلّها وجوه ضعيفة حافلة بالاختلاف والتناقض، وقد ذكرنا ملاحظات حولها في أحد كتبنا. لاحظ : رسائل ومقالات: ٨ / ٢٦٠ ـ ٢٦٨ .

١ ـ ٥ الآيات: الأُولى إلى الخامسة(وَالضُّحَى * وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى * .... وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى).
(وَالضُّحَى * وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى).
المفردات

الضحى: صدر النهار، وشبابه.

السجو: السكون، يقال: ليل ساج إذا سكنت ريحه واشتدّت ظلمته، كما يقال: بحر ساج، إذا سكن.

القلى: البُغض، فإذا كُسِرت القاف قُصرت (القِلى)، وإذا فُتحت مُدّت (القَلا). والقالي: المبغض.

ودّع: فعل من التوديع، وهو تحيّة من يريد السفر، واستعير في الآية للمفارقة، تشبيهاً بفراق المسافر في انقطاع الصلة.

التفسير

١ و ٢. (وَ الضُّحَى * وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى):

أقسم سبحانه في هذه الآيات بشيئين:

١. أقسم بوقت الضحى.

٢. أقسم بالليل إذا سكن، وغطّى وجه الأرض وعمّت ظلمته جميع أنحاء البسيطة.

وأمّا ما هي الصلة بين المقسم به ـ أعني:(وَ الضُّحَى * وَ اللَّيْلِ إِذَا سَجَى)ـ وسبب نزول الآية.

فعلى القول المشهور من احتباس الوحي وانقطاعه يكون نزول الوحي مناسباً للضحى؛ لأنّ كلاًّ منهما نور، غير أنّ الثاني مادّي والأوّل معنوي. ويكون انقطاع الوحي يناسب الليل بمعنى الظلمة؛ لأنّ في كلّ من انقطاع الوحي والليل، حرمانين من النعمة: نعمة الوحي والضياء. ولكنّ هذا الوجه بعيد؛ وذلك لأنّ الليل نعمة من نعم الله سبحانه منّ بها على عباده، وقد قال سبحانه: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) النبأ:٩ـ١١.

فالآية بصدد بيان النعم الإلهية على الناس، وقد ذكر الليل والنهار في مستوى واحد، يقول سبحانه:(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ

لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) النمل: ٨٦ .، حتّى أنّه سبحانه يعدّ بقاء النهار بلاءً لولا مجيء الليل بعده، قال سبحانه:(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) القصص: ٧٢. فإذا كانت هذه منزلة الليل فلا معنى لتشبيه احتباس الوحي وانقطاعه بالليل بحجّة أنّ فيه انقطاع الرحمة، مع أنّ في الليل استدامتها.

والأولى أن يقال: إنّ وجه المناسبة بين المقسم به وسبب النزول : أنّ القسَم بالضحى يناسب نزول الوحي، كما أن القسَم بالليل يناسب نزول الوحي نجوماً، إذ فيه تثبيت لقلب النبي ـ كما مرّ ـ كما أنّ في الليل تثبيتاً لبقاء الحياة؛ وذلك لأنّه لو نزل الوحي جملة واحدة وأوصد بابه وانقطعت صلة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بعالم الغيب، لفقد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) النعمة الكبرى، وهي تثبيت قلبه الناشئ من الاتّصال بالله، في فترة بعد فترة، وهذا بخلاف ما إذا كانت هناك صلة بين الأرض والسماء، فعندئذ يعيش النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في ظلّ إمدادات غيبية تزيل الصدأ العالق على قلبه من خلال مواجهة المشركين والكافرين.

وحصيلة الكلام:

أنّ تفسير المشهور مبني على وجود التناسب بين الضحى ونزول الوحي، وبين الليل واحتباس الوحي وانقطاعه، وقد قلنا: إنّ التشبيه الثاني باطل ؛ لأنّ الليل من مظاهر البركات، ومن عظائم النعمات، بخلاف انقطاع الوحي واحتباسه.

وأمّا تفسيرنا فمبني على وجود التناسب بين الضحى وصدر النهار (حيث ترتفع الشمس وتلقي ضوءها على وجه الأرض)، وبين نزول الوحي حيث يشعّ ضوءُه على أنحاء العالم ، وعلى وجود التناسب بين النعمتين، أعني: الليل ونزول الوحي تدريجاً.

٣. (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى):

أي ما تركك ربك وما أبغضك، والآية جواب للقسم، وهي تتضمّن ترويحاً لنفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وفي الوقت نفسه إبطالاً لما أذاعه المشركون من أنّ ربّه تركه وقلاه، دون أن يستولي على النبيّ الظن بأنّ ربه تركه وقلاه، وعندئذ فالغاية من الآية إبطال الإشاعة التي نشرها المشركون، ولا تدلّ على أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) استولت عليه تلك الفكرة.

وهذا علي(عليه السلام) وصيّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وأعرف الناس به، يصفه بقوله: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». نهج البلاغة: الخطبة١٩٢ (القاصعة).

ومن عاش في كنفِ أكبر ملك من ملائكته سبحانه، يمتنع عليه استيلاء تلك الوساوس الشيطانية.

٤. (وَ لَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى):

هذه الآية خطاب للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، واللام لام الاختصاص، يُعرب عن عنايته سبحانه به ، فهو تلطيف لروحية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)مخبراً بأنّ الحياة الأُخروية خير له من الدنيا. فالآخرة مؤنث الآخر، غلب في مصطلح القرآن على الحياة الآخرة؛ كما أنّ الأُولى مؤنث الأوّل، غلب في مصطلح القرآن على الحياة الدنيوية.

ووجه كون الآخرة خيراً من الدنيا، هو أنّ نعيم الدنيا فان غير باق، ونعيم الآخرة باق غير زائل.

وقد ورد أنّ شاعر العرب لبيد بعد أن أنشد قوله:

ألا كلّ شيء ما سوى الله باطل *** وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

اعترض عليه عثمان بن مظعون بقوله: كذبت نعيم الجنّة لا يزول أبداً. لاحظ : ريحانة الأدب: ٢ / ٤٢٥ .

وكيف لا تكون كذلك، والنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) سيجني ثمار أعماله في الحياة الأُخروية، فهو بما أدّى من تكاليف الرسالة،

وبما ضحّى بنفسه ونفيسه وأعزائه في طريق هداية الناس، مأجور عند الله، وكلّ مَن يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، يُكتَب له (صلى الله عليه وآله وسلم)ثوابه أيضاً.

ومع ذلك كلّه فما ورد في الآية شامل لكلّ مَن يقتدي بالنبي ويسترشد بهداه.

٥. (وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى):

في قول الله تعالى: «رَبُّكَ» ـ خطاباً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ إشعار بالرحمة واللطف والعناية الإلهية به، إنّما الكلام في تعيين ما يرضيه (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

ويمكن أن يقال: إنّ الذي يرضيه هو دخول الناس في الدين أفواجاً، وانتشار الإسلام في كافّة أرجاء العالم، ويؤيّد ذلك قوله سبحانه: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) الكهف: ٦. ، وقوله سبحانه: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)(التوبة:١٢٨.) فقوله: «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» يعرب عن حرصه على هداية الناس مكان حرصه على المال.

ويمكن أن يقال ـ أيضاً ـ : إنّ ما يرضيه وراء ما جاء في الاحتمال الأوّل هو نجاة الأُمّة يوم القيامة، وأنّه سبحانه يعطيه في الآخرة من الشفاعة ما يرضى به.

ويدلّ على هذا الاحتمال، ما رواه حرب بن شريح، عن أبي جعفر محمد بن علي]الباقر(عليه السلام)[، عن محمد بن علي ابن الحنفية، عن أبيه علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أشفع لأُمّتي حتّى يناديني ربّي عزوجل: رضيتَ يا محمد؟ فأقول: ربِّ رضيت». ثم قال لي] يعني الباقر (عليه السلام)[: «إنّكم معشر أهل العراق تقولون إنّ أرجى آية في القرآن: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ)» قلت: إنّا لنقول ذلك، قال: «ولكنّا أهل البيت نقول: إنّ أرجى آية في كتاب الله تعالى: (وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)وهي الشفاعة». الكشف والبيان (تفسير الثعلبي): ١٠ / ٢٢٤ .

وروى الثعلبي عن جعفر بن محمّد(عليهما السلام)، عن جابر الأنصاري أنّه قال: رأى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)فاطمة(عليها السلام) وعليها كساء من أجلة الإبل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعتْ عينا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: «يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»، فقالت: «يا رسول الله الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه»، فأنزل الله: (وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) (الكشف والبيان: ١٠ / ٢٢٥ .).

وروى الطبرسي في مجمع البيان عن الصادق(عليه السلام) قال: «دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على فاطمة(عليها السلام) وعليها كساء من ثلّة الإبل وهي تطحن بيدها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لما أبصرها فقال: يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل الله عليّ: (وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)وقال الصادق(عليه السلام): رضا جدّي أن لايبقى في النار موحّد» مجمع البيان: ١٠ / ٤٣٠ ـ ٤٣١ ..

٦ ـ ٨ الآيات: السادسة والسابعة والثامنة: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ...وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنى).

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنى).

المفردات

اليتم: انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات من قبل أُمّه. واللطيم: انقطاع الصبي عن أبيه وأُمّه قبل بلوغه. وعلى هذا فاليتيم من فقد أباه قبل بلوغه، واللطيم من فقد أباه وأُمّه.

آوى: المأوى: مصدر يقال: أوى يأوي: أي انضمّ إليه، قال تعالى: (آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) يوسف: ٦٩.: أي ضمّه إليه. وأويت له: رحمته .

العيلة: الفقر، يقال: عال الرجل إذا افتقر، فهو عائل أي فقير.

التفسير

الآيات الثلاث بخطاباتها الثلاثة سيقت بمنزلة الدليل على ما سبق، من أنّه سبحانه اهتمّ به(صلى الله عليه وآله وسلم)واستمر إهتمامه به لاحقاً وأنّه ما تركه وما قلاه، والدليل على ذلك الأُمور الثلاثة:

٦ ـ أ . (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى):

إنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) فقد أباه وهو في بطن أُمّه، كما فقد أُمّه وله من العمر ست سنوات، فآواه ورحمه وضمّه إلى رحمته، بكفالة جدّه عبد المطلب، ثم بكفالة عمّه أبي طالب رضي الله عنهما.

٧ ـ ب . (وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى):

اختلف المفسّرون في تفسير المراد من الضلال، وأنهى الرازي الأقوال إلى عشرين قولاً، والذي يمكن أن يقال: إنّ المراد أحد معنيين:

الأوّل: الضلالة تطلق على معنيين يجمعهما فقد الهداية، هما:

١. هيئة نفسانية تحيط بالقلب فيكفر بالله سبحانه، وآياته، وبيّناته، وأنبيائه، ورسله، أو ببعض منها؛ فالضلالة في الكفّار والمنافقين من هذا القسم، فهم منحرفون في التصوّرات والعقائد، منحرفون في السلوك والأوضاع. فعلى هذا فالهداية والضلالة أمران وجوديان بينهما نسبة التضاد.

٢. فقد الهداية مع كونه لائقاً بها غير أنّه لا يكون باب الهداية مسدوداً في وجهه، كما هو الحال في الأطفال والأحداث، فهؤلاء في أوان حياتهم يفقدون الهداية لولا أنّ الله سبحانه يريهم طريقاً من طرق الفطرة وهداية العقل ثم الشرع.

فالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان ضالاًّ بهذا المعنى، أي كان فاقداً للهداية الذاتية، وإنّما هداه الله سبحانه منذ أن تعلّقت مشيئته بهدايته، وربّما يذكر مبدأها الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث قال: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللّهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

فوزان قوله تعالى:(وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى) وزان قوله سبحانه:(الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) طه: ٥٠، وقوله تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)(العصر: ٢ـ٣).

فليس الخسران في الآية أمراً وجوديّاً، مثل الخسران الموجود في الكافر والمنافق، بل المراد هو عدم الهداية الذاتية لفرض أنّ كلّ إنسان ممكن، وكلّ ممكن غير واجد لشيء من صميم ذاته، وإنّما يجد ما يجد من جانبه سبحانه.

وعلى هذا فالآية لا تمتّ إلى فساد العقيدة بصلة حتى يستدلّ بها على كون رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ والعياذ بالله ـ كافراً قبل البعثة أو في برهة من حياته.

وعلى هذا فالهداية أمر وجودي والضلالة أمر عدمي بينهما من النسب تقابل العدم والملكة.

والذي يدلّ على هذا المعنى أنّ السورة بصدد بيان نعمه سبحانه في أوان حياته، فعندئذ فالضلالة تعتبر أمراً عدمياً لا وجودياً.

نعم ربّما يُتساءل ويقال بأنّ الآية في مقام الامتنان على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومعنى ذلك كون الضلالة ثمّ الهداية من خصائص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعلى ما ذكرت لا يكون الأمران من خصائصه، بل يشمل كلّ إنسان فاقد نعمة الهداية في ذاتها ثم تأتيه من جانب الله سبحانه، فالضلالة بمعنى عدم الهداية الذاتية، والهداية بالطرق المألوفة ليس من خصائص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

أقول: قد تقدّم أنّ قوله تعالى: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)ليس من خصائص النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)مع أنّ الآية في مقام الامتنان، والغرض السامي من هذه الآيات ردّ الفرية الشائعة بين مشركي قريش من أنّ ربّ محمد ودعه وقلاه. وحقيقة الرد تتحقّق ببيان النعم الّتي تفضّل بها سبحانه على نبيه، من غير نظر إلى كونها من خصائصه وعدم كونها كذلك.

الثاني: ما اختاره صديقنا الشيخ مغنية(رحمه الله)، قال: كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حائراً في أمر قومه وضلالهم في عقائدهم، وتقاليدهم وفساد أعمالهم وجهلهم وتفرّق كلمتهم... ولايدري ما هو السبيل إلى هدايتهم حتى نزل عليه الوحي الّذي فيه تبيان كلّ شيء، وهدى ورحمة للعالمين، فضلال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وحيرته: كيف يهدي الكافرين، وهداه: نزول القرآن عليه. التفسير الكاشف: ٧/٥٧٩.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن عاشور التونسي، قال: والضلال عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى مكان مقصود، سواء سلك السائر طريقاً آخر يبلغ إلى غير المقصود، أم وقف حائراً لايعرف أي طريق يسلك، وهو المقصود هنا ؛ لأنّ المعنى: أنّك كنت في حيرة من حال أهل الشرك من قومك التحرير والتنوير: ٣٠/٣٥٣ ، وفي ذيل كلامه شيء ربما لانوافقه عليه..

أقول: إنّ المعنى الأوّل أنسب؛ لأنّ الآيات المتقدّمة كانت في مقام بيان حالات النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)أوان كونه طفلاً ثم شاباً (أي قبل البعثة)، وأمّا هذا المعنى فإنّما يرجع إلى أيّام نبوّته، أي حينما صار كهلاً بل شيخاً.

وهنا احتمال ثالث: وهو كونه ضالاً بمعنى أنّه غير عالم بنبوّته وما يوحى اليه في مستقبل حياته، ويدل على ذلك قوله سبحانه: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) الشورى: ٥٢ .، فالضلالة بهذا المعنى لا تنافي كونه موحّداً مؤمناً من طفولته الى زمان بعثته.

وأمّا إيمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)والشريعة التي كان يعمل بها فقد تحدّثنا عنهما في موسوعتنا «مفاهيم القرآن».(راجع: مفاهيم القرآن: ٥ / ٢٨٣ ـ ٢٠٦ .)

٨ ـ ج. (وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى):

والعائل ـ كما سبق ـ هو الفقير الذي لا مال له، لكن أغناه الله سبحانه بمال خديجة والغنائم، وقيل: أغناه بالقناعة والرضا بما أعطاه، وقيل: لم يكن غنياً بكثرة المال لكن الله سبحانه أرضاه بما آتاه من الرزق وذلك حقيقة الغنى، والأوّل هو الظاهر.

يذكر سبحانه من مننه الكبرى على النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان فقيراً فأغناه الله تعالى بالكسب.

وقال ابن هشام: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشيء تجعله لهم، فكانت قريش قوماً تجّاراً، فلمّا بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار مع غلام لها يقال له «ميسرة»، فقبله رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها «ميسرة» حتّى قدم الشام،... ثمّ باع رسول الله سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري. السيرة النبوية لابن هشام: ١/١٩٩.

ويظهر ممّا رواه أبو الحسن البكري في كتاب «الأنوار»، أنّ عمّه أباطالب هو الذي أرشده إلى هذا الأمر وأنّه قال لابن أخيه: إنّ هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها أكثر النّاس، وهي تعطي مالها سائر من يسألها التجارة ويسافرون، فهل لك يا ابن أخي أن تمضي معي إليها، ونسألها أن تعطيك مالاً تتّجر فيه؟ فقال: نعم.(بحار الأنوار: ١٦/٢٢.)

وقد صرّح أبوطالب في خطبته خديجة لابن أخيه بأنّه عائل مُقلّ، فقال: هذا محمّد بن عبدالله لايوازن برجل من قريش إلاّ رجح عليه، ولايقاس بأحد منهم إلاّ عظم عنه، وإنْ كان في المال مقلاًّ، فإنّ المال ورِق حائل، وظلّ زائل. المصدر نفسه ص ٦ نقلاً عن مناقب

ابن شهر آشوب: ١/٢٦. وهذا يعرب عن أنّ وقت الإغناء قد تحقّق بعد الاتّجار بمال خديجة.
فهذه الآيات الثلاث تفوح بعبير الودّ، والحبّ، والرحمة والإيناس، الّذي تعطَّر به الجوّ من حول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)في أوان حياته الشريفة.

٩ ـ ١١ الآيات: التاسعة إلى الحادية عشرة (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ....وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

المفردات

القهر: الغلبة والتذليل معاً، ويستعمل في كلّ واحد منهما، والمراد من الآية هو المعنى الثاني.
النهر: الزجر بمغالظة، يقول سبحانه: (فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفّ وَ لاَ تَنْهَرْهُمَا) الإسراء:٢٣..

التفسير

٩. (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ):
قُدّم المفعول على الفعل في الآيات الثلاث هذه، لأجل العناية بكلّ منه، والفاء في الآية الأُولى(فَأَمَّا الْيَتِيمَ) فاء تفريعية، وهو أنّ مَن كان يتيماً وفقيراً فما أجدره برعاية الفقراء والأيتام والاهتمام بشأنهم، فإذا كانت الحال تقتضي ذلك (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ)، ولاتدلّ على أنَّ النبيّ كان قاهراً له.
وفي الآية إشعار بأنّ العطف على اليتيم واللطف به أهم من الإطعام والإنفاق، وقد روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «مَن مسح على رأس يتيم كان له بكلّ شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة». مجمع البيان: ١٠/٧٦٧.
١٠. (وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ):
أي لاتنهر السائل ولاتردّه إذا آتاك يسألك، فقد كنت فقيراً، فإمّا أن تطعمه وإمّا أن تردّه ردّاً ليّناً؛ وفي الحديث عن عاص بن مالك قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إذا أتاك سائل على فرس باسط كفّيه، فقد وجب له الحق ولو بشق تمرة». مجمع البيان: ١٠/٧٦٧ ـ ٧٦٨.
هذا كلّه على أساس تفسير السائل بسائل المال، وربما يقال بأنّ المراد منه هو سائل العلم والهداية، مؤيّداً بأنّ قوله: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ) مرتّب على قوله: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى)، فعلى هذا يكون قوله: (وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ)مترتّباً على قوله سبحانه: (وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى)، كما أنّ قوله: (وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) يكون مترتّباً على قوله:(وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنى) على طريق اللّف والنشر المرتّب.
١١. (وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ):
أي: أذكر نعمة الله سبحانه شكراً له وحمداً.
ثمّ إنّ المراد من التحديث هو ذكر النعمة سرّاً وعلناً، روى فضل البقباق قال: سألت أباعبدالله(عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ:(وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)، قال: «الّذي أنعم الله عليك بما فضّلك وأعطاك». الكافي: ٢ / ٩٤ ح ٥، باب الشكر.
وفي «الكافي» بإسناده إلى أبي بصير قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «إنّ الله جميل يحبّ الجمال ويحبّ أن يرى أثر النعمة على عبده» الكافي: ٦ / ٤٣٨، ح ١، باب التجمّل وإظهار النعمة..
نعم ربما يفسّر قوله: (فَحَدِّثْ): أي أوسع في البذل على الفقراء، التفسير الكاشف: ٧/٥٨٠، نقلاً عن تفسير محمّد عبده.وهو خلاف المتبادر.
بقيت هنا كلمة وهي أنّ هذا الخطاب لا يعني التعريض بالنبيّ وتأديبه؛ لأنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) كان مملوءاً بالرحمة والعطف، وإنّما

هو خطاب له لغاية تأديب الأُمّة ودعوتهم إلى سلوك هذه الطريقة.

نعم يمكن أن يقال أنّ النعمة في الآية لاتختص بما حظي به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)من النعم الدنيوية، بل يعمّ التحديث بما أوحى الله إليه وجعله من المرسلين وخاتم النبيين وعلّمه ما لم يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً. كما يدل عليه قوله سبحانه: (وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)]النساء:١١٣[.

نعم التحديث بالنعم الدنيوية يجب أن يكون خالياً من التّفْرة، وأن يكون السامع ثقة من الإخوان لئلاّ يثير حفيظة الآخرين.

وبهذا تمّ تفسير آيات السورة، ولمّا كانت هذه السورة تذكر نعم الله سبحانه على نبيه الكريم فلنردف هذا بذكر عنايات الله تعالى عليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، عبر سنوات حياته قبل البعثة فنقول:

ملامح من أوائل حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

إنّ أصحاب السّير لم يذكروا عن حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، أيّام طفولته وشبابه، إلاّ القليل، فما يوجد في كتب السيرة ليس إلاّ ملامح من حياته المشرقة، ونحن نختم تفسير هذه السورة بذكرها، لأنّ فيه تجسيداً لما جاء في هذه السورة من فضل الله سبحانه عليه أيام طفولته وشبابه.

إنَّ في حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)أموراً تدلّ على أنّ هذا الطفل كان تحت رعاية الله تعالى، إلى أن بلغ وشبّ وكبر وحمل راية التوحيد، الى غير ذلك من الأُمور التي تدل على فضل الله عليه (صلى الله عليه وآله وسلم):

١. الكرامة الإلهية أيام الرضاع

نقل أهل السِّير عن حليمة السعدية أنّها لمّا دخلت دار عبد المطلب وسمع بمجيئها جاء من ساعته ودخل الدار، ووقف بين يدي حليمة، ففتحتْ حليمة جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، وأخذت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فوضعته في حجرها، ووضعت ثديها في فمه، والنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ترك ثديها الأيسر واضطرب إلى ثديها الأيمن، فأخذت حليمة ثديها الأيمن من يد النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)ووضعت ثديها الأيسر في فمه. وذلك أنّ ثديها الأيمن كان جهاماً أي كان خالياً من اللبن ولم يكن يدرّ به، والجهام: السحاب لا ماء فيه، وخافت حليمة أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) إذا مصّ الثدي في المصدر: الثدي الأيمن.ولم يجد فيه شيئاً لا يأخذ بعده الأيسر، فيأمر عبد المطّلب بإخراجها من الدار، فلمّا ألحّت على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يأخذ الأيسر والنبيّ يميل إلى الأيمن، فصاحت عليه وقالت: يا ولدي مصّ الأيمن حتّى تعلم أنّه جهام يابس لا شيء فيه، قال: فلمّا مصّ النبيّ الأيمن امتلأ فانفتح باللّبن حتّى ملأ شدقيه في المصدر: حتى امتلأ شدقيه كفم رأس الزق، بأمر الله. بأمر الله تعالى وببركته، فضجّت حليمة وقالت: واعجباه منك يا ولدي، وحقّ ربِّ السماء ربّيتُ بثديي الأيسر اثني عشر ولداً، وما ذاقوا من ثديي الأيمن شيئاً، والآن قد انفتح ببركتك. المناقب لابن شهر آشوب: ١/٢٤ ؛ بحار الأنوار: ١٥/٣٤٥.

إنّ الإنسان المادّي أو غيره ممّن اغترّ بقشور العلم قد يُنكر هذه الكرامة أو يشكك فيها ويعتبرها من نسج الخيال، وولائد الأوهام، ويقول في نفسه: كيف يمتلأ الثدي الجهام عبرَ سنين باللبن، بمصّ الطفل؟ ولكنّ الإنسان الإلهي الذي يؤمن بأنّ قدرة الله سبحانه وإرادته النافذة فوق العلل والأسباب الطبيعية وأنّه تعالى (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) هود: ١٠٧ . .. وهو لا يرى تلك الكرامة إلاّ مظهراً من مظاهر المشيئة المطلقة، الّتي لا يحدّها شيء، وأثراً من الآثار الّتي تصنعها الإرادة المدبّرة، وتقتضيها الحكمة البالغة. وكيف لا يؤمن بذلك، وهو يرى ما يشابهها في حياة مريم أُمّ عيسى(عليهما السلام)، فالقرآن يحدّثنا عن تساقط الرطب الجنيّ من جذع النخلة اليابسة كرامة لوالدة المسيح عندما لجأت إليها عند المخاض، يقول سبحانه: (أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا).(مريم: ٢٤ ـ ٢٥).

نعم، ثمّة فرق بين مريم الصدِّيقة وبين حليمة من حيث الملكات والمكانة والمنزلة، لكن إذا استوجبت منزلة مريم هذا اللطف الإلهي، ففي المقام ما يستوجب هذه العناية الإلهية، أعني: منزلة هذا الوليد العظيم.

٢. تعرّف نصارى الحبشة عليه وهو طفل

كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في أحضان مرضعته (حليمة) يعيش معها، والذي سبّب إرجاعه إلى عبد المطلب ما ذكره ابن هشام، قال: قال ابن إسحاق: وحدّثني بعض أهل العلم:

إنّه ممّا هاج أُمَّه السعدية على ردّه إلى أُمّه، مع ما ذكرتْ لأُمّه ممّا أخبرتها عنه، أن نَفَراً من الحبشة نصارى، رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلّبوه، ثمّ قالوا لها: لنأخذنّ هذا الغلامَ، فلنذهبن به إلى مَلِكنا وبَلَدِنا، فإنّ هذا غلامٌ كائن له شأن نحن نعرف أمره. فزعم الّذي حدّثني أنّها لم تكد تنفلت به منهم. السيرة النبوية: ١/١٦٧.

وهذا ليس أمراً بعيداً، لأنّه سبحانه يحكي أنّ أهل الكتاب كانوا يعرفون النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كما يعرفون أبناءهم، قال سبحانه: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)(البقرة: ١٤٦ والأنعام:٢٠.)، ويقول أيضاً: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَ الإِنْجِيلِ)(الأعراف: ١٥٧.)، إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على أنّ أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بشمائله وصفاته.

٣. ابتعاده عن الوثنية منذ نعومة أظفاره

كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يعيش في الصحراء مع إخوته لأُمّه الرضاعية، ولمّا تمّت له ثلاث سنين، قال يوماً لحليمة السعدية: ما لي لا أرى أخويّ بالنهار؟ قالت له: يا بنيّ، إنّهما يرعيان غنيمات.

قال: فما لي لا أخرج معهما؟

قالت له: أتحبّ ذلك؟ قال: نعم.

قالت حليمة: فلمّا أصبح محمّد، دهّنته وكحّلته وعلّقت في عنقه خيطاً فيه جذع يماني، فنزعه ثم قال لأُمّه: مهلاً يا أُمّاه فإنّ معي من يحفظني. بحار الأنوار: ١٥/٣٩٢، نقلاً عن المنتقى للكازروني، الباب الثاني من القسم الثاني.

٤. إعراضه عن الحلف باللاّت والعزّى

خرج النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) مع غلام خديجة (ميسرة) إلى الشام، ولمّا حضر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) سوق بُصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء، فقال له الرجل: احلفْ باللات والعزّى، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «ما حلفت بهما قط، وإنّي لأمرّ فأعرض عنهما». طبقات ابن سعد: ١/٢٥٦.

٥. رعيُه الغنم وتعويد النفس على مشاقّ الأُمور

روى ابن هشام عن ابن اسحاق، قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «ما من نبيّ إلاّ وقد رعى الغنم». قيل: وأنت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: «وأنا».

وجاء في هامش سيرة ابن هشام نقلاً عن «الروض الأُنُف»: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رعاها بمكة على قراريط لأهل مكّة. سيرة ابن هشام: ١/١٦٧.

ولعلّ وجه ذلك أنّ رعيَ الغنم من مشاقّ الأُمور، فإنّ شخصية عظيمة يفترض أنّها ستواجه طواغيت قريش كأبي جهل وأبي لهب، لابدّ أن تتسلّح قبل ذلك بسلاح الصبر، وتتجهّز بأداة التحمّل، وتتزوّد بقدرة الاستقامة، وهذا لايمكن إلاّ بتعويد النفس على المشاقّ قبل النهوض بعبء المسؤوليّة.

فبناء شخصية كريمة سامية صلبة، لا تلين ولا تستكين أمام إيذاء الجهّال، وسفَه الأنذال، وطغيان الجبابرة، رهنُ ترويض النفس على مشاق الأُمور، وصعاب الأعمال والأفعال.

ولعلّ هناك سبباً آخر لانتخابه رعي الغنم في الصحاري، وهو أنّه كان يرى بأُمّ عينيه دبيب الظلم والحيف بين قريش، وبخس حقوق الضعفاء منهم، وكان يشقّ عليه أن يرى تعاونهم على الإثم والعدوان وبخس الحقوق، ولا يتمكّن من ردعهم، فاختار العيش في الصحراء حتى يكون بعيداً عن هذه المظاهر المؤلمة المخزية مدّة خاصّة.

٦. مشاركته في حلف الفضول

حاصله: أنّه دخل رجل من زبيد مكة المكرّمة في شهر ذي القعدة الحرام، وعرض بضاعة للبيع فاشتراها منه العاص بن وائل لكن حبس عنه حقّه، فاستدعى عليه الزبيدي قريشاً وطلب منهم أن ينصروه على العاص، ولأجل أن يبلغ صوته أسماع قريش عامّة نادى بأعلى صوته وهم في أنديتهم حول الكعبة:

يا آل فهر لمظلوم بضاعتُه *** ببطن مكّة نائي الدار والنَفَر

ومُحرِمٌ أشعثٌ لم يَقض عُمْرتَه *** يا للِّرجال وبين الحِجر والحَجَر

إن الحرامَ لِمَنْ تَمَّت كرامته *** ولا حَرام لِثوب الفاجر القذرِ

فأثارت هذه الأبيات العاطفية مشاعر بعض شباب قريش، وبينهم النبيّ الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم في وجه الظالم، حتّى يؤدّي إليه حقَّه، ما أمكنهم ذلك، فمشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

ولمّا كانت أسماء المتحالفين مشتقة من لفظة الفضل (كفضل بن فضالة، وفضل بن الحارث، وفضل بن وداعة)، سُمّي الحلف بـ«حلف الفضول»، وقد شارك رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فيه، ونقلت عنه هاتان الكلمتان.

قال(صلى الله عليه وآله وسلم): «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيتُ به في الإسلام لأجبت».

وكان يقول: «ما أحبّ أن لي به حُمر النّعَم وإنّي كنت نقضته».[1]

١. السيرة الحلبية: ١/١٥٦ـ ١٥٧؛ ولاحظ: الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/١٢٩.

وما ذكرناه حول حياة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أيام طفولته وشبابه يُجسّدُ لنا قوله سبحانه: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَ وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَ وَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنى)، وما أشرنا إلى هذه الملامح إلاّ لغاية ترسيخ معاني هذه الآيات في ذهن القارئ الكريم.

يُشار إلى أنّ في تاريخ حياة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)قبل البعثة أُموراً أُخرى تشير إلى فضل الله تعالى عليه، تركنا ذكرها روماً للاختصار، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا «سيّد المرسلين».

***

تمّ تفسير سورة الضّحى

٩٤- سورة الانشراح

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَ إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ).

خصائص السورة

تسميّة السورة

سمّيت في بعض التفاسير بسورة «الشرح»، وفي صحيح البخاري سورة «ألم نشرح لك». صحيح البخاري: ١٢٧٢، كتاب تفسير القرآن.

وفي تفاسير أُخرى سمّيت بسورة «الانشراح»، وفي روايات أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) جاء اسمها سورة « ألم نشرح». تفسير نور الثقلين: ٥/٦٠٢.

وبما أنّ تسمية السور ليست توقيفية فتجوز التسمية بكلّ منها؛ إذ المقصود هو الإشارة إلى السورة من دون أن تدخل التسمية في لفظها أو معناها.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ثمانية، والظاهر أنّ السورة مكّية لأنّها على غرار سورة «الضحى» لفظاً ومعنىً، وصياغة ومضموناً ـ كما سيتّضح ـ.

ومع ذلك كلّه يحتمل كونها مدنيّة أيضاً، لأنّ مضمونها قابل للانطباق على حاله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أوائل دعوته وأواسطها وأواخرها.

أغراض السورة

الغرض المهمّ، تذكير النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالعناية الّتي حباه الله تعالى بها، وهي شرْح صدره، ويترتّب عليه أمران:

١. شرْح صدره لتستعدّ نفسه لقبول ما يفاض عليها من جانب الله تعالى، ويُلقى إليها من الوحي.

٢. شرْح صدره لِما كان يتضايق به من الأخلاق القبيحة الّتي كان يعجّ بها المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش فيه، ليتحمّلها إلى أن يتغلّب عليها.

مضافاً إلى ما وعده سبحانه من أنّه سيجد بعد عُسر يُسراً، وأنّه لا ينتهي من أداء أمر مهمّ حتى يبدأ بمهمة أُخرى كي يبقى السعي مستمراً. وسيوافيك أنّ الظاهر من شرح الصدر هو المعنى الثاني.

سبب النزول

لم يُذكر شيءٌ في سبب نزول السورة، ولكن لو قلنا بأنّها مكّية وأنّ آياتها نظير آيات سورة «الضحى»، يكون سبب نزولها هو نفس ما ذكر في سورة «الضحى».

وقد توهّم بعض المفسّرين أنّ سبب نزولها هو الإشارة إلى ما روي عن شقّ الصدر الوارد في الروايات المذكورة في بعض كتب السِّيرة وغيرها، وسيوافيك أنّ مسألة شقّ الصدر أُسطورة وليست بحقيقة.

١ ـ ٤ الآيات: الأُولى إلى الرابعة (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * .... وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)
١ ـ ٣. (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)
المفردات

الشرح: عبارة عن فصل أجزاء اللحم بعضها عن بعض، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم، والتشريح في الطّب. قال الراغب: أصل الشرح بسطُ اللّحم ونحوه، يقال: شرحت اللّحم وشرّحته. المفردات للراغب: ٢٠٨، مادة «شرح».

الصدر: الجارحة، وجمعه صدور، وقد يستعار لمقدّم الشيء، كصدر المجلس.

الوضْع: وهو الحطّ، والطرح، والإسقاط.

الوِزْر: الحَرَج. ووضعُه: حطّه عن حامله. وفي المفردات: الوزر: الثقل.

النقض: هو الكسر، يقال: أنقض ظهرك: أي أثقله حتّى سمع له نقيض، أي صوت كصوت المَحْمل والرَّحْل، وكلّ ما فيه انتقاض

وانفكاك.

التفسير

١ ـ ٣. (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ):

إنّ هذه الآيات على غرار قوله تعالى في السورة السابقة: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) وكأنّ الاستفهام الإنكاري في كلا الحقلين من الآيات، سِيقَ لنقد ما أشاعه المشركون من أنّ ربّه قلاه وتركه، فيقول سبحانه: كيف يصحّ ذلك مع أنّا أنعمنا عليك ـ مضافاً إلى ما سبق ـ بشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وهذه النعم أفضل دليل على أنّه سبحانه ما ودّعك وما قلاك.

ويؤيّد ما ذكرناه من وحدة الآيات في الغرض والمرمى، ما ورد عن أهل البيت(عليهم السلام): أنّه يجوز الجمع بينهما في ركعة واحدة. وكأنّهما سبيكة واحدة، مع أنّه لايجوز أو يكره قراءة سورتين في ركعة واحدة.

قال الشيخ الطوسي بسنده عن زيد الشحّام قال: صلّى بنا أبو عبدالله(عليه السلام) الفجر، فقرأ «الضحى» و «ألم نشرح» في ركعة واحدة. الوسائل : ٤، الباب ١٠ من أبواب القراءة في الصلاة، الحديث١.

وروى العيّاشي عن المفضل بن صالح، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: «لاتجمع بين سورتين في ركعة واحدة، إلاّ «الضحى» و «ألم نشرح» ،و « ألم ترَ» و «لإيلاف قريش»». الوسائل: ٤، الباب ١٠ من أبواب القراءة في الصلاة، الحديث٥.

والظاهر أنّ الإمام قرأهما مع البسملة.

لكن الطبرسي قال في المجمع : روى أصحابنا أنّ «الضحى» و «ألم نشرح» سورة واحدة لتعلّق إحداهما بالأُخرى، ولم يفصلوا بينهما ببسم الله الرحمن الرّحيم، والجمع بينهما في الركعة في الفريضة، وكذلك القول في سورة «أ لم ترَ كيف» و « لإيلاف قريش»، والسياق يدلّ على ذلك ؛ لأنّه قال: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى...). مجمع البيان: ٧٦٩/١٠.

ونقل ابن عاشور عن طاووس وعمر بن عبدالعزيز أنّهما كانا يقرآنهما في الركعة الواحدة لايفصلان بينهما (بالبسملة). قال ابن عاشور بعد نقله: هذا شذوذ من تسوير المصحف الإمام. التحرير والتنوير: ٣٥٩/٣٠.

لكن لم يظهر ممّا روي عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)أنّهم لايفصلون بينهما بالبسملة.

ثمّ الفرق بين الشرح والسعة واضح، فالثاني يستعمل فيما إذا زادت مساحة الشيء، يقال: وسّع داره بإلحاق دار أُخرى بداره، وأمّا الشرح فهو التعميق من دون أن يوسّع مساحة الشيء، كما هو الحال في شرح اللحم حيث يجعل من قطعة اللحم الواحدة، عدّه طبقات بعضها فوق بعض، والله سبحانه يقول: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) ولم يقل: أ لم نوسّع لك صدرك.

وقد جاء هذا التعبير في آيات أُخر، قال سبحانه: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُور مِنْ رَبِّهِ) الزمر:٢٢..

وقال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ) الأنعام: ١٢٥..

وقال تعالى: (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) طه:٢٥..

كما أنّه سبحانه يقول في مقابله: (وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ) . النحل: ١٠٦ . .

أقول: إنّ شرح الصدر في الآية يحتمل أحد وجهين:

١. شرح صدره بالوحي فملأه بالعلم والحكمة، وعلّمه ما يشاء، فصار يرى بنور الرسالة ما لايراه غيره ويدرك من المعارف ما لايدركه غيره، فصار في ظلّ الوحي على وجه بأن خاطبه عزّ وجلّ بقوله: (وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) النساء: ١١٣..

٢. أن نستظهر مفاد شرح الصدر من الآية التالية، أعني قوله تعالى: (الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ)، فالله سبحانه شرح صدره وأعطاه التحمّل

والاستعداد لما ينتقض منه الظهر.

ومن المعلوم أنّ الوحي والاطلاع على المعارف الإلهية ورقيّ روحه إلى درجات سامية حتى يرى ما لايرى غيره بنور الرسالة، ليس من الأُمور التي تؤدي إلى نقض الظهر، بل هي من العوامل الّتي تنشطه وتنبسط لها روحه، دون أن تنقض ظهره. فلم يكن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يتحرّج من الوحي، وليست التكاليف الإلهية مما تُحرجه وتنقض ظهره، فلابدّ أن يكون متعلّق شرح الصدر أمراً أو أُموراً تَنقض الظهر وتُحرج الإنسان ويضيق منها الصدر، وليس هو إلاّ الأمر التالي:

كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يعيش بين الوثنيّين وأقوام يسودهم منطق القوّة، شعارهم الخوف ودثارهم السيف، وفي الوقت نفسه لم يكن قادراً على ردعهم عن هذه السلوكيّات المنحرفة والعادات الجاهلية التي تضاد فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكان يضيق صدره بأخلاق قومه وعاداتهم والطقوس السائدة بينهم، وفي الوقت نفسه كان يسايرهم بالضرورة.

ولم يكن يضيق صدره بعادات قومه بما قبل البعثة بل استمرّ بعدها حيث جُوبهت دعوته بالسبّ والشتم وكيل التهم، بل كانوا يرمونه بالحجارة ويلقون الجيف والفرثَ عليه، بدل تبجيله وإكرامه، فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يضيق صدره بالظروف المحدقة به، كما يحكي عنه سبحانه هذه الحالة، ويقول: (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء وَكِيلٌ) هود: ١٢..

ويقول تعالى في آية أُخرى حاكياً عن حالته الروحية: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) الشعراء: ٣..

فالآية الأُولى تدلّ على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يغتمّ ويضيق صدره بتلك الطلبات الّتي تكشف عن عتوّهم وعنادهم .

كيف لا يضيق صدره (صلى الله عليه وآله وسلم)وهو يرى أنّ حياة العرب في العصر الجاهلي حياة مليئة بالحروب والغزوات، ونهب الأموال، فكان الخوف شعارهم والسلاح دثارهم، ولذلك وصف الإمام علي (عليه السلام)أيّام الجاهلية الّتي بعث فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وقال: «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَة مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَة مِنَ الاُْمَمِ وَاعْتِزَام مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَار مِنَ الاُْمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ؛ عَلَى حِينِ اصْفِرَار مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَاس مِنْ ثَمَرِهَا، وَاغْوِرَار مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلاَمُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لاَِهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا. ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ». نهج البلاغة: الخطبة ٨٩ .

كما أنّ الآية الثانية تدلّ على مبلغ الألم الّذي كان يعاني منه النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، والأسى الّذي كان يملأ نفسه، حتى كاد يُهلكها، بسبب إصرار قومه على الباطل والضلال، وإعراضهم عن الحق والإيمان .

هاتان الآيتان تجسّدان الأسباب التي تؤدّي إلى ضيق صدره وانقباض روحه.

وممّا يؤيّد ما قلناه من أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يضيق صدره بسبب الأُمور المحدقة به، أنّ موسى (عليه السلام)عندما بُعث إلى فرعون، دعا ربّه وقال: (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي) طه: ٢٥ـ٢٦.، فكان موسى في حرج ممّا يقابله به فرعون أوّلاً، وجلاوزته ثانياً، فطلب من الله أن يشرح صدره حتى تهون أمامه المصاعب التي تعترضه، والتحدّيات الّتي تواجهه.

فإذا تبيّن أنّ الحقّ هو المعنى الثاني، فلنذكر كيفية شرْح صدر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). ويتّضح ذلك من خلال ملاحظة الأُمور التالية، الّتي وهبها الله تعالى له:

أوّلاً: أنّه سبحانه أعطاه خُلُقاً قويماً سامياً رفيعاً، وكفى في بيان سمّوه أنّ خالقه يصفه بالعظمة ويقول: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم) القلم: ٤..

ومن مظاهر هذا الخُلق العظيم أنّه يستسهل ما يواجه من الجهّال من كلمات نابية، ويتعامل معهم معاملة الأب الرؤوف تجاه ولده

العاق، يقول سبحانه: (فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) آل عمران: ۱۵۹..

ثانياً: أعلن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) دعوته إلى توحيد الله سبحانه، وكان يوم دعوته وحيداً فريداً لا يتصوّر له النجاح بادئ النظر أمام أحزاب الشرك والوثنية التي كانت تسود الجزيرة العربية منذ قرون، ولكن تعلّقت مشيئته سبحانه بظفره ونجاحه فآمنت به ثلّة من المؤمنين، استعدوا للشهادة وهجروا الأولاد والأوطان دون أهداف الرسالة، من غير فرق بين حياته المكّية أو المدنية، وإن كان هذا العامل في الثانية أكثر، فصار هؤلاء جنوداً لله سبحانه، وأجنحة قوية، ترتقي بها آمال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حماية الرسالة وصيانتها.

فاجتاز النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بفضل هؤلاء الجنود، الحواجز والعقبات التي كان تحول بينه وبين آماله وأهدافه، وبذلك انشرح صدره وامتلأ سروراً، يقول سبحانه في حق هؤلاء المجاهدين: (وَ لَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَ تَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) الأحزاب: ۲۲ـ۲۳..

وبذلك دخل الناس في الإسلام أفواجاً، فوجاً بعد فوج، ووفداً بعد وفد، قال سبحانه: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً) النصر: ۱ ـ ۲ .. وأيّ انشراح للصدر أفضل من أن تتحرّر مكّة من الوثنية وعبادة الأصنام، وأن يسودها ما رسمه جدّه الخليل (عليه السلام)حيث جعل البيت الحرام قبلة الموحّدين ومركزاً للمسلمين، فصار كذلك لكن بعد عدة قرون، وبذلك قرّت عينا النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)وهو يرى الذين كانوا يعبدون الأصنام قد غدوا يوحّدون الله سبحانه ويسجدون له وحده، ويجاهدون في تحطيم الأصنام وإزالة الوثنية، حتى طهروا أرض الجزيرة من أدناسها وآثامها.

شرح الصدر في كتب السيرة

وربما يفسَّر الشرح في كتب السيرة النبويّة بما يلي:

قالت حليمة:.... وبلغ حفيد عبد المطلب سنتين، فبينما هو (صلى الله عليه وآله وسلم)وأخوه في بُهم لنا خلف بيوتنا (والبهم: أولاد الضأن) إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، فشقّا بطنه فهما يسوطانه أي يدخلان يديهما في بطنه.، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً أي متغيّراً، صار لونه كلون النقع أو الغبار. وجهه لما ناله من الفزع، أي من رؤية الملائكة.

ثم قالت (حليمة): فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بنيّ؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): جاءني رجلان عليهما ثياب بيض (أي: وهما جبرئيل وميكائيل) فأقبلا يبتدراني فأخذاني فأضجعاني فشقّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً، فوجداه فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو.

ثم ذكر أهل السيرة منهم السهيلي: أنّ الذي أخرجاه هي العلقة التي هي محل مغمز الشيطان عند الولادة، أي مطمعه.

ثم إنّ صاحب السيرة الحلبية بسط الكلام في الأقوال المختلفة في هذا الباب بما يزيد على عشرين صفحة. لاحظ: السيرة الحلبية: ۱/۱۵۱ ـ ۱۷۰.

ثم إنّ المؤلّف حاول الجمع بين الروايات المختلفة التي تدلّ تارة على أنّه كان في حجر حليمة، وأُخرى أنّه كان ابن عشر سنين، وثالثة أنّه كان ابن عشرين سنة، كما حاول الجمع بين شقّ الصدر والبطن والقلب، كما تكلّم في كيفية الشق وغسل أحشاء البطن ثمّ إعادتها إلى محلّها، إلى غير ذلك من الأُمور المتعارضة.

أقول: مهما كثرت رواة هذا الأمر، فإنّه لا يمكن الاعتماد على أخبارهم، وذلك:

أوّلاً: أنّ عظمة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) تتجلّى في العزوف عن ارتكاب المعاصي والآثام، مع قدرته على فعلها وممارستها،

وقد قلنا ـ في محلّه ـ :

إنّ العصمة لاتسلب الاختيار والقدرة عن المعصوم، فلو صحّ ما في هذه الروايات من أنّ الملائكة أخرجت ما هو حظّ الشيطان ومغمزه ومطمعه، أو صحّ ما يقولون: أخرج الغلّ والحسد منه ـ كما في رواية أُخرى ـ لاحظ: السيرة الحلبية: ١/١٦٠ ـ ١٦٧. فمعنى ذلك أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) صار غير قادر على الإتيان بكلّ المعاصي أو بعضها كالغلّ والحسد، وهذا يحطّ من عظمة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أجلّ وأفضل من النبي يوسف(عليه السلام) حيث إنّه في قمّة شبابه وقوّة شهوته، استعصم وقطع الطريق أمام إغراء امرأة العزيز التي هيّأت نفسها وتزيّنت بأجمل أنواع الزينة، و (قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) يوسف: ٢٣..

فلو لم تكن في النبيّ يوسف(عليه السلام) حاجة جنسية شديدة، لما كان لهذا الردّ قيمة ولا فضل بين العقلاء.

فكذلك النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما بلغ هذه المرتبة والمكانة ؛ لأنّه كان ذا قدرة على المعصية، إلاّ أنّه لم يعص الله طرفة عين حتى لقائه بالرفيق الأعلى.

وثانياً: أنّ عليّاً(عليه السلام) كان أعرف الناس بحالات النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وبمحطات حياته وملابساتها ؛ لأنّه كان ربيب بيت النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ ربّاه في حجره منذ أن كان وليداً، ومع ذلك لم نجد في كلامه إشارة إلى تلك العملية الجراحية الّتي أُجريت لأخيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما قال، وهو يصفُ أيّام طفولته (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الفطام بقوله: «لقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله وسلم)من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢، المعروفة بالخطبة القاصعة، الفقرة ١١٧.

فإذا كان للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عند الله تلك المنزلة، فأيّ حاجة لنزول ملكين لكي يشقّان بطنه أو صدره على وجه يدخل الخوف والفزع عليه، ويصير لون وجهه كلون النقع، ويخرجان مغمز الشيطان من بطنه أو صدره، أو يغسلان أحشاءه، إلى غير ذلك ممّا يشبه الأساطير؟!

قال المفسّر الكبير الطبرسي، وهو ينكر قسماً من روايات المعراج: وكذلك ما رُوي أنّه]يعني جبريل [شقّ بطنه وغسله، لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان طاهراً مطهّراً من كلّ سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد، بالماء؟! مجمع البيان: ٦ / ٢٤٨، تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء).

٤. (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ):

هذه الآية تدلّ على أنّه سبحانه عظّمه وكرّمه بنعمة عظيمة لم يكرّم أحداً بها، وهي أن رفع ذكره في مجالات مختلفة، ومنها جعل اسمه مقترناً باسم الله تعالى في كلمة الإسلام، ولا يصحّ إسلام أحد إلاّ أن يشهد بشهادتين، شهادة أن لا إله إلاّ الله، وشهادة أنّ محمّداً رسول الله.

ولم يقتصر على ذلك، بل رفع ذكره بجعل الشهادة على رسالته جزءاً من أجزاء الأذان، فالمؤذنون يهتفون باسمه في كلّ يوم ـ عدة مرّات ـ ويشهدون له بالرسالة.

كما أنّ الله سبحانه جعل طاعة رسوله طاعته تعالى، قال عزّوجلّ: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ) النساء: ٨٠ ، كما جعل عصيان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في جنب عصيان الله، وقال: (وَ مَنْ يَعْصِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً) الأحزاب: ٣٦، غير أنّ رفع ذكر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أثار حفيظة طائفتين:

الأُولى: معاوية وأشياعه من الأُمويّين وغيرهم، قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، فيتحدّث

معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويُعجَب بما يرى منه، إذ جاء ذاتَ ليلة، فأمسك عن العَشاء، ورأيته مغتمّاً فانتظرتهُ ساعة، وظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بنيّ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له (أي لمعاوية) وقد خلوتُ به، إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فواللّه ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك ممّا يبقى لَكَ ذكرُه وثوابه؛ فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكر أرجو بقاءه! مَلك أخو تيم (يعني أبا بكر) فَعَدَل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتّى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل أبو بكر، ثم ملك أخو عديّ (يعني عمر) فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلاّ أن يقول قائل: عمر؛ وإن ابن أبي كبشة (يعني رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)) ليُصاح به كلّ يوم خمس مرّات: «أشهد أن محمّداً رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا، لا أبا لك، لا واللّه إلاّ دفناً دفناً». شرح نهج البلاغة: ١٢٩/٥.

ترى أنّ معاوية الذي يمثّل فكر الأمويّين يغتمّ من رفع ذكر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، بل يتميّز غيظاً.

وقد قضى ـ بحمد اللّه ـ على تلك الفكرة الخبيثة المسلمون عبر القرون، ولكنّها عادت بثوب آخر في العصور الأخيرة على يد طائفة ثانية، نشير إليها فيما يلي.

الثانية: الوهابية، وهؤلاء هم الذي يتضايقون من رفع ذكر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)

في ذكرى يوم مولده أو مبعثه، ويصفون الاحتفالات التي كان المسلمون يقيمونها عبر القرون، بالبدعة في الدين.

يقول الوهابي محمدحامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنّة المحمّدية في حواشيه على كتاب الفتح المجيد: الذكريّات التي ملأت البلاد باسم الأولياء، نوع من العبادة لهم وتعظيمهم الفتح المجيد: ١٥٤.، وفي مقابله يقول سبحانه: (وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ). الانشراح: ٤.

إنّ إقامة المجالس والاحتفالات هي نوع من رفع الذّكر، والمسلمون لايهدفون من الاحتفال بميلاد النبيّ ومبعثه وغير ذلك من المناسبات الدينية، سوى رفع ذكره وذكر أهل بيته الأطهار(عليهم السلام).

فلماذا لا نَقتدي بالقرآن؟!

أليس القرآن قدوة وأُسوة لنا؟!

هذا... وليس لأحد أن يقول: «إنّ رفع ذكره(صلى الله عليه وآله وسلم) خاصّ باللّه سبحانه ولايشمل غيره» لأنّ ذلك أشبه بمن يقول: إنّ نصر النبيّ خاصّ باللّه سبحانه، ولا يجوز لأحد من المسلمين أن ينصره وقد قال تعالى: (وَ يَنْصُرَكَ اللّهُ نَصْراً عَزِيزاً) الفتح: ٣..

وليست هذه الآية هي الوحيدة الّتي تحثّ على إحياء ذكرى النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بالدلالة الالتزامية، بل هناك آية أُخرى تحثّ على إحياء ذكراهُ (صلى الله عليه وآله وسلم)حيّاً وميّتاً ـ ولا شكّ أنَّ الاحتفال بميلاده إذا تجرّد عن أي مكروه، هو تكريم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ وهي قوله سبحانه: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الأعراف: ١٥٧ ..

إنّ الجمل الّتي وردت في هذه الآية عبارة عن:

١. (آمَنُوا بِهِ).

٢. (عَزَّرُوهُ).

٣. (نَصَرُوهُ).

٤. (اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ).

فإنّ الفقرة الثانية (عَزَّرُوهُ) بمعنى تكريم النبي وتعظيمه لا بمعنى نصرته، لأنّ النصرة وردت في الفقرة الثالثة لاحظ : المفردات

للراغب: ٣٣٣، مادة «عزر» ،. وإطلاق الآية يعمّ كلتا الحالتين: حالة حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وحالة وفاته، وعندئذ نسأل الوهابيين: أليست إقامة الاحتفالات يوم ميلاد النبي أو بعثته وإلقاء الخطب والأشعار وتلاوة الآيات الواردة في مدحه، مصداقاً واضحاً لقوله تعالى: (وَ عَزَّرُوهُ) ؟

وفي الذكر الحكيم آية ثالثة ـ أيضاً ـ يمكن الاستدلال بها على جواز هذه الاحتفالات، وهي قوله تعالى: (رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) المائدة: ١١٤ ..

إنّ النبي عيسى (عليه السلام)سأل ربه أن ينزل عليه وعلى حواريه مائدة من السماء واعتبر يوم نزولها عيداً للنصارى على وجه الإطلاق.

فهل ـ ياترى ـ أنّ شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)أقلّ شأناً من تلك المائدة الّتي اتّخذ المسيح يوم نزولها عيداً.

إذا كان اتّخاذ ذلك اليوم عيداً لكون المائدة آية إلهية ومعجزة سماوية... أليس نبيّ الإسلام أكبر آية إلهية ومعجزة كل القرون والعصور؟!

تبّاً وبعداً لقوم يوافقون على اتّخاذ يوم نزول المائدة السماوية ـ الّتي لم يكن لها شأن سوى إشباع البطون الجائعة ـ عيداً، ولكنّهم يُهملون يوم نزول القرآن على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ويوم مبعثه الشريف، بل ويعتبرون الاحتفال به بدعة وحراماً!!

ما أشبه الليلة بالبارحة

إذا كان محمد بن عبدالوهاب يحرّم (يوم أمس) الاحتفال بذكرى ولادة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويعدّه بدعة، فهذا هو جيلاداستون وزير خارجية بريطانيا قد أصدر بياناً عام ١٨٨٨ م إلى الكنائس، لمّا رأى أنّ الإسلام بدأ ينتشر في بلاد الغرب بفضل قوة منطقه ومناسكه الّتي تضفي على بقائه روعة وقوة، فقال في ضمن خطابه: فما دام القرآن يُتلى والكعبة تُحج ومحمد يُذكر في المآذن فالنصرانية في خطر عظيم، فعليكم بالقرآن فحرّقوه، وبالكعبة فهدموها، وباسمه فامحوا اسمه عن المآذن.

فهذا هو معاوية يغتمّ من ذكر النبي كلّ يوم خمس مرّات، وهذا هو محمد بن عبد الوهاب ـ لاعق كأس معاوية ـ يحرّم الاحتفالات بميلاد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وبعثته، وهذا هو الوزير النصراني يأمر بمحو اسمه عن المآذن وهدم الكعبة، وكأنّ الشياطين: (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْض زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ) الأنعام: ١١٢ ..

ولعلّ الهدف من هذه الآيات هو دعوة المسلمين إلى نُصرة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وتخليد ذكراه وإحياء اسمه وسيرته.

٥ و ٦ الآيتان: الخامسة والسادسة (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً).

التفسير

ما جاء في الآيتين سنّة من سنن الله سبحانه، وهي أنّ الشدّة يعقبها الفرج عاجلاً أو آجلاً، وقد قال سبحانه في آية أُخرى (سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْر يُسْراً) الطلاق: ٧، وبما أنّ اليسر والعسر نقيضان أو ضدّان فهما لا يجتمعان ، فيكون لفظ «مع» في الآية بمعنى التقارن، ولعلّ الإتيان به لأجل إفادة الاتّصال الوثيق بينهما، والتكرار لغاية التأكيد ولتمكين الأمر من القلوب.

وأمّا ابتداء الآية الأُولى بفاءالفصيحة فهو يدلّ على كلام مقدّر يشير إليه الاستفهام التقريري، أي: إذا علمت ذلك وأنّ الله سبحانه أنعم عليك بهذه النعم، تعلم أنّ العسر دائماً يصاحب اليسر ولن يدوم العسر أبداً، وكأنّ الآية توحي إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه لو واجه مصاعب وعقبات جديدة في حياته فهي ليست باقية دائمة بل يترتّب عليها اليسر والفرج، فقد جرت سنّته على أنّ كلّ معضلة بعدها حلّ، وكلّ صعوبة بعدها يُسر، وهما مقترنان لايفترقان، فهما كالفرقدين في السماء لايتفارقان.

والخطاب وإن كان للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لكن المضمون يعمّه وغيره، لأنّه ليس سنّة اختصاصية له(صلى الله عليه وآله وسلم) بل سنّة عامّة.

ثم إنّ الظاهر أنّ (يُسْراً) في الآية الثانية هو نفسه في الآية الأُولى والجملتان على غرار واحد قصد بهما التأكيد.

نعم روي عن الفرّاء أنّه قال: إنّ العرب إذا ذكرت نكرة ثم أعادتها نكرة مثلها صارا مثلين كقولك: إذا كسبت درهماً فأنفق درهماً، فالثاني غير الأوّل؛ وإذا أعادتها معرفة فهي هي، كقولك: إذا كسبت درهماً فأنفق الدرهم، فالثاني هو الأوّل.

ولو صحّ ما ذكر فالعسر في كلتا الآيتين مع الألف واللاّم فيكون إشارة إلى العسر الأوّل، بخلاف اليُسر فإنّه جاء فيهما نكرة يشير إلى أنّه غير الأوّل، فعلى هذا فيستفاد من الآية أنّ في عسر واحد يُسرين، وبذلك يفسر ما أُثر عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه خرج مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: «لَن يغلب عُسرٌ يُسرين» ثم قرأ الآية: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً). تفسير نور الثقلين: ٥/٦٠٤.

وقد زيّف الجرجاني هذا الرأي في جانب الإعادة نكرة ، وقال بأنّه من المعلوم أنّ القائل إذا قال: إنّ مع الفارس سيفاً، إنّ مع ا لفارس سيفاً، لم يلزم منه أن يكون هناك فارس واحد معه سيفان. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، (تفسير النيسابوري): ١١ / ٤٣٧ .

أقول: ما ذكره الفرّاء من أنّ اللفظ الثاني إذا كان معرفة فهو يشير إلى نفس اللفظ الأوّل، صحيح فيما لو كان اللفظ الأوّل نكرة والثاني معرفة، كما في قوله سبحانه: (كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) المزمّل: ١٥ ـ ١٦، وأمّا الآية فقد أعادت المعرفة معرفة حيث إنّ العسر في كلتا الآيتين معرفة فتكون خارجة عن القاعدة. وبالتالي لا تدل على وحدة العسر كما هو المطلوب.

والظاهر كما قلنا: إنّ الآية الثانية تأكيد للآية الأُولى من دون إشارة إلى وحدة العسر وتعدّد اليُسر، نظير قوله سبحانه: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) القيامة: ٣٤ـ٣٥. .

وأمّا ما أُثر عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ فلو صحّ سنداًـ فلعلّ الغاية من التثنية هو التكثير لا التعدّد، مثل قوله سبحانه:(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)(الملك :٤.)؛ إذ ليس المقصود إرجاع البصر مرّتين فقط، بل المراد الإرجاع مرّة بعد مرّة، وعلى هذا فتثنية اليسر في حال وحدته، لغاية كثرته وشموليته.

ثم إنّ للمفسّرين كلمات حول الحديث، فمن أراد فليرجع إلى تفاسيرهم.

روى الشيخ الطوسي في «تهذيب الأحكام» بسنده عن السّكوني إلى أن يصل إلى علي(عليه السلام) أنّ امرأة استعدتْ على زوجها: أنّه لايُنفق عليها، وكان زوجها معسراً فأبى علي(عليه السلام) أن يحبسه وقال: (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً).

وروى الصدوق في «من لايحضره الفقيه» بإسناده إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: « واعلم أنّ مع العسر يسراً، وأنّ مع الصبر النصر، وأنّ الفرج مع الكرب،(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)». تفسير نور الثقلين: ٥/٦٠٤ ـ ٦٠٥.

٧ ـ ٨ الآيتان: السابعة والثامنة (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَ إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ):

المفردات

الفراغ: خلاف الشُّغل، ويستعمل فيما إذا كان فاعله مملوءاً بشيء ثمّ خَلا منه، قال سبحانه: (وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً) القصص: ١٠. كأنّما فرغ من لبّها لما تداخلها الخوف.

النَّصَب: هو التعب، قال سبحانه: (لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ)(فاطر: ٣٥.).

وقال سبحانه: (لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً) الكهف: ٦٢..

الرَّغب: السعة في الإرادة، قال سبحانه: (وَ يَدْعُونَنَا رَغَباً وَ رَهَباً) الأنبياء:٩٠..

فإذا قيل: رغب فيه وإليه، يقتضي الحرص عليه، قال تعالى:(إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) التوبة: ٥٩، القلم: ٣٢..

وإذا قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه بمعنى الإعراض، قال تعالى: (وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) البقرة:١٣٠.

التفسير

٧. (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ):

لمّا ذكر الله سبحانه نعمه على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ووعده اليُسر وانفراج الغمّ، وهيّأ نفسه لاستمرار العمل في طريق الدعوة الإلهية، أمره عند ذاك بأنّه إذا فرغ من مهمة، فَلْيَنصَبْ نفسَه ويُجهدها بعمل آخر، ولاتكون المهمة الأُولى آخر أُمنيته بل يستمر في العمل والاشتغال بالمهمات إلى نهاية عمره.

وبما أنّ المتعلّق في كلا الفعلين محذوف، فحذفه يفيد العموم، فكما يمكن أن يكون المراد فإذا فرغت من الغزو والجهاد فاتعب نفسك باصلاح أُمتك، يمكن أن يكون المراد فإذا فرغت من أُمور الدنيا فانصب في صلاتك، فتخصيص الآية بواحدة منهما أو غيرهما، لا دليل عليه، ولذلك يمكن أن يكون المراد: فإذا فرغت من مهمة الحج فاتعب نفسك بنصب عليّ للولاية من دون حاجة لإفادة هذا المعنى إلى قراءة «فانصِب» بكسر الصاد، بل تكفي القراءة بالفتح في تصحيح إرادة ذلك باعتبار عموم المتعلّق، فيشمل كلّ مهمة شاقّة تأتي بعد مهمة، وأيّ مهمّة أعظم وأشقّ من نصب الوصيّ.

ومن أعجب ما جاء في تفسير الكشّاف، هو أنّ مؤلّفه الزمخشري ـ وهو معتزلي ـ يتلاحم مع العدلية وعلى رأسهم إمامهم علي بن أبي طالب(عليه السلام)حيث إنّ العدلية (وهو منهم) أخذوا أُصولهم منه، قد تكلّم بكلام ناب بعيد عن أمثاله، وإليك نصّه:

ومن البدع ما روي عن بعض الرافضة أنّه قرأ: «فانصِب» بكسر الصاد، أي فانصب عليّاً للإمامة، ولو صحّ هذا للرافضيّ صحّ للناصبي أن يقرأ هكذا ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض عليّ وعداوته. تفسير الكشاف: ٣/٣٤٨.

أقول: إنّ الإمامي (لا الرافضي، فإنّه من قبيل التنابز بالألقاب) في غنى، لإثبات ما يرتئيه، عن القراءة بالكسر حتى يُواجَه بذلك الاحتمال الباطل الذي ذكره الزمخشري، بل تكفيه القراءة الرائجة ويقول إنّ المراد: أتعب نفسك يا رسول الله بمهمة بعد مهمّة، وقد قلنا: إنّه عامّ يعمّ كلّ مهمّة ممّا يرجع إلى أُمور الدنيا والآخرة، وتعيين الوصيّ من مهام الأُمور الدنيوية والأُخروية، إذ بذلك يقطع أُصول الاختلاف وجذور الشغب بعد رحيله.

ولو افترضنا أنّ إمامياً قرأ بالكسر فإنّ الردّ عليه بما ذكره الزمخشري بعيد عن مثله، وفي هذا الصدد يقول الفيض الكاشاني: إنّ نصب الإمام والخليفة بعد تبليغ الرسالة والفراغ من العبادة أمر معقول، بل واجب لئلاّ يكون الناس بعده في حيرة وضلال فيصحّ أن يترتّب عليه، وأمّا بغض عليّ(عليه السلام) وعداوته فما وجه ترتّبه على تبليغ الرسالة أو العبادة؟ وما وجه معقوليته؟ على أنّ كتب العامّة مشحونة بذكر محبة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لعليّ(عليه السلام)وإظهار فضله للناس مدّة حياته وأنّ حبّه إيمان وبغضه كفر. تفسير الصافي: ٥/٣٤٥.

٨ . (وَ إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ):

ولمّا أمر الله سبحانه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالاستمرار بالعمل وإتعاب النفس يوماً بعد يوم، أمره في هذه الآية بالتوجّه إلى الله سبحانه والرغبة إليه وطلب النصر منه مكان طلب النصر من غيره، وقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، ولو أنّ جميع الخلائق اجتمعوا على أن يصرفوا عنك شيئاً قد قُدّر لك لم يستطيعوا، ولو أنّ جميع الخلائق اجتمعوا على أن يصرفوا إليك شيئاً لم يُقدّر لك لم يستطيعوا، واعلم أنّ الصبر مع العسر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ اليسر مع العسر، وكلّ ما هو آت قريب» بحار الأنوار: ٧٤/١٣٦، مستدرك الحاكم: ٣/٥٤٢..

ولعلّ مضمون الحديث هو ما نجده في قوله سبحانه: (وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْر فَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْء قَدِيرٌ) الأنعام: ١٧..

وقوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لاَ تَحْوِيلاً) الإسراء: ١٧..

ثمّ إنّ الأمر بسؤاله سبحانه دون غيره ليس بمعنى إبطال التوسّل بالأسباب المادية والمعنوية، فإنّ التوسّل بها يماثل سؤاله سبحانه وتعالى، لأنّه هو الّذي أجرى الأُمور على أسبابها، وجعل لكلّ شيء سبباً، فالاستعانة بالأسباب بما أنّها قائمة بالله سبحانه ومفيضة حسب إرادته فهي نفس سؤاله سبحانه، فالترتيبات الإدارية ـ مثلاً ـ إذا كانت تحت نظر رئيس هذه الدولة، فإنّ الرجوع إلى أحد الموظفين، هو تنفيذ لإرادة الرئيس. وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد قال سبحانه (وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَوةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ). البقرة: ٤٥.

نعم ربما يمكن أن يتّخذ قوله سبحانه: (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) ذريعة إلى إبطال التوسّل، فإنّ المتوسّل بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ـ مثلاً ـ يرغب إلى غير الرب، مكان الرغبة إليه، ولكنّه توهّم محض لوجهين:

الأوّل: أنّه سبحانه في الوقت الّذي يأمر بالرغبة إليه يأمر بالمجيء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)حتّى يستغفر لذنوب المؤمنين ويقول: (وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) النساء: ٦٤ ..

فلو كان التوسّل بأولياء الله ورسله أمراً مغايراً مع الأمر بالرغبة إلى الرب، فهذا يلزم وجود التناقض في القرآن الكريم.

وما ربّما يقال من أنّ الآية تختصّ بحياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لا يضرّ بما نحن فيه، إذ الهدف بيان أنّ التوسّل بما هو هو لا ينافي ما جاء في هذه السورة.

وثانياً: أنّ التوسّل بالأنبياء والرسل والأولياء يتصوّر على وجهين: تارة يتصوّر أنّ بيدهم أدوات المغفرة والشفاعة، فهم يقومون بهذه الأُمور من دون إذن من الله سبحانه، ومن المعلوم أنّ التوسّل بهذا المعنى يعادل الشرك ولم يقل به أحد من المسلمين.

وأُخرى: أنّهم يقومون بذلك بأمره سبحانه وبإذنه، ومن المعلوم أنّ عملهم حينئذ يُعدّ عملاً للرب لا مغايراً له، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا «التوسّل في الكتاب والسنّة».

تمّ تفسير سورة الإنشراح

٩٥- سورة التين

(وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ * وَ طُورِ سِينِينَ * وَ هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت السورة في بعض التفاسير بسورة «التين»، بحذف واو القسم، كما هو الحال في سورة «القلم»، وفي بعض آخر سمّيت بسورة «و التين» بإثبات الواو، وقد قلنا: إنّ التسمية ليست توقيفية، وإنّ الغرض منها هو الإشارة إلى السورة من دون تدخل في لفظها ومعناها.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ثمان، وهي مكّية، ويشهد لذلك أمران:

١. أنّها تذكر البعث والجزاء، وتسلك إليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم،لكنّ الإنسان بين مَن يبقى على الفطرة الأوّلية

وبين مَن يخرج منها، ويُردّ إلى أسفل سافلين، وهذا المضمون أنسب بالآيات المكّية.

٢. أنّه سبحانه يقسم فيها بالبلد الأمين، مشيراً إليه بقوله: (وَ هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ)، والإشارة تلازم كون المشار إليه حاضراً عند المشير إليه، ولو كان بعيداً عنه لما صحّ إلاّ بتأويل.

أغراض السورة

قد مرّ أنّ السورة تذكر البعث والجزاء وتسلك إليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم تبيّن مصير الإنسان الّذي إمّا أن يرتقي إلى حدّ الكمال اللائق به، أو ينزلق إلى الحضيض وإلى أسفل سافلين، والتمييز بينهما إنّما يحصل في يوم القيامة بحكم أحكم الحاكمين.

١ ـ ٤ الآيات: الأربع الأُولى(وَالتّينِ وَ الزَّيْتُونِ..... لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم).

(وَالتّينِ وَ الزَّيْتُونِ * وَ طُورِ سِينِينَ * وَ هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ* لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم).

المفردات

التين والزيتون: فاكهتان معروفتان، ويحتمل بعيداً أن يراد بهما شجرتا التين والزيتون، والحكمة في القسم بالفاكهتين أو الشجرتين اللتين تُثمرهما هو التنبيه على ما فيهما من فوائد كثيرة، كما سنذكره في تفسير الآية.

و هناك قول آخر هو أنّ التين والزيتون جبلان في الأرض المقدّسة يقال لهما بالسريانية: طورتينا، وطور زيتا، لأنّهما منبتا التين والزيتون، وهناك أقوال أُخرى، والمعتمد هذان القولان.

طُور سينين: هو الجبل المعروف بطور سَيناء، وهو بمعنى الجبل بلغة النبط، وعُرف هذا الجبل بطور سينين، لوقوعه في صحراء سينين، وسينين لغة في سيناء وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين، ويكفي في قداسة هذا الجبل أنّه ذُكر في القرآن الكريم تسع مرات في مقامات مختلفة.

البلد الأمين: مكّة المكرّمة، قال سبحانه: (وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) آل عمران: ٩٧، وقال سبحانه: (وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْف)(قريش: ٤)، والمراد من الأمن، هو القسم التشريعي لا التكويني، مثلاً إذا قتل إنساناً ثمّ التجأ القاتل إلى الحرم، لا يُقتصّ منه في الحرم، بل يضايق عليه في المأكل والمشرب حتى يخرج فيقاد منه، إلى غير ذلك من الأحكام الخاصّة بالحرم المكّي.

التفسير

أقسم سبحانه في الآيات الثلاث بأُمور أربعة:

١. التين ٢. الزيتون ٣. طور سينين ٤. البلد الأمين.

أقسم بها لأجل التأكيد على قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم)، فصار جواباً للقسم فيقع الكلام في أُمور:

١. ما هو سرّ القسم بهذه الأُمور الأربعة؟

٢. ما هو المراد من خلق الإنسان في أحسن تقويم ؟

٣. ما هي الصلة بين الأُمور الأربعة وجواب القسم؟

١ ـ ٣. (وَالتّينِ وَ الزَّيْتُونِ * وَ طُورِ سِينِينَ * وَ هَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ):

أمّا الأوّل: فلو قلنا بأنّ المراد من التين والزيتون هو الفاكهتان المعروفتان، فسرّ الحلف بهما واضح لما فيهما من فوائد جمّة، وخواصّ نافعة.

أمّا التين فهو فاكهة خالصة من شائبة التنغيص، وفيه أعظم عبرة للإنسان؛ لأنّه عزّ اسمه جعلها على مقدار اللقمة وهيّأها على تلك

الصورة إنعاماً على عباده.

و قد روي أنّه أُهدي إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه: «كُلوا! فلو قلت: إنّ فاكهة نزلت من الجنّة لقلت هذه، لأنّ فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنّها تقطع البواسير وتنفع من النقرس». تفسير الكشاف: ٣/٣٤٨، مجمع البيان: ٥/٥١٠.

و قد ذكر علماء الأغذية أنّه يمكن الاستفادة من التين كسكّر طبيعي للأطفال، ويمكن للرياضيين ولمن يعانون ضعف كبر السنّ أن ينتفعوا به للتغذية، حتّى ذكروا أنّ الشخص إذا أراد توفير الصحّة والسلامة لنفسه فلابدّ له من تناول هذه الفاكهة.

و أمّا الزيتون فهو الثمرة المعروفة ذات الزيت الذي يعتصر منها، فيطعمه الناس، ويستصبحون به، وله تأثير بالغ في معالجة عوارض الكلى، حتى وصفه سبحانه بأنّه مستخرَج من شجرة مباركة، قال سبحانه: (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَة مُبَارَكَة زَيْتُونَة لاَ شَرْقِيَّة وَ لاَ غَرْبِيَّة)(النور: ٣٥).

وروي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) أنّه قال: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيّب الفمّ ويذهب بالحفرة»، وسمع منه أنّه قال: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي». وروي عن ابن عباس قال: هو تينكم هذا وزيتونكم. تفسير الكشاف: ٣ / ٣٤٨ .

هذا إذا قلنا: إنّ المراد هو الفاكهتان المعروفتان، فسبب القسم بهما هو لبيان ما فيهما من المنافع المدّخرة للناس، وفي الوقت نفسه للتدليل على عظمة الخلقة.

و أمّا إذا قلنا بأنّ المراد منهما هما الجبلان في الأرض المقدّسة، واللذان يقال لهما: طور تينا، وطور زيتا، فوجه القسم بهما، كوجه القسم بطور سينين والبلد الأمين، إنّ هذه الأمكنة الأربعة كانت مبعث جمّ غفير من الأنبياء، ومهبط أشهر الشرائع السماوية، والجميع من القداسة بمكان، فيصلح القسم بالأُمور الأربعة لما فيها من القداسة، هذا كلّه حول الأمر الأوّل، أعني: وجه القسم بالأُمور الأربعة.

٤. (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم):

وأمّا الأمر الثاني ـ أعني: خلقة الإنسان في أحسن تقويم ـ فيمكن تبيينه بالوجوه التالية:

١. من حيث الصورة، فقد خلقه قائماً، لا مكبّاً على وجهه، وبذلك أضفى عليه حُسناً وهيبة.

٢. من حيث المادة، فقد ركّب بدنه أحسن تركيب إلى حدٍّ يمكن أن يعيش مدّة طويلة، خلافاً للحيوان والنبات فإنّ قابلية العيش الطويل فيها محدودة جدّاً.

فلو نرى أنّ الإنسان المعاصر لا يتجاوز معدل عمره عن عشرة عقود غالباً فإنّما لأجل عوامل خارجية تؤثر في حياته من حيث التغذية والظروف البيئية.

٣. من حيث الروح فقد جعل له نفساً ناطقة، وعقلاً مفكّراً، وروحاً مدبّرة يستطيع أن يقتنص الحقائق العليا والمعارف القصوى ويبسط سيطرته على الأرض والسماء.

ولعلّه إلى هذا يشير الإمام علي (عليه السلام)بقوله: «أَمْ هذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الاْرْحَامِ، وَشُغُفِ الاْسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً، وَعَلَقَةً مِحَاقاً، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً وَيَافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِساناً لاَفِظاً، وَبَصَراً لاَحِظاً» نهج البلاغة: الخطبة ٨٣ . .

٤. زوّده بفطرة التوحيد، فكلّ إنسان يجد في صميم ذاته أنّه متعلّق بموجود عال، ولذلك نرى أنّ كلّ كافر وملحد إذا واجه المصاعب والشدائد يرتفع عن فطرته غبار الجهل والعناد ويتّجه إلى الله سبحانه راجياً منه النجاة، ولذلك يقول سبحانه:(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)(العنكبوت: ٦٥).

٥. زوّد فطرته بإدراك حسن الأعمال وقبحها، المسمّى بالعقل العملي، وهو بذاته وفطرته يدرك أنّ العدل جميل والظلم قبيح، ونقض

الميثاق مثله، كما أنّ ردّ الجميل بالجميل جميل، وردّ الجميل بالقبيح قبيح، إلى غير ذلك ممّا يرجع إلى العقل العملي.

و هذه الأُمور زُوّد بها الإنسان وهو في حضن الفطرة، من غير فرق بين الإنسان البدوي أو الحَضَري، بل حتى من عاش في الغابات والكهوف بعيداً عن الحضارات، ولذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «كلّ مولود يولد على الفطرة، ثم أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه». التاج الجامع للأُصول: ٤/١٨٠ ؛ تفسير البرهان: ٢/٢٦١، برقم ٥.

ولعلّ هذا البيان على إيجازه كاف لتبيين قوله سبحانه: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم).

و لو كان المقصود هو خصوص كونه مستقيم القامة، أو حسن الصورة، فهو أمر بديهي لايحتاج إلى التأكيد الوارد في الآية ولا يحتاج إلى الإقسام، مع أنّه سبحانه أقسم بالأُمور الأربعة المذكورة ليصدّق السامع قوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم)، ولابدّ أن يتضمنّ معنى عالياً خافياً عن أكثر الناس، حتى يصحّ القسم بالأُمور الأربعة لإثباته.

وأمّا الأمر الثالث ـ أعني: ما هي الصلة بين المقسم به والمقسم عليه ـ ، فلو قلنا بأنّ المراد من التين والزيتون هما الفاكهتان المشتملتان على أنفع الأغذية للإنسان فالصلة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة، لأنّ الإنسان مركّب من بدن وروح فهاتان الفاكهتان تغذيان بدنه.

وأمّا لو قلنا بأنّ المراد بهما الجبلان المعروفان فتكون جميع الأقسام الأربعة كسبيكة واحدة حيث إنّ هذين الجبلين وطور سينين والبلد الأمين مبعث الأنبياء ومنزل الوحي، والكلّ يناسب الجزء الآخر للإنسان أعني روحه وقواه العاقلة الّتي بُعث الأنبياء لإكمالها وهدايتها إلى أحسن الطرق حتّى يبلغ الإنسان الغاية المتوخّاة من خلقته .

٥ و٦ الآيتان: الخامسة والسادسة(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ....فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون)
(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون)
المفردات

الردّ: هو ـ في الآية ـ بمعنى الرجوع، كقوله سبحانه: (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ) الأنعام: ٦٢..

أسفل: السفْل ضدّ العلوّ، وأسفل ضدّ أعلى، والسَّفِلة من الناس: النَّذْل، نحو الدُّون.

فقوله: أسفل اسم تفضيل أي أشدّ سفالة، أضيف إلى سافلين، أي الموصوفين بالسفالة.

ممنون: صيغة مفعول من «مَنّ» بمعنى: قطع، يقال: منّ الحبل، أي قطعه، فهو منين، أي مقطوع، أو يوشك أن يُقطع.

التفسير

٥. (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ):

افتتح سبحانه الآية بلفظ «ثمّ» الدالّة على وجود التراخي زماناً أو رتبة بين خلق الإنسان على أحسن تقويم، ثم ردّه إلى أسفل سافلين، وهو يحكي عن رجوع الإنسان المتعالي المتكامل روحاً وفكراً إلى درجة سافلة على نحو يقع في أسفل السافلين، فإنّ لفظ «أسفل» صيغة تفضيل، أُضيفت إلى سافلين وهم الموصوفون بالسفالة، أي ينحطّ من الدرجة العالية والفضيلة السامية إلى درجة نازلة ليس بعدها درجة، وفي معنى الآية احتمالان:

١. أنّ الإنسان بعدما شبّ وشاب وشاخ، يتنزل من حيث القوى الجسمانية إلى أرذل العمر، قال الله تعالى : (وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ) يس: ٦٨. ، وقال سبحانه: (وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْم شَيْئاً)(النحل: ٧٠.).

٢. أنّ المراد به هو الخروج عن الفطرة السليمة التي خُلق عليها، فإذا به يعبد الأصنام والأوثان و البقر والشجر، أو يتمرّد على العقل العملي الذي يدعوه إلى العدل والأخلاق الحسنة، فيظلم، ويرتكب الكبائر والفواحش، إلى حدّ يرى الظلم حُسناً، وهضم الحقوق

ذكاءً، إلى غير ذلك من مهابط الأخلاق.

والظاهر أنّ المراد بها هو المعنى الثاني، أي التنزّل العقائدي والأخلاقي بشهادة الاستثناء، أعني قوله سبحانه:

٦. (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون):

فالمعنى الأوّل سنّة إلهية، تجري على المؤمن والكافر على نحو سواء، ولكنّ الذي يختصّ بغير المؤمن هو التحلّل عن العقيدة والأخلاق ، وهو من شِيَمِ الإنسان المغرور الظالم لنفسه.

و بذلك يتّضح أنّ الاستثناء استثناء متّصل غير منقطع، فبعدما أخبر سبحانه عن انحطاط الإنسان إلى أسفل سافلين من حيث العقيدة والأخلاق، استثنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، مشيراً بقوله: (الَّذِينَ آمَنُوا)إلى جانب العقيدة، وبقوله: (وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إلى الجانب الأخلاقي، فهؤلاء هم الذين احتفظوا بإيمانهم وأخلاقهم، وبقوا على ما كانوا عليه، ومن ثم جعل الله سبحانه لهم أجراً عظيماً، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون)، أي غير مقطوع.

ثمّ إنّ قوله سبحانه: (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)، وإن كان ظاهراً في أنّه سبحانه هو السبب المباشر لتردّي الإنسان، ولكنّ ذلك لا يصحّ لأنّ الله تعالى لا يفعل القبيح، وإنّما يرجع السبب إلى الإنسان نفسه، الإنسان المتحلّل عن العقيدة والعمل الصالح، فإنّ تحلُّله في كلا الحقلين يكون سبباً لقطع التوفيق واستمرار الهداية عنه، ونزوله إلى أسفل سافلين، فصحّت النسبة إلى الله سبحانه من هذا الوجه.

٧ ـ ٨ الآيتان: السابعة والثامنة (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

المفردات

الدين: الدَين ـ بالفتح ـ عبارة عمّا للدائن على المديون من مال وحقوق.

وأمّا ـ بالكسر ـ فتارة يراد به الأُصول والعقائد، يقول سبحانه: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ) آل عمران: ١٩..

و أُخرى يراد به الطاعة، كقوله سبحانه:(وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ) النساء: ١٤٦، وقوله سبحانه: (وَ مَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) البيّنة: ٥..

و ثالثة يراد به الجزاء، كقوله سبحانه: (مالِكِ يَومِ الدِّين) الفاتحة: ٤، وقوله: (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ) الانفطار: ١٥..

أحكم: مأخوذ من الحُكم بمعنى القضاء، و (أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)، أي: أقضى القضاة، ووصفه به سبحانه لأجل أنّ حكمه أسدّ وأنفذ؛ لأنّه لا يتخلّف عن الحق قيد شعرة.

التفسير

٧. (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) :

خطاب للإنسان المردود إلى أسفل سافلين، أي لا عذر لك أيّها الإنسان في تكذيبك بيوم الجزاء، بعدما وقفت على مصير الإنسان الّذي خُلق في أحسن تقويم، ثم افترق إلى صنفين: صنف احتفظ بإنسانيته وكرامته، وبقي على فطرته السليمة، وصنف تسافل وتخلّى عن فطرته، وصار أضلّ من الأنعام.. وكل صنف يُجازى يوم القيامة بما عمل، فما يكذّبك بعد هذا البيان بيوم الدّين؟

٨ . (أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ):

استفهام تقريري، بأنّ قضاء الله سبحانه يوم الدين بالجنّة للمؤمن والجحيم للكافر، نابع عن عدله وإنصافه، ولايعدل عن العدل البتّة.

و بذلك ظهر وجه اتصال قوله: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) بما قبله، حيث إنّه سبحانه وجّه خطاباً توبيخياً لمن يكذّب بالدين ومَن لايؤمن بيوم الجزاء بعد بيان الحجّة، ثمّ أتمّها بهذا الاستفهام التقريري. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣٢١ .وعلى ذلك فحُكمه على المؤمن بالأجر غير المقطوع، وفي مقابله تنزيل المردود إلى أسفل سافلين كلّه نابع عن حُكم رصين وقضاء متين لا جور فيه ولا ظلم.

و قد روى الطبرسي في مجمعه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: وكان رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) إذا ختم هذه السورة قال: «بلى وَ أنَا عَلى ذلك مِنَ الشّاهِدِينَ». مجمع البيان: ١٠/ ٧٧٧.

تمّ تفسير سورة التين

٩٦- سورة العلق

(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق * اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ * الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى * كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَة كَاذِبَة خَاطِئَة * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ).

خصائص السورة

تسمية السورة

اسم السورة في المصاحف والتفاسير «سورة العلق»، لوقوع لفظ العلق في أوائلها، وربّما تسمّى بسورة «اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ»، أو سورة «اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ»، إلى غير ذلك من الأسماء، وقد قلنا: إنّ التسمية غير توقيفية والغرض منها الإشارة إلى السورة حتى تتميّز عن غيرها، والمعروف بين أكثر المفسّرين والمحدّثين أنّها أوّل سورة نزلت من القرآن الكريم، والظاهر أنّ النازل هو الآيات الخمس الأُولى من السورة، وتنتهي بقوله تعالى: (عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها عشرون عند عدّ الحجازيّين، وتسع عشرة عند عدّ العراقيّين، وثمان عشرة عند عدّ الشاميّين، وهي مكّية بالاتّفاق.

أغراض السورة

تَحثُّ السورة أوّلاً الأُمّة الإسلامية إلى القراءة والكتابة واستخدام القلم، ثمّ توجّه ذهن الإنسان إلى مبدأ خلقته إلى أن صار إنساناً كاملاً يقرأ ويكتب، ثمّ تهدد الإنسان الطاغي الذي يرى نفسه غنياً عن الله سبحانه، وربما ينهى المؤمن عن الصلاة والتوجّه إلى الله سبحانه، وسيقف على جزاء عمله

وطغيانه يوم الجزاء. ثمّ إنّ السورة بدأت بالدعوة، إلى القراءة والتعلّم وتمّت بالدعوة إلى السجود، ليقترن العلم بالعمل.

١ ـ ٥ الآيات: الأُولى إلى الخامسة(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * .... عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

المفردات

إقرأ: من القراءة، قال الراغب: القراءة ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكلّ جمع، لايقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، ويدلّ على ذلك أنّه لايقال للحرف الواحد إذا تفوّه به، قراءة. المفردات للراغب: ٤٠٢، مادة« قرأ».

و ما ذكره الراغب تفسير ناقص، فإنّ القراءة ـ وراء ما ذكره ـ رهن وجود مكتوب يرتله القارئ وفق المتن، سواء أ كان المكتوب أمام عينيه أو رآه وحفظه فيقرأ على وفقه، ولولا المكتوب السابق لما صدق عليه القراءة ولا يصحّ الأمر بالقراءة بدونه.

وبذلك يعلم أنّ كلمة «إقرأ» لاتعادل كلمة «بخوان» في (اللغة الفارسية)؛ إذ لايعتبر في صدقه فيها، سبق متن يقرأ على وفقه، وهذا يدلّ على وجود صحيفة مكتوبة أُمِرَ النبيّ(صلى الله عليه وآله) أن يقرأ على وفقها، وأمّا واقع هذه الصحيفة فغير معلوم لنا، فهل كتبت الآيات على لوح برزخي أمام عينيه فقرأها، أو كُتبت على قلبه وعقله فرتّلها، أو أنّه اتّصل باللوح المحفوظ المكتوب فيه القرآن على الشأن اللائق به.

و بعبارة أُخرى: هناك فرق بين قولنا «تكلّمَ» و «قرأ»، فالأوّل يصدق على الوجود الإبداعي للكلام فيقال: تكلّم فلان، أو خطب فلان هكذا، وأمّا إذا قيل: قرأ فلان، فهو بمعنى وجود شيء مسبوق، اتّصل به فقرأه.

الرّب: إنّ اللفظ مشتق من الفعل «ربب» لا من «ربا» فتفسيره بالتربية، غفلة عن أصله.

يقول صاحب القاموس: ربُّ كلّ شيء: مالكه ومستحقّه وصاحبه. القاموس المحيط: ١ / ٧٠، مادة «الرب».

و جاء في «المنجد»: الربّ: المالك، المصلح، السيّد.(المنجد: ٢٤٣، مادة «ربّ».)

و ذكر ابن فارس من معاني الرب: الصاحب، المصلح، يقال: ربَّ فلانٌ ضيعته، إذا قام على إصلاحها، والرب المصلح للشيء.

والله جلّ ثناؤه «الرب» لأنّه مصلح أحوال خلقه، والربّ: الذي يقوم على أمر الربيب. معجم مقاييس اللغة: ٣٨١/٢، مادة «رب».

وعلى هذا فتفسير الرب بالخالق، تفسير بالمعنى النادر، بل هو درجة أُخرى بعد الخلق، والله سبحانه خالق، فربٌّ، فيقوم بإصلاح الشيء بعد إيجاده وبإقامته عبر الزمان بعد تكوينه. نعم في النظر الدقيق لا تخلو ربوبيته على الخلق.

العلق: يقول الراغب: دود يتعلّق بالحلق، والعلق: الدم الجامد، ومنه العلقة التي يكون منها الولد المفردات للراغب: ٣٤٣، مادة «علق»..

والظاهر من هذه العبارة أنّ «العلق» مشترك بين الدودة الصغيرة وهي تكون في المياه الحلوة تمتص الدم من الحيوان؛ إذا علق خرطومها بجلده، وقد تدخل في فم الدابة ـ وخاصّة الخيل والبغال ـ فتعلق بلهاتها ولا يتفطن لها إلاّ بعد نعرات الحيوان.، وبين الدم الغليظ الجامد الباقي رطباً، وتسمّى أيضاً العَلَقة.

التفسير

١. (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ) :

أمر سبحانه نبيّه (صلى الله عليه وآله) في بدء الوحي بالقراءة، وحذف مفعوله، غير أنّ القرينة دالّة على قراءة القرآن أو الآيات التالية بعد الأمر.

و هو يدلّ على أنّ للقرآن حقيقة واقعة وراء نفس النبيّ(صلى الله عليه وآله) وروحه، فأمر النبيّ بقراءته وفق المكتوب، من دون إضافة شيء، أو إنقاصه.

فكلّ من يريد أن يصف الرسول بأنّه هو المنشئ للقرآن بعد ما وصل مقام النبوّة، فصريح هذه الآية يردّ تلك النظرية. فلو كان النبيّ(صلى الله عليه وآله) هو المنشئ بعد الوصول إلى المقام السامي، فما معنى أمره بالقراءة مع أنّها تدلّ على أنّ وراء نفسه ونفسيته أمراً آخر كُتب عليه شيء يجب أن يقرأه على الناس على وفقه.

أضف إلى ذلك: أنّه تكرّر لفظ «قل» في القرآن الكريم أكثر من مائة مرّة، فما معنى الأمر بالقول إذا كان هو المنشئ للقرآن، قال تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد)، وقال عزّ اسمه: (وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْم عَظِيم) يونس: ١٥.. فلو كان

القرآن قد صاغه (صلى الله عليه وآله وسلم)بنفسه فما معنى قوله: (إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ).

ثم من لطائف الآية أنّه سبحانه أمره أن يقرأ القرآن لكن مبتدئاً أو مستعيناً باسم ربّه وقال: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ) أي اقرأ الآيات مبتدئاً باسم ربّك أو مستعيناً باسمه. وإضافة الاسم إلى الرب تُشعر بأنّ الاستعانة باسم الرب لأجل أنّه ربّك وصاحبك وكلّ ما لديك راجع إليه، فيليق أن يُبتدأ باسمه أو يُستعان به.

ثم وصف الرب بأنّه خلق، فعلى هذا فالمستعان به هو الخالق من كتم العدم، والربُّ المصلح و المقيم على استمرار حياة الإنسان بعد الخلق.

و قد حذف مفعول الفعل (خلق) للإشارة إلى أنّه خالق كلّ شيء، ثم ذكر في الآية الثانية خصوص خلق الإنسان.

٢. (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ):

خصّ الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات، لأنّ الغرض من نزول هذه الآيات هو الإشعار بتأسيس شريعة للإنسان، لذلك جاءت الآية الثانية تفصيلاً بعد الإجمال، فهي في الحقيقة بدل بعض من الكلّ.

ثم ذكر سبحانه بدء خلقة الإنسان وأنّها من «علق»، وقد ذكر لتفسير الآية وجوه:

١. المراد من «علق» القطعة الجامدة من الدم، وأمّا خصُّ العلقة بالذّكر؛ فلأنّ خلقة الإنسان تبدأ من العلقة، وأمّا ما قبلها ـ أعني: النطفة السائلة ـ فهي جزء مبدئاً وليست مبدأً تامّاً، وذلك أنّ المخلوق البشري يتكوّن عندما تتّحد خلية جنسية ذكرية (النطفة) مع خلية جنسية أُنثوية (البويضة). ويؤدّي هذا الاتّحاد إلى الإخصاب، ثم تلتصق البويضة المخصبة بجدار الرحم، وتبدأ بالتشكّل والتغيّر، وتصير كقطعة الدم الرطبة، ولذلك ذكر العلق مبدأ الخلقة، ويشير إلى ذلك أنّه سبحانه في سورة الإنسان يقول: (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَة أَمْشَاج نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) الإنسان: ٢..

و الأمشاج جمع مشج، وهو الأمر المختلط. فمبدأ الإنسان هو الخلية المختلطة من نطفة الرجل وبويضة المرأة.

وبكلمة واضحة: إنّ بويضة المرأة الّتي يطلقها المبيض وتنتقل إلى أسفل القناة تخالطها نطفة الرجل وتمتزج معها، ثم تتحرك البويضة المخصّبة، إلى أن تلتصق ـ كما قلنا ـ بجدار الرحم، وعندئذ تبدأ في التخلّق إذا لم يعقها عائق، كما قال تعالى: (مخلّقة وَ غير مخلّقة)(الحج: ٥.).

٢. إنّ العلق في الآية ليس بمعنى العلقة، أي الدم الغليظ الجامد الرطب، بل أُريد به نطفة الرجل (أو الحيمن) ولأنّها أشبه بالدودة الّتي تمصّ الدم إذا علقت في فم الدواب، فهذا الجزء من نطفة الإنسان أشبه بهذه الدودة تسبح في ماء الرجل إلى أن تلتقي بالبويضة فتلتصق بها وتشقّها وتدخل فيها ثمّ ينغلق ثقب البويضة وتتكون الخلية الأُولى من الإنسان. والتعبير بالعلق لأجل وجود المشابهة بين نطفة الرجل،و العلق السابح في الماء الّذي يمصّ الدم إذا علق بفم الدوابّ.

وهذا الاحتمال ضعيف ؛ لأنّ الآية بصدد بيان مبدأ تكوّن الإنسان.و من المعلوم أنّ نطفة الرجل وإن كانت بشكل العلق الموجود في الماء، لكنّه ليس مبدأً تامّاً، بل جزء مبدأ، وتمام المبدأ هو الخليّة المؤلّفة من نطفة الرجل وبويضة المرأة.

٣. إذا حصل لقاح بين نطفة الرجل وبويضة المرأة، وأخذت الخلّية في التخلّق والنموّ، امتدّ تكوّرها قليلاً فشابهت العلقة التي في الماء مشابهة تامة في دقة الجسم وتلوّنها بلون الدم الذي هي سابحة فيه، وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقة. التحرير والتنوير: ٣٨٧/٣٠.

٤. إنّ العلق مأخوذ من علق الشيء بالشيء، أي جعله معلّقاً به، وكأنّ جزء نطفة الرجل يعلق بنطفة المرأة، وتتشكّل من المعلّق ومن المعلّق عليه خليةُ الإنسان الأُولى.

إنّ بعض هذه الوجوه الثلاثة المتأخّرة من معاجز القرآن العلميّة، حيث أخبر عن شيء كشف عنه علم الطب الحديث، بوسائله الدقيقة الحديثة.

و هنا نكتة نتعلّمها من السنّة التكوينية وهي أنّ العلم الحديث أثبت أنّ نطفة الرجل السابحة في الماء المنوي تسبح في داخل الرحم وتبحث عن البويضة، لتلتصق بها، وأمّا البويضة فهي ساكنة، ليس لها أي حركة، وهذا يعلمنا أنّ السنّة الإلهيّة اقتضت أن تكون السنّة الاجتماعية على هذا الغرار، وأنّ الرجل هو الذي يجب أن يبحث عن المرأة لا العكس، وفي هذا كرامة للمرأة، فهي عزيزة وقور يطلبها الرجل، وأمّا إذا انعكست السنّة وصارت المرأة هي الّتي تطلب الزوج فعند ذلك تفقد كرامتها وعزّتها، ولاتدوم العلقة الناتجة من هذا النوع من الطلب إلاّ بضعة أشهر أو بضع سنين.

كما نتعلّم من هذا الكشف الحديث، أنّ مسألة إسقاط ما في البطن، لها صورتان:

الأُولى: منع وصول نطفة الرجل إلى الرحم ولقائها بالبويضة وتلقيحها.

الثانية: إسقاط ما في الرحم بعد اللقاح، وبعد تكوّن الخليّة الإنسانية فيه.

فالإنسان المؤمن يعتقد أنّ الله هو الرزّاق، وأنّ قوام المجتمع هو بالأبناء والبنات، وأنّهم من نعم الله سبحانه كما يحكي الذكر الحكيم على لسان نوح(عليه السلام): (وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّات وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) نوح: ١٢.، فهذا لا يتجرّأ على إسقاط ما في الرحم مطلقاً؛ وأمّا من يخشى من كثرة الأولاد فراراً من تربيتهم، أو تشبّهاً بثقافة الغربيين حيث يعيشون زوجاً وزوجة مجرّدين من الأولاد، أو بعدد قليل منهم، فعليه أن يعمل وفق الصورة الأُولى، أي قبل أن تتكون الخليّة الإنسانية الأُولى، وأمّا بعدها ـ أي الصورة الثانية ـ فهو معصية وقتل لنفس معصومة، ويحشر فاعله يوم القيامة في عداد من كانوا يقتلون أولادهم خشية إملاق، قال سبحانه: (وَ لاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَق نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ)، الأنعام: ١٥١. وقال سبحانه: (وَ إِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْب قُتِلَتْ)(التكوير: ٨ ـ ٩.).

والعجب أنّ الأُمّ وهي أرأف الناس بأولادها، إلى حدّ ربّما تفتدي أولادها بنفسها لأجل نجاتهم، صارت اليوم ـ بسبب التأثّر بالمدنيّة الحديثة ـ على عكس ذلك، فنراها تسقط ولدها بكلّ قسوة ولايرقّ قلبها لذلك.

أمين قريش في غار حراء

يقع جبل حراء في شمال شرقي مكّة، ويستغرق الصعود إلى الغار الموجود فيه قريباً من نصف ساعة، ويتألّف ظاهر هذا الجبل من قطع صخرية سوداء لايُرى فيها أي أثر للحياة أبداً، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله)يتحنّث فيه في كلّ سنة، وربّما يتحنّث في شهر رمضان ويقضي فيه ليالي وأياماً قبل أن يتشرّف بمرتبة الرسالة.

و في أحد الأيّام وحينما كان يتعبد هناك نزل عليه جبرئيل وأتاه بهذه الآيات الخمس، ـ بعد أن شرّفه بالرسالة ـ وقال له: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق)، وقد مرّ تفسيرهما، و إليك تفسير الآية الثالثة، وما بعدها.

٣ ـ ٥. (اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ * الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ):

قوله: (وَ رَبُّكَ) مبتدأٌ، خبره إمّا قوله: (الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)، أو قوله: (عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)وإن جعلنا الموصول صفة، وعلى كلّ تقدير فقوله: «اقرأ» تأكيد للأمر الأوّل.

و (الأَكْرَمُ)أفعلُ تفضيل من الكرم، أي الأعظم كرماً، فلايبلغه كرم كريم؛ لأنّه يعطي من النعم ما لايقدر على مثله غيره؛ إذ كلّ نعمة توجد في العالم هي من جهته تعالى.

و من نعمه تعالى أنّه جعل من القلم واسطة لتعليم الإنسان وفتح أبواب العلوم والمعارف أمامه، فقد أعطى الله سبحانه للإنسان

نعمتين كبيرتين، هما قوام الحضارة وبقاؤها على البسيطة، أعني بهما: البيان، والقلم، قال سبحانه: (الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) الرحمن: ١ـ٤.، وقال تعالى: (ن وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ) القلم: ١..

و بالبيان يستطيع الإنسان أن يعبّر عمّا في نفسه من مشاعر وأن ينقلها إلى الآخرين وبالعكس، فبالبيان ينفجر العلم والنور، كما أنّ بالقلم تُحفظ الآثار والأفكار لتستفيد منها الأجيال على مرّ العصور.

وكأنّ الآيتين بمنزلة براعة استهلال لمّا أُمر النبيّ(صلى الله عليه وآله) بتحقيقه في مستقبل أيّامه، وتظهر عظمة هذه البشارة إذا لاحظنا أنّ الأُميّة كانت سائدة على العرب، وقد وصفوا بالأُميّين لأنّ الغالبية العظمى منهم كانوا لا يعرفون الكتابة والقراءة.

و هذا هو البلاذري، يذكر في كتابه «فتوح البلدان» أسماء الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في العهد الجاهلي فما جاوز عددهم سبعة عشر رجلاً في «مكّة» وأحد عشر نفراً في «يثرب» وقال: اجتمع ثلاثة نفر من طي بـ «بقة» وهم: مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة ؛ فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلّمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار، وكان بشر بن عبدالملك أخو أكيدر بن عبدالملك بن عبد الجنّ الكندي، ثم السكوني صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً، فتعلّم «بشر» الخط العربي من أهل الحيرة، ثمّ أتى مكّة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أُمية بن عبد الشمس و أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب، فسألاه أن يعلّمهما الخط فعلّمهما الهجاء، ثمّ أراهما الخط فكتبا، ثم إنّ بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلّم الخط منهم وفارقهم بشر، ومضى إلى ديار مضر، فتعلّم الخط منه عمرو بن زرارة بن أعدس فسمّي عمرو الكاتب، ثمّ أتى بشر الشام فتعلّم الخط منه ناس هناك وتعلّم الخط من الثلاثة الطائيين أيضاً رجل من طابخة كلب، فعلّمه رجل من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فأقام بها و علّم الخط قوماً من أهلها، إلى أن قال: ـ فدخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب، عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب و... فتوح البلدان: ٣ / ٥٧٩ ـ ٥٨٠.نعم، الآية تأمر النبيّ بالقراءة ولكن ليس معناها أنّه المخصوص بها، بل هو أمر شامل لعامّة المسلمين، بشهادة قوله بعد الأمر به : (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)، فذكر التعليم بالقلم ثم تعليم الإنسان، وهذا قرينة على أنّ المراد هو الإنسان مطلقاً، وعلى رأسهم المسلمون.

ومن هنا، لا يعود السبب في تخلّف المسلمين في القرون الأخيرة، إلى الإسلام كما يزعم خصومه، وإنّما هو لأجل ابتعادهم عن تعاليم الإسلام، الّتي حضّت على طلب العلم واكتساب المعارف، حتّى أنّ مادة العلم ذُكرت في القرآن الكريم (ضمن صيغ مختلفة) ما يقارب (٧٨٠) مرة، وهذا يدلّ على أنّ الحضارة الإسلامية مبنيّة على العلم والقراءة والاستعانة بالقلم.

وما أصدق قول الشاعر معروف الرصافي، وهو يدرأ عن الإسلام هذه التهمة:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنّه *** يصدُّ بنيه عن سبيل التقدُّمِ

فإنّ كان ذا حقّاً فكيف تقدّمتْ *** أوائلُهُ في عصره المُتقدِّمِ

وإنْ كان ذنب المسلم اليوم جهلَهُ *** فماذا على الإسلام من جهل مسلمِ

ومن اللطائف الواردة في الآيات المذكورة أنّ الخالقيّة والربوبية من أسمائه سبحانه، فأُشير إلى كلّ منهما مرّتين كما هو واضح، وجاء كلّ من الإنسان والتعليم كذلك، فالأوّل من شؤون خالقيته، والثاني من شؤون ربوبيته، فتدبّر.

إلى هنا تمّ بيان النعم التي أنعم اللّه بها على الإنسان، وكان المترقّب من الإنسان الذي غمرته هذه النعم الجسام، أن يؤمن باللّه العزيز ويشكره عليها دون أن يطغى، لكن الأمر سار على عكس ذلك، كما سنقرأه في الآيات التالية.

تقييم بعض أحاديث بدء البعثة

إنّ ما ورد من الروايات المتعلّقة ببدء البعثة يحتاج إلى تنقيب وتحقيق، خصوصاً أن رواة هذه الروايات لم يكونوا حاضرين وقتها، وها نحن نذكر روايتين وردتا في أصحّ الكتب كما يقال:

الأوّل: روى البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة أنّها قالت: أوّل ما بُدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، إلى أن قالت: حتّى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» قال: «فأخذني فغطّني حتّى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتّى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: أقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: (اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق * اِقْرَأْ وَ رَبُّكَ الأَكْرَمُ) صحيح البخاري: ١٨، كتاب بدء الوحي، برقم ٣ ..

وهنا سؤال: ما معنى غطّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)مرّة بعد أُخرى حتّى بلغ منه الجهد. ولم ير مثله في حياة سائر الأنبياء وهل هو أثر رفع الحجاب عن بصره حتّى يستطيع القراءة، والله العالم.

الثاني: ما رواه البخاري أيضاً في ذيل الحديث المتقدم، وهو يدل على شك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)في نبوته ورسالته.

قالت] عائشة [: فرجع بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زمّلوني زمّلوني»، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلاّ والله ما يخزيك الله أبداً إنّك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق؛ فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزّى ابن عمّ خديجة وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عُمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خبرما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً ليتني أكون حيّاً، إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): أومخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزّراً، ثم لم ينشب لم يلبث .ورقة أن توفّي وفتر الوحي.(صحيح البخاري: ١/٣، باب كيف كان بدء الوحي.)

هذا ما لدى البخاري، وأمّا صاحب السيرة النبوية فبعدما ذكر مسألة الغط ينقل عن النبي أنّه قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبرئيل، قال: فوقفت أنظر إليه، فما أتقدّم وما أتأخّر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلاّ رأيته كذلك، فما زلت واقفاً، ما أتقدّم أمامي، و ما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عنّي وانصرفت راجعاً الى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً]أي ملتصقاً[إليها، فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إليّ، ثم حدّثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يابن عم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأُمة.

ثم يذكر انطلاق خديجة إلى ورقة بن نوفل، وما أجابها به ورقة بنفس النصّ الذي ذكره البخاري، ثم يذكر لقاء النبي ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فسأله ورقة بما رأى وسمع فأخبره النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنّك لنبي هذه الأُمّة.

ثم عقبه بذكر ما قامت به خديجة من امتحان صدق نبوته فذكر أنّها قالت لرسول الله: أي ابن عم، أ تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبرئيل، فقال رسول الله لخديجة: هذا جبرئيل قدجاءني، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوَّلْ فاجلسْ على

فخذيـ اليمنى، فجلس على فخذها اليمنى فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوَّلْ واجلس في حجري، فتحوَّل فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا ابن عم أثبت وأبشر، فو الله هذا ملك وما هذا بشيطان. السيرة النبوية: ١/١٥٣ـ١٥٧.

و نقل الطبري عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه عندما نزل جبرئيل وقال: يا محمد أنت رسول الله، أنّه قال: لقد هممتُ أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فتبدّى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبرئيل وأنت رسول الله، ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتني ثلاث مرات حتى بلغ منّي الجهد، ثم قال: اقرأ باسم ربّك الذي خلق، فقرأت فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري فقالت: أبشر فو الله لايخزيك الله أبداً، والله إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، فقالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران... . تاريخ الطبري: ٢/٤٩ـ٥٠.

نظرة تحليلية إلى هذه النصوص

إنّ هذه النصوص التاريخية التي نقلها المشايخ كالبخاري وابن هشام و الطبري، وتلقّاها الآخرون من بعدهم على أنّها حادثة متسالم عليها، تضاد ما يستشفه الإنسان من التدبّر في حالات الأنبياء في القرآن الكريم، وتناقض البديهة العقلية، وإليك بيان ما فيها من نقاط الضعف وعلائم الجعل والتهافت:

١. أنّ النبوة ـ كما ثبت في محلّه ـ منصب إلهي لايفيضه الله إلاّ على من امتلك زخماً هائلاً من القدرات الروحية والقوى النفسية العالية حتى يقوى على معاينة الوحي ومشاهدة الملائكة، فعندئذ فلا معنى لما ذكره البخاري: «لقد خشيت على نفسي» أفيمكن أن ينزل الوحي الإلهي على من لا يفرّق بين لقاء الملك، ولقاء الجن ومكالمته حتى يخشى على نفسه الجنون أو الموت؟

٢. وأسوأ منه ما ذكره الطبري من أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) همّ أن يرمي بنفسه من شاهق من جبل، فندم عليه ورجع عنه حين سمع كلام جبرئيل، يقول له: يا محمد أنا جبرئيل!!

إنّ هذا الكلام يعرب عن أنّ نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم تكن مستعدة لتحمّل الوحي إلى درجة همّ أن يقتل نفسه بالإلقاء من حالق، وهل هذا هو إلاّ نفس الجنون الذي كان المشركون يصفونه به طيلة بعثته؟ فواعجباً ونحن نسمعه من أعوانه وأنصاره !

٣. أنّ قول خديجة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كلا والله ما يخزيك الله أبداً، يعرب عن أنّها كانت أوثق إيماناً بنبوته من نفس الرسول، فهل يمكن التفوّه بذلك؟! وما حاجة النبي الأعظم الذي قال تعالى في حقّه: (وَ علّمَك مَا لَم تَكُن تعلم وَ كانَ فضلُ اللّه عَلَيك عَظيماً) النساء: ١١٣.إلى هذا التسلّي؟!

٤. ذكر البخاري أنّ خديجة انطلقت مع رسول الله إلى ورقة فأخبره رسول الله بما وقع، فأجاب ورقة بما ذكره، وإنّ ما نزل عليه هو الناموس الذي نزّل الله على موسى.

إنّ معنى هذا أن يكون ورقة أعلم بالسرّ المودع في قلب رسول الله من نفسه، كما أنّ معنى ذلك أنّ كلاًّ من الزوجين كانا شاكّين في صحّة الرسالة، فانطلقا إلى متنصّر قرأ وريقات من العهدين حتى يستفتياه ليزيل عنهما حجاب الشكّ وغشاوة الريب!!

٥. أنّ معنى ما ذكره البخاري من أنّ ورقة أخبر النبي بأنّه سيخرجك قومك فتعجّب الرسول من هذا الكلام وقال: أوَمخرجيّ هم؟ كون المرسل إليه أعلم من الرسول وأفضل منه!!

٦. أنّ ما ذكره ابن هشام من (أنّ الرسول كلّما رفع رأسه إلى السماء لينظر، ما رأى إلاّ رجلاً صافّاً قدميه في أُفق السماء فلاينظر في ناحية من السماء إلاّ رآه فيها) يشبه كلام المصابين في عقولهم وشعورهم، والمتخلّفين في أفكارهم، فلايرون في كلّ جهة إلاّ الصورة

المتخيّلة، لطغيانها على مخيلتهم وشعورهم. أعاذنا اللّه من نسبة الشنائع إلى مقام النبوة بنحو لايليق بساحة العاديين من الناس، فضلاً عن النبي الأكرم خاتم النبيين.

٧. انظر إلى امتحان خديجة لبرهان النبوة فإنّ ظاهرها أنّها كانت شاكّة في نبوة زوجها ولكنها استحصلت اليقين على الوجه الذي سمعته في كلام ابن هشام والطبري، ولكن لأي صلة بين رفع الخمار وإلقائه وعدم رؤية جبرئيل؟ وهل لرفع الخمار وتعرية شعر الرأس تأثير في غياب أمين الوحي عن البيت؟

ترى أنّه سبحانه ينقل في غير سورة من سور القرآن الكريم محادثة الملائكة زوجة الخليل وتبشيرها بالولد، فهل يمكن لنا أن نقول بعد ذلك: إنّ زوجة الخليل لو كانت مكشوفة الرأس لامتنعت الملائكة من دخول بيت الخليل(عليه السلام)؟! لاحظ: سورة هود: ٧١ ـ ٧٣؛ الذاريات: ٢٩.

٨ . أنّ ورقة بن نوفل على حد تصريح نصّ الرواية كان أول أمره نصرانياً بعدما كان مشركاً، فمقتضى الحال أن يشبّه الرسول الأعظم بالمسيح الذي كان يعتقد بنبوته، لا بالكليم، أو ليس هذا يعرب عن لعب يد الأحبار في الخفاء في اصطناع هذه الأحاديث، ودورهم في تشويش صفاء رسالة الرسول الأعظم بأمثال هذه الأساطير والمهاترات والخرافات؟!

نحن على ثقة ويقين بأنّ النبوة منصب إلهي لايتحمّله إلاّ الأمثل والأكمل فالأكمل من الناس، ولايقوم بأعباء مهماتها إلاّ من امتلك قدرة روحية خاصّة تبعث في نفسه الإذعان والتسليم، والانقياد حينما يتمثّل له رسول ربه وأمين وحيه فلا يأخذه الهلع ولايستولي عليه الخوف عند سماع كلامه ووحيه، وقد درسنا وضع الكليم عندما فوجئ بالوحي، فما حاق به الروع ولا أحاط به الخوف، ولا همّ بإلقاء نفسه... إلى غير ذلك ممّا ورد في هذه الروايات.

و بما أنّ القرآن هو المرجع الفصل في تمييز الصحيح من الزائف في جملة هذه الروايات، فهذا يحتم علينا الصفح عنها وضربها عرض الجدار، مضافاً إلى ما فيها من التناقض والاختلاف في حكاية القصة، كما هو معلوم لمن تدبّر فيها وتأمّل نصّها

٦ ـ ٨ الآيات: السادسة إلى الثامنة (كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

(كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)

المفردات

طغى: الطغيان هو تجاوز الحدّ، قال تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) طه: ٢٤، وأمّا قوله: (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)(الحاقة: ١١.) فهو من باب الاستعارة، حيث استعير الطغيان لتجاوز الماء الحدّ، فإذا فاض الماء عن حجم النهر يقال: طغى النهر، أو طغى الماء، والطاغوت عبارة عن كلّ متعدّ وكلّ معبود من دون اللّه. المفردات للراغب: ٣٠٤ ، مادة «طغى».

الرُّجعى: كالبُشرى، مصدر رجع.

التفسير

٦. (كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى):

كلمة «كلاّ» ردع وإبطال لما تقدّم في الكلام، وليس في ما تقدّم من الآيات شيء يحتمل الإبطال والردع، ولأجل ذلك جعله بعض المفسّرين ردعاً عمّا سيأتي من الآيات، وهو قوله: (أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى) التحرير والتنوير: ٣٠/٣٩٠..

و لكن يمكن أن يكون ردعاً لما تقدّم بالبيان التالي: أنّ الآيات المتقدّمة بيّنت النعم الكبيرة الّتي أنعمها اللّه على عباده، ومقتضى تلك الإفاضة هو العبوديّة والخضوع لمنعمها، لا الطغيان والتمرّد، ولكن الإنسان ـ مع الأسف ـ طغى وتجبّر حين وجد نفسه غنياً، أو حسب تعبيره سبحانه: (أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى) فالإنسان مكان أن يكون مظهراً للعبودية والطاعة ـ تقديراً للنعم ـ صار مظهراً

للطغيان، وأشار إلى هذا بقوله: (كَلاّ)أي لم يقدّروا هذه النعم ولم يعملوا بمقتضاها حتّى صار الإنسان طاغياً.

وإلى ما ذكرنا من الوجه يشير العلاّمة الطباطبائي بقوله: ردع عمّا يستفاد من الآيات السابقة أنّه تعالى أنعم على الإنسان بفضله بعظائم نعم التعليم بالقلم وسائر ما علّم، والتعليم عن طريق الوحي، فعلى الإنسان أن يشكره على ذلك، لكنّه يكفر بنعمة الله تعالى ويطغى. الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/٤٦٢.

٧. (أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى):

وفيه أشارة إلى سبب الطغيان الروحي، والحقيقة أنّ علة هذا الطغيان إحساسه الكاذب بالغنى لا غناه الواقعي، ولذلك قال: (اسْتَغْنى) أي طلب إظهار الغنى عن الله ولم يصل إليه ولم يقل «إذ غني » إذ عندئذ، يصبح غنياً بالذات، مع أنّ الإنسان فقير ماهية ووجوداً، قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَ اللهُ هُوَ الْغَنِي الْحَمِيدُ) فاطر: ١٥..

أمّا الأُولى ـ أي الفقر ماهية ـ فإنّ الممكن في حدّ الذات لايملك إلاّ نفسه، لا شيئاً من العدم والوجود ؛ إذ كلّ منهما يحتاج إلى علّة، وإلاّ لو كان في حدّ ذاته معدوماً لصار ممتنع الوجود ولما أمكن وجوده، كما أنّه لو كان موجوداً لصار واجب الوجود لا ممكنه، فالممكن في حدّ الذات عار عن كلّ شيء.

و أمّا من حيث الوجود فالإمكان فيه بمعنى آخر غير المعنى الذي توصف به الماهية، وهو كون الوجود قائماً بالله سبحانه متدلّياً به كقيام الصور العلمية بالنفس، فلو انقطعت الصلة بين العلّة والمعلول لم يبق منه أثر.

ثم إنّ قوله: (أَنْ رَآهُ) من النوادر في القرآن الكريم حيث إنّ الفاعل والمفعول شيء واحد ؛ وذلك لأنّ الضمير المستتر الذي هو الفاعل في «رأى» يرجع إلى الإنسان، كما أنّ الضمير الظاهر المتّصل بالفعل والذي هو المفعول، يعود إلى الإنسان أيضاً، فأصبح ـ كما في الظاهر ـ الفاعل والمفعول شيئاً واحداً، وذلك نظير قوله سبحانه: (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) الإسراء: ٦٢، فإنّ التاء فاعل الفعل، والضمير المتصل به مفعوله، وكلاهما خطاب لله تعالى.

ثمّ إنّ القرآن يذكر في سورة التوبة مصداقاً من مصاديق طغيان الإنسان إذا استغنى، قال سبحانه: (وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ) التوبة: ٧٥ـ ٧٦..

يقول المفسّرون: إنّ هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب، إذ قال للنبيّ(صلى الله عليه وآله): ادعُ الله أن يرزقني مالاً، و الذي بعثك بالحق، لأَن رزقني مالاً لأعطينَّ كلّ ذي حقٍّ حقَّه، فدعا له النبيّ (صلى الله عليه وآله)فاتّخذ غنماً فنمت فضاقت عليه المدينة، حتى تباعد عنها، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله)إليه من يأخذ الزكاة منه، فأبى وبخل، وقال: ما هذه إلاّ أُخت الجزية، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»، ونزلت الآيات. انظر: مجمع البيان: ٣/٥٢.

و لكن هذا الإنسان الطاغي إذا أصيب بالبلاء ورأى أن ما كان يعتمد عليه من الأموال والثروات و الأولاد والعشيرة والجنود والعساكر كلّها صارت معطّلة غير نافعة، فعندئذ ترتفع الحجب عن فطرته ويرجع إلى الله سبحانه، كما هو حال طاغوت عصره فرعون مصر عندما أطبق عليه الماء ورأى مصيره المحتوم قال: (آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) يونس: ٩٠..

٨ . (إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى):

وهو تهديد لهذا الطاغية ونظائره، إذ عليهم أن يعلموا بأنّ لطغيانهم وتمرّدهم أمَد قصير، فإن ملك الموت يقبض أرواحهم، ويردّهم إلى الله سبحانه، فلايبقى من الطاغية وطغيانه أثر، وسيلقى جزاءه عند ربّه في يوم يخسر فيه المبطلون، كما قال:(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) .

ثم إنّه سبحانه يشير في الآيات التالية إلى مصداق واضح للطاغي في عصر الرسالة الذي كان يتمرّد ويسبّ الرسول(صلى الله عليه وآله) ويؤذيه بأنواع الأذى، وهو المذكور في الآيات التالية.

٩ ـ ١٢ الآيات: التاسعة إلى الثانية عشرة(أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى *.... أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

(أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى)

التفسير

٩. (أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى) :

هذه الجملة على وجه التعجيب والاستغراب من حال فرد، والرؤية هنا بمعنى العلم، أي: أخبرني عن الّذي ينهى، فقوله: (أَرَأَيْتَ) فعل، مفعوله (الذِي يَنْهَى): أي أخبرني عن حال من ينهى...

١٠. (عَبْداً إِذَا صَلَّى) :

المراد بالعبد ـ باعتبار أنّ هذه الآيات نزلت في صدر البعثة النبوية ـ هو النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وقد جاء في الرواية أنّ أبا جهل قال: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته. فقيل له: ها هو ذلك يصلي، فانطلق ليطأ رقبته، فما فجأهم إلاّ وهو ينكص على عقبيه، ويَتّقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا ـ الحكم ـ؟ قال: إنّ بيني وبينه ناراً وهولاً وأجنحة، وقال نبي الله (صلى الله عليه وآله): «والذي نفسي بيده لودنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، فأنزل الله سبحانه: (أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى) مجمع البيان: ١٠/٧٨٢.

و معنى الآية: أرأيت يا محمد مَنْ منع مِنَ الصلاة ونهى من يصلي عنها، أخبرني عمّايكون جزاؤه وما يكون حاله عند الله تعالى، وما يستحقه من العذاب؟ فحذف جواب الاستفهام لدلالة الكلام عليه، والآية عامّة في كلّ من ينهى عن الصلاة والخير. نفس المصدر.

قيل: وفي تنكير (العبد) دلالة على تفخيم شأن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث إنّه لشهرته بالعبودية، كان لا يحتاج إلى سبق الذكر، كقوله تعالى: (أَسْرى بِعَبْدِهِ) الإسراء: ١، و (أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ) الكهف: ١ . . انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ١١ / ٤٥٤ .

١١ و ١٢. (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى):

هذا استغراب بعد استغراب، أمّا الأوّل فهو ما مرّ من أنّ نهي العبد عن الصلاة أمر عجيب، إذ العبد المصلّي قام بوظيفته أمام الله سبحانه، من حيث إنّه منعم ومفيض، وهي واجب كل من أحسّ بنعم الله ، وأمّا الثاني فهو أنّ هذا العبد المصلي إذا كان على طريق الهداية، أو آمراً بالتقوى، يجب أن يُتّخذ إماماً وقدوة، لا أن توطأ رقبته.

١٣ و ١٤ الآيتان: الثالثة عشرة والرابعة عشرة (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى).

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى).

التفسير

قوله: (أَرَأَيْتَ) فعلٌ، ومفعوله ضمير مستتر يرجع إلى الناهي، أي: بالحق أخبرني عن الناهي، إذا كان مكذّباً للحق، ومتولّياً عن الإيمان، وناهياً العبد عن الصلاة، ماذا سيصبح مصيره، وهو يعلم أنّ الله يرى، وهل يستحق شيئاً سوى العذاب؟

ثمّ إنّ جواب الاستفهام محذوف في الآيات التالية، أعني: قوله:

١. (أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى).

٢. (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى).

٣. (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى).

فالمقدّر ربما يكون: إنّ الله سبحانه سيعاقبه ويجزيه حسب عمله، ولعلّ الدالّ على المفعول المحذوف قوله: (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى).

بقي هنا أمرٌ وهو ربّما يتصوّر أنّ نزول الآيات في صدر البعثة لايناسب قوله سبحانه: (أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى) ؛ لأنّ الصلاة وجبت في المعراج، الوسائل : ٣، الباب ٢ من أبواب وجوب الصلوات الخمس، الحديث ٥. كما تضافرت عليه الروايات، وكان معراجه في السنة السابعة على أشهر الأقوال.

أقول: لا شكّ في أنّ الصلاة قد شرّعت في الشرائع السابقة، فهذا هو المسيح عيسى بن مريم يقول: (وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَوةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) مريم: ٣١..

و قد تضافرت الروايات على أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) كان يصلّي منذ أن تشرّف بالنبوة، وقبل أن تجب الصلوات الخمس عليه وعلى أُمّته، وأمّا كيفية هذه الصلاة التي كان يقيمها النبيّ(صلى الله عليه وآله) آنذاك، فليست بمعلومة، غير أنّ تعبّده بالصلاة أمر مفروغ منه، فلا مانع من القول بصلاة النبيّ قبل وجوب الصلوات الخمس بكيفياتها، عام سبع من الهجرة أو في زمان قريب منه.

و هذا هو ابن الأثير في «أُسد الغابة» وابن حجر في «الإصابة» ينقلان عند ترجمة عفيف الكندي، القصة التالية: يقول عفيف الكندي كنت امرأً تاجراً فقدمتُ «منى» أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلب امرأً تاجراً فأتيته أبتاع منه وأبيعه، قال: فبينا نحن إذ خرج رجلٌ من خباء يصلّي فقام تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلّي، وخرج غلام يصلّي معه، فقلت:

يا عباس ما هذا الدين، إنّ هذا الدين ما ندري به؟ فقال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أنّ الله أرسله وأنّ كنوز كسرى و قيصر ستُفتَح عليه، وهذه امرأته «خديجة بنت خويلد» آمنت به، وهذا الغلام ابن عمّه «علي بن أبي طالب» آمن به، فقال عفيف: فليتني كنت رابعهم. أُسد الغابة: ٣/٤١٤؛ الإصابة: ٢/٤٨٠.

وروى الحاكم النيسابوري بإسناده عن بريدة، قال:... أُوحي إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يوم الاثنين، وصلّى عليٌّ يوم الثلاثاء. المستدرك على الصحيحين: ٣ / ١١٢، وصحّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

١٥ ـ ١٨ الآيات: الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة(كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ....سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)
(كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَة كَاذِبَة خَاطِئَة * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)
المفردات

نسفعاً: السفع: الأخذ بعُنف وشدّة .

الناصية: شَعْر مُقدَّم الرأس، يقال: نصوت فلاناً: أخذت بناصيته، قال سبحانه: (مَا مِنْ دَابَّة إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) هود: ٥٦، أي: متمكّن منها.

النادي: المجلس، ومنه سمّيت دار الندوة بمكة، وهو المكان الّذي كانوا يجتمعون فيه، فلايطلق هذا الاسم على المكان إلاّ إذا كان القوم متواجدين فيه، فلو تفرّقوا عنه فلايطلق عليه النادي، وأيضاً هو عبارة عن مجلس القوم نهاراً، وأمّا مجلسهم في الليل فيطلق عليه مسامر.

الزبانية: المراد هنا الملائكة، وهي جمعٌ، واحدها زبينة، مأخوذ من الزَّبْن، وهو الدَّفع، كأنّهم يدفعون أهل النار إليها.

قال الجوهري: الزبانية عند العرب، الشرطة، وسمّي به بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها. قيل: والملائكة الموكّلون بالنار هم الغلاظ الشداد الّذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز في قوله: (عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) التحريم: ٦. .(لاحظ : مجمع البحرين: ٢ / ٢٦٦، مادة «زبن».)

قال ابن عباس: لمّا أتى أبو جهل رسول الله(صلى الله عليه وآله) انتهره النبي، فقال أبوجهل: أ تنهرني يا محمد؟ فو الله لقد علمتَ ما بها أحدٌ أكثر نادياً منّي، فأنزل الله سبحانه: (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ). مجمع البيان: ١٠/٧٨٣.

١٥. (كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ):

لفظ «كَلاَّ» حرف ردع، يبطل الكلام السابق، والمراد أنّه ليس الأمر كما يقول ويُريد، أقسم الله سبحانه لئن لم يكفّ عن نهيه، ولم ينصرف عن تهديده ويُقلع عن غيّه لنأخذن بناصيته أخذ الذليل المُهان ونجرّه إلى العذاب، قال سبحانه: (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ الأَقْدَامِ) الرحمن: ٤١..

والقسم مستفاد من اللام في «لَئِنْ» وهي موطئة للقسم، فقوله:(لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ)جواب للقسم وجواب للشرط الموجود في «لَئِنْ» والأخذ بالناصية إشارة إلى ذلّته وخزيه وانقياده للآخذ، فإنّ من يؤخذ بناصيته أي بالشعر النابت عليها، إذا أُخذ وجرّ لايتمكّن من الفرار.

ثم إنّ قوله: (لَنَسْفَعاً) بالألف قد أُقيمت مكان نون التأكيد الخفيفة والأصل «لَنَسفَعَنْ»، وإنّما كتب بالألف مع أنّه خلاف القاعدة فقد وجّهه بعضهم بقوله: وكتبت في المصحف ألفاً رعياً للنطق بها في الوقف ؛ لأنّ أواخر الكلم أكثر ما تُرسم على مراعاة النطق في الوقف. التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٩٧ .

ولا يخفى ضعف كلامه، إذ ليس قوله: (لَنَسْفَعاً) موضع الوقف، حتّى تُشبّه كتابتها بحال التلفّظ بالوقف.

و الّذي عندي أنّ الخط العربي يوم كتب المصحف لم يكن خطاً متكامل القواعد منضبط الجوانب لما عرفت من أنّ الخط كان حديث العهد في مكّة والمدينة المكرّمتين، فقد كتبوا المصحف حسب الرسم الموجود، ومع ذلك لا مانع من كتابته حسب التكلّم أي بالنون، وعلى هذا فليس هناك ما يلزمنا على الكتابة بالألف، بل يجوز أن يكتب حسب التكلّم.

نعم هناك من يقول بتوقيفية الخط القرآني حتّى وإن كان على خلاف القاعدة، وأظن أنّ هؤلاء بين مفرط ومفرّط، فكيف يمكن أن يقال: إنّ الزيادة في بعض المقامات جزء من القرآن الموحى إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله) كإضافة الياء في قوله تعالى:(وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَييد وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ). الذاريات: ٤٧.

١٦. (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ):

ثم وصف سبحانه هذه الناصية بوصفين:

١. كاذبة ٢. خاطئة؛ ومن المعلوم أنّ وصف الناصية بهما من مقولة الوصف بحال المتعلّق، ومعناه أنّ صاحبها كاذب في أقواله، خاطئ في أفعاله، وأضاف الفعل إليها (الناصية) لما ذكر الخبر بها. التبيان: ١٠ / ٣٨٢ .

١٧. (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) :

الفاء تفريع على ما صدر من أبي جهل، وهو قوله: ما بها أحد أكثر نادياً منّي.

والأمر للتعجيز، كقوله سبحانه: (وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْب مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَة مِنْ مِثْلِهِ) البقرة: ٢٣، ومن المعلوم أنّهم عاجزون عن القيام بهذا العمل.

ولو فرض أنّه استجاب للأمر، ودعا ناديه، واستعان بأصحابه وأنصاره، فإنّه سيقابَل بـ(الزَّبَانِيَةَ) أي الملائكة الغلاظ الشداد، الذين لاينفع معهم نصر ناصر، ويَغلبون ولايُغلبون.

١٨. (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) :

أصل (سَنَدْعُ) بالواو في آخر الكلمة، ولكنّها حذفت في كتابة المصاحف. وربما يقال بأنّه مجزوم في جواب الأمر ـ أعني: (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) ـ فتقدير الكلام: ان دعاه ناديه (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ). التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٩٩ . وفيه تأمّل، إذ لا يدخل حرف السين جواب الشرط.

و في هذه الفقرة نكتة وهي أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) كان مطمئناً بأنّه سينتصر في دعوته وأنّ أعداءه سوف يكونون طعمة للنّار.

١٩ الآية التاسعة عشرة: ١٩. (كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ):

التفسير

قوله:(كَلاَّ) ردع لإبطال ما تضمنه قوله:(فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)،أي: ليس هو بقائم بهذا العمل.

ثمّ إنّه سبحانه نهى رسوله عن شيء وهو قوله:(لاَ تُطِعْهُ) و أمره بأمرين: هما (السجود والتقرّب).

أمّا النهي عن إطاعة هذا الطاغي فلعلّه كناية عن الاستمرار في الدعوة وعدم الخوف من تهديدات المشركين، أي: فإنّ العدو أضعف من أن يضرّك وأنت تحت رعاية الله سبحانه.

وأمّا الأمر بالسجود فهو أمر بالصلاة واهتمام بها، ولعلّ السجود في الآية يراد به الصلاة التي تقدّمت.

ثم الأمر بالاقتراب أي طلب القرب من الله سبحانه إشارة لما في الحديث عن ابن مسعود: إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا كان ساجداً».

و السجود في الآية الأخيرة فرض وهو من العزائم، وقد روى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: «العزائم: الم تنزيل الكتاب (السجدة) وحم تنزيل من الرحمن (فصّلت)، والنجم إذا هوى، واقرأ باسم ربّك، وماعداها في جميع القرآن مسنون وليس بمفروض».مجمع البيان: ٧٨٣/١٠، والنسخة لا تخلو من التصحيف.

ثم إنّ السجود عند الإمامية ينقسم إلى أربعة:

١. سجدة الصلاة المعهودة.

٢. سجدة السهو للخلل الموجود في الصلاة زيادة أو نقصاناً.

٣. سجدة الشكر عند تجدّد نعمة أو دفع نقمة.

٤. سجدة التلاوة، عند تلاوة آية السجدة في سور أربع: هي: «السجدة، وفصّلت، والنجم، والعلق»، وماعدا ذلك سنّة لا فرض.

تمّ تفسير سورة العلق

٩٧- سورة القدر

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر * تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْر * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير بسورة «القدر»، وحكي عن أبي بكر الجصاص في «أحكام القرآن» أنّه سمّاها سورة «ليلة القدر»، ولا بأس بالتسمية المختلفة إذا لم تنسب إلى الشارع.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها خمس في العدّ المدني والبصري والكوفي، وهذا هو المعروف، وأمّا في العدّ المكّي والشامي فهي ستّ آيات، حيث جعلوا «ليلة القدر» من الآية الثالثة آية مستقلة، مع أنّ الظاهر أنّها مبتدأ، خبره قوله:(خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر).

أغراض السورة

تذكر السورة بأنّ القرآن منزّل من الله سبحانه لا من غيره، وقد نزل في ليلة القدر، ثمّ تذكر عظمة تلك الليلة وتفضيلها على ألف شهر، ثمّ تذكر رفعة شأن هذه الليلة بنزول القرآن والملائكة والروح فيها، وبالتالي تحرّض المسلمين على إحياء تلك الليلة.

١ ـ ٥ الآيات الخمس(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ .... سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر * تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْر * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ).

المفردات

القدر، والتقدير: تبيين كمّية الشيء، يقال: قدرته وقدّرته. المفردات للراغب: ٣٩٥، مادة «قدر».

ولعلّه إلى هذا المعنى أشار الطبرسي حيث قال: القدر: كون الشيء مساوياً لغيره من غير زيادة ولا نقصان.

فلَيلة القدر: إذن، هي ليلة التقدير؛ لأنّ الله تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمره.

وربّما يفسّر (القدر) بالشرف والخطر وعظم الشأن، يقال: رجل له قدر عند الناس أي منزلة وشرف. ومنه قوله سبحانه: (وَ مَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) الأنعام: ٩١، الحج: ٧٤، الزمر: ٦٧..

الشهر: عبارة عن ما بين هلالين من الأيّام، وإنّما سمّي شهراً لاشتهاره بالهلال.

التفسير

١. (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ):

إنّ الضمير في قوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) يرجع إلى القرآن، إيماءً إلى أنّه حاضر في الأذهان، لايحتاج إلى ذكر المرجع، مثل قوله سبحانه: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ) الإخلاص:١..

و الظاهر أنّ المنزّل فيها كلّ القرآن لا خصوص الآيات الخمس الواردة في صدر سورة العلق، بشهادة تذكير الضمير، أي أنزلناه، على أنّه لا دليل على نزول هذه السورة بعد سورة العلق، وكونها واقعة بعد العلق في المصحف ليس دليلاً على ترتيب النزول؛ ذكر الثعلبي أنّ سورة القدر مدنية في قول أكثر المفسّرين، وحكى الماوردي عكسه، وهي مدنية في قول الضحاك، وأحد قولَي ابن عباس، وذكر الواقدي أنّها أوّل سورة نزلت بالمدينة. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٠ / ١٢٩ . والآية تدلّ على أنّ القرآن بمجموعه نزل في ليلة القدر وأمّا أنّ هذه الليلة في أي شهر من الشهور، فقد دلّ قوله: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) البقرة: ١٨٥. على أنّها في ذلك الشهر. فبضمّ الآيتين يستنتج أنّ القرآن منزل في شهر رمضان وفي ليلة القدر من هذا الشهر، وأمّا أيّة ليلة هي من لياليه الثلاثين، فلم يرد فيه نصّ قرآنيّ.

و أقصى ما ورد في القرآن أنّ تلك الليلة ليلة مباركة، أوّلاً؛ ويُفرَق فيها كلّ أمر حكيم، ثانياً، قال تعالى:(حَم * وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَة إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْر حَكِيم) الدخان: ١ـ٤.، فليلة القدر ليلة مباركة يُنمى فيها الخير، وهي واقعة في شهر رمضان وقد نزل فيها القرآن، وفيها يفرق كلّ أمر حكيم.

ثمّ إنّ هاهنا سؤالين:

الأوّل هو: أنّه تضافرت الروايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام): أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) بعث في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب، فمقتضى كونه مرشحاً للرسالة في ذلك الشهر أن يكون نزول القرآن فيه، لا في شهر رمضان؟ وربّما يقال بان نزول القرآن تدريجاً كان في شهر رجب ونزوله دفعياً كان في شهر رمضان، فتأمّل.

والجواب:

أنّه لا ملازمة بين البعثة ونزول القرآن، فقدكان تشرّفه بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب حيث سلّم عليه أمين الوحي بأنّه رسول الله، ولكن كان نزول القرآن في شهر رمضان، والإشكال مبني على وجود الملازمة بين البعثة ونزول شيء من القرآن، وهي بعد غير ثابتة، ويكفي في دفع الإشكال كون البعثة مزدانة بسلام الروح عليه بالرسالة، وأنّه موصوف بها.

فكان (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك يسعى في تحنّثه وعبادته وسهره إلى أن تستعد نفسه المباركة لنزول الوحي في شهر رمضان.

السؤال الثاني: أنّ ظاهر الآية أنّ القرآن نزل بمجموعه في ليلة القدر ؛ لأنّ الضمير يرجع إلى القرآن نفسه مع أنّا نرى بالضرورة أنّ القرآن نزل مُنجّماً وبشكل تدريجي عبر ثلاث وعشرين سنة، قال سبحانه: (وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) الفرقان: ٣٢.

و قال سبحانه: (وَ قُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) الإسراء: ١٠٦.

و الجواب:

أنّ للقرآن نزولين:

١. النزول الدفعي: نزل به الروح الأمين دفعة ليلة القدر على قلب سيد المرسلين، وبذلك صار روحاً من ربّه، وإليه يشير قوله سبحانه: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لاَ الإِيمَانُ) الشورى: ٥٢، والمراد من قوله «رُوحًا» في قوله: (أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا). هو القرآن كلّه، وتفسيره بالروح الأمين غفلة عن أنّ الروح في الآية هو الموحى به، وأمين الوحي هو الموحي أو رائد الوحي، ولا يتعلّق الوحي بالموجود الخارجي، سواء أ كان موجوداً مادياً أو مجرّداً، ولايقال: أوحينا إليه شجراً أو إنساناً.

٢. النزول التدريجي: حسب مقتضيات الزمان، وحسب الأسئلة التي يواجهها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)ويجيب عنها الوحي.

و لعلّ الفرق بين الإنزال والتنزيل هو أنّ الأوّل إشارة إلى النزول الدفعي، والثاني إشارة إلى النزول التدريجي، وما ذكرناه حول اللفظين وإن لم يكن ضابطة كلّية، لكنّها ضابطة غالبية.

ويمكن أن يستفاد كلا النزولين من قوله سبحانه: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيم خَبِير) هود: ١ ، فقوله: (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ)ناظر إلى النزول الدفعي، وقوله: (ثُمَّ فُصِّلَتْ) ناظر إلى النزول التدريجي.

٢. (وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ):

الظاهر أنّ الواو، واو حال، والجملة إشارة إلى عظمة هذه الليلة وفضلها، وهذا النوع من الجمل يستعمل في التنوية إلى عظمة الشيء، فيقال: وما أدراك ما هذه الحادثة.

و هو نظير قوله سبحانه: (وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) الانفطار: ١٧.

٣. (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر):

أعاد المبتدأ بلفظه دون أن يشير إليه بالضمير اهتماماً به، لأنّ الليلة التي هي خير من ألف شهر يليق أن يهتم بها.

إنّ الزمان ـ كاليوم والليل ـ هو الكمّ المتصل، ذا أبعاض، يتولّد من الحركة أي حركة الشمس والقمر، بل يتولّد من حركة كلّ شيء،

فخروج الشيء من مكان إلى مكان آخر يرسم أمرين:

١. انتقال المتحرّك من مكان إلى آخر.

٢. كون هذا الانتقال على وجه التدريج.

فهذا النوع من السيلان بالاعتبار الأوّل يسمّى حركة، وبالاعتبار الثاني يسمّى زماناً.

و أمّا المكان فهو الفراغ الذي يملأه الجسم، وهو أيضاً كالزمان غير أنّ الأوّل موجود غير قارّ الذات، والمكان موجود قارّ الذات، وعلى كلّ تقدير فليس لأجزاء الزمان والمكان شرف وقدر على البعض الآخر إلاّ بالأُمور الواقعة فيهما، فهذه هي التي تضفي على الزمان والمكان شرفاً وقدراً.

فالأراضي كلّها على نسق واحد ليس لبعضها على بعض شرف ومكانة إلاّ بأُمور خارجة عن ذاتها، فالأراضي المحياة لها منزلة على الأراضي الموات، لكون الأُولى مستعدة للانتاج دون الثانية، هذا إذا كان الامتياز بأمر ماديّ، ومثله الامتياز المعنوي، فلو اتّخذ إنسان شيئاً من الأرض وبناه مسجداً وأجريت عليه صيغة الوقف، أو صُلّيت فيه ركعتان، تكون هذه الأرض أشرف من غيرها، وتصير موضوعاً لأحكام شرعية، كحرمة تنجيسها ووجوب تطهيرها، وحرمة جلوس الحائض والجنب فيها.

وهكذا الكعبة التي يصفها سبحانه بقوله: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْت وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا) آل عمران: ٩٦.، وهكذا المسجد الحرام والمسجد النبوي وسائر المساجد، فقد فضّلت أراضيها على سائر الأراضي لأُمور عرضية لأجل عبادة الله فيها ودعوة الناس في تلك الأماكن إلى الله سبحانه وطاعته.

و على هذا فليلة القدر جزء من مطلق الليالي المتحقّقة بحركة الأرض لا فضل لها بما هي هي على سائر الليالي، إلاّ أنّ نزول القرآن فيها ونزول الملائكة والروح فيها إلى مطلع الفجر، أضفى عليها فضيلة رابية تزيد على فضل ألف شهر.

و بذلك يعلم أنّ كلّ ما ورد في الكتاب والسنّة ممّا يدلّ على فضل بعض الأماكن والأزمنة فهو من هذا القبيل، فإن فضيلتها أمر طارئ لأجل عوامل خارجة عن ذواتها.

ثم إنّ الظاهر من الروايات أنّه تقسّم فيها الأرزاق وتكتب الآجال، وفيها يكتب وفد الله الذين يفدون إليه.(تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٣٣).

ليلة القدر، مستمرّة في كلّ سنة

ثمّ إنّ الظاهر أنّ ليلة القدر لم تكن ليلة واحدة مختصّة بحياة الرسول(صلى الله عليه وآله) التي نزل فيها القرآن الكريم، بل المراد جنس الليلة الذي يتكرر في كلّ سنة والّتي نزل في واحدة منها القرآن الكريم.

و الشاهد على أنّها ليست ليلة واحدة، الفقرات الواردة في هذه السورة، وهي:

١. قوله: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر) بصدد تفخيم هذه الليلة من ليالي الأعوام، لا خصوص ليلة واحدة في حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢. لو كان الغرض التعريف بخصوص ليلة واحدة قد انقضت ولا تتكرر، لم يكن هناك أي موجب لبيان فضل تلك الليلة (التي لا يواجهها المسلمون)، بنزول الملائكة وتعيين منتهاها.

٣. قوله: (تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ) ـ فيما بعد ـ أصله تتنزّل الملائكة، فهو ظاهر في استمرار هذا الأمر عبر السنين لا اختصاص نزولهم بليلة واحدة في سنة واحدة، وعندئذ فالغرض من بيان فضيلة تلك الليلة تحريض المسلمين على إحيائها بالعبادة وقراءة القرآن والدعاء وفعل الخير وغير ذلك ؛ لأنّ لفضيلة الزمان والمكان تأثيراً في استجابة الدعاء وصعود الأعمال.

ثم إنّه قد ورد في بعض الروايات أنّ الشهور الألف المذكورة في الآية تُشير إلى مدّة حكم بني أُميّة، فقد روى الترمذي في جامعه بسنده إلى القاسم بن الفضل الحدّاني عن يوسف بن سعد]الجُمحي[، قال: قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية، فقال: سوّدت وجوه المؤمنين أو يا مسوّد وجوه المؤمنين، فقال (عليه السلام): «لاتؤنّبني رَحمك الله فإنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) أُري بني أُميّة على منبره فساءه ذلك، فنزلت: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) الكوثر: ١. ، يا محمد يعني نهراً في الجنّة، ونزلت: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) يملكها بعدك بنو أُميّة يا محمد. قال القاسم: فعددناها فإذا هي ألف شهر لايزيد يوم ولاينقص».(جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن، رقم ٣٣٥٠ .)

ومن طريقنا، روى الكليني في «الكافي» بسنده عن عليّ بن عيسى القمّاط، عن عمّه، عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام): قال: «أُري رسول الله (صلى الله عليه وآله) في منامه بني أُميّة يصعدون على منبره من بعده ويضلّون الناس عن الصراط القهقهرى، فأصبح كئيباً حزيناً، قال: يا جبرائيل إنّي رأيت بني أُميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط القهقرى، فقال: والذي بعثك بالحق نبيّاً إنّي ما اطّلعت عليه، فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل بآي من القرآن يؤنسه بها قال: (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) الشعراء: ٢٠٥ـ ٢٠٧، وأنزل عليه: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)جعل الله تعالى ليلة القدر لنبيّه(صلى الله عليه وآله) خيراً من ألف شهر ملك بني أُميّة». الكافي: ٤/١٥٩؛ تفسير نور الثقلين: ٥/٦٢١.

ثمّ إنّ ابن عاشور ذهب إلى عدم صحّة ما رواه الترمذي، قائلاً: بأنّ الاحتجاج بها لايليق أن يصدر مثله عن الحسن (عليه السلام) مع فرط علمه وفطنته، وأيّة ملازمة بين ما زعموه من رؤيا رسول الله(صلى الله عليه وآله)ودفع الحسن التأنيب عن نفسه، ولا شكّ أنّ هذا الخبر من وضع دعاة العباسيين، على أنّه مخالف للواقع، لأنّ المدّة التي بين تسليم الحسن الخلافة إلى معاوية وبين بيعة السفاح وهو أوّل خلفاء العباسية ألف شهر واثنان وتسعون شهراً أو أكثر بشهر أو بشهرين. التحرير والتنوير: ٣٠/٤٠٦.

أقول: حاصل ما ذكره أمران :

١. عدم الملازمة بين دفع التأنيب عن نفسه (عليه السلام)وبين رؤيا رسول الله .

٢. أنّ عدد الشهور الّتي حكم فيها بنو أُمية أكثر من ألف شهر.

لكن كلا الأمرين غير صحيح.

أمّا الأوّل: فلأنّ ابن عاشور لم يفطن لوجه الملازمة بين دفع التأنيب عن نفسه (عليه السلام)وبين رؤيا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذا قال: إنّ الاحتجاج بها لا يليق أن يصدر مثله عن الحسن مع فرط علمه وفطنته.

ووجه الملازمة، هو أنّ الإمام الحسن (عليه السلام)كان يقدّر ـ وفق تلك الرؤيا الصادقة ـ أنّ المُلك سيؤول إلى بني أُمية، وأنّ مُلكهم ـ حسب الرواية المتقدّمة ـ سيدوم ألف شهر، الأمر الّذي دعاه إلى أن يؤثر موادعة معاوية والتنازل له عن السلطة، بعد أن علم بتخاذل جيشه، وركونه إلى الدعة والسلامة، وعدم قدرته على المواجهة وتحمّل أعباء القتال.

وممّا يؤكّد هذا التلازم أنّ الحسن (عليه السلام)كان يذكر، حينما يعاتبه أصحابه في أمر الموادعة، كان يذكر قول أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام):

«أَمَا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لاَ يَجِدُ». نهج البلاغة: الخطبة ٥٧ .يعني معاوية. انظر: د. أحمد محمد صبحي، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية: ٣٢٥. وأمّا الإشكال الّذي أثاره المؤلف، وهو: (لو كان عليّ يعلم أن معاوية سيملك الأرض تحت قدميه، فما مبرّر سفك الدماء؟) فالجواب عنه: أنّ أمر الحرب يتعلّق بوجود الناصر، فإذا وُجد قامت الحجّة، والإمام علي (عليه

السلام)كان له أنصار كثيرون، وجيش يملك القدرة على المضيّ في القتال، وأمّا الإمام الحسن(عليه السلام)فلم يملك ذلك، وهو (عليه السلام)لم يقبل الموادعة إلاّ بعد أنّ استنفد كل وسائل التحريض على القتال، ولمّا رأى أنّها لم تنجع فيهم، وأنّ الظروف تجري لصالح معاوية، اضطر إلى ترك القتال، والتنازل عن السلطة.

وأمّا ما ترمي إليه الرواية، فهو أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مغتمّاً بسبب صعود بني أُميّة على منبره الّذي هو كناية عن استيلائهم على الخلافة. ومن المعلوم أنّ خلافة هؤلاء تؤدّي إلى الكوارث، فاللّه سبحانه أزال حزن النبي(صلى الله عليه وآله)بأنّه جعل للأُمّة الإسلامية ليلة القدر وهي في كلّ سنة أفضل من ألف شهر يحكم فيها بنو أُميّة.

وأمّا الثاني : فإنّ ما ذكره من أنّ عدد الشهور التي حكم فيها بنوأُميّة هي (١٠٩٢) شهراً أو أكثر بشهر أو شهرين فنابع من أنّه جعل تلك الفترة بين سنة ٤١ هالّتي استلم فيها معاوية الحكم إلى سنة ١٣٢ هالتي هلك فيها مروان آخر ملوك بني أُميّة بعامّة شهورها، مدّة لخلافة الأمويين، ولكنّه غير صحيح، وذلك لعدم استمرار خلافتهم بين التاريخين ؛ لأنّ عبد اللّه بن الزبير بعد هلاك يزيد استولى على كثير من البلاد الإسلامية.

يقول ابن الأثير: بويع عبداللّه بن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد وأطاعه أهل الحجاز واليمن و العراق وخراسان وجدّد عمارة الكعبة وأدخل فيها الحجر. أُسد الغابة: ٣/١٦٣. فلم تكن الخلافة متمحّضة لبني أُمية في تلك الفترة. فقد بويع للخلافة منتصف ربيع الأوّل سنة ٦٤ وتم القضاء على خلافته منتصف جمادى الأُولى عام ٧٣ ه.

و طبقاً لهذه المعلومة يجب أن ننقص هذه الأيام، أي: فترة حكم عبد اللّه بن الزبير، من فترة حكم بني أُميّة التي حسبها ابن عاشور. وهي ثماني سنين التي تعادل ٩٦ شهراً.

وليس ثمة ما يمنع أن تكون المدة على وجه التقريب .

وثالثاً: أنّ رمي الخبر بالوضع لا يسنده أي دليل، ولا تؤيده كلمات نقّاد الحديث في رجاله، فالقاسم بن الفضل الحرّاني (المتوفّى ١٦٧ ه) وثّقه يحي بن سعيد، وأحمد بن حنبل، وابن سعد، والترمذي، وغيرهم. وروى له مسلم، وأصحاب السنن الأربعة. انظر: تهذيب الكمال: ٢٣ / ٤١٠، رقم الترجمة ٤٨١٢.

وأمّا يوسف بن سعد الجمحي، فوثّقه يحي بن معين، وابن حبّان، وابن حجر العسقلاني.

وقال الترمذي (عقيب الرواية المذكورة): رجل مجهول.

ولكن يحي بن معين، قال (كما في رواية عنه): مشهور. انظر: تهذيب الكمال: ٣٢ / ٤٢٦، رقم الترجمة ٧١٣٧ ؛ وتقريب التهذيب: ٢ / ٣٨٠، برقم ٤٣٤.

ثم إنّنا لو افترضنا أنّ الخبر معلول بيوسف بن سعد، فإنّ قول ابن عاشور بأنّه من وضع دعاة العباسيين، في غاية البُعد، إذ من البعيد جدّاً أن يروي يوسف بن سعد عن الإمام الحسن (المتوفّى ٥٠ ه)، ثم يبقى إلى وقت ظهور دعاة العباسيين.

٤. (تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْر):

لقد تقدّم أنّ ليلة القدر من حيث الزمان كسائر الليالي، ولو أنّها حازت شرفاً ومقاماً عالياً، فإنّما هو بسبب ما يحدث فيها من أحداث ووقائع، كما أشار إليه قوله سبحانه ـ في الآيات المتقدّمة ـ :

١. تنزّل الملائكة، في هذه الليلة.

٢. تنزّل الروح، فيها.

٣. كلّ ذلك بإذن ربّهم .

أمّا نزول الملائكة فيقع الكلام في أنّه على مَن تتنزّل ، فإنّ النزول رهن غاية، وظاهر الآية ـ لأجل حذف المتعلّق ـ نزولهم إلى

الأرض، ولكن لاينافي ذلك تنزّلهم على قلوب أوليائه، كما يستفاد من بعض الروايات.أُصول الكافي: ١/٢٤٩، الحديث ٥ و ٦.

ثم إنّ نزول الملائكة مرّة يكون للخير، كما في نزول الملائكة على إبراهيم الخليل (عليه السلام)حيث (بَشَّرُوهُ بِغُلاَم عَلِيم)(الذاريات: ٢٨ .)، ونزول الروح على مريم، قائلاً: (أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيًّا) مريم: ١٩ .. وقديكون نزولهم للشرّ، كما في قصة لوط، قال سبحانه: (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ) الحجر: ٦١ .وما نزلوا إلاّ لإبادة قوم لوط، كما يقول سبحانه: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل) الحجر: ٧٤ ..

ولكنّ نزول الملائكة في ليلة القدر إنّما هو للخير، فإن ليلة القدر ليلة الفضيلة فلا يناسب الشر، خصوصاً بالنسبة إلى قوله تعالى: (سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) الذي سيأتي تفسيره.

أمّا «الروح» فقد اختلفت كلمات المفسّرين في المراد به .

والظاهر أنّ «الروح» هو ما أُشير إليه في قصة مريم، أعني قوله سبحانه: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا) مريم : ١٧ . .

وقوله سبحانه: (وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)(الإسراء: ٨٥ .). والمراد هو مظهر أمر الله سبحانه كما هو الحال في قصة مريم، وقوله سبحانه: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤ . ، فعلى هذا فالأظهر انطباقه على جبرئيل.

غير أنّ الظاهر من بعض الروايات أنّه غير جبرئيل، روى البحراني في تفسير البرهان عن سعد بن عبدالله باسناده عن أبي بصير قال: كنت مع أبي عبدالله (عليه السلام)فذكر شيئاً من أمر الإمام إذا ولد... إلى أن قال: قلت: جعلت فداك أليس الروح هو جبرئيل؟ فقال: «جبرئيل من الملائكة والروح أعظم من الملائكة، أليس الله عزوجل يقول: (تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ)».(تفسير البرهان: ٤ / ٤٨١ .)

لاشكّ أن النزول فرع وجود المنزّل عليه، فعندئذ يقع السؤال عمن تنزل عليهم الملائكة، فقد أُجيب عن ذلك في رواية عن أبي جعفر (عليه السلام)قال: «يا معشر الشيعة خاصموا بسورة إنا انزلناه تفلحوا، فوالله إنّها لحجة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله، وأنها لسيدة دينكم وإنّها لغاية علمنا، يا معشر الشيعة خاصموا بـ (حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَة إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) الدخان: ١ ـ ٣ .فإنّها لولاة الأمر خاصّة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٣٥ ـ ٦٣٦ .

وقوله تعالى: (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْر).

الإذن: مصدر والباء للسببية أي يتنزّلون بسبب أمر الرب وإذنه.

قوله: (مِنْ كُلِّ أَمْر)الظاهر أنّ «من» بمعنى اللام، أي يتنزّلون لكلّ خير وبركة، ولكلّ تقدير وتعيين للمصائر.

ويحتمل أن يكون بمعنى الباء كما في قوله: (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ) الرعد: ١١ .، أي يحفظونه بأمر الله، والمراد تتنزّل بسبب كلّ أمر أراد الله سبحانه تقديره وإيجاده.

٥. (سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) :

سلام: مصدر أو اسم مصدر معناه: السلامة، مثل قوله سبحانه: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) الأنبياء: ٦٩ .. وهو خبر مقدّم لقوله «هي» أي: ليلة القدر سلام.

وربما يطلق السلام ويراد به التحيّة، والوجهان محتملان في الآية، أي أنّ الملائكة يتحمّلون بسط الخير في العالم، كما أنّهم يحملون التحيّة للمؤمنين حتّى مطلع الفجر، أي إلى طلوعه، وهو غاية لنزول الملائكة.

والمطلع: بفتح اللام بمعنى المصدر، أي طلوع الفجر.

وأمّا في قوله سبحانه: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً)، الكهف: ٩٠ .فهنا المطلع ـ بكسر اللام ـ بمعنى محل طلوع الشمس، فهو بفتح اللام مصدر ميمي للزمان، وبالكسر اسم مكان. فكأنّ هذه الليلة كلّها خير وسلامة، أو أنّ الملائكة تحيّي المؤمنين وتسلّم عليهم. وفي الآية تكريم للأُمّة الإسلامية حيث إنّ الملائكة كانوا ينزلون على الأنبياء، كما في قصة إبراهيم (عليه السلام)ـ كما مرّ ـ ولكن هنا تنزل على أُمّة الإسلام، وحسب بعض الروايات فهم ينزلون على الإمام الحيّ (عليه السلام).

وجه تسمية ليلة القدر

قد مرّ في أوّل الكلام عن تسمية السورة أنّ القدر يفسّر بمعنى التقدير، وأُخرى بمعنى الشرف والكرامة، ولا منافاة بين الأمرين.

وفي هذه الليلة تُقدَّر الأرزاق ونهاية الأعمار، بل يقدّر لكلّ فرد ما يليق به حسب الأرضية الّتي اكتسبها.

نعم: إن التقدير بالمعنى الوسيع الشامل لأفعال الإنسان لا ينافي حرية الإنسان واختياره، أمّا ما يرجع إلى ما وراء الإنسان من الخيرات والبركات، أو ما يقابلها من قلّتها فهو لا يمتّ لإرادة الإنسان واختياره بصلة، وأمّا ما يرجع إلى مصير الإنسان من خير وشرّ وسعادة وشقاء فإنّ التقدير ليس منفلتاً، بل يجري وفق طبيعة الإنسان واستعداده، وما يمتلك من مقومات السعادة والشقاء والخير والشرّ، وما اكتسب من الملكات الفاضلة أو الذميمة، أو ما يكتسب كذلك.

تعيين ليلة القدر

قد توصّلنا من ضمّ بعض الآيات إلى بعضها، إلى أنّ ليلة القدر في شهر رمضان، والكلام هنا، في تعيين نفس الليلة من الليالي الثلاثين.

والروايات في المقام مختلفة، ففي رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام)أنّ سائلاً سأله عنها؟ فقال: «أطلبها في تسع عشر وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين» تفسير نور الثقلين: ٥/ ٦١٩،برقم ٣٣؛الكافي: ٤/ ١٥٦،الحديث ٤؛ لاحظ: الوسائل: ٧،الباب ٣٢ من أبواب أحكام شهر رمضان، الحديث ١..

وربما يظهر من بعض الروايات أنّ التقدير في ليلة تسع عشر، ولكن الإبرام في ليلة إحدى وعشرين الوسائل: ٧، الباب ٣٢ من أبواب أحكام شهر رمضان، الحديث ٢ ..

وهناك أقوال أُخرى، والمشهور ما ذكرنا.

ثم إنّه يقع الكلام في وجه الاختفاء، ولعلّ وجهه هو لإيجاد الاهتمام بهذه الليالي الثلاث، وقراءة القرآن والدعاء وإقامة الصلاة في عامتها، والتجنّب عن المعاصي والرذائل في جميعها، ولا تُرى هذه العناية فيما إذا عُيّنت في ليلة معيّنة، فقد أخفاها سبحانه لتحترم الليالي الثلاث.

ثم إنّ لليلة القدر في الليالي الثلاث أعمالاً وأدعية مذكورة في كتب الدعاء.

هل ليلة القدر واحدة في جميع المعمورة؟

أقول: الليل هو ظل نصف الكرة الأرضية على النصف الآخر من هذه الكرة، ويتحقّق هذا الظل بدوران الأرض حول نفسها، في أربع وعشرين ساعة.

فالنصف المقابل للشمس يتمتع دائماً بالنور والضياء الّذي نسمّيه نهاراً، والنصف المستدبر للشمس تحيطه ظلمة نسمّيها ليلاً ، فإذا دارت الأرض حول نفسها مدة أربع وعشرين ساعة يتحقّق هناك ليلة واحدة، تستمرّ أربعاً وعشرين ساعة، والمجموع ليلة القدر لكن لكل نصف اثنا عشر ساعة أو أقل أو أكثر.

نعم ربما يتصوّر أنّ ليلة القدر في وجه البسيطة لا تتجاوز مثلاً عن اثنتي عشرة ساعة، ولكنّه توهم باطل نابع عن القول بكون الأرض مسطحة وعدم دورانها، وأنّها مركز لباقي الأفلاك، ولكن العلم الحديث أثبت بالأدلة الحسيّة على كونها كروية ومتحركة حول نفسها في أربع وعشرين ساعة.

وعلى هذا فالنصف الواقع في الظلام ليلة القدر لأهله، كما أنّ النصف المظلم الآخر هو ليلة القدر لأهله.

تمّ تفسير سورة القدر

٩٨- سورة البيّنة

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَ مَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تسمّى بسورة «البيّنة» تارة، وسورة «البريّة» أُخرى، وسورة «لم يكن» ثالثة، روى البخاري عن أنس بن مالك أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) قال لأُبيّ بن كعب: «إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قال: و سمّاني؟ قال: نعم، فبكى. صحيح البخاري: ١٢٧٥، برقم ٤٩٥٩، كتاب التفسير، ولاحظ: الحديث ٤٩٦٠.

و ذكر السيوطي في «الإتقان» أنّها سمّيت في مصحف أُبيّ بـ «سورة أهل الكتاب» وربّما سمّيت بسورة «الانفكاك». الإتقان: ١ / ١٧٦، طبعة دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ.

و على هذا فللسورة ستّة أسماء، وهذا أوضح دليل على أنّ تسمية السور ليست توقيفية.

و في النفس من حديث البخاري شيء، إذ ما هو الوجه لتخصيص أُبيّ ابن كعب بقراءة السورة عليه ، فلو كان الوجه دفعه إلى مناظرة أهل الكتاب بالمدينة، فكم له من نظير.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

هي ثمان آيات عند الجمهور، وعدّها أهل البصرة تسع آيات. وإنّما الاختلاف في قوله: (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) فهو جزء الآية الخامسة عند الجمهور، ومستقلّ عند البصريّين.

و السورة مدنية كما هو الظاهر من تركيزها على أهل الكتاب، فإنّ البيئة المناسبة لمناقشتهم هي المدينة المنوّرة.

يقول السيّد الطباطبائي: والسورة تحتمل المدنية والمكّية، وإن كان سياقها بالمدنية أشبه. الميزان في تفسير القرآن: ٤٧٧/٢٠.

أغراض السورة

توبيخ المشركين وأهل الكتاب على عدم انفكاكهم وتحوّلهم عن عقيدتهم الفاسدة إلى أن جاءتهم البيّنة.

ثمّ تخصيص أهل الكتاب بأنّهم اختلفوا حتّى بعد أن جاءتهم البيّنة، مع أنّ مقتضى مجيء البيّنة، عدم اختلافهم في الدين، ثم التأكيد على أنّ أهل الكتاب كانوا مأمورين بالدين الحنيف، الذي فيه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وتصف السورة المشركين وأهل الكتاب بشرّ البرية، وأنّ جزاءهم هو نار جهنم، كما تصف المؤمنين القائمين بصالح الأعمال بأنّهم خير البريّة، وأنّ جزاءهم هو الجنّة.

١ ـ ٤ الآيات: الأُولى إلى الرابعة(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ.... إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ).

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ).

المفردات

فك: الفك: التفريج، وفك الرهن: تخليصه، وفك الرقبة: عتقها. فقوله: (مُنْفَكِّينَ) في الآية أي لم يكونوا متفرّقين، بل كانوا على الضلال، يقال: ما انفك يفعل كذا، نحو: ما زال يفعل كذا.

البيّنة: الدلالة الواضحة، عقلية كانت أو محسوسة، وسمّي الشاهدان بيّنة لقوله(صلى الله عليه وآله): «البَيِّنَةُ على المدّعي، واليمين على مَن أنكر»، وقال سبحانه: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّهِ) هود: ١٧..(المفردات للراغب: ٦٨، مادة «بان».)

التفسير

١. (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) :

هنا أسئلة تتعلّق بالآية:

١. قوله: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) فهل لفظة « من» بيانية أو تبعيضية؟

٢. ما هو متعلّق (مُنْفَكِّينَ)؟ أي: ما هو الشيء الّذي لم ينفكّوا عنه؟

٣. ما هو المراد من البيّنة في الآيتين الأولى والرابعة؟

ثم إنّ الواحدي ـ حسب ما نقله الرازي ـ قال في كتابه «البسيط»: هذه الآية ـ أي الأُولى ـ من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد تخبّط فيها الكبار من العلماء. ثمّ إنّ الواحدي لم يلخص كيفية الاشكال فيها.

و قال الرازي: أنا أقول وجه الإشكال: أنّ تقدير الآية أنّ متعلق الانفكاك هو الكفر الّذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الّذين كفروا منفكّين عن كفرهم حتى تأتيهم البيّنة، وبما أنّ «حتّى» لانتهاء الغاية، فهي تقتضي أنّهم صاروا منفكّين عن كفرهم بعد حصول الغاية أي بعد إتيان الرسول، بمعنى أنّهم صاروا مسلمين مؤمنين حقيقة...

و لكن الآية التالية تدلّ على خلاف ذلك، وتقتضي أنّ كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول(صلى الله عليه وآله)كما يقول تعالى: (وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) تفسير الرازي: ٣٢/٣٨. .

و حاصل الإشكال: أنّ الآية الأولى تدلّ على دخول المشركين وأهل الكتاب في حظيرة الإيمان، والآية الرابعة تدلّ على خروجهم أو عدم دخولهم في حظيرة الإيمان.

هناك وجوه في تفسير الآية نتعرّض لذكر بعضها:

١ـ نظرية صاحب الكشّاف

إنّ الكفّار من الفريقين ـ أهل الكتاب وعبدة الأوثان ـ كانوا يقولون قبل مبعث محمّد(صلى الله عليه وآله): لاننفك عمّا نحن عليه من ديننا ولانتركه حتّى يُبعث النبيّ الموعود، الّذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه.

ثم قال: (وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) يعني أنّهم كانوا يعِدون اجتماع الكلمة والاتّفاق على الحق، إذا جاءهم الرسول، لكن انعكس الأمر، فما فرّقهم عن الحق ولا أقرّهم على الكفر إلاّ مجيء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير

الفاسق لمن يعظه: لست امتنع ممّا أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى، فلمّا رزقه الله، ازداد فسقاً؛ فيقول واعظه: لم تكن منفكّاً عن الفسق حتى توسر، وما غمستَ رأسك في الفسق إلاّ بعد اليسار، يذكّره ما كان يقوله توبيخاً ، وإلزاماً.(تفسير الكشّاف: ٣/٣٥٢.)

و حاصل هذا الجواب: أنّ الآية الأُولى تتضمّن حكاية قول الفريقين، والآية الثانية إخبار عن الواقع بأنّ الأمر وقع على خلاف ما هو المتوقّع.

توضيح هذا الوجه: أنّ اليهود كانوا يستفتحون على المشركين، بأنّ الله سبحانه سوف يبعث رسولاً داعياً إلى التوحيد ومحطّماً للأصنام، ولمّا جاء الرسول انقلبوا على أعقابهم، قال سبحانه: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) البقرة: ٨٩..

و في آية أُخرى يبيّن أنّ أهل الكتاب يعرفون النبيّ المبشّر به في التوراة والإنجيل كما يعرفون أبناءهم، قال سبحانه: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ) البقرة: ١٤٦، والأنعام: ٢٠.، وكان المترقّب منهم أن ينفكّوا عن كفرهم، ولكنّهم بقوا عليه حتى بعدما جاءتهم البيّنة.

و على هذا التفسير فالآيتان نزلتا للإنذار والتوبيخ، فالآية الأُولى تحكي عن استعدادهم للإيمان حسب ادّعاءاتهم، والآية الأُخرى تحكي عن الواقع المرّ حيث انعكس الأمر فلم يؤمنوا.

هذا غاية توضيح نظرية صاحب الكشّاف.

يلاحظ عليها: أوّلاً: بأنّ ظاهر الآيتين أنّهما على نسق واحد، فكلتاهما إخبار عن الواقع لا أنّ الأُولى تحكي عن ادّعاءاتهم، والثانية تخبر عن الواقع المرّ.

و ثانياً: أنّ عدم الانفكاك عن كفرهم محدّد في الآية الأُولى بإتيان البيّنة،

وهذا يلازم كونهم قد آمنوا بعد أن جاءتهم البيّنة، وأين هذا من هذا التفسير من أنّهم بقوا على كفرهم وانعكس الأمر على خلاف المتوقَّع منهم؟

٢. نظريّة الشهيد المطهّري

إنّ صديقنا الراحل المغفور له الشهيد مرتضى المطهري هو أحد المفكّرين في العلوم الإسلامية، وله في تفسير هذه الآيات نظرية خاصّة بسط الكلام فيها، ونحن نذكر عصارة ما أفاده ببيان منّا.

إنّ الآية الأُولى آية تبشير بأنّ أُمّة من أهل الكتاب والمشركين آمنوا بالنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)عندما شاهدوا البيّنة الواضحة التي ساقتهم إلى الإيمان به وبما جاء به؛ وذلك لأنّ الإنسان مهما كان كافراً فإنّه خلق على الفطرة، أي فطرة التوحيد وطلب الحق، ولم تزل هذه الفطرة حليفة لخلقته مهما سُترت بالأهواء والآثام، ولكن هذا الإنسان ينقسم إلى صنفين، صنف منهم يقدّمون العادات وما ورثوه من الآباء من العقائد على مقتضى الفطرة والبراهين والبيّنات، ولا يستضيئون بنور العقل، ولا بالبيّنات التي جاء بها الأنبياء، يقول سبحانه: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) الحديد: ٢٥. . وقد مرّ قوله سبحانه:(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ).(البقرة: ٨٩ .)

و هناك صنف يستضيئون بنور العقل ويقتدون بالبيّنات، ويفارقون العادات والتقاليد التي ورثوها من الآباء والأجداد.

فلمّا جاء النبيّ(صلى الله عليه وآله) الذي هو بنفسه بيّنة، حيث إنّ حياته أربعين سنة بين ظهرانيهم، منزّهة عن كلّ عيب وشين، وتالياً عليهم صحفاً مطهرة، أوجد هزّة بين المشركين وأهل الكتاب فآمن قسم كبير من الطائفتين، يقول سبحانه: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) البقرة: ١٢١ . فعلى هذا فالآية الأُولى تخبر عن واقعة سارّة، وهي أنّ قسماً من الذين كفروا ومن أهل الكتاب كانوا على عقيدتهم وأفكارهم الباطلة حتى تأتيهم البيّنة، فعند ذلك انفكّوا عن عقيدتهم فآمنوا بالله ورسوله، وعلى هذا فالمراد بالبيّنة هو المفسّر في الآية التالية أي قوله تعالى:

٢ و ٣. (رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ):

فكأنّ الرسول بذاته بيّنة، وكتابه بيّنة أُخرى.

ولمّا كان هناك موضع سؤال: لماذا لم يؤمن كلّهم ـ وكأنّ النبي كان يترقّب إيمان الجميع ـ ذكر سبحانه ما يتسلّى به النبيّ(صلى الله عليه وآله) وقال:

٤. (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ):

وهو أنّ هذه سنّة جارية فيهم عبر القرون، فإنّ قسماً منهم بعدما تبيّن لهم الحقّ بالبيّنات، في الأدوار السابقة، ظلّوا عاكفين على اعتقاداتهم الباطلة، ولم يستنيروا بالبيّنات، وهذا هو المسيح بن مريم يحكي عنه سبحانه ذكره لهذا التفرّق: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُول يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)(الصف: ٦). فقولهم: (هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) إشارة إلى المسيح حيث وصفوا معاجزه وبيّناته بالسحر المبين.

و بهذا البيان اتّضحت أجوبة الأسئلة المطروحة:

١. أنّ «من» في قوله: «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» تبعيضية لا بيانية؛ لأنّ المفروض انفكاك قسم منهم عن الكفر لا جميعهم.

٢. أنّ متعلّق الفكّ هو الكفر والضلال والأفكار المنحرفة والعادات الباطلة.

٣. أنّ المراد من البيّنة في الآية الأُولى هو النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله) لأنّ قوله: (رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً) بدل من البيّنة، وأمّا المراد من «البيّنة» في الآية الرابعة، فهم النبيّون المتقدّمون كالمسيح ومن سبقه.

و على هذا تتضمّن الآيات الإخبار عن واقعتين:

إحداهما سارّة، والأُخرى مُحزنة.

فالأُولى هي إيمان قسم من أهل الكتاب والمشركين بالنبيّ الأكرم كما هو المشهود في حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله) وسيرته.

و أمّا الثانية فهي بقاء جماعة منهم على اعتقاداتهم وعاداتهم تبعاً للسيرة المستمرة بينهم.

ثمّ إنّ قوله تعالى: «تَأْتِيهِم» بصيغة المضارع باق على معناه دون أن يكون بمعنى الماضي، وذلك لبيان أنّ انتظارهم كان مستمرّاً إلى مستقبل الزمان، ويؤيّده قوله تعالى في الآية التالية: (رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً)، والمراد أنّهم كانوا غير منفكّين إلى أن تأتيهم البيّنة، كأنّ عدم الانفكاك كان أمراً مستمرّاً من الماضي إلى الزمان المستقبل.

وثمّة وجوه أُخرى لتفسير الآيات، أكثرها على خلاف الظاهر تركنا التعرّض لها، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى التفسير الكبير للرازي. تفسير الرازي: ٣٢ / ٣٨ .

بقيت هنا أُمور:

الأوّل: أنّه سبحانه تعرّض لاختلاف أهل الكتاب ولم يتعرّض لاختلاف المشركين وإعراضهم عن دين التوحيد وإنكارهم الرسالة حيث قال: (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) وما عطف عليهم المشركين.

و قد أجاب عن ذلك السيد الطباطبائي بقوله: لايبعد أن يكون قوله: (وَ مَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) شاملاً للمشركين كما هو شامل لأهل الكتاب، والشاهد على ذلك أنّه لم يقل أهل الكتاب الذي هو مصطلح شائع يستعمل

في اليهود والنصارى، بل قال: «أُوتُوا الْكِتَابَ»، وما ذلك إلاّ لأنّ الله أنزل الكتاب على عامّة البشر، ثم اختلفوا إلى وثنيّ وكتابيّ، فالجميع داخل تحت قوله: «أُوتُوا الْكِتَابَ» ويشهد على ذلك قوله سبحانه: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) البقرة: ٢١٣.الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ..

فالآية تدلّ على وجود اختلافين: اختلاف قبل بعث النبيّين، واختلاف بعد ذلك وبعد إنزال الكتاب.

أمّا الأوّل فناظر إلى اختلافهم في الأُمور المادية والدنيوية حيث إنّ كلّ واحد منهم كان يسحب النار إلى قرصه دون أن يراعي العدل والإنصاف، فبعث الله الأنبياء ليقضوا على هذه الاختلافات بإنزال شرائع سماوية قيّمة، وأمّا الثاني فقد حدث اختلاف آخر باسم الدين فمنهم من آمن و منهم من كفر.

الثاني: إنّ قوله سبحانه: (يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً) ليس ظاهراً في أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) كان يقرأ الآيات المكتوبة على ورق ونحوه؛ وذلك لأنّ الصحف جمع صحيفة وهي ما يُكتب فيها، ولكن المراد هنا أجزاء القرآن النازلة، قال سبحانه: (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ) عبس: ١٣ـ ١٦. ، والمراد بكونها مطهرة تقدُّسها من قذارة الباطن ولمس الشيطان.

و الدليل على ذلك قوله: (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) فهذه الفقرة تدلّ على أنّ الصحف غير الكتب، وإلاّ لاختلّ المعنى، واتّحد الظرف والمظروف.

ثم إنّ المراد بـ «كُتُبٌ قَيِّمَةٌ»: ما هو المكتوب بيد كتّاب الوحي أو بيد الملائكة حيث كانوا يكتبون القرآن على الألواح والقراطيس.

غير أنّ السيد الطباطبائي احتمل أنّ المراد بالكتابة هو الحكم والقضاء، يقال: كُتب عليه كذا، أي قُضي أن يفعل كذا، قال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)(البقرة: ١٨٣ .)، وقال: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ)(الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٣٣٩ .). فالمعنى أنّهم لم يؤمروا في الدعوة الإسلامية إلاّ بأحكام وقضايا هي القيّمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنساني فلا يسعهم إلاّ أن يؤمنوا بها ويتديّنوا. البقرة: ١٧٨.

ثم إنّ المراد بالقيّمة التي هي تأنيث القيّم (وقد وردت وصفاً للكتب) ما يقوم بمصلحة الشيء وضمان سعادته، كما هو حال القيّم بالنسبة إلى الأطفال، وهذه الكتب أو ما جاء فيها من الأقضية القطعيّة ـ حسب تفسير السيد الطباطبائي ـ قيّمة تحفظ كرامة الإنسان وسعادته، وسيأتي تفصيله فيما بعد.

و على أي حال فالقرآن المجيد بما أنّه صحف مطهّرة وفيها كتب قيّمة، يقوم بأمر المجتمع الإنساني ويحفظ مصالحه.

٥ الآية: الخامسة (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ....وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ).

(وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ).

المفردات

حنفاء: الحنف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجنف: ميل عن الاستقامة إلى الضلال.

يقال: تحنّف فلان أي تحرى طريق الاستقامة، وسمّت العرب كلّ مَن حجّ أو اختتن حنيفاً، تنبيهاً على أنّه على دين إبراهيم(عليه السلام). والأحنف من في رجله ميل.(المفردات للراغب: ١٣٣، مادة «حنف».)

و ربما يقال أنّ معنى الأحنف في اللغة هو الانحراف والاعوجاج، واستعملتها النصوص الإسلامية بمعنى الانحراف عن الشرك إلى التوحيد والهداية.

و لكنّه بعيد؛ لأنّ الأحنف كان لفظاً رائجاً قبل بعثة الرسول(صلى الله عليه وآله)، وهناك جماعة كانوا يُعرفون بالحنفاء.

نقل ابن هشام في حياة زيد بن نفيل قبل بعثة النبيّ(صلى الله عليه وآله) أنّه خرج يطلب دين إبراهيم (عليه السلام)، ويسأل الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلّها، ثم أقبل فجال الشام كلّه، حتى انتهى إلى راهب بميفعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم(عليه السلام)، فقال: إنّك لتطلب ديناً ما أنت بواجد مَن يحملك عليه اليوم، ولكن قد أطلّ زمانُ نبيّ يخرج من بلادك التي خرجت منها، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحقْ به، فإنّه مبعوث الآن، هذا زمانه. سيرة ابن هشام: ١/٢٣٠.

الدين: قال الراغب: الدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة، والظاهر أنّ المراد هنا هو الطاعة، أي لايطيعون إلاّ الله سبحانه بما أنّه الخالق المدبّر، وأمّا إطاعة غيره فإن كانت بأمر من الله فهي إطاعة الله، وإلاّ فلا طاعة له، قال سبحانه:(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهوَ مَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)(النساء: ٨٠). ومثله إطاعة الوالدين، وولي الأمر، وإلاّ فلا طاعة لهم. وقد أثبتنا في محلّه أنّ من مراتب التوحيد، التوحيد في الطاعة.

القيّمة: قال الراغب: قوله: (دِيناً قِيَماً)(الأنعام: ١٦١) أي ثابتاً مقوّماً لأُمور معاشهم ومعادهم، وعلى هذا قوله:(ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) البيّنة: ٤. فالقيّمة هنا اسم للأُمّة القائمة بالقسط المشار إليها بقوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة)(آل عمران: ١١٠).(المفردات للراغب: ٤١٧، مادة «قيم».)

الظاهر أنّ خصوص قوله: للأُمّة القائمةِ بالقِسط ... الخ، شيء ليس في الآية عليه دليل، بل المراد الأُمّة القيّمة أي القائمة بكلّ ما يصلحها وتبتعد عن كلّ ما يفسدها، أو الشريعة القائمة بصلاح أتباعها.

التفسير

٥. (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ):

الظاهر من الآية أنّها بصدد بيان الأُصول المشتركة في الشرائع السماوية وتتلخّص في:

١. عبادة الله وحده.

٢. تخصيص الإطاعة بالله سبحانه.

٣. إقامة الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربّه.

٤. إيتاء الزكاة، الّتي هي صلة الإنسان بين أبناء نوعه.

و هذه الأُمور كلّها تشكّل أركان الدين الإلهي في عامّة الشرائع، فمن العجب أن يُعرض كثير من المشركين وأهل الكتاب عن هذه الأُصول التي فيها سعادة البشر، ولها جذور في أعماق الفطرة السليمة.

٦ ـ ٨ الآيات: السادسة إلى الثامنة(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ.... لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ).

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْن تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ).

المفردات

البريّة: الخَلْق، قال سبحانه: (فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ) البقرة: ٥٤..

الشرّ: قال الراغب: الشرّ: الذي يرغب عنه الكلّ، كما أنّ الخير هو الذي يرغب فيه الكلّ.

التفسير

إنّه سبحانه تبارك وتعالى يذكر في هذه الآيات طائفتين، يصف إحداهما بشرّ البريّة والأُخرى بخير البريّة، ويبيّن مصيرهما في الآخرة.

أمّا شرّ البرية فقد بيّنه بقوله:

٦. (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ):

قدّم سبحانه أهل الكتاب على المشركين مع أنّ الوثنيّين أكثر إيغالاً في الكفر؛ لأنّ الحجّة بالنسبة إليهم أتمّ، وذلك لأنّهم قرأوا في كتبهم أنّ الله سبحانه سيبعث في آخر الزمان نبيّه الخاتم، فأعرضوا عمّا في كتبهم حسداً وعناداً.

يقول ابن عاشور: لم يختلف أهل الكتابين في أنّهم أخذ عليهم العهد بانتظار نبي ينصر الدين الحق وجعلت علاماته دلائل تظهر من دعوته كقول التوراة في سفر التثنية: «أقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه» ثم قولها فيه: «وأمّا النبيّ الذي يطغى فيتكلّم كلاماً لم أوصه أن يتكلّم به فيموت ذلك النبيّ وإن قلتَ في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرب فما تكلّم به النبيّ باسم الرب ولم يحدث ولم يصرّ فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الرب (الإصحاح الثامن عشر)».

و قول الإنجيل: «و أنا أطلب من الأب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد (أي شريعته لأنّ ذات النبيّ لاتمكث إلى الأبد) روح الحق الذي لايستطيع العالم أن يقبله لأنّه لايراه ولايعرفه (يوحنا، الإصحاح الرابع عشر، الفقرة ٦)». التحرير والتنوير: ٤١٧/٣٠ ـ ٤١٨.

هذه الفقرات تدلّ على صفات النبي، وهناك فقرات تدلّ على وجود اسمه (صلى الله عليه وآله وسلم)في العهدين.

أمّا الاسم فقد ورد في الإنجيل بلفظ فارقليطا إنجيل يوحنا: الآية ١٥ . وهو بمعنى أحمد، غير أنّ هؤلاء ترجموه باسم المعزّي وهو من تحريفاتهم وتشهد الفقرات الواردة على خلافه، كما في العبارة الّتي نقلها ابن عاشور، وورد في التوراة في الباب١٧ من سفر التكوين، فقد جاءت البشارة فيه باسمه وبخلفائه الاثني عشر: واسمه بالعبرانية: «ماد ماد» ولفظة: «شينم اسار» يعني اثني عشر، و «نِسِي اِم» يعني إمام ؛ وبالسريانية اسمه : «طاب طاب»، و «سروربنين» يعني: إمام. وإليك نص التوراة باللغتين المذكورتين:

ـ وَلِيَشْمِعيل شَمْعتَخ هِنّي بريختي أتُودِ هَفْرتي أتُودِهَرْبَتي أتُو بِمادْماد شِينِمْ اسار نِسِي اِمْ وَاَنَاتَّيتُوا لَكُوىَ كادِلْ. (بالعبرانية).

ـ دَعال اِسْمعَيْلَ شِمْعِتُك هابَرْكَتِهِ وَاسْكِتِّه وَاكْبِرتِه طاب طاب تِرِغْ سَرْرُورِبنِينِ تَوْليدي وَاتْليُوحْ لِعامارُبا. (بالسريانية).(العهد القديم: سفر التكوين، الباب١٧ .)

وترجمة النص المذكور هي:

قد سمعت دعاءك يا إبراهيم في حقّ إسماعيل، فقد باركته، وصيّرته كبيراً بمحمد (ماد ماد) واثني عشر إماماً من نسله، وسأُصيّره أُمّة عظيمة. لاحظ : أنيس الأعلام في نصرة الإسلام: ٦٨/٥ـ٦٩، البشارة الرابعة. .

و عندئذ يقع الكلام: لماذا صار هؤلاء شرّ البريّة؟

وجهه: أنّ هؤلاء هم الذين جحدوا الحق الذي قام عليه الدليل عناداً، وداسوا حكم الفطرة التي تدعو إلى التوحيد، وهؤلاء عدلوا عن النهج القويم بلا مبرر فصاروا شرّ أهل الأرض، وبذلك استحقّوا الجزاء المذكور في الآية وهو خلودهم في النار. يقول تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) الأنفال: ٢٢.، وفي آية أُخرى: (أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)(الأعراف: ١٧٩ .).

وأمّا الطائفة الأُخرى فقد أشار إليهم سبحانه بقوله:

٧. (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ):

وبذلك علم وجه كونهم خير البرية لأنّهم لمّا أبصروا الحق، آمنوا به، وعملوا بمقتضاه، ودفعوا ثمناً باهظاً على طريق إيمانهم، وبذلك صاروا مستحقّين للثواب المذكور في الآية:

٨ . (جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ):

و لنا بيان آخر في كون الكفّار المنكرين للبعث والجزاء شرّ البرية، والمؤمنين به خير البرية، و هو أنّ الفريق الأوّل لا يقف أيَّ وازع أمام أطماعهم ورغباتهم، ولربّما أشعلوا الحروب الطاحنة لأجل منافعهم واستيلائهم على حقوق الضعفاء، ومن شكّ في ذلك فإنما يشك في أمر بديهي، فالحرب العالمية الأُولى كانت وليدة الأنانية التي سيطرت على نفوس رؤساء الدول الكبرى آنذاك فطحنت ملايين البشر ضحية لأطماعهم.

و نظيرها الحرب العالمية الثانية، وسائر الحروب الّتي شنّتها قوى الاستكبار العالمي، لاسيّما أمريكا وربيبتها دويلة إسرائيل اللقيطة، وما هذا إلاّ لأنّهم لايعتقدون بالرب حقّ الاعتقاد حتى يخشونه، بخلاف الفريق الآخر الذين وصفهم سبحانه بقوله: (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) وهذه الخشية هي العلامة الفارقة والحد الفاصل بين الفريقين.

و على كلّ تقدير، فقد وصف جزاءهم بما يلي:

١. جَنَّاتُ عَدْنٍ ، والعدن هو الاستقرار والثبات، يقال: عَدَنَ بمكان كذا، أي استقرّ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر، فالجنّات محلّ إقامتهم لا محلّ تنزّههم .

٢. تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، الجنات التي صارت جزاءهم موصوفة بأنّها تجري من تحتها الأنهار، الذي يكون سبباً لمنتهى حسنها، ومن المعلوم أنّ جريان النهر استعارة لأنّ الجاري هو الماء لا النهر، وإنّما نسب إليه للمناسبة الموجودة بين الحالّ والمحلّ.

و جنات جمع جنّة، مع أنه لكلّ واحد جنّة، وذلك لأنّها على وجه التوزيع، كما يقال: ركب القوم دوابهم، مع أنّه ركب كلّ واحد دابته، ومنه يظهر معنى قوله: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) البقرة: ١٩. مع أنّ كلّ واحد يجعل إصبعه في أُذنه، كلّ ذلك من باب التوزيع.

٣. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، فالإقامة فيها إقامة خالدة وليس مثل الإقامة في الدنيا، والمكوث فيها دائم.

٤. رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ، أي خلودهم فيها متقارن برضا الله عنهم، وهذا أعظم أجر للمؤمنين وأسمى غاية لهم، حيث وصلوا في مقام العبودية إلى مرتبة يرضى الله فيها عنهم، يقول سبحانه: (وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ) التوبة: ٧٢ .

والشاهد على رضا الله سبحانه تكريمهم بهذا الجزاء الكبير.

٥. (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) نُقل عن الشيخ محمد عبده أنّه قال في تفسيره : أراد سبحانه بهذه الكلمة الرفيعة أن يدفع سوء الفهم الذي وقع فيه العامّة والخاصّة وهو أنّ مجرد الاعتقاد الموروث من الأبوين ومعرفة ظواهر بعض الأحكام، وأداء بعض العبادات، مجرد هذا يكفي في نيل ما أعدّه الله للمؤمنين، وإن امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد والكبرياء والرياء، وأفواههم بالكذب والنميمة والافتراء، وسرائرهم بالرقّ والعبودية للأُمراء، بل لمن دون الأمراء... كلا، لاينالون حسن الجزاء لأنّ خشية الله لم تحلّ قلوبَهم، ولم تهذّب شيئاً من نفوسهم، ولايكون ذلك إلاّ لمن خشي ربّه، وأشعر خوفه قلبه.(التفسير الكاشف: ٥٩٦/٧ .)

الشيعة في القرآن والسنة

يُطلق الشيعة في القرآن على من يشايع شخصاً معيّناً، ولذلك وصف إبراهيم(عليه السلام) بأنّه من شيعة نوح(عليه السلام) وقال: (وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ)(الصافات: ٨٣ .).

و أمّا في السنّة فقد تضافرت الروايات على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أطلق لفظ الشيعة على محبّي عليّ(عليه السلام) وشيعته، ووصف عليّاً وشيعته بأنّهم خير البرية، وها نحن نذكر شيئاً من هذه النصوص:

١ . أخرج ابن مردويه عن عائشة ، قالت : قلت : يا رسول الله مَن أكرم الخلق على الله؟ قال : «يا عائشة أما تقرئين : (إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّة)». الدر المنثور : ٦ / ٥٨٩، والآية هي السابعة من سورة البيّنة .

٢ . أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : كنّا عند النبيّ(صلى الله عليه وآله) فأقبل عليّ (عليه السلام)فقال النبيّ(صلى الله عليه وآله): «والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت: (إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّة)فكان أصحاب النبيّ إذا أقبل عليّ قالوا : جاء خير البريّة. الدر المنثور : ٦ / ٥٨٩ .

٣ . أخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً : «عليّ خير البريّة».(الدر المنثور : ٦ / ٥٨٩ .)

٤ . وأخرج ابن عدي عن ابن عبّاس قال : لمّا نزلت : (إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِك هُمْ خَيرُ البَرِيَّة) قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لعليّ : «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين» .(الدر المنثور : ٦ / ٥٨٩ .)

٥ . أخرج ابن مردويه عن عليّ (عليه السلام)قال : قال لي رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «ألم تسمع قول الله : (إِنَّ الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِك هُمْ خَيرُ البَرِيَّة) أنت وشيعتك ، موعدي وموعدكم الحوض، إذا جاءت الأُمم للحساب تدعون غرّاً محجّلين». الدر المنثور : ٦ / ٥٨٩ .

٦ . أخرج الدارقطني عن أُمّ سلمة قالت: كانت ليلتي ، وكان النبيّ(صلى الله عليه وآله)عندي، فأتته فاطمة فتبعها عليّ ـ رضي الله عنهما ـ فقال النبيّ : «يا عليّ أنت وأصحابك في الجنّة ، أنت وشيعتك في الجنّة».(نقله ابن حجر في الصواعق المحرقة: ١٦١ .)

٧ . روى ابن الأثير في نهايته : قال النبيّ مخاطباً عليّاً : «يا عليّ ، إنّك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيّين ، ويقدم عليه عدوُّك غضاباً مقمحين» ثمّ جمع يده إلى عنقه يريهم كيف الإقماح . قال ابن الأثير : الإقماح : رفع الرأس وغض البصر. النهاية : ٤ / ١٠٦. ورواه ابن حجر في الصواعق : ١٥٤ .

٨ . روى الزمخشري في ربيعه : أنّ رسول الله قال : «يا عليّ ، إذا كان يوم القيامة أخذت بحجزة الله تعالى ، وأخذت أنت بحجزتي ، وأخذ ولدك بحجزتك ، وأخذ شيعة ولدك بحجزهم ، فترى أين يؤمر بنا؟». ربيع الأبرار: ١ / ٨٠٨ .

٩ . روى أحمد في المناقب : أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعليّ : «أما ترضى أنّك معي في الجنّة ، والحسن والحسين وذرّيتنا خلف ظهورنا ، وأزواجنا خلف ذرّيتنا ، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا». الصواعق المحرقة: ١٦١ .

١٠ . روى الطبراني : أنّه(صلى الله عليه وآله) قال لعليّ : «أوّل أربعة يدخلون الجنّة : أنا وأنت والحسن والحسين ، وذرّيتنا خلف ظهورنا ، وأزواجنا خلف ذرّياتنا ، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا». الصواعق المحرقة: ١٦١ .

١١ . أخرج الديلمي : «يا علي ، إنّ الله قد غفر لك ولذرّيتك ولولدك ولأهلك ولشيعتك ، فأبشر فإنّك الأنزع البطين». الصواعق المحرقة: ١٦١ .

١٢ . أخرج الديلمي عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال : «أنت وشيعتك تردون الحوض رواء مرويّين ، مبيضّة وجوهكم ، وإنّ عدوّك يردون على الحوض ظماء مقمحين». الصواعق المحرقة: ١٦١ .

١٣ . روى المغازلي بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله : «يدخلون من أُمّتي الجنّة سبعون ألفاً لا حساب عليهم ـ ثمّ التفت إلى عليّ فقال : ـ هم شيعتك وأنت إمامهم». مناقب المغازلي : ٢٩٣ .

١٤ . روى المغازلي عن كثير بن زيد قال : دخل الأعمش على المنصور ، فلمّا بصر به قال له : يا سليمان تصدَّر ، قال : أنا صدر حيث جلست ـ إلى أن قال في حديثه : ـ حدّثني رسول الله قال : «أتاني جبرئيل(عليه السلام)آنفاً فقال : تختّموا بالعقيق ، فإنّه أوّل حجر شهد لله بالوحدانيّة ، ولي بالنبوّة ، ولعليّ بالوصيّة ، ولولده بالإمامة ، ولشيعته بالجنّة». مناقب المغازلي : ٢٨١ ، ورواه السيد البحراني في غاية المرام عنه ، وأنت إذا تدبّرت في الآيات الدالّة على سريان العلم والشعور في عامّة الموجودات مثل قوله : (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَـهْبِطُ مِنْ خَشْـيَةِ الله) ـ

البقرة : ٧٤ ـ تستطيع أن تُصَدّقَ ما جاء في الحديث من شهادة العقيق بوحدانية الله .

١٥ . روى ابن حجر : أنّه مرّ عليّ (عليه السلام)على جمع فأسرعوا إليه قياماً ، فقال : «من القوم؟» فقالوا : من شيعتك يا أمير المؤمنين ، فقال لهم خيراً ، ثمّقال : «يا هؤلاء ما لي لا أرى فيكم سمة شيعتنا وحلية أحبّتنا؟» فأمسكواحياءً ، فقال له من معه : نسألك بالذي أكرمكم أهل البيت وخصّكم وحباكم ،لما أنبأتنا بصفة شيعتكم، فقال : «شيعتنا هم العارفون بالله ، العاملون بأمرالله». الصواعقالمحرقة : ١٥٤ .

١٦ . روى الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ) : أنّ ابن عباس قال : سمعت رسول الله يقول : «إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعدّ الله تبارك وتعالى لشيعة عليّ من الثواب والزلفى والكرامة . . .». علل الشرائع : ١٥٦ .

١٧ . وروى أيضاً بسنده إلى سلمان الفارسي عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال : «يا علي تختّم باليمين تكن من المقرّبين ، قال : يا رسول الله ومن المقرّبون؟ قال : جبرئيل وميكائيل ، قال : فبما أتختّم يا رسول الله؟ قال : بالعقيق الأحمر؛ فإنّه جبل أقرّ لله بالوحدانيّة ، ولي بالنبوّة ، ولك يا عليّ بالوصيّة ، ولولدك بالإمامة ، ولمحبّيك بالجنّة ، ولشيعتك وشيعة ولدك بالفردوس». علل الشرائع : ١٥٨ .

تمّ تفسير سورة البيّنة

٩٩- سورة الزلزلة

(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَ أَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَ قَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا * يَوْمَئِذ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَهُ * وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تسمّى السورة بـ «الزلزلة» مرّة، و «الزلزال» أُخرى، و «إذا زلزلت» مرّة ثالثة، وعلى كلّ تقدير فالجميع يشير إلى السورة.

عدد آياتها ومحل نزولها

عدد آياتها تسع عند الجمهور، وعدّها أهل الكوفة ثمانية، ووجه ذلك كون قوله: (يَوْمَئِذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا) آيتان أو آية، فمن وقف على أشتاتاً جعل قوله: (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) آية أُخرى.

و أمّا محلّ نزولها فالمشهور أنّها مكّية ومضامين السورة تدلّ على أنّها كذلك، وأنّها تصف المعاد وكيفية وقوعه، وقد كان المشركون منكرين له أشدّ الإنكار.

أغراض السورة

تهدف السورة إلى تذكير الإنسان بأمر نهاية الحياة على وجه الأرض وأنّها ستلفظ ما في جوفها من الدفائن، وعندئذ يقوم الناس من قبورهم كلّ إلى مصيره حسب أعماله.

١ ـ ٥ الآيات: الأُولى إلى الخامسة (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا .... بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا).

(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَ أَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا).

المفردات

الزلزلة: شدّة الاضطراب، والزِلزال ـ بكسر الفاء ـ مصدر، وبفتحها اسم مصدر، ولا فرق بين أن يقال: زُلْزِلَتِ الأَرْضُ أو رُجّت، يقول سبحانه: (إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا) الواقعة: ٤..

أثقالها: ثِقْل (بكسر الفاء وسكون العين) ما يقابل الخفّة، وهو المتاع الثقيل.

الثَّقَل ـ محرّكة ـ متاع المسافر وحشمه، وكلّ شيء نفيس مصون، ومنه الحديث: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي».

القاموس المحيط للفيروز آبادي: ٣٤٢/٢.

التفسير

إنّ آيات هذه السورة المباركة تتمتع بأوزان مؤثرة في الروح ومشيرة إلى يوم القيامة وأهواله، وتُدخل الخوف والفزع على نفس السامع والقارئ، عندما يتأمّل في مضامينها.

١. (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا) :

أي إذا رجّت الأرض رجّاً شديداً لم يُر مثله قبل هذا اليوم، ولكنّه كتب عليها ذلك الزلزال.

ووجه كونه عديم المِثْل هو أنّ هذا الزلزال يمتاز بكونه عالمياً يشمل كلّ البسيطة شرقيّها وغربيّها، شمالها وجنوبها، ولا يبقى على وجه البسيطة موضع شبر لايشمله الزلزال، بخلاف الزلازل السابقة فإنها كانت موضعية لا عالمية، ولذلك يتحيّر الإنسان في سبب هذه الرجّة، ويقول كما سيأتي: «مَالَهَا» أي ما للأرض تتزلزل.

و يزيد هول الإنسان إذا أُضيف إليه ما تدلّ عليه سائر الآيات من أنّ هذه الرجّة تعمّ العالم كلّه، وأنّ النظام السائد على الأرض والسماء سيُطوى، يقول سبحانه: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ) إبراهيم: ٤٨..

و أيضاً يقول سبحانه: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَ إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ) التكوير: ١ ـ ٨ ،، إلى غير ذلك من الآيات الحاكية عن تبدّل النظام إلى نظام آخر.

٢. (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا):

الظاهر من الأثقال هو الأموات، كما تدلّ عليه الآيات التالية، أي أخرجت موتاها المدفونين فيها أحياءً للجزاء. وعن ابن عباس أنّه فسّره بالكنوز والمعادن، فتلقيها على ظهرها ليراها أهل الموقف، والغرض من لفظها على ظهرها هو أن يتحسّر العصاة إذا نظروا إليها لأنّهم تملّكوها ثم تركوها، ولاينتفعون بها في هذا المقام، بل يتضررون حيث تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم، كما يدلّ عليه قوله سبحانه: (فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنوبُهُم وَ ظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ). التوبة: ٣٥.

٣. (وَ قَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا):

اللاّم في الإنسان للجنس الشامل للمؤمن والكافر، لأنّ الزلزلة لمّا كانت خارجة عمّا هو المعتاد في حياة الإنسان، تصير سبباً لعجبه ودهشته، فيطرح هذا التساؤل: (مَالَهَا)، وكأنّه يقول: ما هو الغرض والهدف من هذا الزلزال ؟

والجواب: هو ما في الآية التالية.

٤. (يَوْمَئِذ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا):

هذه الآية جواب لتساؤل الإنسان عن سبب الزلزال العنيف؟ أي أنّ الأرض بزلزالها تشهد على أعمال بني آدم، مضافاً إلى شهود آخرين، كشهادة الأعضاء وكتّاب الأعمال من الملائكة وغيرهم.

روي في مجمع البيان أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أخبارها أن تشهد على كلّ عبد وأمة بما عملوا على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، وهذا أخبارها».

وفي رواية أُخرى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «حافظوا على الوضوء وخير أعمالكم الصلاة، فتحفظوا من الأرض، فإنّها

أُمّكم وليس فيها أحد يعمل خيراً أو شرّاً إلاّ وهي مخبرة به».

وعن أبي سعيد الخدري، قال: متى كنت في بيداء فارفع صوتك بالأذان، لأنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «لا يسمعه جنّ ولا إنس ولا حجر إلاّ شهد له» . مجمع البيان: ١٠ / ٧٩٩ .

وكان الإمام علي (عليه السلام)إذا فرغ بيت المال، صلّى فيه ركعتين، ويقول: «اشهدي أنّي ملأتك بحقّ، وفرّغتك بحقّ».(غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ١١ / ٤٧٨ .)

٥. (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) :

اللام بمعنى (إلى) لأنّ الإيحاء يتعدّى بـ «إلى» كقوله سبحانه: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) النحل: ٦٨ ..

والمراد أنّه سبحانه أوحى إليها أن تحدّث، فمتعلّق الوحي هو الإذن في التحديث لا الأخبار الّتي تتحدّث عنها الأرض، فهي تقوم بالإخبار بلا حاجة إلى الوحي إليها لأنّها كانت خازنة لخير الأعمال وشرّها، كالأقراص المضغوطة الّتي تسجل فيها الأصوات والأفعال، لكنّها لا تتحدث إلاّ بإذن من الله .

وبما أنّ إذنه سبحانه بالتحديث أشبه بصوت خفيّ لا يقف عليه الإنسان عبّر عنه بالوحي.

والآية تدلّ على سريان العلم والحياة في الجمادات، وإن كان في غفلة من ذلك، ويدلّ عليه قوله سبحانه: (وَ قَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيء) فصلت: ٢١. .

وقوله تعالى: (وَ إِنْ مِنْ شَيء إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)(الإسراء: ٤٤.).

وبما ذكرنا تستغني عن بعض الاحتمالات في تحديث الأرض كإعطاء الحياة والشعور للأرض الميّتة، أو يخلق صوت عندها، أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها لاحظ : التفسير الكبير: ٣٢ / ٥٩، فإن هذه الاحتمالات تصادم ظهور الآية بأنّ الأرض تخبر كما يخبر الإنسان من دون أن تطرأ عليها الحياة أو غير ذلك.

نعم الإنسان الساذج يتعجّب من تحديث الأرض الميّتة بكلّ ما حدث فيها من خير وشرّ، لكنّه سرعان ما يرجع عن تعجبه إذا وقف على سريان العلم والإدراك في الوجود الإمكاني كلّه مادّياً كان أو مجرّداً، وقد أوضحنا سريان الشعور في كتابنا: «تفسير السور المسبّحات الخمس» ضمن تفسير سورة الحديد، وأقمنا برهانه.

٦ ـ ٨ الآيات: السادسة إلى الثامنة (يَوْمَئِذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً... ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ).

(يَوْمَئِذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ).

المفردات

الصدور: انصراف الإبل عن الماء، والورود دخولها في الماء.

أشتاتاً: جمع الشتّ، وهو تفريق الشعب، يقال: شتّ جمعهم شتّاً وشتاتاً، كما يقال: جاءوا أشتاتاً أي متفرّقين . المفردات للراغب: ٢٥٥، مادة «شتت».

وأشتاتاً، كشقّ؛ كلاهما جمع شتّ.

المثقال: ربما يفسّر بما يعرف به ثقل الشيء، أو ما يقدّر به الوزن، كميزان زِنةً ومعنى، ولكن الظاهر أنّ المثقال مصدر ميمي بمعنى مقدار الذرة ووزنها، لا المثقال المعروف حالياً الذي يستخدمه بائعو المجوهرات والصاغة .

الذرّة: وهي النملة الحمراء الصغيرة في ابتداء حياتها، قال علي(عليه السلام): «سُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ!». نهج البلاغة: الخطبة ١٦٥. و (الهَمجة): واحدة الهَمَج، وهو ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم .

و روي عن ابن عبّاس أنّه أدخل يده في التراب، ثم رفعها ثم نفخ فيها، ثم قال: «كلّ واحد من هذه الأشياء ذرّة». تفسير الرازي: ١٠١/١٠.

و ربما يفسّر بذرات الغبار العالقة في الجوّ التي تتضح عندما تدخل حزمة ضوء من ثقب داخل غرفة مظلمة.

وأمّا اليوم فالذرة في علم الفيزياء هي عبارة عن أصغر جزء كامل من أجزاء المادّة، وهي إحدى الوحدات الأساسية لبناء المادة. فكلّ شيء حولنا مكوّن من ذرّات. والذرّة الواحدة بالغة الصّغر، فهي لا تتعدّى واحداً على مليون من سُمك شعرة. انظر: الموسوعة العربية العالمية: ١٠ / ٦٤٠ .

التفسير

٦. (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ):

والآية هي جواب بعد جواب، حيث سأل الإنسان عن سبب الزلزال، فأُجيب بجوابين:

١. (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا). وقد مر تفسيره.

٢. (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً)، أي يرجع الناس عن محلّ اجتماعهم إلى المحشر زَرافات ووحداناً، وعندئذ يطرح السؤال التالي: ما هو السبب لخروج هؤلاء من محلّ اجتماعهم إلى المحشر؟ فيجاب عن هذا السؤال بأنّ السبب هو: (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) من الخير والشرّ، فرؤية الأعمال ثم اقتضاء العدل حسبها تقرر مصيرهم إمّا إلى الجنّة أو إلى النار، وهذا لا ينافي أن يكون هناك بين الصدور عن محلّ الاجتماع والمسير إلى نتائج الأعمال، أُمور ذكرها القرآن الكريم في مواقف متعدّدة من توزين الأعمال، وشهادة الشهداء، إلى غير ذلك.

والآية بصدد بيان أنّ عمل الإنسان هو الّذي يعيّن ما يصير إليه من شقاء وسعادة.

٧ و ٨ . (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ):

الفاء تفريع على الفعل المتقدّم (لِيُرَوْا)، أي أنّ كلّ إنسان يُجازى بكلّ أعماله من جليل ودقيق، ومن خير وشرّ، وقد مرّ أنّ المراد من المثقال هو الزنة والمقدار، والآيتان من أغزر الآيات وأحكمها، حيث تدلاّن على ضابطة كليّة لا يشذّ عنها شيء وأنّ كلّ إنسان يرى نفس عمله صغيراً أو كبيراً، خيراً أو شراً، ثم يرى نتائج أعماله من الجنّة أو النار، «فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ. وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ... وَاذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً» نهج البلاغة: الخطبة ١٥٣ . .

روي عن عبدالله بن مسعود [أنّه] قال: إنّ أحكم آية في القرآن: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) ، وكان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يسمّيها: «الجامعة» (تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٤١ .).

وقد قدّم سبحانه رؤية الخير على رؤية الشرّ تقديراً لأهل الخير.

فإن قلت: ظاهر الآية أنّ كلّ إنسان يرى كلّ عمل عمله، كما يرى نتيجة كلّ عمل صدر عنه، ومعنى ذلك كون هذا القضاء حتميّاً لا يتغيّر مع أنّ هناك أعمالاً بين مكفّر ومحبط، شهد بهما القرآن الكريم، حيث إنّ بعض الأعمال تكفّر بعض السيئات، كما أنّ بعضها تحبط ما عمل الإنسان من الخير، فظاهر الآية كيف يجتمع مع التكفير والإحباط؟

أضف إلى ذلك: أنّ الاستغفار يمحو الذنوب كلّها، كما أنّ الشفاعة تؤثر في إنقاذ قسم من العصاة.

فالقول بهذه الأُمور يقتضي التميز والتخصيص في رؤية الأعمال ونتائجها.

قلت: الجواب عن ذلك هو أنّ الآيات الدالّة على التكفير والإحباط، وتأثير الاستغفار في غفران الذنوب، ودور الشفاعة في إنقاذ جمع من العصاة، آيات محكمات لا تقبل التخصيص والنسخ، فتكون مفسّرة للآيتين الأخيرتين، مثلاً:

من كفر ببعض الأعمال الّتي توجب غفران السيئات فهو محكوم بأنّه لم يعمل سيئة حتى يراها، يقول سبحانه: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) النساء: ٣١ .

ومن حبطت أعماله الحسنة بالرياء أو بالكفر أو غير ذلك ، فهو محكوم بأنّه لم يعمل خيراً، ومن ثمّ ليس له في يوم الحساب خير حتّى يراه.

وعلى هذا يتّضح عدم المنافاة بين هذه الآية وما دلّ على أنّ الاستغفار والشفاعة تؤثّر في تطهير الإنسان من الذنب .

روي عن زيد بن أسلم (رضي الله عنه)أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)فقال: علمني ما علّمك الله، فدفعه إلى رجل يعلّمه القرآن، فعلّمه (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ)، حتّى بلغ (فَمَنْ يَعْمَلْ)... الخ، فقال الرجل: حسبي. فأخبر بذلك النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)فقال: «دعه فقد فَقِهَ الرجل».

وعن أبي سعيد الخدري قال: لمّا أُنزلت هذه الآية: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) قلت: يا رسول الله: إنّي لراء عملي؟ قال: «نعم»، قلتُ: الكبار الكبار؟ قال: «نعم»، قلت: الصغار الصغار؟ قال: «نعم»، قلت: واثكل أُمّي قال: «أبشر يا أبا سعيد فإنّ الحسنة بعشر أمثالها، يعني إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو يعفو الله، ولن ينجو أحد بعمله». قلت: ولا أنت يا نبيّ الله؟ قال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمّدني الله منه بالرحمة» الدر المنثور: ٨ / ٥٩٤ ..

ولعلّ الحديث يشير إلى قوله سبحانه: (وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً) فاطر: ٤٥..

***

تمّ تفسير سورة الزلزلة

١٠٠- سورة العاديات

(وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَ إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تسمّى السورة في المصاحف بـ «سورة العاديات»، وربّما تسمّى بـ «والعاديات» نظير سورة الضحى الّتي تسمّى تارة بلا واو وأُخرى معها.

عدد آياتها ومحل نزولها

عدد آياتها إحدى عشرة آية بالاتّفاق، واختلفت الكلمة في أنّها مكّية أو مدنية، نعم ، صياغة الآيات تشهد على أنّها مكّية كسائر السور الّتي جاءت على هذه الصياغة.

ولكن يستظهر من شأن النزول أنّها مدنية من غير فرق بين ما رواه أهل السنّة أو ما روي عن طريق أئمة أهل البيت(عليهم السلام).

روى الطبري في تفسيره بسنده عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحِجر جالس أتاني رجل يسأل عن «العاديات ضبحاً» فقلت له: الخيل حين تُغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم ويورون نارهم، فانفتل عنّي فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو تحت سِقاية زمزم فسأله عنها، فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألتُ ابن عباس، فقال: الخيلُ تغزو في سبيل الله، قال:

اذهب فادعُه لي، فلمّا وقفتُ عند رأسه، قال: تُفتي الناس بما لا علم لك به، والله لكانت أوّل غزوة في الإسلام لبدر وما كان معنا إلاّ فَرسان فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟! إنّما العاديات ضبحاً من عَرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى الّذي قال علي (رضي الله عنه) جامع البيان (تفسير الطبري): ١٥ / ٣٤٥، برقم ٣٧٧٨٦ .، ولازم كلامه ان المراد بالعاديات: إبل الحجيج.

وقد لخّص الطبري هذه الرواية في موضع آخر، وقال: قال لي علي: «إنّما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى. وزاد فيها: (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً)الأرض حين تطؤها بأخفافها وحوافرها. المصدر نفسه: ١٥ / ٣٥٠، برقم ٣٧٨٤٠ .

وأنت ترى أنّه بينما فُسّرت (وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً)، في الرواية، بالإبل، تجد أنها فسّرت قوله (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً): بالإبل والخيل، بدليل وجود الخُفّ والحافر في الرواية.

يذكر أنّ الرواية ليست ظاهرة في كون السورة مدنية، وإنّما تشعر بذلك.

وأمّا ما روي عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام)فهو ما رواه الشيخ الطوسي باسناده عن الحلبي قال: سألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن قول الله عزوجل (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً)؟ قال: وجّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)عمر بن الخطاب في سرية فرجع منهزماً يجبّن أصحابه ويجبّنونه أصحابه. فلمّا انتهى إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)قال لعلي: أنت صاحب القوم فتهيّأ أنت ومن تريد من فرسان المهاجرين والأنصار، فوجّهه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وقال له: اكمن النهار وسر الليل ولا تفارقك العين، قال: فانتهى علي (عليه السلام)إلى ما أمره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)فسار إليهم، فلمّا كان عند وجه الصبح أغار عليهم فأنزل الله على نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم): (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً)إلى آخرها. تفسير نور الثقلين:٥/٦٥٢ .

أقول: قد روى الطبري باسناده عن بريدة الأسلمي أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أعطى اللواء [يوم خيبر] عمر بن الخطاب، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يُجبِّن أصحابه ويجبِّنونه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)لأعطينّ اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله.. فدعا علياً (عليه السلام)... (تاريخ الطبري:٢/٣٠٠ (سنة سبع من الهجرة، غزوة خيبر).)

ثم إنّه يختلف تفسير الآيات الخمسة الأُولى من السورة، إذا فسّرت العاديات بإبل الحجيج عمّا إذا فسّرت بخيل الغزو خصوصاً، كما سيوافيك.

أغراض السورة

إنّ القسم بالعاديات يتضمّن تقدير كلّ عادية تعدو في سبيل الله، ثم التنديد بالإنسان الكنود الّذي يكفر بنعم الله تعالى، وهو في باطن نفسه عالم بذلك، فالله سبحانه سيَجزي كل إنسان بما أضمر في صدره من الملكات: الفضيلة والرذيلة.

ففي الآيات دعوة إلى الجهاد ورفع الموانع عن تبليغ الإسلام، فأي دعوة أبلغ من القسم بحامل المجاهدين الّذي يوري قدحاً، ويُغير صبحاً، ويثير نقعاً، ويهاجم العدو في قلبه؟! فإذا كان هذا شأن الحامل، فما هي منزلة المحمول ـ أعني: أصحابهنّ وركبانهنّ ـ عند ربّهم؟!

١ ـ ٥ الآيات: الخمسة الأُولى(وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً *.... فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) .
(وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) .
المفردات
العاديات: من العَدْو وهو الجَريُ بسرعة، سواء كانت الخيل أم الإبل، ولكن الشائع في الاستعمال هو الخيل، لأنّها خلقت للعدو لا

للسير البطيء، بخلاف الإبل الّتي خلقت لحمل الأثقال، والغالب على سيرها هو السير البطيء، وقد ورد: أنّ الإبل تسير بهدوء، ولكن ليل نهار، بخلاف الخيل الّتي تعدو جزءاً من النهار أو الليل ثم تأخذ قسطاً من الراحة.

ضَبْحاً: الضَّبْح صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن، يقال: ضبحت الخيل، تضبح، ضَبحاً وضُباحاً.

قال الراغب: الضبح صوت أنفاس الفرس، تشبيهاً بالضباح وهو صوت الثعلب. المفردات للراغب: ٢٩٢، مادة «ضبح».

والمعروف في الفرس عند العدو هو الضبح، ومن هنا قيل: إنّه إذا أُريد بالعاديات: الإبل، فالضبح على هذا مستعار، لأنّ أصل استعماله في الخيل.

الموريات: الّتي توري وتوقد.

القدح: احتكاك جسم بجسم آخر ليقدح ناراً. فمن فسّر العاديات بإبل الحجيج قال: إذا نسفت الحصى بمناسمها، فضربَ الحصى بعضه بعضاً فتخرج منه النار. جامع البيان (تفسير الطبري) : ١٥ / ٣٤٧.

وأمّا من فسّرها بخيل الغزو، فالخيل توري النار بحوافرها وبنعلها إذا ضربت على الحجارة.

المغيرات: قال الطريحي: قوله (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً) هو من الغارة؛ لأنّهم كانوا يغيرون عند الصبح، وقال أيضاً: أغارت الفرس إغارة إذا أسرعت في العَدْو والاسم الغارة، وشنّوا الإغارة أي فرّقوا الخيل.(مجمع البحرين: مادة «غور».)

قال الرازي: الخيل تغير على العدو وقت الصبح، لأنّهم في الليل يكونون في الظلمة فلا يبصرون شيئاً، وأمّا النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة. تفسير الرازي: ٣٠ / ٦٥.

وحاصل الكلام: أنّ الإغارة في اللغة هي الإسراع، ولكن تستعمل في الهجوم على العدو، يقال: أغار فلان على كذا. وقال علي (عليه السلام) ـ في ذم القاعدين عن الجهاد ـ : «.. فيا عجباً! ـ عجباً ـ وَاللهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِن اجْتِماعِ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَن حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمى! يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ؟ وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ»(نهج البلاغة: الخطبة ٢٧ .).

نقعاً: النقع الغبار، والمراد إثارة الغبار حين العدْو.

التفسير

١. (وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً):

على القول بأنّ المراد (بالعاديات) خيل الغزو، فالواو: واو القسم، أي يقسم بالخيل الّتي تسرع إلى ميدان الجهاد ضابحة.

٢. (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً):

الآية وصف للعاديات، عطفت عليها بالفاء لا بالواو ، رعاية للترتيب الخارجي، وفيها يصف سبحانه تلك الخيل بأنّها يتطاير الشرر من تحت أرجلها، باستدامة ضرب الأحجار بحوافرها عند العَدْو.

٣. (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً) :

أي أقسم بالخيل الغائرات على العدو بغتة وقت الصبح، وقد عرفت أن الآية أكثر انطباقاً على الخيل دون الأبل..

٤. (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) :

والضمير في (بِهِ) يعود على العدْو، المستفاد من قوله: (وَ الْعَادِيَاتِ).

٥. (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً):

وسطَ وتوسّط بمعنى واحد والضمير في «بِهِ» يرجع إلى العَدْو أي صرْن بعْدوهنّ وسطّ جمع القوم مجمع البيان: ١٠ / ٤٨٠ ، ط . مصر.. وقال

السيد الطباطبائي: الضمير يرجع إلى الصبح والباء بمعنى في.. والمعنى فصرن وقت الصبح في وسط الجمع، والمراد كتيبة العدو.

وهذا المعنى وصف آخر للعاديات في ظاهر اللفظ، ولكنّه في الواقع وصف للفرسان، وبما أنّ الخيل هي السبب لتوسّطهم جمع العدُوّ، وصفت الخيل به، والمراد أنّ ركبان العاديات هجموا على العدو مباغتين له، واستطاعوا في بضع من اللحظات أن يكونوا في وسط الأعداء حتّى شتّوا حملتهم على قلب العدو، ومن ثم شتتوا جمعهم.

وما ذكرنا من التفسير مبنيّ على أنّ المراد من العاديات هو الخيل المسرعة إلى الجهاد. وأمّا على القول بأنّ المراد منه إبل الحجيج فيختلف تفسير هذه الفقَرة من السورة، فيكون المراد من (جَمْعاً)، هو المزدلفة لاجتماع الحجّاج فيها.

وظنّي أنّ القول الأوّل هو الأصوب، وذلك بشهادة القرائن التالية:

١. أنّ العدْوَ أكثر استعمالاً في الخيل منه في الإبل.

٢. أنّ الضَّبح يستعمل، عند اللُّغويين، في الخيل، وهو صوت انفاسها عند العدْو.

٣. أنّ تضَرُّم النار بالضرب على الحجارة إنّما يتحقّق كثيراً حينما تعدو الخيل فتضرب الحجارة بسنابكها السَّنابِك جمعُ سُنْبُك، وهو طَرف مقدّم الحافر. صحاح الجوهري: ٤ / ١٥٨٩، مادة «سبك»، ولكنّه قليلاً ما يحصل عند سير الإبل.

٤. قوله تعالى: (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) إنّ هذه الآية إذا فسّرت بخيل الغزو يتّضح معناها، أي تكون خيل الغزو في قلب العدو، فيقتل من يقتل ويؤسر من يبقى منهم، وهذا بخلاف ما إذا فسّرناه بالإبل في المزدلفة، فيجب أن يفسّر بقوافل الإبل في صباح العيد من المشعر إلى منى، فلابد من تفسير (جَمْعاً) بمعنى المكان مع أنّ الظاهر أنّه صفةٌ للناس.

٦ ـ ١١ الآيات: السادسة إلى الحادية عشرة (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ .... إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ).

(إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَ إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ).

المفردات

الكنود: يقال: أرض كنود: وهي الّتي لم تنبت شيئاً، ويطلق أيضاً على الكفور بالنعمة والعاصي. والمعنى: أنّ الإنسان بطبعه لشديد الكفران بالله تعالى.

الْخَيْر: أُريد به المال. قال سبحانه: (إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ) البقرة: ١٨٠..

بُعثِر: أُخرج من السُّفل إلى العُلوّ، وفي المقام كناية عن إحياء ما في القبور من الأموات.

حُصّل: التحصيل هو إخراج اللب من القشور، كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبرّ من التبن، والمراد: أُظهر ما في الصدر كإظهار اللب من القشر، قال لبيد:

وكلّ امرئ يوماً سيعلم سعيه *** إذا حُصّلت عند الإله الحصائل[١]

[١] خزانة الأدب: ٢ / ٢٢٢.

التفسير

٦. (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ):

هو جواب القسم وهو إخبار عمّا طُبع عليه الإنسان من حبّ الدنيا، والإعراض بها عن شكر ربه ومعرفته، ولا ينافي ذلك كونه موحّداً بالفطرة؛ وذلك لأنّ الآيات القرآنية الواصفة للإنسان على صنفين:

١. صنف يصف الإنسان بصفات سلبية، مثل قوله:(يَئُوس) هود: ٩. (ظَلُومٌ كَفَّارٌ) إبراهيم: ٣٤.، (عَجُولاً) الإسراء: ١١.، (كَفُوراً) الإسراء:

٦٧ ، (أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً) الكهف: ٥٤ ، (ظَلُوماً جَهُولاً) الأحزاب: ٧٢ ، (كَفُورٌ مُبِينٌ)، (هَلُوعاً) المعارج: ١٩، إلى غير ذلك .

٢. وصنف آخر يصف الإنسان بصفات إيجابية تعرّف كرامته ومنزلته، الّتي بلغت به أن صار مسجوداً للملائكة، الأعراف: ١١. مخلوقاً بفطرة الله الروم: ٣٠ . مُنشَأً بأحسن تقويم التين: ٤ ، مفضّلاً على كثير من المخلوقات الإسراء: ٧٠ ، حاملاً لأمانة الله الأحزاب: ٧٢ ، سائراً في البر والبحر ومرزوقاً من الطيبات ومكرّماً عند الله الإسراء: ٧٠ ، إلى غير ذلك من الصفات.

والجمع بين الصنفين هو أنّ الكرامة تُكتب للإنسان إذا اجتمعت فيه قوى الخير والشر فيقدّم إحداهما على الأُخرى بإرادة واختيار، فلو جُبل على إحدى القوتين دون الأُخرى لما استحق المدح ولا اللوم، دون ما إذا كانت فيه أرضية الخير والشر معاً، فيعالج أرضية الشر بتوجيهها نحو الخير والكمال.

٧. (وَ إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ):

الظاهر أنّ الضمير يرجع إلى الإنسان، لا إلى الله سبحانه، ومعنى ذلك أنّ الإنسان على نفسه بصيرة، فلو حاول إخفاء مطوياته فالله سبحانه سيظهرها يوم القيامة.

٨. (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ):

المراد من الخير ـ كما مرّ ـ هو المال، وحب المال أمر طبيعي للإنسان قال سبحانه: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) آل عمران: ١٤ . ولكنّ الأخذ بالتصوّر الإسلامي لوظيفة المال، ثم التعامل معه على أساس ذلك التصوّر، هو الّذي يحفظ للإنسان كرامته، ويقيه من المزالق، وذلك التصوّر هو أن ينظر إلى المال كوسيلة للعيش الكريم والبناء والتنمية ولا ينظر إليه كهدف وغاية، قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في وصف الدنيا: «مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ. مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ» نهج البلاغة: الخطبة ٨٢ . وقال الشريف الرضي بعد إيراده الخطبة: وإذا تأمّل المتأمل قوله (عليه السلام): «وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ» وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا أقرن إليه قوله: «وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ» فإنّه يجد الفرق بين «أبصر بها» و «أبصر إليها» واضحاً نيّراً، وعجيباً باهراً! صلوات الله وسلامه عليه..

٩. (أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ):

المراد من الموصول هو الإنسان. إنّما قال: (مَا فِي الْقُبُورِ) مكان «من في القبور» باعتبار أنّ الموجود في القبور هو أجسام بلا أرواح، فناسب اللفظ المستعمل في غير العاقل.

١٠. (وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) :

أي مُيّز ما في الصدور، الّتي فيها من الخير والشرّ، وعندئذ تُعلم منزلة الإنسان لدى خالقه.

١١. (إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذ لَخَبِيرٌ) :

قوله: (يَوْمَئِذ)متعلّق بقوله: (لَخَبِيرٌ): أي أنّ ربك عليم بهم يوم يبعثون من القبور. وتخصيص العلم بيوم البعث لأجل أنّه يجازيهم في ذلك اليوم، فعلمه بأعمال البشر وما في صدورهم من الصفات يومذاك سبب أقرب من علمه السابق الأزلي لمكافأة الإنسان وجزائه.

بقي هنا أمر وهو: ما وجه الصلة بين المقسم به وجوابه؟

لا شكّ أنّ بلاغة القرآن تقتضي أن توجد صلة بين المقسم به والمقسم له، فعندئذ يقع الكلام في ما هي المناسبة بين الإقسام بـ

: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾وقوله: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ؟

أقول: اجتمعت طائفة لمباغتة المسلمين والهجوم على المدينة والإطاحة بالدولة الإسلامية الفتية، ومن المعلوم أنّ هذه الطائفة التي يعبر عنهم بالإنسان الكنود، لا يصلحهم إلاّ العاديات الموريات المغيرات الّتي تهاجم الأعداء كالصاعقة، وتفرّقهم وتجعل كيدهم في تضليل.

روى الحويزي في تفسيره نقلاً عن القمّي في تفسيره عن أبي بصير قال: سألت أبا عبدالله (عليه السلام)عن هذه السورة؟ قال: «نزلت هذه السورة في أهل وادي اليابس». قلت: وما كان حالهم وقصّتهم؟ قال: «إنّهم اجتمعوا اثني عشر ألف فارس وتعاهدوا ألاّ يتخلّف رجل عن رجل، ولا يفرّ عن صاحبه حتّى يموت كلّهم على حلف واحد، ويقتلوا محمداً وعلي بن أبي طالب، فنزل جبرئيل على محمد فأخبره بقصتهم وما تعاقدوا عليه وتوافقوا».

ثم إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بعث أبا بكر في أربعة آلاف فارس لكن رجع غير موفق، ثم أرسل بعده عمر بن الخطاب فرجع مثلما رجع صاحبه .

ثم بعث عليّاً فخرج علي (عليه السلام)ومعه المهاجرون والأنصار وسار بهم غير سير أبي بكر وعمر، فلمّا وصل إلى أرض العدو أمر علي (عليه السلام)أصحابه أن يحسنوا إلى دوابهم ويقضموا ويسرجوا، فلمّا انشق عمود الصبح صلّى بالناس بغلس ثم غار عليهم وبأصحابهم، فلم يعلموا حتّى وطئتهم الخيل فقتل من قتل وأقبل عليٌّ بالأُسارى والأموال معه، فنزل جبرئيل فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بما فتح الله على عليّ (عليه السلام)وجماعة المسلمين، وأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم هذه السورة . تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٥٢ ـ ٦٥٥، بتلخيص .

تمّ تفسير سورة العاديات

١٠١- سورة القارعة

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَة رَاضِيَة * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

خصائص السورة

تسمية السورة

اتّفق المفسّرون على أنّ اسم هذه السورة «سورة القارعة»، ولم تسمّ باسم آخر.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آيات السورة عشرة في عدّ أهل المدينة، وثمان في عدّ أهل الشام والبصرة، وإحدى عشرة في عدّ أهل الكوفة، والمصاحف المتداولة توافق العدّ الكوفي.

ومنشأ الخلاف ـ مثلاً ـ قوله سبحانه: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾فمن فصل الأُولى عن الثانية عُدّتا آيتين، ومن وصلهما عُدّتا آية واحدة، وهكذا.

وأمّا محل نزولها فقد اتّفقوا على أنّها مكّية، وصياغة آياتها ومداليلها تشهدان على ذلك، لأنّها تتحدّث عن قرع القلوب يوم القيامة بأهوالها، ثم انهدام النظام السائد، وانطلاق كلّ إنسان إلى المحشر، ليلقى جزاء أعماله. وكلّ ذلك يناسب البيئة المكّيّة الّتي كانت للمشركين موطناً.

أغراض السورة

عرض لأهوال مشهد القيامة، وإنذار لمن خفّت موازينه، وتبشير لمن ثقلت موازينه، وبيان لمصير كلتا الطائفتين .

١ ـ ٥ الآيات: الخمس الأُولى(الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * ..... وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ).

(الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ).

المفردات

القارعة: القرع: ضرب شيء على شيء، ومنه قرعتهُ بالمِقْرعة.

الفَراش: يقول الراغب: الفراش طير معروف، المفردات للراغب: ٣٧٦، مادة «فرش».والطير الصغير الّذي يترامى ليلاً على السراج. والظاهر أنّه غير مناسب للتشبيه في المقام، أي تشبيه خروج المليارات من البشر من قبورهم متشتتين في المحشر كلّ يذهب إلى صوب، بالطير الصغير الّذي يحوم حول السراج، ويترامى عليه.

والأقرب أنّ المراد به ـ كما نُقل عن الفرّاء ـ الجراد الّذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً، وهو غوغاء الجراد . مجمع البيان: ١٠ / ٨٠٧ .

ويفسّره ابن عاشور بقوله: فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض يركب بعضه بعضاً.

العِهن: الصوف المصبوغ، ولعل تشبيه الجبال به بعد الانهدام، لأجل أنّ الجبال ليست على لون واحد بل على ألوان مختلفة، لقوله سبحانه: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) فاطر: ٢٧ ..

منفوش: النفش: نشر الصوف، ونفش الغنم انتشارها، والنَفَش ـ بالفتح ـ الغنم المنتشرة.

والصوف إذا ضرب بالمِندف يزداد حجمه، وينتشر في الفضاء. وكأن الجبال يوم القيامة تنتشر أجزاؤها وذراتها كانتشار أجزاء الصوف.

التفسير

الآيات الخمس الّتي نحن بصدد تفسيرها تتضمن تهويلاً وتشبيهاً.

أمّا التهويل: فهي الآيات الثلاث: (الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ).

وأما التشبيه: فهما الآيتان: الرابعة والخامسة: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ).

١ ـ ٣. (الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ):

فالله سبحانه بصدد بيان هول القيامة وفزع الناس فيها، وأنّها تقرع القلوب يوم ذاك حتّى يكونوا على ذكر منه، فيتوصل القرآن إلى ذلك بطرق ثلاثة:

ابتدأ سبحانه كلامه بكلمة مفردة، فقال: (الْقَارِعَةُ)، أي شيءُ يقرع شيئاً. فإذا سمعها المخاطب تتولّد في ذهنه أرضية الاستفسار عن هذه القارعة، ولذلك أتى بجملة أُخرى تقوم مقام السؤال وقال: (مَا الْقَارِعَةُ)، فكأنّ الكلمة الأُولى من المتكلّم والفقرة الثانية من السامع، وعند ذاك يُجاب بقوله: (وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ): أي ما الّذي جعلك بها دارياً فإنّها فوق ما يتصوّره العقل؟ وبتعبير آخر: إنّ الحادثة بما أنّها حادثة هائلة وكبيرة تحيط النظام السائد وتهدم الجميع وتحيي الموتى، فهي ليست شيئاً يمكن تحديده وبيانه بسهولة.

وبهذا يصل الإنسان إلى بلاغة القرآن وأنّه بلغ الذروة في البلاغة، وذلك أنّه وصل إلى المقصود من بيان الهول والفزع يوم القيامة، بهذا الأُسلوب الفريد، وله نظائر في القرآن الكريم مثل :

قوله تعالى: (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) الحاقة: ١ ـ ٣ . .

وقوله تعالى: (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) الانفطار: ١٥ ـ ١٨..

هذا من حيث المضمون وأمّا من حيث الإعراب، فـ (الْقَارِعَةُ) مبتدأ حذف خبره ليذهب ذهن السامع إلى أي مذهب .

وأمّا قوله: (مَا الْقَارِعَةُ)فهو مبتدأ وخبر.

لمّا أوجدت الآيات الثلاث أرضية السؤال عن واقع القارعة، وأُجيب بأنّ الأمر فوق التصوّر والإدراك، كان من المناسب أن تشير الآيات التالية إلى الآثار المترتّبة على تلك القارعة، دون بيان حقيقتها، فقال سبحانه:

٤ و ٥. (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ):

وهنا تشبيهان لبيان أحوال القيامة وما فيها من أسباب الخوف والفزع والهول، فقوله (يَوْمَ)ظرف متعلّق بفعل مقدّر، أي اذكر اليوم الّذي يخرج فيه الموتى من قبورهم بجموع هائلة لا يدرك مداها اللحظ والبصر، إلاّ أن يشبه انتشارهم في أرض المحشر بانتشار الجراد إذا خرج من بيضه من الأرض، حيث يركب بعضه بعضاً، و «الْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ» هو الجراد المنتشر كما في قوله سبحانه: (خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) القمر: ٧ . ، والله يعلم ما هو حال الموتى عند البعث. وهذا التشبيه يرجع إلى بيان حال الإنسان المبعوث من قبره، والله يعلم ما هي حقيقة ركوب بعضهم بعضاً يوم القيامة.

وأمّا الآية التالية ـ أعني قوله: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)ـ فهي لبيان حال النظام الكوني السائد في هذه الدنيا عند حلول القارعة، فالجبال تُدَكّ على نحو تتحوّل حجارتها الصلبة إلى غبار متطاير يشبه الصوف المنتشر عند ضربه بمندف الندّاف، وتكون هذه الأجزاء المنتشرة في الفضاء على ألوان مختلفة .

وإنّما ذكر الله سبحانه الجبال مع أنّ موضوع البحث هو الإنسان، فلأجل أنّ اندكاك الجبال الراسيات العاليات من العوامل الموجبة للتهويل والفزع، إذ هي تقرع القلب، وتضربه بشدّة، وتوجد فيه هزّة لا تقاوم.

فقوله: (وَ تَكُونُ الْجِبَالُ)جملة معترضة بين الآيتين ، كما سيوافيك.

٦ ـ ١١ الآيات: السادسة إلى الحادية عشرة (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ .... وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ).

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ).

المفردات

الأُمّ، بإزاء الأب، وهي الوالدة القريبة الّتي ولدته، وإنّما سمّيت الأُمّ أُمّاً، لأنّها مأخوذة من أمّ يأمّ بمعنى قصد ويقصد، فكأنّ الطفل يقصد أُمّه في كلّ حادثة وفي كلّ أمر حلواً كان أو مرّاً ؛ لأنّه لا يعرف ملجأً ومأوى سواها.

وفي «المنجد»: أَمّ ـ أمّاً، وأمّم، وتأمّم، وائتمّ ـ هُ: قصده . المنجد: ١٧، مادة «ام» .

هاوية: قال الراغب: الهوي سقوط من علو إلى سفل، والهاوية هي النار. المفردات للراغب: ٥٤٨، مادة «هوى».

التفسير

٦ و ٧. (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ):

الفاء لبيان الغرض من هدم النظام وإيجاد نظام آخر وبعث الناس من قبورهم، وعندئذ فالناس يومئذ صنفان:

١. مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ومن المعلوم أنّ نسبة الراضية إلى عيشة في قوله تعالى: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)، من قبيل المجاز العقلي، فالراضي هو صاحب العيش لا العيشة.

٢. مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، كما في قوله تعالى:

٨ و ٩. (وأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ):

أي من خفت موازينه فمقصده النار، وقد عرفت أنّ الأُم بمعنى المقصد.
وكأنّ الإنسان بإعماله الإجرامية وإن كان يقصد اللذة واتّباع الهوى، لكنّه في الباطن يقصد تلك الهاوية، فهي مقصده الذاتي الّذي لم يقف عليه في الدنيا.
نعم يقع الكلام في المراد من الموازين في قوله: (ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)وقوله: (خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) فهل هناك موازين لوزن الأعمال كالموازين الرائجة في حياتنا الآن المستخدمة لوزن الأجسام والأثقال؟
كلا، ولا، فإنّ للميزان معنى عامّاً؛ وذلك لأنّ الميزان ينطبق على الموازين الّتي توزن بها الأجسام، وفي نفس الوقت توجد موازين أُخرى لا تمتّ إلى الميزان السابق بصلة، كمقياس حرارة الجسم، أو الجو، أو مقياس ضغط الدم أو الضغط الجوي، ومقياس الذكاء والسمع والبصر، إلى غير ذلك من أنواع الموازين من دون أن يكون لها أثقال وأوزان .
وبما أنّ حقيقة ميزان الأعمال يوم القيامة أمر لا يدركه الإنسان ما دام في هذه البسيطة، استخدم ـ لتقريب المعنى ـ لفظ الميزان، وإلاّ فالواقع أنّ يوم القيامة أعلى ممّا وقف عليه الإنسان من المقاييس والموازين. وعلى كلّ تقدير فالمراد من ثقل الميزان، ثقل الموزون .
ثم إنّ الميزان المعروف الّذي يستخدمه الإنسان له كفّتان، ولكن الميزان السائد يوم القيامة له كفّة واحدة، وليس الواقع على ما اشتهر أنّه توضع أعمال الخير في كفّة، وأعمال الشر في كفّة أُخرى فعندئذ يأتي أمر القياس، بل الموزون هو الوارد في الميزان وهو عمل الخير، وأمّا عمل الشرّ فليس له يوم القيامة قيمة ولا وزن حتّى يوزن.
نعم يستفاد من الروايات أنّ هنا ميزاناً آخر للأعمال، فقد ورد في زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) عنهم(عليهم السلام): «السلام على ميزان الأعمال» بحار الأنوار: ٩٧ / ٢٨٧ .، فما هو المراد من كون علي (عليه السلام)ميزان الأعمال؟
لعلّ المراد أنّ عليّاً هو الأُسوة والقدوة، وعلى كلّ إنسان أن يتّخذه قدوة وأُسوة في حياته وسلوكه، فبمقدار ائتمامه به واقتفاء نهجه، يثقل ميزانه وبمقدار ابتعاده عنه وتنكّبه عن نهجه، يخفّ ميزانه، وعلى هذا، فمن باب أَولى أن يكون النبي الخاتم، أيضاً، ميزان الأعمال؛ لأنّ القرآن عدّه (صلى الله عليه وآله وسلم)أُسوة حسنة، وقال: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَ الْيَوْمَ الآخِرَ وَ ذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) الأحزاب: ٢١..
١٠ و ١١. (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ) .
الضمير المؤنث في (مَا هِيَهْ)يرجع إلى (هَاوِيَةٌ)، والهاء في آخره، تسمى هاء السكت، وسيقت الآية لبيان أنّ مَن خفت موازينه إنّما يسقط من علو إلى سُفل، وليس السفل إلاّ النار الحامية، أي الحارّة الشديدة الحرارة. وكأنّ قوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ)استفهام، جوابه: (نَارٌ حَامِيَةٌ).

تمّ تفسير سورة القارعة

١٠٢- سورة التكاثر

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة في المصاحف بسورة «التكاثر»، وربّما تسمّى في كتب الحديث بسورة «ألهاكم»، وقد مرّ أنّ التسمية ليست

توقيفية.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها ثمان بالاتّفاق، وهي مكّيّة، وصياغة الآيات ومضامينها تشهدان على أنّها نزلت في مكّة، ويؤيّده ما نقل في شأن النزول.

جاء في «مجمع البيان»: أنّها نزلت في حيّين من قريش ؛ بني عبد مناف بن قصيّ وبني سهم بن عمرو تكاثروا وعدّوا أشرافهم، فكثَرهم [أي غلبهم بالكثرة] بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدّ موتانا حتّى زاروا القبور فعدّوهم، وقالوا: هذا قبر فلان وهذا قبر فلان، فكثرهم بنو سهم لأنّهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية. نقله عن مقاتل والكلبي.

ونسب أيضاً أنّ التكاثر كان بين اليهود، وقيل نزلت في فخذ من الأنصار. مجمع البيان: ١٠ / ٨١١ .

ولو صحّ القولان الأخيران فالسورة مدنية .

أغراض السورة

تهدف السورة إلى النهي عن اللهو الّذي يشغل الإنسان عن الواجبات الّتي عليه القيام بها بما يخصّ دنياه وآخرته، وقد ذكر من مصاديق اللهو التكاثر بالأموال، وحتّى التكاثر بالأموات ـ حسب ما ورد في شأن النزول ـ ، ويأتي بعد ذلك ما يترتّب على هذا النوع من اللهو من العذاب في الدنيا (عذاب القبر) والآخرة (نار جهنم).

١ ـ ٥ الآيات: الخمس الأُولى(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * ..... كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) .
(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ* كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) .

المفردات

ألهاكم: من اللهو: وهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه، ووصف سبحانه الحياة الدنيا به أيضاً، وقال: (وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ) الأنعام: ٣٢..

بمعنى أن التوغل فيها يشغل الإنسان عما يعنيه من التزود للآخرة .

التكاثر: المكاثرة والتكاثر: التباري في كثرة المال والعز.

المقابر: جمع المقبرة، وهي مدفن الأموات.

التفسير

١. (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ):

أي صرفكم عن الحق وصالح الأعمال، التكاثر بالأموال والافتخار بها، ولهذه الظاهرة أسباب أهمها الإحساس بالضعف وعقدة الحقارة، وعندئذ يغطي الإنسان ضعفه في المجتمع بالتباهي بكثرة الأموال والمتاع، غافلاً عن أن ما اعتمد عليه ليس إلاّ شيئاً ضعيفاً يبيد بوسائل بسيطة كالطوفان والصاعقة والريح والحريق، (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللهِ بَاق) النحل: ٩٦.

وتدلّ بعض الآيات على أن هذه الخصيصة كانت في الأُمم السابقة أيضاً حتّى كانوا يعدّونها فضيلة رابية، قال سبحانه: (وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَة مِنْ نَذِير إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَ أَوْلاَداً وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) سبأ: ٣٥..

وحقيقة التكاثر ما جاء في حديث ابن عباس، قال: قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ألهاكم التكاثر، قال: «التكاثر: الأموال جمعها من غير حقّها، ومنعها من حقّها، وشدّها في الأوعية».

٢. (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ):

الزيارة: تطلق على اللقاء المحدود، يقال: زرت فلاناً: التقيته، فعلى هذا، فلو أُريد من قوله: (حَتَّى زُرْتُمُ) هذا المعنى، يكون غاية

للمتكاثر به، الدالّ عليه التكاثر، أي تكاثرتم بكلّ شيء حتّى بالقبور تعدّونها، كما مرّ في شأن النزول .

وأمّا لو قلنا: إنّ قوله: (حَتَّى زُرْتُمُ)بمعنى حتّى جاءكم الموت ونزلتم في قبوركم، فتكون الجملة غاية للإلهاء، أي استمر الإلهاء إلى وقت الموت .

والظاهر هو المعنى الثاني، ولكن مقتضى شأن النزول هو المعنى الأوّل.

والحق أنّ التكاثر بأيّة صورة كانت، من أخلاق الجاهلية، فعن الإمام محمد بن علي الباقر (عليهما السلام)قال: «ثلاثة من عمل الجاهلية: الفخر بالأنساب، والطعن بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء» بحار الأنوار: ٧٣ / ٢٩١ ..

ثم إنّ للإمام علي (عليه السلام)كلاماً قاله بعد تلاوته هاتين الآيتين، وهي من أحكم كلماته وأغزرها قال (عليه السلام): «يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِر، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَان بَعِيد! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ! يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَات سَكَنَتْ. وَلاَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً؛ وَلاَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّة، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّة!»...، نهج البلاغة: الخطبة ٢٢١ .وللخطبة بقية جديرة بالمطالعة.

يقول ابن أبي الحديد في هذه الخطبة ـ الّتي لم نذكر منها إلاّ الشيء القليل ـ : أُقسم بمن تُقسم الأُممّ كلّها به؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرّة، ما قرأتها قطّ إلاّ وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة، وأثّرت في قلبي وجيباً، وفي أعضائي رعدة، ولا تأمّلتها إلاّ وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي، وأرباب ودّي، وخيّلت في نفسي أنّي أنا ذلك الشخص الّذي وصف (عليه السلام)حاله.

وكم قد قال الواعظون والخطباء والعظماء في هذا المعنى وكم وقفت على ما قالوه، وتكرّر وقوفي عليه! فلم أجد شيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي؛ فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله، أو كانت نيّة القائل صالحة، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله في النفوس أعظم، وسريان موعظته في القلوب أنفع. شرح نهج البلاغة: ١١ / ١٥٣ ـ ١٥٤ .

٣. (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

إنّه سبحانه أتى بعد ذلك بزواجر ثلاثة باستخدام كلمة «كلا» والمقصود الزجر عن التكاثر، والدعوة إلى تركه، فيقول: (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ).

٤. (ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

ومن المعلوم أنّه زجر بعد زجر.

وهنا احتمالان هما:

١. أن يكون الزجر الثاني تأكيداً للزجر الأوّل، والترتيب في الذكر صار سبباً لاستخدام كلمة «ثم» في الآية الثانية.

٢. أن تكون الآية الأُولى ناظرة إلى عذاب القبر، والآية الثانية إلى عذاب القيامة، كما روي عن ذرّ أنّه قال: كنت أشك في عذاب القبر حتّى سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام)يقول: «إنّ هذه الآية تدلّ على عذاب القبر، وإنّما قال: «ثم» لأن بين العالمين والحياتين موتاً» تفسير الرازي: ٣٢ / ٧٩ ..

وما ذكره الفخر أصح ممّا ذكره الطبرسي حيث نسب الشكّ إلى عليّ(عليه السلام)، قال: ما زلنا نشكّ في عذاب القبر حتّى نزلت: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) إلى قوله: (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) يريد في القبر (ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) بعد البعث. مجمع البيان: ١٠ / ٨١٢ .

وقد حذف مفعول (تَعْلَمُونَ) في كلتا الفقرتين، لظهوره وهو تعلمون سوء عملكم وجزاء اللهو بالتكاثر والإعراض عن قبول دعوة الإسلام .

ثم أتى بزجر ثالث فقال سبحانه:

٥. (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) :

إضافة العلم إلى اليقين إضافة بيانية فإنّ العلم هو اليقين والمراد: كلاّ لو كنتم تعلمون العلم اليقين الّذي لا يفارق الواقع قيد شعرة لوقفتم على سوء مصيركم وفظيع عملكم، فالمفعول في الأفعال الثلاثة محذوف يُعلم بالقرينة.

٦ ـ ٨ الآيات الثلاث الأخيرة (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ... ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ) .

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ) .

التفسير

٦. (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ):

في تفسير هذه الفقرة وجهان:

الأوّل: ما هو المعروف بين المفسّرين الأُول أنّ قوله: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)ليس جواب «لو» في الآية السابقة (وقد مرّ أن جوابها محذوف)، لأنّ ما كان جواب «لو» فنفيه إثبات، وإثباته نفي، فلو كان قوله: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) جواباً لحرف الشرط «لو» لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية وذلك باطل، فإنّ هذه الرؤية واقعة يوم القيامة تفسير الرازي: ٣٢ / ٧٨ ، وعلى هذا فاللام في قوله: (لَتَرَوُنَّ)جواب القسم المقدّر، ولمّا دلّت الآيات السابقة على أنّ للمتكاثرين سوء المصير والعاقبة يطرح سؤال، وهو السؤال عمّا هو المراد من سوء مصيرهم، فأخبر عنه سبحانه بقوله لهم : (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)فهو استئناف في الكلام، واللام للقسم

والمعنى: أُقسم لترونّ الجحيم في القيامة، قبل دخولكم فيها.

٧. (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ):

بمعنى: بعد الدخول فيها، بعين اليقين، فإضافة العين إلى اليقين بيانية كإضافة حق إلى اليقين في قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) الواقعة: ٩٥ .. وعلى هذا فقوله: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) مختزل ومنقطع عمّا قبله بل استئناف كلام .

الثاني: أنّ الذوق السليم ـ مع قطع النظر عمّا قيل حول الفقرتين ـ يقضي بأنّ قوله: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) ليس مختزلاً عمّا قبله بأن يكون استئناف كلام، بل هو جزء من الجملة المتقدّمة، وعلى هذا فقوله: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)جواب شرط في قوله سبحانه: (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)بمعنى أنّ الإنسان لو اكتسب علم اليقين لجاز له رؤية الجحيم قبل يوم القيامة رؤية قلبية لا رؤية بصرية، حسيّة، وعلى هذا فالفقرتان ناظرتان إلى الرؤية في هذا العالم، فأصحاب علم اليقين يرون الجحيم بالرؤية القلبية، يقول الإمام علي (عليه السلام): «فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ» نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣ ..

وما قيل من أنّ قوله: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) لا يصلح أن يقع جواباً لـ «لو» الامتناعية، لأنّ الرؤية محقّقة الوقوع، مبني على كون المراد رؤية الجحيم يوم القيامة كما قال: (وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى) النازعات: ٣٦ ، ولكنّه غير مسلّم، بل المراد الرؤية القلبية في هذه الدنيا، وهي ممتنعة على أصحاب التكاثر.

ويدلّ على ما ذكرنا أنّه لو كان المراد من رؤية الجحيم دخولها يوم القيامة، لما ناسب أن يقول بعد الدخول: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ)، فإنّ لفظة «ثم» تدلّ على السؤال بعد قوله: (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) مع أنّ السؤال والجواب ثم القضاء على الإنسان بأحد المصيرين: الجنة أو النار، يتحقّق قبل الدخول.

بقي هنا كلام فيما هو الفرق بين العلوم الثلاثة:

١. علم اليقين.

٢. عين اليقين.

٣. حق اليقين.

والجواب: أنّ العلم بالشيء له مراتب، يمكن تمثيلها بما يأتي: تارة يعلم أنّ في البيت ناراً بدلالة تصاعد الدخان من البيت، فهو يشاهد الدخان ولا يشاهد النار وهو علم اليقين.

وأُخرى يرى النار بعينه دون أن تمسّه، فمشاهدتها هو عين اليقين.

وثالثة يدخل يده في النار ويمسّها فهو حق اليقين، وهذا مصطلح الحكماء.

علامة اليقين

روى الكليني في «الكافي» عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبدالله (عليه السلام)يقول: «إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صلّى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من قوله وقال: إنَّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنَّ يقيني يا رسول الله هو الّذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدُّنيا وما فيها حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نُصب للحساب وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة، يتنعمون في الجنّة ويتعارفون وعلى الأرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النّار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النّار، يدور في مسامعي، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)لأصحابه: هذا عبدٌ نوَّر الله قلبه بالإيمان، ثمَّ قال له: الزم ما أنت عليه، فقال الشابُّ: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشّهادة معك، فدعا له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر. أُصول الكافي: ٢ / ٥٣ .

٨ . (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذ عَنِ النَّعِيمِ) :

أي كلّ نعيم أُعطي للإنسان كتب معه السؤال، فمن النعيم الصحّة والسلامة والأمن والشباب وغير ذلك .

ولاية أهل البيت(عليهم السلام)النعمة العظمى

ثم إنّ النعيم كما يطلق على النعم المادّية يطلق على النعم المعنوية الّتي هي من أفضل نعم الله سبحانه، فإرسال الرسل وإنزال الكتب نعمة من الله سبحانه لهداية الإنسان للغاية الّتي خلق من أجلها، ولذلك نرى أنّ الأُمم البعيدة عن هداية الأنبياء والاستضاءة بهداهم مكبّين على عبادة الأوثان والحيوانات ويقدّسونها أشد التقديس، على الرغم ممّا أحرزوه من تقدّم علمي وصناعي كبير.

ولذلك يجب أن يقال: إنّ الاستضاءة بنور أئمة أهل البيت(عليهم السلام)من واجبات المسلم، فإنّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) عرّفهم بأنّهم بمنزلة سفينة نوح من ركبها نجا ومَن تخلّف عنها غرق، مستدرك الحاكم: ٣ / ١٥٠ ـ ١٥١ ؛ والصواعق المحرقة: ١٨٦، الحديث الثاني .كما عرّفهم بأنّهم أعدال الكتاب وقرناؤه، وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي»، انظر: مسند أحمد: ٣ / ١٧، ٢٦ ؛ وصحيح الترمذي: ٥ / ٣٢٨، برقم ٣٨٧٤، ط دار الفكر؛ ومستدرك الحاكم: ٣ / ١٤٨، وصحّحه الحاكم على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي .فهم مراجع الإسلام وأدلاّء الدين بعد رحيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فمن أعرض عنهم فقد أضاع النعمة على نفسه ويكون مسؤولاً عنها عند الله سبحانه.

روى العياشي بإسناده في حديث طويل قال: سأل أبو حنيفة أبا عبدالله (عليه السلام)عن هذه الآية، فقال له: «ما النعيم عندك يا نعمان؟» قال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال: «لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتّى يسألك عن كلّ أكلة أكلتها وشربة

شربتها ليطولن وقوفك بين يديه»، قال: فما النعيم جُعلت فداك؟ قال: «نحن أهل البيت النعيم الّذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام، وهو النعمة الّتي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الّذي أنعم به عليهم وهو النبي وعترته». مجمع البيان: ١٠ / ٨١٣ .

ولاشكّ أن ما جاء في هذه الرواية من مصاديق تطبيق الكلّي على مصداقه الأتمّ.

تمّ تفسير سورة التكاثر

١٠٣- سورة العصر

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى بسورة «العصر» تارة وسورة «والعصر» أُخرى، ولا مشاحّة في التسميّة.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها ثلاث بالاتّفاق.

وهذه السورة مع سورة الكوثر وسورة النصر من أقصر السور عدداً، وإن كانت آيات بعضها أطول من الأُخرى.

والسورة مكيّة بالإجماع، وصياغة الآيات ومضامينها تشهدان على ذلك .

أغراض السورة

تهدف السورة إلى تنبيه الإنسان على أنّه خاسر في الدارين إلاّ إذا احتضن الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

١ و ٢ الآيتان: الأُولى والثانية(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر):

التفسير

١. (وَالْعَصْرِ):

الواو : للقسم، فالله سبحانه أقسم بالعصر لأجل قوله: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر)، فيقع الكلام :

أوّلاً: في معنى العصر وما هو وجه القسم به.

وثانياً: ما هي الصلة بين المقسم به وجواب القسم.

أمّا الأوّل: فقد اختلفت كلمتهم فيما هو المراد من العصر في الآية الكريمة؟ والعصر لغة: عصر الثوب ونحوه، وهو فتله لإخراج مائه.

ويستعمل في الموارد التالية:

١. العصر هو الدهر، أي الزمن الّذي تقع فيه الحوادث والأفعال، وبه يقيس الإنسان عمره في الحياة الدنيا. وفي الحقيقة الدهر هو الزمان المتولّد من الحركة، والناس يتّخذون حركة الشمس مبدأ لانتزاع الزمان. وهو صحيح ولكن لكلّ حركة زمان، غير أنّ المتولّد ربما يكون ملموساً ومشاهداً لعامة الناس كالشمس والقمر، وربما يكون مشهوداً لبعض الناس، كحركة السيّارة من نقطة إلى نقطة يستغرق بضع ساعات.

٢. وقت العصر، ومبدأه صيرورة ظل الشاخص مثليّ قدره، بعد الظل الّذي كان له عند الزوال، والعصر مبدأ العشيّ ويعقبه الأصيل والإحمرار.

٣. وقت صلاة العصر، وقد غلب في مصطلح المسلمين أنّه يطلق العصر ويراد به الصلاة المفروضة فيه.

٤. عصر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)وهو العصر المشعشع الّذي لن يقف شعاعه عند زمان خاص، فقد كان خاتم الأنبياء وكان كتابه خاتم الكتب، فصار عصره بما أنّه مبدأ الهداية الإلهية المستمرة إلى يوم القيامة، من أفضل العصور.

٥. عصر الإمام المهدي (عج) الّذي وعد الله به الأُمم، حيث يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ويقفو أثر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فينفي عن الإسلام كلّ ما أُدخل فيه من مفاهيم وأحكام وعقائد غير صحيحة، ولا يبقى إلاّ الدين الخالص.

هذه هي الوجوه المذكورة، ولكلٍّ دليل وإن كان بعضها أبعد عن الذهن.

أمّا الوجه الأوّل: أي كون العصر بمعنى الدهر والزمان فالمراد به، تاريخ البشرية، وهذا هو المتبادر إلى الذهن. ويؤيّد ذلك أمران :

١. أنّه سبحانه جعل المقسم له كون الإنسان في خُسر، إلاّ طائفةً خاصّة، ومن المعلوم أنّ خُسران الإنسان ـ كما سيوافيك ـ يتجلّى في مَن تصرّم عمره ومضى زمانه دون أن ينتفع بأغلى رأس مال وقع في يده.

٢. أنّ أكثر الناس يتّهمون العصر بالخسران ويسبّونه، فجاء القسم بالعصر والإجابة بأن الإنسان لفي خسر، مشعراً بأنّ الدهر ليس بخاسر وإنّما الخاسر هو الإنسان.

وهناك نكتة لطيفة نقلها الصدوق في كتابيه «عيون أخبار الرضا (عليه السلام)» و «الأمالي» عن الريّان بن الصلت، قال: أنشدني الرضا (عليه السلام)لعبد المطلب :

يعيب الناس كلّهم زماناً *** وما لزماننا عيب سوانا

نعيب زماننا والعيب فينا *** ولو نطق الزمان بنا هجانا

وإنّ الذئب يترك لحم ذئب *** ويأكل بعضنا بعضاً عياناً[1]

[1] الأمالي: ١٥٠، برقم ٦، المجلس (٣٣) ؛ عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٣٠٦ .

وأمّا الوجه الثاني: أعني المراد به وقت العصر فوجهه أنّه سبحانه أقسم هنا بآخر النهار كما أقسم بأوّله في قوله: (وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا) الشمس: ١ حيث إنّ الإنسان يتهيّأ لأعماله النهارية إلى وقت دخول العصر، فالأعمال اليومية ـ عادة ـ تنتهي بهذا الوقت، والطيور تعود إلى أوكارها بميل الشمس نحو الغروب، وبالجملة يفقد الإنسان وكلّ حيوان وطير، النشاط الموجود عنده في أوّل النهار.

ولكنّه بعيد إذ لا صلة عندئذ بين المقسم به وكون الإنسان في خُسر.

وأمّا الوجه الثالث: أعني المراد به وقت صلاة العصر، وهو المروي عن مقاتل، وإنّما أقسم بها لفضلها بدليل قوله: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى) (البقرة: ٢٣٨ .)، وقد فسّر قوله تعالى: (تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ)، المائدة: ١٠٦ .بصلاة العصر.

وهذا القول كالقول السابق ضعيف، إذ لا صلة بين المقسم به والمقسم له .

وأمّا الوجه الرابع: أعني القسم بعصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فهو وإن كان بعيداً عن ظاهر اللفظ (فإن القريب إلى ظاهر اللفظ هو المعنى الأوّل) لكنّه أقرب إلى الذهن من حيث إنّ المقسم به أمر عظيم ذو أهمية ومكانة عالية، إذ منه شعّت أنوار الهداية الإلهية.

وقريب من الوجه الرابع تفسيره بعصر الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه).

والّذي يمكن أن يقال: إنّ الوجه الأوّل هو المتبادر إلى الذهن من سائر الوجوه.

وأمّا الثاني: أي ما هي الصلّة بين المقسم به وجواب القسم فيأتي توضيحه في تفسير الآية التالية.

٢. (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر) :

الخسران: لا يستعمل إلاّ فيما إذا كان بيد الإنسان رأس مال يريد أن يتّجر به أو ما أشبهه، يقول الراغب: الخسران انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته. المفردات للراغب: ١٤٧، مادة «خسر».

والآية تدلّ بوضوح على أنّ الإنسان بعدما يشبّ ويبلغ، يصبح أشبه ما يكون بتاجر يتّجر برأس ماله، فإن اكتسب به ما زاد على رأس ماله فيقال: ربحت تجارته، وإن نقص، فيقال: خسرت تجارته، فرأس مال الإنسان في الحياة الدنيوية هو عمره وحياته وما أعطاه الله سبحانه من الصحّة والأمان إلى غير ذلك، فلو صرف عمره في اللّهو واللعب ولم يكتسب فيه شيئاً فهو خاسر، كما هو حال الإنسان الكافر والفاسق الّذي يعيش سبعين سنة، مثلاً، دون أن يدّخر لحياته الأُخروية شيئاً، فكلّ إنسان بهذا الوصف يكون خاسراً، وأمّا إذا اشترى بعمره وحياته حياة أبدية خالدة فقد ربحت تجارته .

وبذلك يعلم وجه الصلة بين المقسم به والمقسم له، لأنّ حقيقة الزمان حقيقة متصرّمة فهي غير ثابتة فتنقضي شيئاً فشيئاً، وهكذا الحال في الإنسان حيث ينصرم عمره وينقص رأس ماله بالتدريج. وإنّما جعل الخسران أصلاً، والمستغني فرعاً ؛ وذلك لأنّ سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، ولكن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفيّة والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة، فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا متفرّقين في طلبها فكانوا في الخسران والبوار تفسير الرازي: ٣٢ / ٨٥ ..

وإلاّ فالإنسان في حدّ ذاته لا خاسر ولا رابح، بل مستعد للأمرين .

وقد نقل الرازي هنا حكاية طريفة نأتي بنصّها:

قال: وعن بعض السلف: تعلّمت معنى السورة من بائع الثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله تفسير الرازي: ٣٢ / ٨٨ ،. فقلت: هذا معنى: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر) يمرّ به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب، فإذاً هو خاسر.

٣ الآية الثالثة (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)
التفسير

استثنى سبحانه من الخسران جماعة اجتمعت فيهم الصفات التالية:

١. الإيمان بالله.

٢. العمل الصالح.

٣. التواصي بالحق.

٤. التواصي بالصبر.

ووجه الاستثناء واضح، لأنّ هذه الطائفة بدّلوا رأس مالهم بشيء أغلى وأثمن، يمكن أن يقوم مقام عمرهم المنقضي، فهم بإيمانهم وعملهم الصالح وتواصيهم بالحق والصبر، اشتروا حياة دائمة حافلة برضوانه سبحانه ونعمه الخالدة.

يقول سبحانه: (إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَ الإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) التوبة: ١١١..

قوله تعالى: (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا) فيقع الكلام في معنى الإيمان أوّلاً، وحقيقة العمل الصالح ثانياً، وما هو المرمى من التواصي بالحق والصبر؟

أمّا الإيمان فأُريد به الإيمان بالله، وهل المراد به العلم بوجوده سبحانه؟ كلا، ولا، فإنّ مجرد العلم لا يُعدّ إيماناً بشهادة أنّ إبليس كان أعلم بالله سبحانه بكثير منّا، ومع ذلك صار من الكافرين.

بل الإيمان عبارة عن الاعتقاد المترتّب عليه التسليم لأمره ونهيه وتقديره وقضائه، فهذا النوع من الإيمان له القيمة الكبرى، وهو الّذي يخرج الإنسان من الحيرة ويوجهه إلى نقطة خاصّة، يقول سبحانه: (فَلاَ وَ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) النساء: ٦٥ ..

قوله تعالى: (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، يعني أنّ العمل الصالح هو نتيجة الإيمان بالله، فالإسلام كما يدعو إلى الإيمان ويعطيه أهمية بالغة، يدعو إلى العمل الصالح أيضاً، ويقف بوجه المنهجين التاليين:

١. مذهب بعض المتصوّفة الذين يكتفون بالإيمان ولا يقيمون للعمل وزناً، وقد ظهرت بعض الفرق بعد رحيل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)باسم المرجئة فقدّموا الإيمان وأخّروا العمل، قال الإمام الصادق (عليه السلام): «بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئة» . تهذيب الأحكام: ٨ / ١١١، برقم ٣٠، باب الحكم في أولاد المطلقات؛ وسائل الشيعة: ١٢، الباب ١٠٥ من أبواب ما يكتسب به، الحديث ١٤ .

٢. مذهب المهتمين بالعمل الصالح النافع للمجتمع من دون اعتقاد بربوبية الباري أو إخلاص العمل له، وهذا النوع من العمل وإن كانت له قيمة في مقابل العمل الطالح، لكنّه لمّا لم يُعمَل لله سبحانه فلا يستحقّ الجزاء والثواب، وإنّما عُمل لكسب رضا الناس أو تحصيل السمعة.

نعم لا يختصّ العمل الصالح بالأُمور العبادية، بل يعمّ كلّ عمل ينتفع به في دنياه وآخرته.

وحصيلة الكلام : إنّ القضاء بكون العمل صالحاً يتوقّف على اجتماع أمرين:

١. أن يكون العمل لله سبحانه لا للتفاخر والرياء وكسب السمعة.

٢. أن يكون العمل في ذاته نافعاً، فلا يوصف العمل بالصلاح إلاّ بعد اجتماع الأمرين، خلافاً للماديين فإن الملاك عندهم هو الشرط الثاني.

قوله تعالى: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)، والتواصي غير الوصية، فالثانية يقوم بها شخص واحد، كأن يوصي الأب أفراد أُسرته بأُمور، ولكنّ التواصي من التفاعل بأن يوصي هذا ذاك وبالعكس.

نعم هذه الفقرة من قبيل عطف الخاصّ على العامّ، فإنّ التواصي بالحق عمل صالح نابع عن الإيمان ولكنّه خصّه بالذكر لتُعلم أهمية هذا العمل.

فالمجتمع الإنساني أشبه بسفينة فيها ركّاب كثيرون، تشقّ أمواج البحر الغامرة، وعندئذ فمصير الكلّ واحد، فلا يوصلهم إلى مقصدهم إلاّ المشاركة في هذا المضمار، فلو أخذ واحد منهم بثقب السفينة فيؤخذ بشدّة ولا يترك، ولا تسمع حجّته بأنّه يثقب مواقع أقدامه دون مواقع الآخرين، وقد ورد ذلك التشبيه في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فبناءً على هذا ففي العمل بالحق نجاة المجتمع الإنساني، فيجب على المجتمع التواصي بإرشاد بعضه البعض إلى ما هو الحقّ.

نعم ربّما يتصوّر أنّ الملاك هو الكمّية أي كثرة العمل وقلته ولكن الظاهر هو الكيفية، قال سبحانه: (تَبَارَكَ الذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ * الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) الملك: ١ و ٢ .

فجعل الميزان هو الأكثر حُسناً وكيفية لا عدداً وكميّة.

قال الإمام الصادق (عليه السلام)في تفسير قوله: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً):

«ليس يعني أكثر عملاً ولكن أصوبكم عملاً، وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة والحسنة»، ثم قال (عليه السلام): «الإبقاء على العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص: الّذي لا تريد أن يحمدك عليه أحدٌ إلاّ الله عزّوجلّ: (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) الإسراء: ٨٤ .: يعني على نيّته». الكافي: ٢ / ١٦، كتاب الإيمان والكفر.

قوله تعالى: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)، والصبر عبارة عن الاستقامة في طريق العمل بالطاعة وفي طريق ترك المعصية، والمطلوب في المقام ليس هو الصبر المنفرد، بل المراد الصبر الجماعي ولهذا يقول: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)دون أن يقول: (اصبروا) إشارة إلى ذلك، كما في قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران: ٢٠٠..

فقوله: (اصْبِرُوا) أمر بالصبر، وقوله: (وَصَابِرُوا) أمر بالتواصي بالصبر، أي يوصي كلّ واحد منكم الآخر بالصبر.

والدليل على أنّ الصبر هو تحمّل مشقّة العمل المرضي عند الله أو تحمّل مشقّة ترك المعصية مع وجود مقتضياتها هو قوله: (وَرَابِطُوا) فإنّ المرابطة عبارة عن التواجد في ثغور البلاد الإسلامية حتّى تردّ سهام الأعداء على نحورهم، ولا تتحقّق المرابطة إلاّ بتحمّل المشاق بسهر الليالي، فلا يصل الإنسان إلى القمة من السعادة والعز إلاّ بالصبر والمثابرة، يقول سبحانه ـ واصفاً بعض أنبيائه ـ : (وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) السجدة: ٢٤. .

فالكرامة والعزّة لم تكتب لأُمّة إلاّ لكون الصبر دثارهم، ورضا الله شعارهم، ولا ينال ذلك إلاّ من يرى منه سبحانه صدقاً وعدلاً، فعندئذ ينصره سبحانه في الدنيا والآخرة.

ويظهر ممّا ذكرنا من أنّ النصر والعزّ رهن الصبر والمثابرة من كلام مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام)الّذي رواه سُليم بن قيس : «والله لقد رأيتنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)نقتل آباءَنا وأبناءنا وأخوالنا وأعمامنا وأهل بيوتنا ثم لا يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً وجدّاً في طاعة الله، واستقلالاً بمبارزة الأقران، وإن كان الرجل منّا والرجل من عدوّنا ليتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيّهما يسقي صاحبه كأس الموت، فمرّة لنا من عدوّنا، ومرّة لعدوّنا منّا، فلمّا رأى الله منّا صدقاً وصبراً أنزل الكتاب بحسن الثناء علينا والرضا عنّا، وأنزل علينا النصر» . بحار الأنوار: ٣٠ / ٣٢١.

فالحديث صريح في أنّ حسن الثناء ونزول النصر من الله سبحانه رهن تحلّي المؤمن بالصدق والصبر.

تمّ تفسير سورة العصر

١٠٤- سورة الهُمَزة

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَة لُمَزَة * اَلذِي جَمَعَ مَالاً وَ عَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * التي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَد مُمَدَّدَة).

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت السورة في المصاحف بـ «سورة الهمزة»، وفي بعض التفاسير سمّيت بسورة «ويل لكلّ همزة»، وسمّاها بعضهم سورة «الحطمة» .

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها تسع بالاتّفاق، وقد نزلت في مكّة، ويشهد على كونها مكّية ـ مضافاً إلى ما ورد في أسباب النزول ـ أنّ مضامينها وصياغتها تشهدان على ذلك.

أغراض السورة

تهدف السورة إلى التنديد بمن يؤذي المسلمين بهَمْزِه ولَمْزِه، وأنّ مصيره سيكون إلى الحطمة الّتي هي نار الله الموقدة.

قيل: نزلت السورة في الأخنس بن شريق، كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقال مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)من ورائه، ويطعن عليه في وجهه.

وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع أنّ هذه السورة نزلت في أُميّة بن خلف . تفسير الرازي: ٣٢ / ٦١ .

ومع ذلك كلّه ـ أي كون السورة نازلة في أحد مشركي قريش ـ لا يقدح في عموم الآيات وشمولها للمشرك وغيره، والمعروف أنّ خصوص السبب لا ينافي عموم اللفظ.

١ ـ ٣ الآيات: الثلاث الأُولى(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * اَلَذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ).

المفردات

ويل: لفظ الذم والسخط، وكلمة كلّ مكروب، قيل: أصله: «وي لفلان» ثم كثرت في كلامهم فوصلت باللام وقيل: «ويل». ومعناها: دعاء بالعذاب.

الهُمَزة: الهمْز كالعصر وهمز الإنسان اغتيابه، قال تعالى: (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) القلم: ١١ . المفردات للراغب: ٥٤٦، مادة «همز».

اللُّمَزة: اللمْز الاغتياب وتتبع المعاب، قال تعالى: (وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) التوبة: ٥٨ . المفردات للراغب: ٤٥٤، مادة «لمز»..

وعلى ما ذكره فهما مترادفان، ولـكن الظاهر من المفسّرين غير ذلك، وقد حكيت أقوال:

١. الهُمزة: المغتاب (أي من يغتاب الناس)، واللُمزة: العَيّاب .

٢. الهُمزة باليد، واللُّمزة باللسان.

٣. الهُمزة بالمواجهة، واللُمزة بظهر الغيب.

٤. الهُمزة جهراً، واللُمزة سرّاً بالحاجب والعين.

إلى غير ذلك من الأقوال الّتي نقلها الرازي في تفسيره تفسير الرازي: ٣٢ / ٩٢ ..

والمراد: من يطعن الناس ويظهر عيوبهم وهو على قسمين: تارة يكون بالجدّ عند الحسد والحقد، وأُخرى يكون بالهزل عند السخرية والإضحاك من غير فرق بين أن يكون باللفظ أو بإشارة الرأس والعين.

عدّده: له مصدران:

١. أخذه من العُدّة وهي الذخيرة، يقال: أعددت الشيء لكذا، وعددته، إذا أمسكته له وجعلته عدّة وذخيرة لحوادث الدهر.

٢. أخذه من العدّ بمعنى الإحصاء. وجاء التشديد لكثرة المعدود.

أخلده: من الخلد والخلود وهو تبرّي الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة الّتي هو عليها، واستعير هنا للحياة الدائمة.

وإخلاد الشيء جعله مبقىً والحكم عليه بكونه مبقىً. المفردات للراغب: ١٥٤، مادة «خلد».

وعلى هذا فمعنى: (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ): أي ركن إليه ظانّاً أنّ ما جمعه سيخلّده ويمنحه الأمان من الموت.

التفسير

١. (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ):

ذم وإظهار سخط لكلّ مَن يتولّى عمل الطعن بالناس بلسانه وجوارحه وإظهار معايبهم حسداً أو سخرية وإضحاكاً. وكأنّ هيئة «فُعَلة» وضعت لكثرة صدور الفعل المصاغ منه، فيقال: «ضُحَكة» لكثير الضحك، وَ «لُعَنة» لكثير اللعن، وفي المقام: الهُمزة واللُمزة لكثير الهمز واللمز.

فكلّ مَن يعيب أحداً بالإشارة بالعين أو الشِّدق أو بالرأس بحضور الشخص أو يكشف عيبه بلسانه عند غيابه، ويمارس هذا العمل بكثرة، فهو همّاز لمّاز.

ثم إنّ لهذا العمل القبيح مبدأين ومصدرين:

الأوّل: أن الهمّاز واللمّاز يجد في نفسه حقارة أو عقدة يتأذّى بها في صميم ذاته ويُريد بالطعن وإظهار عيب الغير، التخفيف عن آلامه الروحية، أو التغذّي بإيلام الناس فهو إنسان جائع روحاً لا يشبعه إلاّ إيذاء الناس وإيلامهم، وهذا هو دأب الوضيع اللئيم الّذي يحقد على كلّ نبيل لا لشيء إلاّ لشعوره بالنقص في نفسه، فيحاول تغطيته بالنيل من كرامة الآخرين.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلاّ لذلّة وجدها في نفسه » الكافي: ٢ / ٣١٢، كتاب الإيمان والكفر..

الثاني: ما أشار إليه سبحانه في الآيتين التاليتين.

٢. (اَلّذِي جَمَعَ مَالاً وَ عَدَّدَهُ) :

إنّ هذا الشخص الغيّاب والعيّاب هو الّذي جمع مالاً كثيراً، واشتغل بعدّه وضبطه حبّاً له وشغفاً به، أو حرص على إمساكه وجعله ذخيرة لمستقبل حياته .

٣. (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ):

وهذا الشخص الّذي قام بجمع ماله ذهبت به الظنون والأوهام إلى أنّ هذا المال سيحميه من طوارق الزمان ويكفل له الخلود في الحياة الدنيا، وبذلك صار في زعمه إنساناً مثالياً مجرّداً عن كلّ عيب وشين فيستهين بكرامات الناس، ويحطّ من أقدارهم، ويعمد إلى همزهم ولمزهم بالقول والإشارة والحركة.

وكأنّ هذه الخصلة هي شيمة الطغاة المتغطرسين الذين لا همّ لهم إلاّ النيل من أعراض الناس وإظهار عِوارهم وعيوبهم عناداً وحسداً أو سخرية وإضحاكاً، فهؤلاء هم الذين تجردوا عن الإنسانية .

وقد حفلت كتب التاريخ بذكر جمع من الهمّازين واللمّازين الذين كانوا يغذّون أرواحهم بذكر معايب الناس والطعن بهم، ولنذكر هنا نموذجين منهم:

الأوّل: الحكم بن أبي العاص

روى البلاذري قال: إنّ الحكم بن أبي العاص كان جاراً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في الجاهلية وكان أشدّ جيرانه أذىً له في الإسلام، وكان قدومه المدينة بعد فتح مكّة وكان مغموصاً عليه في دينه، فكان يمرُّ خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيغمز به و يحكيه و يخلج بأنفه وفمه، وإذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه، فبقي على تخليجه وأصابته خبلة، واطلّع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم وهو في بعض حُجر نسائه فعرفه وخرج إليه بعَنَزة العنزة: عصاً في قدر نصف الرمح أو أكثر، فيها سنان مثل سنان الرمح.وقال: «من عذيري من هذا الوزغة اللعين» ثم قال: لا يساكنني ولا ولده، فغرّبهم إلى الطائف، فلمّا قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)كلّم عثمان أبا بكر فيهم وسأله ردّهم فأبى ذلك وقال: ما كنت لآوي طرداء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). ثمّ لمّا استخلف عمر كلّمه فيهم فقال مثل قول أبي بكر، فلمّا استخلف عثمان أدخلهم المدينة وقال: قد كنت كلّمت رسول الله فيهم وسألته ردّهم فأوعدني أن يأذن لهم فقُبض قبل ذلك. فأنكر المسلمون عليه إدخاله إيّاهم المدينة.

قال الواقدي: ومات الحكم بن أبي العاص بالمدينة في خلافة عثمان، فصلّى عليه وضرب على قبره فسطاطاً. الأنساب للبلاذري: ٥ / ٢٧؛ الغدير: ٨ / ٣٤٣ .

الثاني: عُبادة المخنّث

روى ابن الأثير في تاريخه: كان المتوكّل شديد البغض لعلي بن أبي طالب (عليه السلام)ولأهل بيته وكان يقصد من يبلغه عنه أنّه تولّى علياً وأهله بأخذ المال والدم، وكان من جملة ندمائه «عُبادة المخنّث» وكان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدّة ويكشف رأسه وهو أصلع ويرقص بين يدي المتوكّل والمغنون يغنون (قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين) يحكي بذلك عليّاً (عليه السلام)، والمتوكل يشرب

ويضحك، ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر فأومأ إلى عُبادة يتهدّده فسكت خوفاً منه، فقال المتوكل: ما حالك، فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين إن الّذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكُلْ أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه، فقال المتوكل للمغنين غنوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمّه *** رأس الفتى في (...) أمه

فكان هذا من الأسباب الّتي استحلّ بها المنتصر قتل المتوكّل . الكامل في التاريخ: ٧ / ٥٦ .

ثم إنّ بعض مَن على بصيرته غشاوة يُسمّي المتوكّل محيي السنّة، وهو حسب هذه الآيات منبوذ في الحطمة، نار الله الموقدة، الّتي تطلع على الأفئدة. ولو سُمّي بمميت السنّة قولاً وعملاً لكان أوفق بالواقع .

٤ ـ ٩ الآيات: الست الأخيرة(كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * و..... فِي عَمَد مُمَدَّدَة).

(كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَد مُمَدَّدَة).

المفردات

لينبذن: النبْذ: إلقاء الشيء وطرْحه لقلّة الاعتداد به، يقال: نبذته نبذ النعل الخَلِق، ويستعمل في مورد الإهانة للمنبوذ.

الحطمة: الحَطْم: كسر الشيء، مثل: الهشم، ثم استعمل في كلّ كسر متناه، قال تعالى: (لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ) النمل: ١٨ ..

ولكن القرآن يستعمله في النار الّتي تحطم كلّ مَن وقع فيها، وربما يقال: إنّ إطلاق هذا الوصف على جهنم من مختصّات ومصطلحات القرآن، وليس في كلام العرب إطلاق هذا الوصف على النار. التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٧٤ .

ويؤيد ذلك تعقيب الآية بقوله: (وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)مشيراً إلى كونه مصطلحاً خاصّاً مأخوذاً من أصل اللغة.

مؤصدة: مطبقة الأبواب يقال: أوصدت الباب وآصدته أي أطبقته وأحكمته. والإطباق والإحكام يراد به الإقفال.

العمَد: جمع العمود: خشب تعتمد عليه الخيمة.

التفسير

٤. (كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ) :

قوله (كلاّ): إبطال لما تقدّمه وهو حسبان الهمّاز واللمّاز أن ماله سيخلده، بل هو غير مخلّد ويكتب عليه الموت كعامة الناس ويكون جزاؤه بعد موته أنّه ينبذ في الحطمة.

٥. (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ):

أي ما جعلك دارياً بمعنى الحطمة وحقيقتها، لما مرّ من أنّ إطلاق هذا الاسم على جهنم من مصطلحات القرآن، وقد أوضحه سبحانه تعالى بالآيات التالية.

٦. (نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ) :

جواب عن قوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)، وإضافة النار إلى اسم الجلالة للترويع والترهيب، أي أنّها غير النار الّتي يوقدها الإنسان .

وفي كلام للإمام علي (عليه السلام): «أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَة أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَار سَجَّرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الاَْذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظًى؟!» نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤ ..

ولعلّ وجه استخدام الحطمة في المقام لأجل أنّ الهمّاز يكسر قلب الإنسان بإظهار عواره وسخريته منه، فالله سبحانه يتعامل معه بمثل ما سبّبه لغيره، أي يسلّط عليه ناراً تكسَره كسراً، وتهشّمه هشماً.

٧. (التي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ) :

الاطّلاع على الشيء الإشراف والظهور، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، والمراد أنّ الحطمة تحرق باطن الإنسان كما تحرق ظاهره، بخلاف النار الدنيوية فإنّها تحرق الظاهر، لا الروح والباطن.

هذا كلّه بناء على أنّ المراد من الفؤاد ـ الذي جمعه الأفئدة ـ هو النفس الإنسانية، كما هو غير بعيد بالنسبة إلى استعمال الفؤاد والقلب في القرآن الكريم.

ولو أُريد من الفؤاد الجسم الصنوبري فلا يكون وجه لاختصاص إشراف النار عليه لأنّها تشرف على بدن الإنسان كلّه.

ثم إنّه سبحانه وصف النار الّتي ذكرها في هذه السورة والّتي أضافها إلى ذاته تعالى، بثلاثة أوصاف:

الأوّل: ما مرّ من الاطّلاع على الأفئدة.

الثاني والثالث: ما يأتي في الآيتين التاليتين.

٨. (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) :

والضمير يرجع إلى النار، والمراد أنّ النار مغلقة عليهم غلقاً مطبقاً لا مفرّ لهم منها إلاّ إليها، والجملة حالية محلّها النصب.

٩. (فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) :

وهذا هو الوصف الثالث للنار، لا لأصحاب النار، فالنار الّتي أوقدها الله سبحانه تطّلع على الأفئدة أوّلاً، وهي مؤصدة مقفلة عليهم ثانياً، وهي في عمد ممدّدة، ثالثاً.

و (فِي) هنا بمعنى (الباء)، أي بعمد ممدّدة. والمراد عمد تغلق بها تلك الأبواب أي أنها عليهم مؤصدة بعمد مدّت عليها. وهذا هو الظاهر. ولم يقل (بعمد) لأنّها لكثرتها صارت كأنَّ الباب فيها أو كأنّها الباب. قيل: الإطباق بالعمد الممدّدة ليتأكد يأسهم من الخروج منها. التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤٠٨ .

وربّما تفسر الآية بأنّها وصف لأهل النار ويقال: إن قوله: (فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) حال من ضمير «عليهم» أي في حال كونهم في عمد أي موثوقين في عمد كما يوثق المسجون المغلّظ عليه من رجليه في فلقة ذات ثقب يدخل في رجله.(التحرير والتنوير: ٣٠ / ٤٧٦ .)

وقد روي عن ابن عباس أنّه قال: في عمد مُغلّلين بها. التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤٠٨ .

ولكن الوجه ما استظهرناه لما عرفت من أنّ سياق الكلام جاء حول تفسير النار لا حول أصحابها.

تمّ تفسير سورة الهُمزة

١٠٥- سورة الفيل

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيل * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَة مِنْ سِجِّيل * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْف مَأْكُول).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى السورة في المصاحف بسورة «الفيل»، وربّما تُسمّى بسورة «ألم تر» .

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها خمس بالإجماع، وهي مكيّة بالاتّفاق.

أغراض السورة

إنّ الكعبة هي أوّل بيت وضع للناس، والغرض من ذكر قصة أصحاب الفيل هو التذكير بعظمة الكعبة وشرفها وأنّها في حماه سبحانه، يردّ شرور الأعداء عنها، وليس شرّهم إلاّ كيداً ضعيفاً.

وقد ذكرت هذه القصة في القرآن المجيد مرّة واحدة، خلافاً لسائر القصص، وذلك لأنّ القصص القرآنية تدور حول تكذيب الأنبياء وتصديقهم ولم يكن إهلاك أصحاب الفيل لأجل تكذيب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما ذكرها مرّة واحدة لأنّها كانت إرهاصاً لظهور هذا النبي الجديد، فإنّ الحادثة وقعت عام ولادة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)والمسمّى بعام الفيل.

ذكر المؤرخون والمفسّرون أنّه لمّا استولى ملك الحبشة على اليمن نصب أبرهة أميراً عليها، ثم إنّه بنى كنيسة في اليمن وجعل فيها قباباً من ذهب، وأراد أن يصرف إليها الحاجّ، لتضاهي بذلك البيت الحرام.

ثم إنّ رجلاً من بني كنانة خرج حتّى قدم اليمن ونظر إليها، ثم تغوّط فيها ليلاً، فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها، فقال: مَن اجترأ عليَّ، ونصرانيتي لأهدمنّ ذلك البيت (الكعبة) حتّى لا يحجّه حاجٌّ أبداً .

ثمّ سار بجيش كثيف، يتقدّمه فيل عظيم أو أفيال، حتّى نزل على ستة أميال من مكّة.

ثم إنّ مقدمة الجيش نزلت مشارف مكّة فأصابت نعَماً لقريش فيها مائتا بعير لعبدالمطلب. فلمّا وقف عبدالمطلب على ما أصاب إبله، ذهب إلى أبرهة وكان حاجب أبرهة يعرفه، فدخل وقال: جاءك سيد قريش، فقال: إئذن له، وكان عبدالمطلب رجلاً جسيماً جميلاً، فلمّا رآه أبرهة أعظمه ونزل من سريره وجلس على الأرض وأجلس عبدالمطلب معه، ثم قال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدّمتك. فقال أبرهة: والله لقد رأيتك فأعجبْتني ثم تكلمتَ فزهدتُ فيك. فقال عبدالمطلب: ولِمَ؟ قال: لأنّي جئت إلى بيت عزّكم ومنعتكم من العرب وفضلكم في الناس وشرفكم عليهم، فجئت لأكسره، وأُصيبت لك مائتا بعير فسألتُك عن حاجتك فكلّمتني في إبلك، ولم تطلب إلي في بيتكم.

فقال عبدالمطلب: أنا أُكلمك في مالي، ولهذا البيت رب هو يمنعه.

لست أنا منه في شيء.

وأمر بردّ إبل عبدالمطلب عليه.

وفي رواية قال: أنا رب الإبل، وللبيت رب سيمنعك عنه، ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وقال:

لاهُمَّ إن المرء يمنـ *** ـع رحله فامنعْ حِلالَكْ[1]

لا يغلبنّ صليبهم *** ومِحالهم أبداً محالك[2]

ولئن فعلت فربّما *** أو لا فأمر ما بدا لك

١ . الحِلال: القوم الحالّون في المكان.

٢ . المِحال: القوة والتدبير.

ثم إنّ أبرهة بات ليلته في ذلك المكان حتّى إذا طلعت الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة فجعلت ترميهم، وكلّ طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران، وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أُخرى، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلاّ خرقه ولا عظم إلاّ أوهاه وثقبه، وأُصيب (أبرهة) ببعض الحجارة فكرّ راجعاً، فجعل كلّما قدم أرضاً انقطع له فيها إرب، ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة إلى أن انتهى إلى اليمن ، فلمّا وصلها تصدّع صدره وانشق بطنه فهلك.

وكان عبدالمطلب يرتجز ويدعو على الحبشة بقوله:

يا رب لا أرجو لهم سواكا *** يارب فامنع منهمُ حماكا

إن عدّو البيت من عاداكا *** إنّهمُ لن يقهروا قواكا

ولم تصب تلك الحجارة أحداً إلاّ هلك وليس كلّ القوم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الّتي جاءُوا ويسألون عن نفيل ليدلّهم على الطريق انظر القصة في: تاريخ اليعقوبي: ١ / ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ؛ ومجمع البيان: ١٠ / ٨٢٢ ؛ والكامل لابن الأثير: ١ / ٤٤٢ ـ ٤٤٦ .

على هامش القصّة

هذه هي قصة أصحاب الفيل لخّصناها للقارئ الكريم، ولنا معها وقفات نافعة:

١. قال الدكتور طه حسين في كتابه «مرآة الإسلام»: وفي هذه الموقعة أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش، ذلك أنّه قد أشار على قريش أن تُخلي مكّة، فسمع له قومه، وأقام هو بمكة لم يعتزلها، وإنّما أقام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره .

٢. لم يكن للعرب في عصر الجاهلية مبدأ تاريخ لضبط الحوادث وربّما كانوا يؤرّخونها بالحوادث المهمّة كحرب البسوس الّتي طالت أكثر من مائة سنة، ثم صارت واقعة الفيل مبدأً لتسجيل الحوادث فيقولون: ولد عام الفيل، أو قبله بسبع سنوات أو بعده بعامين، وهذه خصيصة الأُمّة الّتي ليس لها مبدأ لتسجيل الحوادث، ثم جاء الإسلام فصارت هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مبدءاً لتاريخ الحوادث، وهذه من كرامة الإسلام يجب المحافظة عليها.

والعجب أنّ كثيراً من الحكومات الإسلامية يسجّلون الحوادث بالتاريخ الميلادي، وربّما يضعون التاريخ الهجري جنبه فرعياً، وهذا نوع عقدة حقارة يجدها المتجدّدون في أنفسهم، مع أنّ الدول النصرانية لا تلتفت إلى التاريخ الهجري.

٣. أنّ البلايا كالزلازل والطوفان ربّما تفسّر بالعلل الطبيعية ولا مانع منها، لأنّه سبحانه أجرى الأُمور على وفق أسبابها حتّى أنّ لنزول المطر والثلج والجفاف عللاً مادّية من ورائها مشيئته سبحانه وإرادته، ولكن واقعة الفيل كانت أمراً سماوياً لا يمكن تفسيره بعلل مادية وأسباب طبيعية، إذ ليس في عالم الطبيعة أن تظهر في السماء طيورٌ معها حجارة، فتقصد قوماً (أصحاب الفيل) دون غيرهم (قريش) مع أنّه لا توجد بين الطائفتين مسافة كبيرة.

يذكر المفسّرون: جاءت طيور صغيرة من جهة البحر فوجاً بعد فوج ترميهم بحجارة من سجيل، فكيف يمكن تفسير تمييزها أصحاب الفيل عن قريش اللاجئين إلى الجبال حيث تقتل الطائفة الأُولى دون الثانية؟ وما هذا إلاّ معجزة كبرى وراءها إرادة الله سبحانه.

غير أنّ بعض المؤرّخين زلّت أقدامه في بيان هذه المعجزة الكبرى فتارة يقولون: إنّهم هلكوا بمكروب الوباء، وأُخرى يقولون: هلكوا بداء الحصبة والجدري، وقد ذكر ابن الأثير ـ من بين المؤرّخين ـ هذا القول بصورة الاحتمال الضعيف ثم عاد فردّ هذا القول فوراً الكامل في التاريخ: ١ / ٢٦٣ ..

والعجب من شيخ الأزهر الذي له حق عظيم في تبيين الإسلام وردّ سهام الأعداء، ومع ذلك أتى بكلام لا يليق بساحته، قال: فيجوز لك أن تعتقد أنّ هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل في مسامّه فأثار تلك القروح الّتي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه . التفسير الكاشف: ٧ / ٦١١، نقلاً عن الشيخ محمد عبده.

يلاحظ عليه: أنّ البعوض أو الذباب لا يستطيع أن يحمل الحجارة مهما كانت صغيرة، ثم إنّ اتّصال هذه الحجارة بالجسد لا يسبب تساقط اللحم وإفساد الجسم من فوره.

والحق أن الإعجاز باب، والحوادث الطبيعية باب آخر، والمؤمن بالكتاب والسنّة يصدق كلا الفعلين ولا يخلط أحدهما بالآخر.

١ ـ ٣ الآيات: الثلاث الأُولى(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ... وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ).
(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيل * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ).
المفردات
الفيل: حيوان معروف له القوّة الخارقة يحمل على ظهره من ثلاثة آلاف رطل إلى أربعة آلاف، وعلى خرطومه وحده ألف رطل، ويجرّ ما لا يكاد تجرّه ستة أفراس، ويسير في اليوم مائة ميل . الكيد: وهو ضرب من الاحتيال، ويكون مذموماً أو ممدوحاً. تضليل: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم والمراد به في الآية جعل كيدهم في باطل وإضلال . المفردات للراغب: ٢٩٧، مادة «ضل». أبابيل: وفيه قولان: ١. أنّه لا واحد لها وهو مثل: العباديد. ٢. أن واحدها إبّالة، وفي المثل: ضِغْثٌ على إبّالة، وقال الفرّاء: لو قال قائل: واحد الأبابيل (إيبالة) لكان صواباً، كما يقال: دينار ودنانير. وعلى كلّ تقدير فمعنى أبابيل في قول أبي عبيدة والفرّاء: جماعات في تفرقة زمرة وزمرة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من هاهنا وهنا. التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤١٠ ؛ تفسير الرازي: ٣٢ / ١٠٠ .
التفسير
١. (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ): الاستفهام إنكاري، والخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)مع أنّه لم ير كيفية الواقعة وإنّما علم بها عن طريق التواتر، فيكون المراد بالرؤية هنا رؤية علمية بمعنى: ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ثم إنّه سبحانه يطرح السؤال عن الكيفية ويقول: (كَيْفَ فَعَلَ) ولا يقول: ما فعل، لأنّ العبرة هنا في كيفية قتلهم وردّ شرورهم عن الكعبة وأهلها بوضع مفجع. ولعلّ إطلاق أصحاب الفيل عليهم مكان أرباب الفيل للإشارة إلى دناءتهم ؛ لأنّ الصحبة تضاف إلى مَن هو أعلى من المصاحب، فيقال: صحابة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلو كان هذا هو الميزان كان الفيل أفضل منهم، ولذلك قال: أصحاب الفيل، وكأنّهم أنزل درجة من ذلك الحيوان. ٢. (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيل) : هذه الفقرة بيان للكيفية الّتي ذكرت في الآية السابقة بالإجمال لا بالتفصيل وحاصلها: أنّه سبحانه أبطل عملهم، فلم ينالوا ما قصدوا، وأمّا التفصيل فيشير إليه في الآية التالية. ٣. (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ): والمعنى: أرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرّقة من الطير، وبذلك أبطل كيدهم وأفشل تخطيطهم.
الآيتان الأخيرتان (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَة مِنْ سِجِّيل * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْف مَأْكُول).
المفردات
السجّيل: اختلفت كلمات المفسّرين في تفسير هذه اللفظة، والظاهر أنّه من المعرّب الواقع في القرآن، وأصله «سنگ گل»، أي الطين

المتحجر، وفي سورة الذاريات جاء قوله سبحانه: (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِين) الذاريات: ٣٣، ولعلّ الآية الثانية إشارة إلى أصل السجّيل. نعم جاءت كلمة (سجّيل) في سورة الحجر أيضاً، قال سبحانه: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل) الحجر: ٧٤ ..

العصف: الّذي يُعصَف من الزرع، ويقال لحُطام النبت المتكسّر: عصف. ويقال: ريح عاصف، لأنّها تكسر الزرع وأوراق الشجر اليابسة.

التفسير

٤. (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيل):

بيان بعد بيان لقوله: (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيل)ومعنى الآية: ترمي الطير الأبابيل أصحاب الفيل بحجارة من سجّيل فتكون النتيجة ما في قوله في الآية التالية.

٥. (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُول) :

أي ورق الزرع أو الشجر.

أي صار أصحاب الفيل كورق الشجر إذا ديس بالأقدام، فتكون أجزاؤه متلاشية، فصار هؤلاء أيضاً كالتبن المنتشر في الأرض، ويمكن أن يكون هو التبن أو الورق الّذي تمضغه الحيوانات، فيخرج من فمها قبل أن تبتلعه.

وربّما يفسّر بأنّ المراد به كزرع وتبن قد أكلته الدواب ثم ألقته روثاً، ثم يجفّ فتتفرّق أجزاؤه. شبّه تقطّع أوصالهم بتفرّق أجزاء الروث . تفسير الرازي: ٣٢ / ١٠١ .ولا يخفى أنّه بعيد عن أدب القرآن.

والمراد من المأكول هو المعدّ للأكل إذا ديس، أو الخارج من جوانب فم الحيوان عند المضغ.

تمّ تفسير سورة الفيل

١٠٦- سورة قريش

(لإِيلاَفِ قُرَيْش * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْف * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْت * الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف).

خصائص السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «قريش» وربّما سمّيت بسورة «لإيلاف قريش»، ولا مشاحّة في التسمية.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آيات السورة خمس في عدّ الحجازيين، وأربع في عدّ غيرهم.

روى العيّاشي (المتوفّى نحو ٣٢٠ هـ) باسناده عن المفضّل بن صالح، عن أبي عبدالله (عليه السلام)قال سمعته يقول: «لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلاّ «الضحى» و «ألم نشرح» و «ألم تر كيف» و «لإيلاف قريش». وعن أبي العباس عن أحدهما (عليهما السلام) قال: «ألم تر كيف فعل ربك، ولإيلاف قريش، سورة واحدة». تفسير العياشي: ٣ / ١٧٥ ح ١١١ و ١١٢ ؛ مجمع البيان: ١٠ / ٤٤٩ .

وروي أنّ أُبيّ بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه. مجمع البيان: ١٠ / ٤٤٩ .

وهل هما سورة واحدة أو سورتان؟ فظاهر رواية المفضّل أنّهما سورتان غير أنّه تجوز قراءتهما في ركعة واحدة استثناء من قولهم: «لا قران بين السورتين»، وظاهر رواية أبي العباس أنّهما سورة واحدة بَيْد أنّ الطبرسي لم يذكر الوسائط بين العياشي وبين أبي العباس، حتّى نتحقّق من صحّة الرواية .

وأمّا عمل أُبيّ بن كعب فعلى فرض ثبوته، ليس بحجّة والقدر المتيقّن جواز القران بينهما، لا كونهما سورة واحدة. لاحظ: الوسائل: ٤، الباب ١٠ من أبواب القراءة في الصلاة، فإنّ الروايات وكلمات الأصحاب مختلفة، والتفصيل في محلّه.

روي عن عمرو بن ميمون الأودي، أنّه قال: صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب، وقرأ في الأُولى «والتين» وفي الثانية: «ألم تر كيف، ولإيلاف قريش». مجمع البيان: ١٠ / ٨٢٧.

قال الحافظ محمد بن أحمد بن جُزَيّ الكلبي الغرناطي (المتوفّى ٧٤١ هـ): ويؤيّد هذا ـ يعني القول بأنّهما سورة واحدة ـ أنّ السورتين في مصحف أُبيّ بن كعب سورة واحدة لا فصل بينهما، وقد قرأهما عمر في ركعة واحدة من المغرب. تفسير ابن جُزيّ: ٨٥٩.

وقال سفيان بن عُيينة (المتوفّى ١٩٨ هـ): كان لنا إمام بالكوفة يقرأ (ألم تر، ولإيلاف) ولا يفرّق بينهما. التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤١٤.

وهي مكيّة بالاتّفاق.

أغراض السورة

تهدف الآية إلى دعوة مشركي قريش إلى توحيد الله سبحانه في الخالقية والربوبية وترك عبادة غير ربّ البيت، لما أنعم به عليهم من رحلتي الشتاء والصيف، حيث أنعم عليهم بالأمن والرخاء.

١ ـ ٤ الآيات: الأربع جميعاً(لِإِيلاَفِ قُرَيْش .... الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوع وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف).

المفردات

الإيلاف: إيجاب الأُلف، وهو نقيض الإيحاش، ونظيره الإيناس.

قريش: قيل إنّه تصغير قرش، وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن، ولا تنطلق إلاّ بالنار، وعن ابن عباس: لم سمّيت قريش؟ قال: بداية في البحر تأكل ولا تؤكل، تعلو ولا تُعلى، وأنشد:

وقريش هي الّتي تسكن البحـ *** ـر بها سمّيت قريش قريشاً

وربما يقال: إنّه مأخوذ من القرش وهو الكسب؛ لأنّهم كانوا يكتسبون بتجاراتهم وضربهم في البلاد.

التفسير

١. (لِإِيلاَفِ قُرَيْش):

هذه الآية من بدائع الآيات حيث ابتدأت السورة بحرف الجرّ، وصياغة الكلام تدلّ على أنّه علّة لما تقدّمه، وليس المتقدّم إلاّ قوله سبحانه: (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْف مَأْكُول) الفيل: ٥.أي إهلاك أصحاب الفيل.

ثُمّ إنّ للمفسّرين في بيان ما هو المتعلّق بقوله: (لِإِيلاَفِ قُرَيْش)مذهبين:

الأوّل: أنّه متعلّق بقوله: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوع وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف)، قال في «الكشّاف»: (لِإِيلاَفِ قُرَيْش) متعلّق بقوله: (فَلْيَعْبُدُوا)أي أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم رحلتين. تفسير الكشّاف: ٣ / ٣٦٠.

يلاحظ عليه: أنّه خلاف الظاهر.

الثاني: هو متعلّق بما قبله أي: (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْف مَأْكُول)، لإيلاف قريش.

وبيان ذلك بحاجة إلى تقديم مقدّمة، وهي أنّ مكّة كانت أرضاً جدباء، وإنّما يعيش أهلها في ظل أمرين:

١. ورود القوافل الّتي تردها من شتى الأطراف لزيارة بيت الله الحرام.

٢. القيام برحلتي الشتاء والصيف للتجارة، الأُولى إلى اليمن والثانية إلى الشام، لكي يشتروا لأهلها حوائجهم الحياتية.

وبهذين العاملين كان لهم نشاط اقتصادي في البلد الأمين.

إذا علمت ذلك فالله سبحانه يقول: أهلكنا أصحاب الفيل لكفرهم، ولكن ترتب على ذلك إيلافان:

١. إيلاف قريش بالأرض المقدّسة وإيناسهم بها وعدم هجرتهم عنها.

٢. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، وإيناسهم بهما طول السنين.

ومن المعلوم أنّ هذين الإيلافين رهن انتشار الأمن والأمان في البلد، ولا يتمّ ذلك إلاّ بإبادة العدو المحيط بهم كما هو حال أصحاب الفيل.

٢. (إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ):

قد تبيّن مضمونه ممّا سبق.

٣ و ٤. (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ):

أي فليوجّهوا عبادتهم إلى رب هذا البيت (أي الكعبة) ويوحّدونه، وكأنّه نوع استنتاج من الآيات السابقة وهو أنّه سبحانه لمّا أنعم عليكم بهذه النعم، فمقتضى شكر النعمة الاشتغال بعبادة رب هذا البيت وترك عبادة الأصنام.

ثم إنّه سبحانه يذكر ما هو الداعي إلى عبادة رب البيت، وهو أنّه سبحانه أنعم عليهم بنعمتين:

١. أطعمهم من جوع.

٢. آمنهم من خوف.

أمّا الأُولى: فقد جعل الكعبة، الّتي هي في مكّة، مهوى القلوب حيث يحج إليها طيلة السنة قوافل من شتى الأطراف، ولا شكّ أنّ هذا كان يحرّك عجلة الاقتصاد لتلك الديار.

وأمّا الثانية: أعني الأمن من الخوف حيث إنّهم يسافرون آمنين لا يتعرّض لهم أحد ولا يُغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم، حيث كانت قريش مُهابة عند القبائل، وكانوا يكنّون لها الاحترام العظيم لأنّهم جار الله سبحانه.

ولعلّه سبحانه أطعمهم وآمنهم إجابة لدعوة إبراهيم الخليل (عليه السلام)حيث طلب الأمرين من الله تعالى:

أمّا الطعام فقد طلبه بقوله: (وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) البقرة: ١٢٦ ..

وأمّا الأمان فقد طلبه بقوله: (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً) البقرة: ١٢٦ ..

وربما يطرح هنا سؤال هو: ما هو السبب لتذكير قريش بأنّه أهلك عدوهم لغاية إيلافهم بوطنهم وأُنسهم به وعدم الخروج عنه، وإيلافهم بالرحلتين، إذ كلّ ذلك كان في ظل الأمن؟

والجواب: أنّ قريشاً كانوا هم المانع القوي أمام رسالة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)وإبلاغه تعاليم الله إلى الناس، فالقرآن يذكر هاتين النعمتين اللتين تمّت لهم غبّ هلاك عدوهم، ويذكّرهم بأنّ اللائق لهم هو عبادة الله سبحانه وترك الأصنام والأوثان، ومن ثمّ فسح المجال أمام رسول السماء بأن يبلّغ دعوته إلى الناس، ولكنّهم لأجل غطرستهم وتكبّرهم ما انتبهوا من نوم الغفلة فجعلوا سياجاً بين الناس ورسالة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)، والّذي يشعر بذلك وجود الفاء في قوله: (فَلْيَعْبُدُوا): أي أنّ نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهاتين النعمتين اللتين تمّتا غبّ جعل العدو كعصف مأكول، ولولا هذا لما تمّ لهم الإيلاف بالأرض المقدّسة، ولا الإيلاف والالتزام بالرحلتين خصوصاً الرحلة إلى اليمن.

تمّ تفسير سورة قريش

١٠٧- سورة الماعون

(أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى هذه السورة بسورة (الماعون) لورود هذا اللفظ فيها، وتُسمّى سورة «أرأيت» لوقوعه في أوّل السورة، ولها أسماء أُخرى، هي: سورة (اليتيم)، و سورة (الدين)، وسورة (التكذيب)، وكلّ ذلك يدلّ على أنّ التسمية ليست أمراً توقيفياً.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها سبع في العدّ العراقي وست في الباقين.

واختلفت كلمتهم في كونها مكية كما هو الظاهر من أوائل السورة، أو مدنية كما تشعر به أواخرها. حيث إنّ قوله: (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ)يناسب حال المنافقين، وقد قال سبحانه في حقّهم: (وَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى) النساء: ١٤٢..

أغراض السورة

التنديد بمن يكذّب بيوم الجزاء، وهي أنّ للتكذيب بالدين آثاراً خمسة:

١. دفع اليتيم بعنف وقهر.

٢. عدم حضّ الآخرين على طعام المسكين وعدم مشاركته فيه.

٣. السهو عن الصلاة.

٤. الرياء في العمل.

٥. المنع عن الماعون (كلّ ما يحتاج إليه الناس).

١ ـ ٣ الآيات: الثلاث الأُولى(أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) .

المفردات

الدّين: يطلق تارة على الشريعة، وأُخرى على الطاعة، ولكن المراد هنا يوم الجزاء والحساب والبعث من القبور، وبالتالي إنكار المعاد.

يدعُّ: الدعّ: الدفع الشديد، والدفع بعنف وقهر، قال سبحانه: (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) الطور: ١٣. المفردات للراغب: ١٦٩، مادة «دعع» ..

يَحُضُّ: الحضّ: التحريض، كالحثّ، إلاّ أنّ الحثّ يكون بسوق وسير، والحضّ لا يكون بذلك.

التفسير

١. (أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ):

استفهام في حال التعجب من المكذبين بالجزاء، وأنّ تكذيبهم بالدين وعدم الإيمان بالجزاء (أي جزاء الخير بالخير والشرّ بالشرّ) يترتّب عليه ما تذكره الآيات التالية.

٢. (فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ):

فإنّ اليتيم أحوج إنسان إلى العطف والرحمة، بل حاجته إلى العطف أكثر من حاجته إلى ما يسدّ خَلّته، وهذا المنكر للجزاء يتعامل معه على ضد ما احتاج إليه اليتيم وهو اللقاء بعطف وحنان، وذلك نتيجة عدم اعتقاده بيوم الجزاء، فلا يبالي أنّ يقابل اليتيم

بالعنف أو بالحنان. واليتيم وإن كان من مات أبوه، ولكن يحتمل ان يكون المراد هنا كلّ ضعيف صغيراً كان أو كبيراً، وخصّ سبحانه اليتيم لأنّه أضعف من كلّ صنف.

٣. (وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

أي لا يتعاون مع الآخرين على الاهتمام بشأن الجياع والمعوزين، ولا يدعوهم إلى الإحسان إلى المحتاجين ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على وجود الملازمة بين الاعتقاد بالدين والعمل بالشريعة، بحيث يُعدّ العمل جزءاً منه أو لازماً غير منفكّ عنه.

ثم إنّ الظاهر من استخدام صيغة المضارع (الذي يَدُعُّ) و (وَلاَ يَحُضُّ)إشارة إلى استمرار هذا العمل ممّن يكذّب بالدين، لا أنّه يصدر عنه مصادفة وفي بعض الأيام.

٤ ـ ٧ الآيات: الأربع الأخيرة(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ....* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ).

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ).

المفردات

الويل: مرّ تفسيره في سورة الهمزة.

الماعون: اختلفت كلماتهم في تفسيره على أقوال:

١. هو الزكاة المفروضة.

٢. ما يتعاوره الناس بينهم، من الدلو والفأس والقدر والماء والملح.

٣. هو القرض تقرضه والمعروف تصنعه ومتاع البيت تُعيره، ومنه الزكاة، وهذا هو المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام). تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٧٩ .

التفسير

٤. (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ):

دعاء عليهم مع أنّه بظاهره غير صحيح، إذ لابد من الدعاء لهم لا عليهم، لكن المراد منه بشهادة الآية التالية، هم المصلّون الساهون عنها.

٥. (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ) :

ولم يقل: (في صلاتهم) لأنّ السهو فيها أمر رائج، لكن هؤلاء يسهون عن أصل الصلاة، يصلون تارة ويتركونها أُخرى، فلا رغبة لهم فيها ولا اعتداداً بها.

وبهذا يتبيّن أنّ المراد من السهو هو نسيان الصلاة عن تقصير وعدم مبالاة، وإلاّ فالنسيان بلا تقصير، أمر مرفوع، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «رفع عن أُمّتي تسع: الخطأ، والنسيان، وما أُكرهوا عليه، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه... الخ» . الوسائل: ١١، الباب ٥٦ من أبواب جهاد النفس، الحديث ١ .

وحصيلة الكلام: أنّ النسيان على قسمين:

قسم منه أمر طبيعي عادي يعرض لكلّ إنسان، وقسم آخر يعرض للإنسان لعدم اهتمامه بالمنسيّ، وهذا من خصائص مَن لا يؤمن بيوم الجزاء، فالصلاة وعدمها عنده سواء.

٦. (الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ):

أي أنّهم على فرض إقامة الصلاة يقصدون أن يرى الناسُ أعمالهم حتّى يتحدّثوا عنهم بمحاسن الأعمال، وهذا أيضاً من نتائج

تكذيب الدين، فلو آمنوا به لأقاموا الصلاة لله سبحانه حتّى يصيبهم جزاء عملهم يوم القيامة، فالعمل الّذي يؤتى لله سبحانه أشبه بزرع له جذور في الأرض فلا تذهب به الرياح العاصفة، بخلاف العمل الّذي قصد به الرياء، فهو كزرع بلا جذور، ينقلع بريح ليّنة فضلاً عن العاصفة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) البقرة: ٢٦٤. .

٧. (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ):

الظاهر أنّ المراد الإعانة بالمال بالزكاة والصدقة والقرض الحسن.(تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٧٩، نقلاً عن الكافي.)

كلام في اليتيم

اعتنى القرآن المجيد باليتيم كثيراً، وذكره في العديد من آياته، ونأتي هنا ببعض ما ورد في القرآن الكريم ممّا يدلّ على ضرورة الاهتمام بإيواء اليتيم وكفالته، وتأديبه.

إنّ الطفل بعد ولادته إمّا أن:

يستغني عن أُمّه بسرعة، وهو طفل الحيوان الذي يحتاج إلى أُمّه طيلة فترة الرضاعة، ثم بفضل الوحي الطبيعي يعرف مسير حياته، والدفاع عن نفسه.

أو لا يستغني عن أُمّه بسرعة، فالإنسان بعد أن يولد يبقى بحاجة إلى أُمّه وأبيه لعدة سنوات، ولا يستغني عنهما إلاّ بعد أن يكبر ويشبّ ويعرف نواحي الحياة ومشاكلها.

فإذا فقد المولود أباه فإنّه يفقد سناد حياته وبقائه، فلذلك فهو بحاجة إلى مَن يحميه ويؤويه ويكفله، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من كفَل يتيماً من المسلمين فأدخله إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة» مستدرك الوسائل: ١ / ١٤٨ ..

وقال الإمام علي (عليه السلام): «أدّب اليتيم بما تؤدِّبُ منه ولدك» الوسائل: ١٥، الباب ٨٥ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث ١ ..

وقد بلغت عناية الإسلام بترفيع مقام اليتيم ولزوم العطف عليه أنّه قرن الإحسان إلى اليتيم بالإحسان إلى الوالدين وقال: (وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينَ) النساء: ٣٦ . .

الإنسان الكامل هو الّذي يقدّم اليتيم على نفسه مع حاجته إلى ما يُقدّمه، قال سبحانه: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيمًا وَ أَسِيراً) (الإنسان: ٨ .)، والضمير في (عَلَى حُبِّهِ) يرجع إلى الطعام وهو بمنزلة الحال.

وقد تكون بين الإنسان وكسب رضا الله سبحانه عقبات لا يتمكّن من اقتحامها إلاّ بإيواء اليتيم وإطعامه، قال سبحانه: (فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَة * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْم ذِي مَسْغَبَة * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَة * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَة) البلد: ١١ ـ ١٦ ..

التحذير من إتلاف مال اليتيم

بما أنّ مال اليتيم، هو مال إنسان عاجز قد فقدَ مَن يحميه، فإنّ ما يملكه من الأموال من أُمّه وأبيه يجب أن يصانَ أشدّ الصيانة، فَمن فرّط فيه، وسوّلت له نفسه المساس به، فقد عرّضها لسخط الجبار، وناره الحامية، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) النساء: ١٠ ..

فمال اليتيم إذا وقع في يد الظالم فهو بظاهره ذهب وفضة، ولكنّه في الباطن نار تتجلّى في الآخرة بالوجود الثاني.

نعم يجوز التصرّف في أموال اليتامى على نحو يكون صالحاً لهم، قال سبحانه: (وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) البقرة: ٢٢٠ ..

فأي تعبير أجمل في ترفيع مقام اليتيم من قوله سبحانه: (وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ)، فقد جعل اليتيم أخاً للغني، ومن المعلوم أنّ الأخوّة أقرب رابطة بين إنسانين في مرتبة واحدة.

ثم إنّ مسؤولية الأولياء بالنسبة إلى أموال اليتيم باقية إلى أن يبلغ اليتيم مقاماً يتمكّن فيه من أن يتصرف فيه تصرفاً نظير تصرف البالغ الرشيد، قال سبحانه: (وَ ابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) النساء: ٦ ..

تمّ تفسير سورة الماعون

١٠٨- سورة الكوثر

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت هذه السورة في المصاحف بسورة «الكوثر»، وربّما تُسمّى بسورة «إنّا أعطيناك الكوثر»، وعن البقاعي أنّها تُسمّى بسورة «النحر». تفسير الآلوسي: ٣٠ / ٢٤٤ .

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ثلاث بالإجماع، وهي أقصر سور القرآن من حيث عدد الآيات والكلمات والحروف، فإنّ سورة التوحيد أكبر منها حيث إن عدد آياتها أربع، وسورة النصر وإنْ كانت آياتها ثلاثاً ولكنها أطول وكلماتها أكثر ، فإنّ قوله سبحانه: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) الإسراء: ٨٧ . شامل لهذه السورة أيضاً، لمّا فيها من حسن التأليف، وتشاكل المقاطع للفواصل، وسهولة مخارج الحروف، إلى غير ذلك من المزايا.

وأمّا محلّ نزولها فقد وقع فيه اختلاف، ولولا قوله سبحانه: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) يمكن أن يقال: إنّها مدنية للأمر بالصلاة لله والأمر بالنحر، لكن مع النظر إليه فهي مكيّة.

أغراض السورة

بشّرت السورةُ النبيَّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)بأنّه أُعطي الكوثر والخير الكثير، فليصلّ لربه وينحر شكراً له، وأنّ من بتَرَكَ هو الأبتر. وبالتالي تفيد أنّ من ليس له ولد ذكر ليس بأبتر، كما هو الحال في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّه لا فرق بين الولد الذكر والأُنثى، فكلّ ذلك يخرج الإنسان عن كونه أبتر.

١ ـ ٣ الآيات الثلاث(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ).

المفردات

الكوثر: في اللغة: فوعل من الكثرة، وهو المفرط في الكثرة، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر، أي بالعدد الكثير. ويقال للرجل الكثير العطاء: كوثر. تفسير الكشّاف: ٣ / ٣٦٢ ؛ تفسير الرازي: ٣٢ / ٤٢٠ .

انحر: النَّحْر: موضع القلادة من الصدر، يقال: نحرته: أصبت نحره، ومنه نحر البعير.

الشانئ: المبغض، قال سبحانه: (وَ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا) المائدة: ٨ .أي: بغضهم.

الأبتر: أصله من الحمار الأبتر، وهو المقطوع الذنب، وفي حديث زياد: أنّه خطب خطبته البتراء، لأنّه لم يحمد الله فيها ولم يصلّ على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومنه قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما الصلاة البتراء؟ قال: «تقولون: اللّهُمَّ صلّ على محمد وتمسكون، بل قولوا: اللّهُمَّ صل على محمد وآل محمد» الصواعق المحرقة: ١٤٤..

التفسير

تمهيد: كانت المجتمعات القبلية تعتمد على كثرة الأولاد الذكور، لأنّ الولد الذكر هو الّذي يحمل السلاح ويحمي القبيلة ويردّ سهام العدو إلى مصدرها، وأمّا الأُنثى فهي بحاجة إلى الحماية، ولا تستطيع أن تحمي القبيلة ولذلك صار الولد الذكر في المجتمعات القبلية أكثر قيمة وأسمى مقاماً، حتّى أنهم كانوا لا يعدّون أولاد البنات أولاداً لهم بخلاف أولاد الذكور، ويقول شاعرهم :

بنونا بنو أبنائنا، وبناتِنا *** بنوهنّ أبناء الرجال الأباعِدِ

وقد كانت الحياة في عصر الرسالة حياة قبلية لا يقيمون للبنات فيها وزناً ولا قيمة بخلاف الذكور، فلو مات الرجل ولم يكن له ولد ذكر ـ وإن كان له بنات ـ يوصف بالأبتر، ولو مات الذكور من أولاده وبقيت بناته عابوا عليه بأنّه ابتر.

١. (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ):

اتّفق المفسّرون على أنّ الكوثر هو الخير الكثير، ولكن اختلفوا في مصداقه وما ينطبق عليه في المقام، إلى أقوال كثيرة، فقالوا:

١. إنّه نهر في الجنّة. ٢. إنّه حوض فيها. ٣. أولاده. ٤. علماء أُمته. ٥. النبوّة. ٦. القرآن. ٧. الإسلام. ٨. كثرة الأتباع والأشياع. ٩. الفضائل الكثيرة الّتي فيه. ١٠. رفعة الذكر. ١١. العلم. ١٢. الخلُق الحسن. ١٣. المقام المحمود الّذي هو الشفاعة. ١٤. هذه السورة. ١٥. جميع نعم الله عليه (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولكنّ الحق أنّ المراد به هو الوجه الثالث، وذلك بدليلين:

١. لاشكّ أنّ جميع ما ذكر من الفضائل والمقامات أمر ثابت للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)لا غبار عليه، لكنّها بالنسبة إلى الآية احتمالات لا دليل عليها، إلاّ الثالث منها وهو كثرة الأولاد، حيث إنّ السورة نزلت في العاص بن وائل السهمي وأنّه رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدّثا وأُناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاص قالوا: من الّذي كنت تتحدث معه؟

قال: ذلك الأبتر، وكان قد توفّي قبل ذلك عبدالله بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وهو من خديجة، وكانوا يسمّون من ليس له ابن: أبتر، فسمّته قريش عند موت ابنه: أبتر. عن ابن عباس . مجمع البيان: ١٠ / ٨٣٦ .

وهذا يبعث على القول بأنّ آيات السورة كانت ردّاً لما وُصف به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وإلاّ فالقول بأنّ سبحانه أعطاه النبوة، أو القرآن، أو العلم أو الخلق الحسن أو المقام المحمود، لا يصلح لأن يكون ردّاً لما وُصف به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل إرادة هذه كلّها يلازم تصديق ما وصف به وهو خلاف المطلوب، لأنّها في مقام التسلية في مقابل الكلام الّذي صدر عن الشانئ ولا يحصل إلاّ بتفسيره بكثرة الأولاد، الّتي تقابل الوصف بالأبتر.

قال الرازي: إنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على مَن عابه بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت(عليهم السلام)، ثم العالم ممتلئ منهم ولم يبق من بني أُميّة في الدنيا أحدٌ يُعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا(عليهم السلام)والنفس الزكية وأمثالهم . تفسير الرازي: ٤٣ / ١٢٤ .

٢. لو لم يكن المراد كثرةَ الأولاد تكون الآية الثالثة غريبة عن الآيتين السابقتين، إذ يكون معنى السورة بالنحو التالي: إنا أعطيناك الخير الكثير، فصلّ لربك وانحر، إن مبغضك هو الأبتر، إذ عندئذ يقع السؤال التالي: ما هي الصلة بين إعطاء الخير الكثير والصلاة والنحر، وبين الإخبار بأنّ الشانئ هو الأبتر.

وهذا بخلاف ما لو قلنا بأنّ المراد هو كثرة الأولاد، فتكون الآية الثالثة كالمتممة للآية الأُولى أي أنّك لست الأبتر، ولكن شانئك هو ذلك.

ومن عجيب القول ما ذكر في «الكشّاف»:

بأنّ المراد أنّ كلّ مَن يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهذا من أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر والمنائر، وعلى لسان كلّ عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثنّي بذكرك، فمثلك لا يقال له: أبتر، وإنّما الأبتر هو شانئك المنسيّ في الدنيا والآخرة وإن ذُكر ذُكر باللعن . تفسير الكشّاف: ٣ / ٣٦٢ .

يلاحظ عليه: بأنّه تفسير بالرأي أوّلاً وفي ذلك تثبيت لقول الشانئ بأنّه أبتر، أي لا ولد ذكر له.

٢. (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ):

الأمر بالصلاة لربه، نوع أداء شكر بالنسبة إلى إعطاء الكوثر، فكأنّه يقول: واشكر لربك، والصلاة من أتمّ مظاهر الشكر.

وقيل المراد: صلاة العيد والتضحية.

يلاحظ عليه: أنّه موقوف على نزول السورة بعد تشريع الحج، والحال أنّ السورة مكّية.

ومثل ذلك ما يقال: المراد جنس الصلاة والنحر بمنى.

وقد تخلّص ابن عاشور من الإشكال بقوله: في الآية إيماء إلى إبطال نحر المشركين قرباناً للأصنام، فإن كانت السورة مكّية فلعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)حين اقترب وقت الحج ـ وكان يحج كلّ عام قبل البعثة وبعدها ـ قد تردّد في نحر هداياه في الحج بعد بعثته، وهو يود أن يُطعم المحاويج من أهل مكّة ومن يحضر في الموسم ويتحرجُ من أن يشارك أهل الشرك في أعمالهم، فأمره الله أن ينحر الهدي لله ويطعمها المسلمين، أي لا يمنعك نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناوياً بما تنحره أنّه لله. التحرير والتنوير: ٣٠ / ٥٠٤ .

ولا يخفى أنّ هذا التفسير وأمثاله احتمال لا يعرّج عليه في تفسير كلام الله المجيد ولو رجع هؤلاء إلى ما أُثر عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام)في هذا المقام، لارتفع الإبهام وذلك أنّهم فسّروه برفع يديك أزاء وجهك عند التكبير في الصلاة، وإليك ما روي عنهم:

١. عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: «لمّا نزلت هذه السورة قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لجبرئيل (عليه السلام): ما هذه النحيرة الّتي أمرني بها ربي؟ قال: ليست بنحيرة ولكنّه يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبّرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنّها صلاتنا وصلاة الملائكة في السماوات السبع، فإنّ لكلّ شيء زينة، وإن زينة الصلاة رفع الأيدي عند كلّ تكبيرة». تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٨٣، ورواه الرازي في تفسيره: ٣٢ / ١٢٩.

٢. روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّ رفع الأيدي من الاستكانة، قلت: وما الاستكانة؟ قال: ألا تقرأ هذه الآية: (فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ) المؤمنون: ٧٦ .؟ تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٨٤، نقله عن الثعلبي والواحدي في تفسيريهما.

ثم إنّه يطرح هنا سؤال وهو أنّه أي مناسبة بين إعطاء الكوثر والصلاة لله في مقابل هذه النعمة، وبين الأمر بحكم فرعي في الصلاة؟

والجواب: أنّ رفع اليد إلى محاذاة الأُذنين عند التكبيرة، كأنّه إشارة إلى إلقاء الدنيا إلى ما وراءه والتوجّه إلى الله بوجه ويدين خاليتين، وأنّه هو الكعبة المقصودة لا غير.

٣. (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) :

ربما يقال: كيف يوصف العاص بن وائل بالأبتر مع أنّ له ذرية كعمرو بن العاص، وولده عبدالله بن عمرو بن العاص .

يلاحظ عليه بوجهين :

١. أنّه وإن مات عن ذرية لكنّ ذريته تلاشت ولم يبق منها أحد.

قال الرازي: إنّ الله تعالى بيّن أنّ عدوّه (صلى الله عليه وآله وسلم)هو الموصوف بهذه الصفة فإنّا نرى أنّ نسل أُولئك الكفرة قد انقطع، ونسله (صلى الله عليه وآله وسلم)كلّ يوم يزداد وينمو، وهكذا يكون إلى قيام القيامة. تفسير الرازي: ٣٢ / ١٣٣.

٢. يبدو ممّا رواه الزّبير بن بكّار في كتاب «المفاخرات» أنّ ولده المنتسب إليه ـ أعني: «عمراً» ـ ليس ولداً حقيقياً له، وإنّما ولد في فراش مشترك، قال الإمام الحسن بن علي (عليهما السلام)مخاطباً عمرو بن العاص: وأمّا أنت يابنَ العاص، فإنّ أمرك مشترك، وضعتْك أُمّك مجهولاً، من عُهر وسِفاح، فتحاكمَ فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزّارها، ألأمُهُم حَسباً، وأخبثهم منصباً، ثم قام أبوك فقال: أنا شانئ محمد الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل. نقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ٦ / ٢٩١. وانظر: الاحتجاج للطبرسي: ١/ ٤١١ .

وفي الختام فإنّه من العجب العجاب أنّ مسيلمة بن حبيب المعروف بالكذّاب الذي أسلم ثم ارتدّ وادّعى أنّه يعارض القرآن بسور مثل سوره، ومن السور التي جاء بها على غرار سورة الكوثر، هذه الكلمات التي هي أشبه ما تكون بالهذيان، قال: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، إن مبغضك رجل كافر. تفسير الرازي: ٣٢ / ١٣٥ .

فها هو قد أخذ شيئاً كثيراً من سورة الكوثر وأدخل فيه ما لا معنى له، إذا لا شرف للجماهر حتى يمن بإعطائها، على أنّ لقوله: إنّ مبغضك رجل كافر، لا صلة له بما تقدّم.

وأظن أنّه افتري على مسيلمة الكذاب إذ هو بعربيته الصحيحة يعرف انحطاط هذه التعابير، ولا يعقل أنّه يتظاهر بها.

تمّ تفسير سورة الكوثر

١٠٩- سورة الكافرون

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة بسورة «الكافرون»، بإثبات الواو في المضاف إليه مع أنّ مقتضى القاعدة هو أن يقول: سورة الكافرين، وإنّما أُثبتت على حكاية لفظ القرآن الواقع في أوّلها، حيث قال: (يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)، لكن جاء في «الكشّاف» سورة الكافرين.

وتُسمّى السورة بسورة «الإخلاص»، وسورة «الجحد» من الجحد أي الإنكار، والكافرون ينكرون الحقائق، أعني: توحيد الله تعالى، وإرسال الرسل، ويوم الجزاء.، إلى غير ذلك من الأسماء.

عدد آياتها ومحل نزولها

عدد آياتها ست، وهي مكّية بالاتّفاق.

أغراض السورة

تُعلَم أغراض السورة من شأن النزول، حيث نزلت في نفر من قريش، منهم: الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب بن أسد، وأُميّة بن خلف، قالوا: هلمّ يا محمد فاتّبع ديننا، نتّبع دينك، ونشركك في أمرنا كلّه، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الّذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كنّا قد شركناك فيه، وأخذنا

بحظنا منه، وإن كان الّذي بأيدينا خيراً ممّا في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «معاذ الله أن أُشرك به غيره». قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك. فقال: حتّى أنظر ما يأتي من عند ربي، فنزل: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)السورة، فعدل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش وقام على رؤوسهم ثم قرأ عليهم حتّى فرغ من السورة، فأيسوا عند ذلك، فآذوه وآذوا أصحابه، قال ابن عباس: وفيهم نزل قوله: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) الزمر: ٦٤.. مجمع البيان: ١٠ / ٨٤٠، وحكاه الواحدي في أسباب النزول، وابن إسحاق في السيرة.

وبملاحظة ما ذكر من أسباب النزول يعلم أنّ الغرض تيئيس المشركين من أنّ يوافقهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)في شيء ممّا هم عليه من الكفر، وأنّه قال قولاً فصلاً يعمّ الحال والاستقبال، وأنّه لا يساومهم في الأُصول بشيء.

١ ـ ٦ سورة الكافرون : الآيات (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ).

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ).

التفسير

١. (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ):

أبتدأت خمس سور بلفظ «قل» أعني: سورة الجن، والكافرون، والتوحيد، والمعوذتين، ولاشكّ أنّ القرآن من أوّله إلى آخره هو من كلام الله سبحانه، وليس من كلام رسول الله، لقوله: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْم عَظِيم) يونس: ١٥ ..

ولكن تصدير هذه السور الخمس بلفظ «قل» كان لخصوصية في كلٍّ منها، أمّا المقام فلأجل أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) طلب منهم المهلة حتّى ينظر ما يأتيه من عند ربه؟ فلأجل التصريح بأنّ ما يتلوه كلام الله تعالى وليس كلامه ابتدأ بلفظ «قل» حاكياً عن أنّ الأمر صادر عن الله سبحانه لا عن غيره، فأمر أن يقول: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ).

وحقيقة الأمر أنّ الدعوة الإسلامية في أيامها الأُولى لم تكن أمراً ذا خطر على قريش وصناديدها، ولذلك لم يقابلوها بشدّة وعنف، ولكن لمّا تطوّر أمر الدعوة ودخلت بيوتهم واستجاب لها الشباب منهم، فعندئذ أحسّوا بالخطر وأنّها أخذت تهدد مصالحهم، لذلك صاروا يخططون لوضع العلاج من أجل إيقاف عجلة الدعوة، ومن خططهم ما أشارت إليه هذه السورة وهو المشاركة في دين الإسلام ودين الشرك ذاهلين عن أنّ هذه المصالحة أمر غير ممكن، فإنّ دين التوحيد مبني على رفض أي معبود سوى الله تعالى، فكيف يمكن أن يكون حنيفياً موحّداً وفي الوقت نفسه ساجداً أمام الوثن والصنم؟!

ثم إنّه سبحانه أمره أن يتلو على الكافرين ما يدخل على قلوبهم اليأس، ويغلق الطريق أمامهم، وأنّه لا يحصل هذا التصالح، ولذا قال:

٢ ـ ٥. (لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

وليس هناك كلام أوضح لغلق باب طمعهم لمشاركة النبي لهم في دينهم، ممّا جاء في هذه الآيات ولأجل التأكيد على التيئيس وقطع طمعهم تماماً، ذكر كلاًّ من المعنيين مرتين.

أمّا المعنى الأوّل أي تنزّهه من أن يعبد آلهتهم فقد آيسهم بالآيتين التاليتين:

لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ... وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ...

وأمّا المعنى الثاني: أي الإخبار بعنادهم وبقائهم على الشرك إلى آخر عمرهم، فقد أخبر عنه بالآيتين التاليتين:

وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ

وبذلك يُعلم ما هو وجه التكرار، وهو أنّ الغاية بيان استحالة اللقاء والمساومة بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وقطع أي صلة بين التوحيد والشرك، ولذلك كرّر هتافه وخطابه في تقرير المعنى الأوّل.

ثم كرر خطابه في تقرير المعنى الثاني إيعازاً بأنّهم يبقون على الشرك ولا يعملون بما اقترحوه، والتكرار في هذه المواضع أمر موافق للبلاغة، ومن نظائره قوله سبحانه: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) القيامة: ٣٤ ـ ٣٥.، وقوله تعالى:

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً) الشرح: ٥ ـ ٦..

وما أكثر التكرار في سورة الرحمن، في قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، وقوله سبحانه: (وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) القمر: ١٧.، فقد تكررت هذه الآية في سورة القمر أكثر من مرّة.

يقول الطبرسي: إنّ القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتهم تكرير الكلام للتأكيد والإفهام، وهذا أولى المواضع بالتأكيد لأنّ الكافرين أبدوا في ذلك وأعادوا، فكرّر سبحانه ليؤكّد يأسهم وحسم أطماعهم بالتكرير. مجمع البيان: ١٠ / ٨٧٤.

ثم إنّ صاحب الكشّاف اختار عدم التكرار، وأنّ بين الفقرتين الأُوليين والفقرتين الأخيرتين فرق، وهو أنّ قوله سبحانه: (لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)أُريدت به العبادة فيما يستقبل ؛ لأنّ «لا» لا تدخل إلاّ على مضارع في معنى الاستقبال، والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه منّي من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

هذا في الآيتين الأُوليين.

وأمّا الآيتان الأخيرتان أعني:

(وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)، فترجعان إلى الماضي، فمعنى قوله: (وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ): أي ما كنت قطّ عابداً ـ فيما سلف ـ ما عبدتم فيه، أي لم تعهد منّي عبادة صنم في الجاهلية، فكيف تُرجى منّي في الإسلام (وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ): أي وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

هذه خلاصة كلامه بتنظيم منّا، ولكنّه أمر لا دليل عليه، فما ذكرناه هو الأَولى، نعم ذكر الزمخشري في ذيل كلامه شيئاً لا يناسب مقامه وهو غفلة عن تاريخ حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وحاصله: أنّه طرح سؤالاً وقال: لو كانت الآيتان الأخيرتان راجعتين إلى المضيّ فلماذا قال: (وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)بل لازم ذلك أن يقول: «ولا أنتم عابدون ما عبدت» كما قيل في الفقرة المتقدّمة كذلك: «عبدتم».

ثم أجاب عنه بقوله: إنّهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو (صلى الله عليه وآله وسلم)لم يكن يعبد الله في ذلك الوقت. تفسير الكشّاف: ٣ / ٣٦٣.

ولا يخفى ما في كلامه من الجهل بحياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّه كان يتحنّث في حراء طيلة سنين قبل أن يبعث بالنبوة، فقد كان يعبد الله موحّداً له وإن لم تكن عبادته آنذاك كعبادته بعد النبوّة.

ولقد وصفه الإمام علي (عليه السلام): وهو أوّل خريج لمدرسة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». نهج البلاغة، الخطبة : ١٩٢.

فهل يصحّ لمن يقرن بهذا الملَك أن لا يكون عابداً لله قبل البعثة؟

ثم إنّه يستفاد من بعض أسباب النزول أنّ بيان الكلام بصور أربع مع أنّه تكفي صورتان لأجل المقابلة لما ورد في كلام قريش حيث إنّهم كرّروا السنة أربع مرّات وقالوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فأجابهم بمثل ما قالوا، فقال فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)، وفيما قالوا: نعبد إلهك

سنة (وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)، وفيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: (وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ)، وفيما قالوا: ونعبد إلهك سنة: (وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ) تفسير نور الثقلين: ٥ / ٦٨٨، عن تفسير علي بن إبراهيم، رواها عن الإمام الصادق (عليه السلام)..

٦. (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ) :

الظاهر أنّ الدين هنا بمعنى العقيدة والملّة فتجري أعماله على وفق دينه، ولذا فسّره ابن عباس بقوله: لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص له.

وربّما يستظهر من الآية معنى مخالفاً للأُصول وهو أنّه سبحانه في هذه الآية فتح المجال لعامّة الديانات وأن لكلٍّ دينه، فلا معنى لإلزام المشرك على التوحيد، أو إلزام الكتابي على الاهتمام بظواهر الشرع.

ولكنّه استنتاج باطل، إذ ليس الآية بصدد بيان قبول التعدّدية الدينية (بلوراليزم) مع أنّه سبحانه يقول في آيات أُخرى: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا) البقرة: ١٣٧ ، فإنّه سبحانه علّق إيمان أهل الكتاب بإيمانهم بما نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

بل أنّ المراد من هذه الآية: بيان الفارق الكبير بين الاعتقادين، والانفصال التامّ بين المنهجين، ومن ثم لا يبقى أي مجال لتعليل النفس بأمل الالتقاء ونسج خيوط الاتصال بين أتباع المنهجين: منهج التوحيد، ومنهج الشرك.

وأين هذا من التعدّدية الدينية وإمضاء دعوة كلّ داعٍ؟ والتفصيل في محلّه.

إنّ للرازي في المقام كلاماً لا يليق بمقامه قال: جرت عادة الناس بأن يتمثّلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز لأنّه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثّل به بل ليتدبّر فيه، ثم يعمل بموجبه. تفسير الرازي: ٣١ / ١٤٨ .

وكأنّه ذهل عن أنّ التمثّل بالآية، لا ينافي التدبّر فيها لو لم يكن مؤكّداً له.

تمّ تفسير سورة الكافرون

١١٠- سورة النصر

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى السورة في المصاحف وفي التفاسير بسورة «النصر» وتسمّى أيضاً بسورة: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَ الْفَتْحُ).

وربّما تُسمّى بسورة (التوديع) لما يُفهم منها من انتهاء عمل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)في مجال الرسالة، بعد أن نال النصر والفتح معاً، وظاهر ذلك أن يعقبه دنوّ الأجل، والالتحاق بالرفيق الأعلى.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ثلاث، كسورة الكوثر والعصر إلاّ أنّ آياتها أطول منهما، وهي مدنية بالاتّفاق. وسيوافيك وقت نزولها.

أغراض السورة

وعد الله سبحانه رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)بالانتصار على الأعداء، وفتح قلعة الشرك (مكّة)، ودخول الناس في دين الإسلام أفواجاً مكان دخولهم فرداً بعد فرد، وكانت القبائل تأتي المدينة المنورة مظهرين إسلامهم عامّة، بحجّة أنّ محمداً إذا ظفر بأهل الحرم وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فهو دليل على أنّ دعوته دعوةٌ حقّة فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجاً.

المفردات

النصر: والنصرة: العون.

الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، كفتح القفل.

وقد ذكر سبحانه النصر مقروناً بالفتح وعطف الثاني على الأوّل، فعلى هذا فالمراد من النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح هو نفس المطلوب.

وعلى هذا فالنصر سبب والفتح مسبب.

كما ذكر سبحانه التسبيح مقروناً بالحمد فقال: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)، إذ معناه فسبّح مع حمد ربك فإنّ الباء بمعنى «مع». واللام في (الْفَتْحُ) هي للعهد، وهذا يدلّ على أنّ المراد به الفتح المعهود بين الله سبحانه ونبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما سيوافيك.

التفسير

١. (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) :

الظاهر أنّ جواب الشرط هو قوله: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)، وأمّا ما ربما يقال بأنّ الجواب قوله: حضر أجلك، فهو بعيد إذ يجب أن توجد بين الشرط والجزاء ملازمة عقلية أو عرفية، مع أنّه لا ملازمة بين مجيء النصر وحضور الفتح وبين قرب أجله، إلاّ بمقدمة خفيّة على أكثر الناس، وهي: أنّ حصول النصر ووقوع الفتح دليل على انتهاء عمله في مجال تبليغ الرسالة، فكأنّه فرغ من مهمته فيلزم أن يلبّي دعوة ربه، وهو كماترى لا يقفُ عليه إلاّ المتعمّق .

ثم إنّه سبحانه نسب النصر إلى الله مع أنّه كان للمسلمين دور في تحقيق النصر وتحرير عاصمة الشرك.

ووجهه واضح لأنّهم لم يظهروا عليها إلاّ بقوة وعون من الله سبحانه، ولذلك يقول: (وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) آل عمران: ١٢٦ ..

ثم إنّ المراد من الفتح هو فتح مكّة الّذي أوجد هزّة في أرض الجزيرة، حيث رأى الوثنيون افتتاح قلعتهم العظيمة فصار ذلك سبباً للدخول في دين الله.

واللاّم في قوله: (الْفَتْحُ) إشارة إلى الفتح المعهود، فيقع الكلام في تعيينه، ولا يتّضح ذلك إلاّ ببيان حوادث السنوات الثلاث: السادسة والسابعة والثامنة من الهجرة على وجه التلخيص.

رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في منامه أنّه دخل المسجد الحرام ومن معه من المسلمين وقد حلقوا رؤوسهم وقصّروا، فأخبر بمنامه المسلمين وجاء الوحي: (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) الفتح: ٢٧ ..

وعند ذلك أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أصحابه بالاستعداد لأداء مناسك العمرة في أواخر السنة السادسة، وأمرهم أن لا يحملوا إلاّ سلاح المسافر، وقد أحرم معه (صلى الله عليه وآله وسلم) جماعة كثيرة يناهز عددهم ١٨٠٠ مسلم.

ولمّا وقفت طليعة قريش بمسير رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)نحو مكة، اتّفقوا على منعه ومنع أصحابه من الدخول إلى الحرم، وذلك في أرض الحديبية الّتي هي أدنى الحِلّ، وبالتالي المنع عن أداء العمرة.

وبعد مفاوضات ومحادثات اتّفق الطرفان على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وأصحابه سيرجعون في هذه السنة إلى المدينة ويعودون إلى أداء العمرة في السنة القادمة (أي السابعة من الهجرة) وقد عقدت بينهما اتفاقية ضمن بنود في أرض الحديبية وسمّيت بصلحها.

وعند ذلك بدت بعض البوادر في أذهان المسلمين في صدق رؤيا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّه كيف يقول سبحانه: (صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا)مع أنّهم لم يدخلوا المسجد الحرام ذاهلين عن أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لم يعيّن سنة تحقّق الرؤيا، ولكن

تعلّقت مشيئته سبحانه على تحقّقها في السنة القادمة أي السابعة، فقد توجّه المسلمون فيها إلى زيارة بيت الله الحرام وأداء المناسك ولقاء الأحباب وذلك في شهر ذي القعدة الحرام وسمّيت هذه العُمرة بعمرة القضاء، لأنّها كانت بدلاً عن العمرة الّتي مُنع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)والمسلمون عنها في عام الحديبية، وعند ذلك تحقّق مفاد الآية السابقة.

فتح مكّة

اشتملت اتفاقية الحديبية على بنود منها أن لا تُعين قريش على محمد وأصحابه أحداً بنفس ولا سلاح بحار الأنوار: ٢٠ / ٣٥٢ ..

غير أن قريشاً نقضت هذا البند من الاتفاقية، وذلك أنّ خزاعة كانت من حلفاء المسلمين، وبنو بكر من حلفاء قريش، وقد وقعت الحرب بين هاتين الطائفتين، ومقتضى الاتفاقية هو أن لا تعين قريش حلفاءَها على حلفاء المسلمين، ولكن بما أنّ المشرك لا عهد له ولا أيمان، نقضوا عهدهم وساعدوا حلفاءهم بالسلاح والأنفس.

وعند ذلك لم يجد المظلومون من خزاعة بُدّاً من إبلاغ مظلمتهم إلى رسول الله، فوفد رئيسهم عمرو بن سالم المدينة، وذكر ما جرى عليهم من القتل الشنيع وأنشد أبياتاً يستغيث فيها برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولمّا ثبت عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّهم نقضوا عهدهم، أعلن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)عن التعبئة العامة لفتح أقوى قلعة من قلاع الوثنية (مكّة) وتحريرها من قبضة قريش الظالمة الّتي كانت تمثل أشدّ عقبة على طريق انتشار الدعوة الإسلامية، فسار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وسائر القبائل ، ولكلّ كتيبة عملهم الخاص، وذلك في اليوم العاشر من شهر رمضان في السنة الثامنة، فلما وصلوا مشارف مكّة حاصروها ، فلم تجد قريش مخلصاً إلاّ الاستسلام بدون إراقة دم وإزهاق روح.

إنّ من الطبيعي أن يتحدّث أهل مكّة في أنفسهم وهم يتذكّرون معاداتهم الشديدة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وجرائمهم الكبرى بحقّه، ويقول بعضهم: سيقتلنا حتماً، ويقول البعض الآخر: يقتل فريقاً منّا.

وبينما كانت تخيّم عليهم تلك التصوّرات والمخاوف، قام رسول الله إلى جوار الكعبة، وقال: لا إله إلاّ الله وحده ؛ صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل بكم؟

قالوا ـ وهم يعرفون سمّو خلق النبي وكرمه ـ : خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم .

قال (صلى الله عليه وآله وسلم): اذهبوا فأنتم الطلقاء. فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم. انظر: الكامل في التاريخ: ٢ / ٢٣٩ ـ ٢٥٢ .

هذا ملخص واقعة فتح مكّة، وقد ارتجّت الجزيرة العربية بانتشار هذا الخبر، فوفدت القبائل إلى المدينة المنوّرة لإظهار الإسلام فوجاً بعد فوج.

ثم إنّه سبحانه يخبر عن هذه الواقعة الكبيرة المثمرة في المستقبل بقوله: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ).

وعلى هذا فقد نزلت السورة في السنة الثامنة، قبل فتح مكّة.

وفيها إخبار غيبي عن سيطرة الإسلام على ربوع جزيرة العرب عن قريب. وبذلك يتّضح معنى الآية الثانية.

٢. (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً) :

وهذه الرؤية ليست رؤية علمية، بل رؤية بصرية، فقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وفود الأفواج من القبائل إلى المدينة، حتّى سمّي ذلك العالم بعام الوفود.

وقد تسابقت العرب إلى إعلان إسلامها، وقدمت وفودهم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما كانوا ينتظرون بإسلامهم قريشاً، قائلين: إذا ظفر (محمد) بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، ثم أخذوا يدخلون الإسلام أفواجاً من غير قتال.

والمراد بدين الله هو الإسلام، قال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ) آل عمران: ١٩..

٣. (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) :

أمره سبحانه بالتسبيح المقارن للحمد والاستغفار.

وبعبارة أُخرى: أمره بأُمور ثلاثة:

١. التسبيح.

٢. التحميد.

٣. الاستغفار.

ولكلٍّ وجه وسبب.

أمّا التسبيح فهو تنزيهه سبحانه عن الجسم والجسمانيات والأُمور القبيحة، وأمّا الحمد فهو وصفه بصفات الجمال والكمال، وبما أنّ هذا الفتح كان مشتملاً على إبطال الباطل وإحقاق الحق، ناسب الأمر تسبيحه لأجل إبطال الباطل، وحمده وثناؤه لأجل إحقاق الحق، ولذلك أمره بالتسبيح المقارن للحمد.

وأمّا سبب الأمر بالاستغفار فهو لغاية تنزيه نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)عن الزهو بالنصر والفرحة بالظفر بعد طول الكفاح، فلاشكّ أنّ الاستيلاء على قلعة الشرك مع ما لها من أعوان وأنصار يوجد في النفس شيئاً بالنسبة إلى المستولي مهما كان إنساناً معصوماً، فلأجل رفع هذا الغبار عن نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم)أمره بالتسبيح، معلّلاً بأنّه غفّار يقبل استغفار المستغفرين، وتوّاب يقبل توبة التائبين.

نقل الطبرسي عن مقاتل، قال: لمّا نزلت هذه السورة قرأها (صلى الله عليه وآله وسلم)على أصحابه ففرحوا واستبشروا، وسمعها العباس فبكى فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): ما يبكيك يا عمّ؟ فقال: أظن أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله.

قيل: وإنّما فهم بعض الصحابة من السورة نعي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأنّه عند الكمال يُرقب الزوال، كما قيل:

إذا تمّ أمرٌ بدا نقصُهُ *** توقَّعْ زَوالاً إذا قيل تمّ

وعن أُمّ سلمة، قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)بالآخرة لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلاّ قال: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فسألناه عن ذلك فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): إنّي أُمرت بها، ثم قرأ: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ).

وعن ابن مسعود، قال: لمّا نزلت السورة كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)يقول كثيراً: سبحانك اللّهُمَّ وبحمدك، اللّهُمَّ اغفر لي إنّك أنت التواب الرحيم. انظر: مجمع البيان: ١٠ / ٨٤٤ ـ ٨٤٥.

وفي الختام نذكر ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره، قال: نزلت سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) بمنى في حجّة الوداع، فلما نزلت قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «نعيت إليّ نفسي» فجاء إلى مسجد الخيف فجمع الناس ثم قال: نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وبلّغها من لم يسمعها، فربّ حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم؛ إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم،... أيّها الناس إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ولن تزلوا؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كاصبعيّ هاتين» وجمع بين سبابتيه «ولا أقول كهاتين» وجمع بين سبابته والوسطى «فتفضل هذه على هذه». تفسير علي بن إبراهيم القمي: ٢ / ٤٤٧.

تمّ تفسير سورة النصر

١١١- سورة المسد

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة بأسماء مختلفة نظير: سورة (المسد)، سورة (تبّت)، سورة (أبي لهب)، إلى غير ذلك، وهذا ليس بمهم بعد معرفة كونها ليست توقيفية.

عدد آياتها ومحلّ نزوها

آياتها خمس بالإجماع، وهي مكّيّة بالاتّفاق.

أغراض السورة

تهدف السورة إلى الإخبار عن هلاك أبي لهب وزوجته وأنّ ما جَمع من الأموال لا ينفعه شيئاً، وأنّهما سيموتان كافرين، وقد جاء هذا الإخبار بصيغة الدعاء.

المفردات

التبّ، والتباب: الخسران المؤدّي إلى الهلاك.

الصلي: صلى فلاناً النار: أدخله إيّاها.

اللهب: اضطرام النار، واللهيب ما يبدو من اشتعال النار.

المسد: الحبل من الليف، جمعه أمساد.

١ ـ ٥ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *.... فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ).

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ).

التفسير

١. (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ):

يعني: خسرت يداه وخسر هو، وإنّما نُسب الخسران إلى اليدين، لأنّ أكثر العمل يكون بهما، والمراد خسر عمله وخسرت نفسه بالوقوع في النار.

وربما يقال: إنّ تكنيته بأبي لهب يستلزم أن يكون له ولد اسمه لهب مع أنّه لم يكن له ولد بهذا الاسم .

يلاحظ عليه: بأنّه لم يقصد بذلك كنيته الّتي اشتهر بها، وإنّما قصد إثبات النار له، وأنّه من أهلها، وسمّاه بذلك كما يسمّى المباشر للحرب بأبي الحرب وأخي الحرب.

وربّما يقال: إنّه كانت كنيته بين الناس، وإنّما سُمّي بذلك لحسنه وإشراق وجهه وكانت وجنتاه كأنهما تلتهبان . مجمع البيان: ١٠ / ٨٥٢ .

وربما يقال: إنّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)هو نبي الرحمة وصاحب الخلق العظيم، فكيف يليق به أن يشافه عمّه بهذا التغليظ الشديد.

والجواب: أنّ الدعاء عليه بالتباب والخسران كان من الله سبحانه، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)حاك لكلامه تبارك وتعالى.

أضف إلى ذلك: أنّه لو وقف إنسان على مدى إيذاء هذا الطاغية العنيد وامرأته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)طيلة بعثة النبي قبل الهجرة، لما استغرب ذلك، بل ربّما يقضي بأنّه يستحق أكثر من هذا. وها نحن نذكر شيئاً من أعماله المشينة الّتي واجه بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

أوّلاً: لمّا نزل قوله سبحانه: (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) الشعراء: ٢١٤ . ، أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)علي بن أبي طالب أن يعدّ طعاماً ولبناً، وأن يدعو له بني عبدالمطلب، ليبلّغهم ما أُمر به، فلمّا انتهوا من الطعام، وهم يومئذ نحو أربعين رجلاً، وأراد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أن يكلّمهم، بدره أبو لهب إلى الكلام، فقال لَهَدّ (لهدّ: كلمة يُتعجّب بها.) ما سحركم به صاحبكم، فسكت النبي ولم يتكلّم، وتفرّق القوم ذلك اليوم. مجمع البيان: ٤ / ٢٠٦ .

وربما قيل: أنّه دعاهم إلى التوحيد ورسالته .

فقال أبو لهب: فما لي إن أسلمت؟

فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ما للمسلمين.

فقال: أفلا أفضل عليهم.

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): بماذا تفضل؟

فقال: تباً لهذا الدين يستوي فيه أنا وغيري.(تفسير الرازي: ٣٢ / ١٦٦ .)

ثم دعاهم في اليوم الثاني، وألقى فيهم خطبته التاريخية، ثم ضمن لمن يؤازره منهم أن يجعله أخاه في الدين، ووصيّه بعد موته، فأمسكوا كلّهم، وأجابه عليٌّ وحده. تاريخ الطبري: ٢ / ٦٢؛ والكامل في التاريخ: ٢ / ٦٢ ـ ٦٣، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٤٤ .

ثانياً: لمّا نزل قوله سبحانه: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) الحجر: ٩٤ ـ ٩٥ .وقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)على صخرة عند جبل الصفا ونادى بصوت عال: يا صباحاه (وهي كلمةٌ كانت العرب تطلقها كلّما أحسّت بخطر، أو بلغها نبأ مرعب فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الإنذار) فلفت نداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)هذا نظر الناس فاجتمع حوله جماعة من أبناء القبائل المختلفة وقالوا له: ما لك؟

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): أرأيتكم إن أخبرتكم أنّ العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني؟

قالوا: بلى.

قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

ثم قال: إنّما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه إلى أهله، فجعل يهتف: واصباحاه.

فبينما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)يتكلّم مع القوم ويقول لهم: قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا، فإذا برجل خلفه يرميه، وقد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيّها الناس إنّه كذاب لا تصدّقوه.

فقيل: مَن هذا؟ فقالوا: هو محمد، يزعم أنّه نبي، وهذا عمّه أبو لهب يزعم أنّه كذاب. السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ١ / ١٩٤؛ مجمع البيان: ١٠ / ٨٥٢ .

ثالثاً: كان إذا وفد على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وفد سألوا عمّه عنه، وقالوا: أنت أعلم به، فيقول: إنّه ساحر، فيرجعون عنه ولا يلقونه. فأتاه وفد فقال لهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتّى نراه.

فقال: إنّا لم نزل نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً، فأُخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بذلك، فحزن ونزلت السورة.

رابعاً: أنّ أبا لهب كان هاشميّاً، وهو ابن عبدالمطلب وأخو أبي طالب، وعمّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، روى أبو سعيد الخدري قال: قال رسول

الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «بعثت ولي أربع عمومة، فأما العباس فيكنى بأبي الفضل ولولده الفضل إلى يوم القيامة، وأما حمزة فيكنى بأبي يعلى فأعلى الله قدره في الدنيا والآخرة، وأما عبدالعزى فيكنى بأبي لهب فأدخله الله النار وألهبها عليه، وأما عبد مناف فيكنى بأبي طالب فله ولولده المطاولة والرفعة إلى يوم القيامة» ؛ الدر المنثور للسيوطي: ٦ / ٤٠٩؛ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ٦٦ / ٣١٢ .لكنّه تزوّج من البيت الأموي، وزوجته هي: أُمّ جميل بنت حرب، أُخت أبي سفيان بن حرب وعمّة معاوية، وكانت في غاية العداء لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد تأثّر أبو لهب بزوجته كثيراً، وإلاّ فإنّ كون الرجل هاشمياً يقتضي ـ وفق التقاليد العربية الجاهلية في الانتصار للقريب ـ أن لا يبلغ عداءه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)هذه المرتبة، بل يتركه وشأنه على أقلّ تقدير.

إنّ أُمّ جميل كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها ليلاً في طريق رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

هذه نماذج من صور العداء السافر الّذي يستحق أن يدعى عليه بأشدّ العذاب والعقاب.

٢. (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ):

أي ما نفعه ولا دفع عنه عذابَ الله، مالُه، ولا كسْبُه.

٣. (سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَب) :

أي يدخل ناراً ذات قوة واشتعال تلتهب عليه وهي نار جهنم، وفي هذا دلالة على صدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وصحّة نبوته ؛ لأنّه أخبر عن أنّ أبا لهب سيموت على كفره، وكان كما قال.

تحدّث التاريخ عن عدم إغناء (مَا كَسَبَ)

هلمّ معي ندرس التاريخ، وأنّه كيف يحدّثنا عن عدم إغناء ما كسبه أبو لهب من المال عنه، يقول ابن هشام حول غزوة بدر الكبرى: تجهّز الناس سراعاً للخروج وأوعبت قريش فلم يتخلّف من أشرافها أحد، إلاّ أنّ أبا لهب بن عبد المطلب تخلّف وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المُغيرة، وكان قد احتبس له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها فاستأجره بها على أن يجزئ عنه، بعثه فخرج عنه وتخلّف أبو لهب.

ثم قال: قال أبو رافع مولى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلّف رجلٌ إلاّ بَعث مكانه رجلاً، فلمّا جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله أي أذلّه الله ـ يعني: أبا لهب ـ وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاء وقد سرّنا ما جاء من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجرّ رجليه بِشَرّ، حتّى جلس على طُنُب الحُجرة، فكان ظهره إلى ظهري؛ فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذ أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ـ قال ابن هشام: واسم ابي سفيان المغيرة ـ قد قدم، قال: فقال أبو لهب: هلمّ إليّ، فعندك لعمري الخبر، قال: فجلس (إليه) والناس قيام عليه، فقال: يا بن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلاّ أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيمُ الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً، على خيل بلق، بين السماء والأرض، والله ما تُليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة ؛ قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربةً شديدة. قال: وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربةً فلعت في رأسه شجّة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده ؛ فقام مولّياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلاّ سبع ليال حتّى رماه الله بالعدسة والعدسة قرحة قاتلة كالطاعون، يقال: عدس الرجل إذا أصابه ذلك. وقيل: هي بثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطاعون تقتل صاحبها غالباً. لسان العرب: ٦ / ١٣٢، مادة «عدس». فقتلته. السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٦٠٩ ـ ٦١٠ .

قال الرازي: ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفناه حتّى أنتن ثم دفنوه، وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها كما يتقي الناس

الطاعون وقالوا: نخشى هذه القرحة ثم دفنوه وتركوه تفسير الرازي: ٣٢ / ١٧١ ..

وبهذا تبيّن عدم إغناء ما كسبه من المال عنه .

٤. (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) :

«الواو» عاطفة وامرأته معطوفة على الضمير المرفوع المستتر في (سَيَصْلَى)ويكون المعنى: سيصلى أبو لهب وامرأته ناراً ذات لهب ويدخلان ناراً ذات قوة.

ونَصَبُ (حَمَّالَةَ) إمّا لأجل أنّه حال من (امْرَأَتُهُ) أو وصف مقطوع عن الموصوف للذم، أي أذمُّ حمالة الحطب.

وهل المراد هو المعنى اللغوي لما عرفت من أنها كانت تحمل الشوك والعضاة فتطرحه في طريق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا خرج إلى الصلاة؟

أو أنّ المراد المعنى المكنّي حيث تمشي بالنميمة بين الناس فتلقي بينهم العداوة، وتوقد نارها بالتهييج كما توقد النار الحطب، فسُمّيت النميمة حطباً؟

ولكن الظاهر هو المعنى الأوّل لقوله سبحانه:

٥. (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَد) :

أي: في عنقها حبل من ليف، في نفس هذه الدنيا.

والجيد العنق، وغلب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محلّ القلادة منه.

ولعلّ الآية تشير إلى أنّ من شأن هذه المرأة أن تعلّق القلادة على جيدها، لكنّها علّقت حبلاً من ليف (وفيه خشونة).

سؤال وجواب

بقي هنا سؤال وهو أنّ الأشاعرة احتجّوا على وقوع التكليف بما لا يطاق بأنّ الله تعالى كلّف أبا لهب بالإيمان، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كلّ ما أخبر عنه وممّا أخبر عنه أنّه لا يؤمن وأنّه من أهل النار فقد صار مكلّفاً بأنّه يؤمن بأنّه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين، وهو محال. تفسير الرازي: ٣٢ / ١٧١ .

والجواب: أنّ أبا لهب بلغ من العصيان والطغيان درجةً أن خُتم على قلبه، فما كان يؤمن بعدها أبداً، ولذلك سقط التكليف بالإيمان لأجل الطغيان الّذي سلب عنه كلّ الإمكانات، فكان تكليفه بالإيمان تكليفاً لاغياً غير مفيد.

فإن قلت: فعلى هذا لا يصح تكليف الكافر الّذي عُلم عدم إيمانه .

قلت: فرق بين مَن لم تتمّ الحجّة عليه ومن تمّت عليه الحجة، فالطائفة الأُولى يجب في حقّهم ـ بمنطق العقل ـ تكليفهم بالإيمان حتّى تتم الحجّة عليهم وتكون حجة الله هي البالغة. يقول سبحانه: (وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَاب مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) طه: ١٣٤، فلأجل إفحام المشركين يجب إرسال الرسل وتبيين التكليف لعامّة البشر، من غير فرق بين مَن يؤمن ومن لا يؤمن، حتّى يتجرّد عن الاعتذار بالحجّة.

وأمّا الطائفة الثانية أي الّتي تمّت الحجة عليهم وبلغوا من العناد منزلة لا يُرجى بعدها إيمانهم وهدايتهم، فالتكليف ساقط لأجل هذا.

تمّ تفسير سورة المسدّ

١١٢- سورة الإخلاص

(قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ * اَللّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ).

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت بسورة «التوحيد» لأنّه ليس فيها إلاّ التوحيد وكلمته، وسُمّيت بسورة «الإخلاص» لأنّ مَن قرأها على سبيل التعظيم أخلصه الله من النار، وربما تُسمّى بسورة «الصمد»، إلى غير ذلك من الأسماء. وقد أنهى الرازي عدد أسماء السورة إلى عشرين اسماً . تفسير الرازي: ٣٢ / ١٧٦ .

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها أربع، وعند أهل مكّة والشام خمس، باعتبار عدّ (لَمْ يَلِدْ)آية، و (وَلَمْ يُولَدْ) آية أُخرى.

وهي مكّية، رُويّ عن جابر أنّ قريشاً قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): أنسبْ لنا ربّك، فنزلت (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ) إلى آخرها. مجمع الزوائد: ٧ / ١٤٦ ؛ المعجم الأوسط للطبراني: ٦ / ٢٥. وروه الترمذي في سننه: ٥ / ١٢١ ؛ تفسير سورة الإخلاص، وأحمد في مسنده: ٥ / ١٣٤ باسنادهما عن أُبي بن كعب.

لكن روى الكليني في «الكافي» بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) قال: «إنّ اليهود سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)فقالوا:

إنسب لنا ربّك، فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ثم نزلت: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ)» الكافي: ١ / ٩١ ح ١، باب النسبة من كتاب التوحيد..

وعلى هذا تكون السورة مدنية.

ويمكن الجمع بينهما بأنّ قراءة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)هذه السورة لليهود لا يلازم نزولها بعد السؤال. ولعلّها نزلت قبل أعوام لكن تلاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)عند سؤالهم عن الربّ. ولعلّه (صلى الله عليه وآله وسلم)أخّر الإجابة لأجل توقير الحكمة كما في غير هذا الموضع، أو كان لمصلحة أُخرى هو أعرف بها.

ويمكن أن يقال: إنّه تكرّر نزولها في مكّة والمدينة .

أغراض السورة

تهدف السورة إلى بيان وحدانيته سبحانه من جهتين:

١. بسيط لا كثرة فيه .

٢. واحد لا مثل له وأنّه لم يلد ولم يولد.

المفردات

«أحد»: أصله «وَحَد» فقلبت الواو ، همزة، ومثله أناة، فإنّ أصله «وناة». و «أحد» يستعمل على ضربين أوّلهما في النفي فقط، والثاني في الإثبات.

فأمّا المختصّ بالنفي فلاستغراق جنس الناطقين، ويتناول القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق، نحو: ما في الدار أحد، أي واحد ولا اثنان فصاعداً، لا مجتمعين ولا مفترقين.

وأمّا المستعمل في الإثبات فعلى ثلاثة أوجه:

الأوّل: في الواحد المضموم إلى العشرات نحو: أحد عشر.

والثاني: أن يستعمل مضافاً أو مضافاً إليه، بالمعنى الأوّل، كقوله تعالى: (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ) يوسف: ٤١ . .

والثالث: أن يستعمل مطلقاً وصفاً، وليس ذلك إلاّ في وصف الله تعالى في قوله: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ).(المفردات للراغب: ١٢، مادة «أحد».)

قال بعض المحقّقين: الواحد الفرد الّذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر، والأحد: الفرد الّذي لا يتجزأ ولا يقبل الانقسام. فروق اللغات، للسيد نور الدين الجزائري: ٥٠.

وفي «الفروق اللغوية» للعسكري: إنّ معنى «الواحد» أنّه لا ثاني له، فلذلك لا يقال في التثنية واحدان كما يقال رجل ورجلان. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري: ١٦٠. وكان عليه أن يذكر معنى «الأحد» أيضاً مثل ما ذكره بعض المحقّقين.

الصمد: السيد الّذي يُصمد إليه في الأمر، وقيل: الصمد الّذي ليس بأجوف المفردات للراغب: ٢٨٦، مادة «صمد»..

وقال ابن فارس: الصمد له أصلان:

القصد، والصلابة في الشيء معجم مقاييس اللغة: ٣ / ٣٩..

ولعلّ سائر المعاني اشتقّت من هذين المعنيين، ولذلك نرى أنّ الرازي قد ذكر له ثمانية معان، غير أنّ بعضها يرجع إلى البعض الآخر، وإليك ما ذكره من الوجوه:

١. الصمد هو العالم بجميع المعلومات.

٢. هو الحليم.

٣. هو السيد الّذي انتهى سؤدده.

٤. هو الخالق للأشياء.

٥. هو المقصود في الرغائب.

٦. هو الّذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

٧. هو السيد المعظم.

٨. أنّه الفرد الماجد لا يقضى في أمر دونه. تفسير الرازي: ٣٢ / ١٨١.

الكفؤ: الكفؤ في المنزلة والقدر، يقال: فلان كفؤ لفلان، في المناكحة والمحاربة، ويراد في المقام: المساواة في كلّ شيء.

التفسير

١. (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ):

أتى في مقام التعريف بكلمات ثلاث:

١. هو.

٢. الله.

٣. أحد.

فلنأخذ كلّ واحدة منها بالدراسة:

أمّا الأُولى: فالإتيان بضمير الغائب (هو) فلأجل الإشارة إلى المسؤول عنه، المعهود بين المتكلّم والمخاطب، كأنّه سبحانه يأمر رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)بأن يقول: «هو» أي: ما سألتم عنه هذا وصفه الّذي سنتلوه.

وربّما يقال: إنّ الإتيان بضمير الغائب لأجل الإشارة إلى أنّ ذاته المقدّسة في نهاية الخفاء، ولا تنالها أفكار الإنسان وإن كانت هذه الإشارة أظهر من كلّ شيء.

أقول: ما ذُكر صحيح في حدّ نفسه، ولكنّه لا يناسب الموضوع الّذي تتحدّث عنه السورة، لأنّها بصدد بيان رفع الإبهام والخفاء عن المسؤول عنه لا الدعوة إلى الخفاء.

وأمّا الثانية: أعني لفظ الجلالة (الله) فهو اسم للذات الجامعة لكلّ الأوصاف الكمالية والجمالية وله معادل في عامّة اللغات، يقصد به مبدأ الوجود ومصدره.

وأمّا الإله فهو وإن فُسّر بمعنى المعبود في أكثر التفاسير لكنّه ليس بصحيح، بل الإله ولفظ الجلالة بمعنى واحد غير أنّ الثاني علم لمبدأ العالم ومصدره، وأمّا الأوّل فهو كلّي وله مصاديق كثيرة عند الوثنيين، والكثرة نابعة عن اختلاف المصاديق عندهم في مراتب الكمال والجمال، ولذا يجمع الإله على آلهة، ولا يجمع لفظ الجلالة. وقد درسنا هذا الموضوع في موسوعتنا «مفاهيم القرآن» مفاهيم القرآن: ١ / ٤٨٧..

وأمّا الثالثة: أعني «أحد».

قد عرفت ما ذكره اللغويون حول لفظي الأحد والواحد، والّذي يمكن أن يقال: إنّه سبحانه كرر لفظة «أحد» في سورة الإخلاص ووصف نفسه بها مرّتين وقال: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)ثم قال: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)، فهل أُريد من اللفظة في كلا الموردين معنى واحد أو أُريد معنيان؟

وبعبارة واضحة: هل اللفظتان تشيران إلى قسم واحد من التوحيد، أو إلى قسمين؟

فالظاهر أنّ الآية الثانية ـ كما سيوافيك ـ ناظرة إلى التوحيد الذاتي بمعنى أنّه واحد لامثيل له ولانظير، بل لايتصوّر له التعدّد والاثنينية؛ وأمّا الآية الأُولى الّتي نحن بصدد تفسيرها فهي ناظرة إلى التوحيد الذاتي لكن بمعنى البساطة ونفي التجزئة عن الذات.

وقد فسّره الشيخ الصدوق بذلك في توحيده فقال: الأحد معناه أنّه واحد في ذاته أي ليس بذي أبعاض ولا أجزاء ولا أعضاء توحيد الصدوق: ١٩٦. ٢..

قال الطبرسي: الأحد هو الذي لايتجزأ ولاينقسم في ذاته ولا في صفاته(مجمع البيان: ٥ / ٥٦٤).

ويقول الجزائري في «فروق اللغات» في الفرق بين الواحد والأحد:

إنّ الواحد، الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر، والأحد الفرد الذي لايتجزّأ ولاينقسم. فروق اللغات: ٥٠ .

يقول العلامة الطباطبائي(رحمه الله):

«والأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد، غير أنّ الأحد إنّما يطلق على ما لايقبل الكثرة لاخارجاً ولاذهناً» الميزان في تفسير القرآن : ٢٠ / ٥٤٣..

وممّا يدلّ على صحّة الفرق المذكور ـ أعني: أنّ لفظ «أحد» وضع لبيان البساطة و نفي التركيب، و لفظ «الواحد» وضع لبيان نفي التعدّد و المثل ـ هو أنّه سبحانه حينما يردّ على عقيدة التثليث يصف الإله بالواحد دون الأحد، فيقول: (وَ لاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ)(النساء: ١٧١).

ويقول: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَة وَ مَا مِنْ إِلَه إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ) المائدة: ٧٣..

كما أنّه سبحانه عندما يردّ على الوثنية يستخدم كلمة الواحد أيضاً ويقول: (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) يوسف: ٣٩..

إذا عرفت ذلك فيكون قوله سبحانه: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) دليلاً على بساطة الذات المقدّسة، وأنّه ليس له جزء لا خارجاً و لا ذهناً و لا وهماً، بل هو بسيط في غاية البساطة، وليس ذا أبعاض ولا أجزاء ولا أعضاء.

والّذي يؤيّد ذلك ما روي عن الإمام علي(عليه السلام) في جواب أعرابي سأله يوم الجمل عن معنى: إنّ اللّهَ وَاحِدٌ؟، فقال(عليه السلام) في كلام مبسوط: «و أمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربّنا، و قول القائل: إنّه عزّ و جلّ أحديّ المعنى، يعني به أنّه لاينقسم في وجود و لا عقل و لا وهم، كذلك ربنا». توحيد الصدوق: ٨٣ـ ٨٤.

هل السورة ردّ على تثليث النصارى؟

يعتقد النصارى بوجود أقانيم ثلاثة: الإله: الأب، الإله: الابن، الإله: روح القدس؛ وفي الوقت نفسه يعدّون أنفسهم من أتباع الديانة الإبراهيمية التي يشكّل أساسها توحيده تعالى، إلاّ أنّهم لم يذكروا لهذا التثليث تفسيراً صحيحاً، ولكن يمكن تفسيره بأحد وجهين :

الأوّل: إنّ كل واحد من الأقانيم جزء من الأُلوهية، فاللّه سبحانه هو المركّب من هذه الأقانيم.

الثاني: إنّ كلّ واحد من الأقانيم الثلاثة إله مستقل متفرّد في الأُلوهية، فكلٌّ يملك مقام الأُلوهية مستقلاًّ.

فعلى التفسير الأوّل: يكون قوله سبحانه: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ردّاً على تلك النظرية، حيث إنّه سبحانه عندهم مركب لا بسيط، متجزئ منقسم ذو أبعاض وأجزاء فُرّد عليه بقوله: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ).

و البرهان القطعي أيضاً يردّ تركيب الذات، إذ معنى ذلك أنّ كل جزء ممكن، و الواجب هو المركّب، وفيه تناقض واضح ؛ لأنّ المركّب محتاج إلى الجزء، فإذا كان الجزء أمراً ممكناً فالمحتاج إليه محتاج بالضرورة. أضف إلى ذلك: أنّ الأجزاء المؤلّفة للذات الإلهية إمّا أن تكون «واجبة الوجود» فحينئذ سنقع في مشكلة «تعدّد الآلهة» التي يعبّر عنها في علم الكلام بتعدّد القدماء.

وإمّا أن تكون «ممكنة الوجود» و في هذه الصورة ستحتاج هذه الأجزاء إلى الغير ليوجدها، فيكون معنى هذا أنّ ما فرضناه «إلهاً» يكون معلولاً لأجزاء ذاته التي هي معلولة لموجود أعلى وبالتالي لا يكون إلهاً.

و أمّا على التفسير الثاني: أي كلّ واحد من الأقانيم يملك مقام الأُلوهية و أنّ كلاًّ إله تام، فيكون لله سبحانه كفواً و مثلاً، و هذا ما يُردّ عليه بما في آخر السورة، أعني قوله سبحانه: (وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ).

٢. (اَللّهُ الصَّمَدُ):

قد مرّ أنّ ابن فارس ذكر للصمد أصلين:

القصد، والصلابة في الشيء.

و مراده من القصد كونه تعالى المقصود في الحوائج و الرغائب، ولكن الظاهر أنّ المراد هو المعنى الثاني؛ و ذلك لأنّ الآيات بصدد بيان صفاته سبحانه الذاتية، و أنّه أحد، لا جزء له، أو واحد لا كفؤ له، فلايناسب جرّ البحث إلى صفاته الفعلية.

ثم إنّه قد عُبّر عن الصلابة ـ في أحاديث أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) ـ بعدم كونه أجوفَ.

١. روى الربيع بن مسلم قال: سمعت أبا الحسن [الكاظم] (عليه السلام) حين سئل عن الصمد؟ فقال: «الصمد الذي لا جوف له».

معاني الأخبار: ٦، باب معنى الصمد؛ وتفسير نور الثقلين: ٥ / ٧١٣.

٢. روى محمد بن مسلم عن أبي عبداللّه [الصادق](عليه السلام) قال : «إنّ اليهود سألوا رسول الله فقالوا: انسبْ لنا ربّك. فلبث ثلاثاً لايجيبهم ثم نزلت هذه السورة إلى آخرها»، فقلت: ما الصمد؟ فقال: «الّذي ليس بمجوّف». تفسير نور الثقلين: ٥ / ٧١٣.

٣. روى الحلبي و زرارة عن أبي عبداللّه(عليه السلام): «إنّ الله تبارك و تعالى أحد صمد ليس له جوف».(تفسير نور الثقلين: ٥ / ٧١٣.)

٤. روى هارون بن عبدالملك عن أبي عبداللّه(عليه السلام) أنّه قال في حديث طويل: «و الله نور لا ظلام فيه، وصمد لا مدخل فيه».

(تفسير نور الثقلين: ٥ / ٧١٣.)

نعم وردت روايات أُخرى ربما تفسّر الصمد بما لايخالف التفسير المذكور ـ مثلاً ـ روي أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي (عليه السلام) يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم: بسم اللّه الرحمن الرحيم، أمّا بعد: فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلّموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يقول: «مَن قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار، وأنّ الله قد فسّر الصمد فقال: الله أحد، الله الصمد، ثم فسّره وقال: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)، (لَمْ يَلِدْ)لم

يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة الّتي تخرج من المخلوقين (وَلَمْ يُولَدْ)لم يتولّد من شيء ولم يخرج من شيء».

تفسير نور الثقلين: ٥ / ٧١٣ ـ ٧١٤.

وعلى هذا فيمكن أن يكون الصمد دليلاً على أحد أمرين أو كليهما:

الأوّل: أنّه دليل على قوله: (لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ)فإنّ كون الشيء صلباً دون أن يكون في ذاته أجوف لا يمكن أن يلد ولا يولد ؛ لأنّ الولادة ـ أعمّ من الإيلاد أو التولّد ـ فرع وجود مرونة في الجسم، حتّى يخرج منه جزء، والمفروض أنّه صلب، أو فرع كونه أجوف حتّى يتولّد منه، فالصلابة وعدم الجوفيّة أفضل دليل على كونه لم يلد ولم يولد.

الثاني: أنّه دليل على عدم كونه جسماً، لأنّ الأجسام تتركّب من جزئيات، وهي تتركّب من ذرات، والذرات كلّها مجوّفة؛ لأنّ كلّ ذرة تتكوّن من نواة تدور حولها الالكترونات وبين النواة والالكترونات مسافة كبيرة نسبياً، ولو أُزيلت هذه الفواصل لصغر حجم الأشياء إلى حدّ كبير مدهش فنفي الفاصلة آية عدم كونه جسماً، لأنّه يلازم الفواصل والمفروض أنّه صلب ليس به جوف، وعندئذ تعدّ الآية من المعجزات العلمية أيضاً .

٣. (لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ):

القول بأنّ الله سبحانه ابن أو ولد لا يختصّ بطائفة دون أُخرى، فالمشركون من العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله لقوله سبحانه: (وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَات بِغَيْرِ عِلْم) الأنعام: ١٠٠..

وقال سبحانه: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى) النجم: ٢١ ـ ٢٢ . .

وهكذا أتباع الديانات السماوية كانوا يعتقدون بوجود الابن لله، فاليهود قالوا بأنّ عزير ابن الله، والنصارى قالوا بأنّ المسيح ابن الله، كما يحكيه عنهما الله سبحانه في كتابه المجيد. التوبة: ٣٠ .

إنّ القول بوجود الولد لله أو أنّه ولد من أتفه العقائد وأخرفها، ومَن يتفوّه بذلك فهو لم يتصوّر معنى الإله فإنّه الواجب الوجود، الّذي لا يتطرّق إليه العدم فكيف يمكن أن يكون معدوماً ثم يولد؟!

والإنسان يتعجب من هؤلاء العقلاء في الغرب كيف يحتفلون بميلاد المسيح باعتقاد أنّه ولد في هذه الليلة، وهو إله العالمين؟ فالولادة مع كونه إله العالمين متضادان لا يجتمعان!!

لاشكّ أن القائلين بمسألة الولادة في حقّه سبحانه لا يعنون بها الولادة المعروفة في الحيوانات، وهو أن ينفصل جزء من الأب ويلتقي بجزء من الأُم ويشكل خليّة تتكامل عبر الزمان، فلابد أن تفسّر الولادة عندهم بشكل آخر بأن ينفصل منه جزء حتى يصير له ولداً ويكون هو مولّداً، ويوصف الولد بأنّه مولود؛ لأنّ هذا الانفصال فرع كونه جسماً ذا أجزاء حتّى يتحقّق بانفصال الجزء مسألة الولادة.

ويظهر ما ذكرنا من بعض الروايات، وهو أنّ الولادة في المقام تشمل كلّ أنواع خروج الأشياء المادية أو اللطيفة منه، أو خروج ذاته المقدّسة من أشياء مادية أو لطيفة.

وفي الكتاب الّذي كتبه الحسين بن علي (عليه السلام)إلى أهل البصرة إشارة إلى هذا النوع من التولّد، الّذي هو معنى أوسع من الولادة عند العرف، قال: (لَمْ يَلِدْ) لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة الّتي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا يتشعب منه البداوات (الحالات المختلفة) كالسنة والنوم، والخطرة والهمّ، والحزن والبهجة، والضحك والكذب، والخوف والرجاء، والرغبة والسأمة، والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولّد منه شيء كثيف أو لطيف، (وَلَمْ يُولَدْ)لم يتولّد من شيء، ولم يخرج من شيء، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها، كالشيء من الشيء، والدابة من الدابة، والنبات من

الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، وكالنار من الحجر...» بحار الأنوار: ٣ / ٢٢٤ .

فعلى هذا فالآية ليست بصدد بيان نفي الولد فقط، بل بمعنى أوسع منه كما ورد في الرواية .

٤. (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) :

قد سبق أنّ قوله سبحانه: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ) لبيان نفي أيّ تركيب في الذات، أو كونه ذا أبعاض وأجزاء، وأمّا هذه الآية فهي بصدد نفي المثل والتعدّد.

وقد أكّد القرآن على توحيد الذات بهذا المعنى فقال سبحانه: (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)(آل عمران: ١٨ .).

وقال سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى: ١١..

وقد أقام الإلهيّون على وحدة وجوده وعدم المثل له، براهين واضحة ، منها البرهانان التاليان:

الأوّل: الوجود (غير المتناهي) لا يقبل التعدّد.

الثاني: الوجود المطلق لا يقبل التعدّد.

وقد أوضحنا هذين البرهانين في كتابنا مفاهيم القرآن مفاهيم القرآن: ١ / ٢٧٧ ـ ٢٨١ .. فلاحظ .

وفي الختام نذكر ما رواه الكليني باسناده عن الإمام زين العابدين (عليه السلام)وقد سئل عن التوحيد فقال: «إن الله عزوجل علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فانزل الله تعالى: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ) والآيات من سورة الحديد إلى قوله: (وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) الحديد: ٦ .فمن رام وراء ذلك فقد هلك» الكافي: ١ / ٩١، كتاب التوحيد، باب النسبة..

تمّ تفسير سورة الإخلاص

١١٣- سورة الفلق

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى السورة في أكثر المصاحف وكتب التفسير بـ : سورة «الفلق»، وربما تُسمّى مع سورة الناس بـ «المعوذتين».

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها خمس بالاتّفاق، وأمّا محلّ نزولها فقد اختلفوا في كونها مكّية أو مدنية، وروي أنّ النبيّ كان كثيراً ما يعوّذ الحسن والحسين (عليهما السلام)بهاتين السورتين . مجمع البيان: ١٠/٨٦٥ .

أغراض السورة

تعليم النبيّ(صلى الله عليه وآله) ـ وبالتالي عامّة المسلمين ـ التعوّذ بالله من الشرّ الذي يلقاه الإنسان من المخلوقات ، وقد جمع الله سبحانه الشرور في هذه السورة وختمها بالحسد ليُعلم أنّه أخسّ الطبائع، فليتعوذ منه بالله سبحانه.

المفردات

الفلَق: شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض، يقال: فلقته فانفلق، قال سبحانه: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ) الأنعام: ٩٦ ، وقال: (إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوَى)(الأنعام: ٩٥.)، وقال: (فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْق كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) الشعراء: ٦٣..

والمراد هنا اسم المصدر أي نفس الصبح، وسُمّي الصبح فلقاً ؛ لأنّ عموده ينفلق بالضياء عن الظلام.

والفَلَق: الخلْق كلُّه (وروي ذلك عن ابن عباس) التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .، باعتبار أنّ كلّ مخلوق يتولّد من غيره، وينفلق عنه .

الغاسق: قال الراغب: غسق الليل شدّة ظلمته، قال تعالى: (أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) الإسراء: ٧٨.. والغاسق: الليل المظلم. المفردات للراغب: ٣٦٠، مادة «غسق».

وقَب: يقب وقوباً، إذا دخل ، ومنه الوقبة: النقرة، لأنّه يدخل فيها.

النفّاثات: من النفْث وهو شبيه بالنفخ، وأمّا التفل فنفخ بريق. وهذا هو الفرق بين النفث والتفل.

الحاسد: هو مَن يتمنّى زوال النعمة عن صاحبها، ولم يردها لنفسه، وهو وصف مذموم ؛ ويقابله الغابط، وهو أن يغبط غيره، أي يريد من النعمة لنفسه مثل ما لصاحبها ولم يُرد زوالها عنه. والغبطة صفة محمودة.

التفسير

١. (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ):

أمر سبحانه نبيّه الكريم(صلى الله عليه وآله) أن يتعوّذ بربِّ الفلق، وليس ربُّ الفلق إلاّ الله سبحانه، ولعلّه خصّ هذا الوقت (الصبح) بالذكر، لأنّه أفضل الأوقات من الناحيتين الدنيوية والأُخروية. أمّا من الناحية الدنيوية فباعتبار أنّ انفلاق الصبح أمر عجيب إذ يحصل الضوء في ظلام دامس، ثم يندرج إلى أن يصبح نهاراً، وتتكرر هذه الحالة في كلّ يوم، ففي ذلك عبرة وفضل من الله تعالى.

وأمّا من الناحية الأُخروية، فلما هو معروف في الشريعة من أنّ ما بين الطلوعين أفضل الأوقات للتوجّه والذكر والدعاء. منّة المنّان للسيد الشهيد محمد بن محمد صادق الصدر: ٦٨ .

ثم إنّه سبحانه أمر نبيّه بالتعوّذ من أُمور أربعة:

١. شرّ ما خلق

٢. شرّ غاسق إذا وقب

٣. شرّ النفاثات في العقد

٤. شرّ حاسد إذا حسد

و إليك دراسة الجميع.

٢. (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ):

أي ممّا يأتي من المخلوقات من شرّ وسوء قد يقع على الإنسان ، وممّا يجب التعوّذ بالله سبحانه منه، هو النفس الأمّارة بالسوء، كما قال نبيّ الله يوسف (عليه السلام): (وَ مَا أُبَرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) يوسف: ٥٣..

ثم إنّه يقع الكلام في أنّه سبحانه هل خلق الشرّ في المخلوقات، بحيث يكون الشر متعلّقاً بالخلق أو أنّ الشر أمر نسبيٌّ ينبع من استعمال ما خلق في غير محلّه، مثلاً أنّ مخالب السباع وأنيابها وسيلة دفاعية، فتكون منزلتها منزلة السلاح في يد الإنسان، فلو استخدم في محلّه فهو خير، وإذا استخدم في غير محلّه فهو شرّ، فلا يكون الشر متعلّقاً بالخلقة ابتداءً ومباشرة.

وثمّة آراء عديدة في تفسير الشرّ، لا يتسع المجال لبحثها هنا .

٣. (وَ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ):

أي من الشرّ الحاصل في الليل إذا جنّ ظلامه، وإنّما ذكره بالخصوص لِما تشرئبّ فيه من أشياء تثير مخاوف الإنسان: من وحوش،

ولصوص، وأعداء، وأمراض، وهموم وأشجان، وذكر الليل هنا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، فالليل بما هو زمان ليس بشرٍّ، وإنّما هو كالنهار من نعم الله سبحانه، وإنّ الشرَّ راجع إلى من يستغل ظلمة الليل ويُفسد.

٤. (وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ):

و هذا أيضاً من مقولة عطف الخاص على العام، والمراد بالنفاثات ـ كما عليه المشهور ـ : النساء الساحرات اللاتي يسحرن بالعقد. فإذا أردن سحر إنسان أخذن خيطاً ولم يزلن يعقدن عليه عقدةً بعد عُقدة ويَقرأن الرُّقية في تلك العقد. قيل: ووجه التأنيث، لأنّ هذه الصناعة كانت تعرف بالنساء، لأنّهنّ يعقدن وينفثن، فكنّ يحسبن أنّ السحر مستمر مادامت العقود معقودة.

وقال أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المعتزلي (المتوفّى ٣٢٢ هـ): (العُقَد: عزائم الرجال، والنَّفْثُ: حلّها، لأنّ من يريد حلّ عقدة الحبل، ينفث عليه بريقه، يقذفه عليه، ليصير حلّه سهلاً)، والمعنى: أنّ النساء يتصرّفن في عزائم الرجال، يحوّلنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتعوّذ من شرّهنّ. غرائب القرآن: ١١ / ٥٧٨ .

وقال غيره: العُقَد، هي عقود الصداقة والتواصل بين الأشخاص أو المجتمعات، والنفث فيها التسبّب إلى إزالتها، بإيغار الصدور، وإثارة النفوس، وإيقاد نار العداوة بين الناس، ولهذا دعا الله سبحانه إلى الاستعاذة من شرّ تلك الأفواه الآثمة الّتي تنفث سمومها في العُقَد الموثّقة بين الأشخاص والمجتمعات. لتوهينها والتمهيد لحلّها . انظر: التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب: ١٦ / ١٧٢٣ ؛ ومنّة المنّان: ٧٨ .

قيل: المراد بالنفّاثات: النفوس الخبيثة، والأرواح الفاسدة، سواء تعلّقت بالرجال أو بالنساء. التفسير القرآني للقرآن: ١٦ / ١٧٣٤ .

هذا، وقد زعم بعض المفسّرين إلى أنّ سورة الفلق نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ليسترقي بها من السحر الّذي أصابه..

وقد استند هؤلاء إلى ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من رواية السحر الّذي يُدّعى أنّه أصاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

روى البخاري عن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة، قالت: «سَحَرَ رسولَ الله (صلى الله عليه وآله وسلم)رجلٌ من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتّى كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يُخيَّل إليه أنّه كان يفعل الشيء وما فعله...»!!! صحيح البخاري: ٧ / ٢٨، كتاب الطب، كتاب الطب، باب السحر.

وروى أيضاً عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت:

«كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)سُحر حتّى كان يرى أنّه يأتي النساء ولا يأتيهنّ...»!! صحيح البخاري: ٧ / ٢٩، باب السحر.

وفي مسند أحمد بن حنبل بإسناده عن عائشة أيضاً، قالت:

«لبث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ستة أشهر يرى أنّه يأتي النساء ولا يأتي...»!! مسند أحمد: ٦ / ٦٣.

قال عبدالكريم الخطيب المصري: والّذي ينظر في هذه الأحاديث وتلك الأخبار، يتردّد كثيراً في قبولها، أو الوقوف عندها، إذ كانت تضع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في الموضع الّذي يجور على كماله، وينتقص من عصمته.

وقد كان ذلك مثار بحث وخلاف بين العلماء، فردّ كثير منهم هذه الأحاديث وأبى أن يقبلها، جاعلاً عصمة النبيّ فوق كلّ اعتبار، رافعاً مقام النبوة فوق كلّ مقام.. على حين نجد كثيراً من العلماء قد انبرى للدفاع عن كتب السنّة الصحاح، وما ورد فيها من أحاديث، محاولاً سدّ باب الطعن فيها، بتخريج مثل هذه الأحاديث على وجه يمكن قبولها عليه، ولو ركب في هذا مركب التعسّف في التأويل والتخريج.

وممّن ردّ حديث السِّحر والأخبار المتّصلة به من المفسّرين ـ والكلام لا يزال للخطيب: ـ الإمام الطبرسي، فنراه يقول تعقيباً على هذا

الحديث المرويّ عن السيدة عائشة:

«وهذا لا يجوز، لأنّ من وُصف بأنّه مسحور، فكأنّه قد خُبل عقلُه، وقد أبى الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله تعالى: (إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) الإسراء: ٤٧ ـ ٤٨ ..

ثم قال الخطيب:

ويقول الإمام محمد عبده، تعقيباً على حديث السحر:

«وقد قال كثير من المقلّدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة، ولا ما يجب لها: (إنّ الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة ـ يقصدون نفس النبيّ ـ قد صحّ، فيلزم الاعتقاد به... وعدم التصديق من بِدَع المبتدعين، لأنّه ضرب من ضروب السحر، وقد جاء القرآن بصحّة السحر)!.

ويعلّق الإمام محمد عبده على هذه المقولة بقوله:

«فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح في نظر المقلّد، بدعة؟ نعوذ بالله... يُحتجّ بالقرآن على ثبوت السحر، ويُعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعدّه من افتراء المشركين عليه، ويؤوّل القرآن في هذا، ولا يؤوّل في تلك، مع أنّ الّذي قصده المشركون ظاهر، لأنّهم كانوا يقولون: إنّ الشيطان يلابسه (عليه السلام)، وملابسة الشيطان تُعرف بالسحر، وضرب من ضروبه،وهو بعينه أثر السحر الّذي نُسب إلى لبيد بن الأعصم.. فإنّه ـ أي السحر الّذي سحره ابن الأعصم ـ قد خالط عقله (أي عقل النبيّ) وإدراكه في زعمهم».

ثم نقل الخطيب أقوال المدافعين عن رواية السحر، مثل القاضي عياض، وابن حزم، وابن قيم الجوزية، وردَّ تلك الأقوال، وقال بأنّها متهافتة، ثم ذكر أُموراً توجب ترك الرواية وعدم الأخذ بها. التفسير القرآني للقرآن: ١٦ / ١٧٢٧ ـ ١٧٤٥ .

أقول: وممّن أنكر رواية السحر: الشيخ أبو جعفر الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٤٣٤ .وسيد قطب، الّذي قال: إنّها تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأنّ كلّ فعل من أفعاله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكلّ قول من أقواله سنّة وشريعة، كما أنّها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدّعونه من هذا الإفك...

ثم ذكر أنّ نزول هذه السورة في مكّة هو الراجح، الأمر الّذي يوهن أساس رواية السحر. في ظلال القرآن: ٣٠ / ٢٩٤.

٥. (وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ):

قد عرفت معنى الحسد وما هي أُمنيّة الحاسد، وربما يغلب الحسد على صاحبه فيحمله على إيصال الأذى للمحسود.

و إنّما قيّد التعوّذ من الحاسد بما (إِذَا حَسَدَ)، من أجل أن يُستعاذ من الحسد المؤثر.. الحسد الّذي يجيش في نفس الحاسد، ويؤثر بمن يحسده، فإنّ ثمة كثيرين تطرأ عليهم انفعالات الحسد الذميمة، ولكنّها سَرعان ما تختفي بوازع من الإيمان، أو الشعور بالرضا والقناعة، أو علوّ الهمّة.

ومن عجيب القول ما روي عن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن، وكان لا يقرأ بهما، وأظن أن هذه النسبة مختلقة إذ لم يوافقه أحد من الصحابة، وهما موجودتان في المصحف المتواتر.

تمّ تفسير سورة الفلق

١١٤-سورة الناس

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ).

خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى السورة في أكثر المصاحف والتفاسير بسورة «الناس»، وتقدّم أنّ هذه السورة مع ما تقدّمها تُسمّيان بالمعوذتين.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

آياتها ستّ، وأمّا محلّ نزولها فهي كسابقتها وقع الاختلاف فيه، فمنهم من قال بأنّها مدنيّة، ومنهم من قال بأنّها مكّية.

أغراض السورة

تعليم النبي(صلى الله عليه وآله) وبالتالي عامّة المسلمين، أن يتعوذوا بالله من شرّ الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبيّ(صلى الله عليه وآله) والمسلمين، ويلقي الشكّ في نفوس الناس ليبعدهم عن جادة الحق، وعلى هذا فمحتوى هذه السورة يُشبه محتوى سورة الفلق، فكلاهما يدوران في فلك واحد وهو الاستعاذة بالله من الزور، ويركّز في هذه السورة على الاستعاذة من شرّ الوسواس الخناس.

المفردات

الوسواس: مصدر عُني به في المقام معنى الفاعل أي المُوسوس، وأمّا حقيقة الوسوسة فقد فسّرها الراغب المفردات للراغب: ٥٢٢، مادة «وسوس».بقوله: هو صوت الحلي، أي اصطكاك حلية بحلية.

هذا هو المعنى اللغوي ويطلق مجازاً ـ أو حقيقة ـ على الخواطر الواردة على النفس بحيث يتوهم الإنسان أنّ هنا متكلّماً يتكلّم معه .

الخنّاس: صيغة مبالغة من الخُنوس، وهو الاختفاء بعد الظهور، وكأنّ الموسوس يتردّد إلى النفس فيعود إليها ثم يختفي ثم يبدو ثم يختفي، وهذا واضح إذا كان الموسوس هو الشيطان وأعوانه.

التفسير

تقدّم أنّ مضمون السورتين يدور في فلك واحد وهو التعوّذ من مصادر الشرور، إلاّ أنّ مصدرها في سورة الفلق هو المخلوقات الجلية الّتي يراها الإنسان عن كثب وهي: الغاسق، والنفّاثات، والحاسد، بخلاف هذه السورة فقد جاء فيها التعوّذ من شرور مخلوقات خفيّة وجليّة.

١ ـ ٣. (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ) :

فقد وصف المستعاذ به بصفات ثلاث :

١. رب الناس. ٢. ملك الناس. ٣. إله الناس.

وما هذا إلاّ ليقف العائذ على أنّ المستعاذ به قادر على حمايته وإبطال شرور الموسوسين إلاّ أنّه تدرّج في ذكر الوصف من عال إلى أعلى فبدأ بكونه رب الناس، أي أنّه صاحبهم ومدبّر أُمور حياتهم، ثم انتقل إلى كونه ملك الناس أي سيدهم والمسيطر عليهم، ولذلك نرى أنّه سبحانه يبدأ في سورة الفاتحة بالقول: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ثم يقول (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) بناءً على وحدة (مالك) و (ملك) في المعنى ..

ثم ينتقل إلى قوله: (إِلَهِ النَّاسِ) أي خالقهم وموجدهم من العدم، وقد قلنا: إن معنى الإله ليس هو المعبود، بل المفهوم منه هو نفس المفهوم من لفظ الجلالة غير أنّ الثاني عَلَم، والأوّل مفهوم كلّي له مصاديق عند المشركين، وإن كان المصداق الحقيقي عند الموحّدين، واحد.

فالتدرّج في السورة جاء من العالي إلى الأعلى .

٤. (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) :

قلنا: إنّ الوسواس وإن كان مصدراً ولكنّه بمعنى الفاعل أي الموسوس الذي يظهر ثم يختفي، وما هذا إلاّ لغاية التمكّن من تكريس ما يلقيه في النفوس.

والوسوسة بهذا المعنى من الشيطان وجنوده، وأمّا إطلاقه على وسوسة الناس فهو بمعنى تسويل الإنسان لغيره عمل السوء، وبذلك تكون وسوسة الجنّ والإنس سبباً لوقوع الناس في مكائدهم وحيلهم. غير أنّ الأوّل يختفي بصورته وإنّما يركّز على تردّد الفكرة في ذهن الإنسان، وأمّا الثاني فيواجه الإنسان بشخصه ولكن لكلامه حلاوة تغري الإنسان للوقوع فيما يريد .

٥. (الذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ):

ذكر مصدر الوسوسة، والمراد من الصدور أنفسهم وأرواحهم بدليل قوله سبحانه: (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) غافر: ٥٦ . .

٦. (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ):

الجِنّة: اسم جمع «جنيّ» منسوب إلى نوع الجنّ، كما يطلق على الواحد من الإنس إنسيّ يطلق على الواحد من الجنّ، جنيّ. والآية بصدد بيان الصنفين اللّذين يوسوسان في صدور الناس، وقدّم لفظ الجِنّة على الناس لأنّهم أكثر ممارسة لهذا العمل وفي الوقت نفسه أخرّه في آية أُخرى، وقال: (وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَ الْجِنِّ)(الأنعام: ١١٢ .)؛ لأنّ الناس أكثر ممارسة لإيذاء الأنبياء وعدائهم.

ثم إنّه سبحانه كرّر لفظ الناس ـ في هذه السورة ـ خمس مرات، مع أنّ التكرار يضر بالفصاحة، ولكنّه لم يضر بها هنا.

فأمّا الثلاثة الأُولى ـ أعني قوله: (رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ) ـ فهي لأجل التأكيد على سيطرته وقدرته على الناس حتّى يطمئن العائذ بأنّ المستعاذ به هو الموجود القاهر الّذي ليس فوقه شيء.

وأمّا الرابعة ـ أعني قوله: (فِي صُدُورِ النَّاسِ) ـ فلأجل التعريف بمركز الوسوسة، ولم يقل في صدورهم لبُعد المرجع .

وأمّا الخامسة ـ أعني قوله: (مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ) ـ فهو إنّما لبيان الصنفين من الموسوسين.

وروح السورة عبارة عن تنبيه الإنسان بضرورة الاستعاذة بالله سبحانه عمّا يُحاك في النفس من الأفكار السوداء الّتي تصد الإنسان عن الحق وأنّه سبحانه وإن كان لا يؤاخذ بوسوسة النفس إلاّ أنّها ربما تجرّه إلى الأعمال المحرّمة، فالإنسان الضعيف الّذي أحاط به الأعداء من الجنة والأنس يجب أن يستعيذ بالله سبحانه في كافة أحواله وأوضاعه، في قيامه وقعوده، في ليله ونهاره.

اللّهم إنّا نعوذ بك من وسوسة الشيطان وجنوده ووسوسة الناس الّتي تحاول تصوير الباطل حقّاً، وصدّ الناس عن السبيل القويم والصراط المستقيم .

***

تمّ تفسير سورة الناس وبه تمّ تفسير الجزء الثلاثين

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

تمّ بيد مؤلفه الحقير:

جعفر السبحاني

في اليوم الثامن عشر من شهر رمضان المبارك،

من شهور عام ١٤٣٣ هـعلى هاجرها آلاف التحية والسلام

الفهرس